خماسيات مختارة

في تهذيب النفس الأمارة

الأستاذ الدكتور
فضل حسن عباس



دار النفائس
للنشر والتوزيع

خماسيات مختارة

في تهذيب النفس الأمارة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٩/٦/٢٥٨١

٢١١
عباس، فضل
خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة/ فضل حسن عباس.- عمان- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
( ) ص.
ر. إ.: ٢٠٠٩/٦/٢٥٨١
الواصفات: /الثقافة الإسلامية// الاسلام//الوعظ والإرشاد/

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً تامين دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وصل اللهم على ورثته وأتباعه، واجعلنا اللهم ممن أكرمتهم بصلاتك، وشملتهم بعنايتك وعطاياك وهباتك وصلاتك. . . أما بعد.

فإنَّ خير ما تُقْضى به أنفس الأوقات طاعة الله سبحانه، ومن أعظم الطاعات العلم والعمل به، ويسرنا أن نقدم هذا الكتاب سائلين الله ربنا تبارك وتعالى أن ينفع به، وأنْ يأجرنا عليه، إن ربي سميع الدعاء.

وهذا هو الكتاب الأول في سلسلة «روضة التائبين»، وهو «خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة»، فيه آيات كريمة وأحاديث شريفة، وأقوال لأئمة الصحابة وغيرهم من العلماء، وسيجد القارىء الكريم فيه آداباً وأحكاماً وأمثالاً وحِكَماً ومواعظ، وسيجد فيه كذلك ما فيه صلاح دنياه وزاد آخرته، وتهذيب نفسه، وتصحيح فكره، وطمأنينة قلبه، . . . سيجد فيه ما يقوّم الفرد، وينمّي روح الجماعة، . . . سيجد فيه تشخيص الداء وبيان الدواء. . . إنها خماسيات أودعتها عُصارات القلب من رجاء وأمل.

وأرجو أن يجد فيه الإخوة والأخوات على اختلاف مستوياتهم وثقافاتهم وتخصصاتهم، ما فيه نفعهم وخيرهم في كل مجال من مجالات الحياة.

لماذا الخماسيات؟

وقد يسأل بعض الناس لماذا الخماسيات؟، وأقول:

فكـرة هذا الكتـاب كانت أمنيـة قبل سنـين، ففي آخر السبعينـات كنت منتدباً للعمل في أبو ظبي، وشاء الله أن نسعد بمعرفة فئـة من الإخوة الطيبين كان منهم الأخ الوفي الشيخ محمد التندي، وقدمنّ الله عليه بالجلد في عبادته ـ ولا نزكيه على الله ـ وكان يصلي في كل عـام صلاة الـتراويح في جامع درويش بن كرم ـ رحمه الله ـ وكان الشيخ يسافر للشارقة فيطلب مني أن أؤم النـاس، وكنا نصـلي عشرين ركعة، وألهمني الله أن أختـار كل ليلة خماسية: آيـة أو حديثـاً أو قولاً مـأثوراً عن أحـد الأئمة، وبعـد كل أربـع ركعـات أتحـدث عن صفـة من هـذه الخـماسيـة، وبـالإنتهـاء من صـلاة التراويح، نكـون قد انتهينـا من الحديث عن الخـماسية كلهـا، وكان ذلـك يشد الناس.

وذهبت الأيـام والسنون، وكـانت النية منعقـدة على أن أكتب كتـاباً بعنوان «مجالس التراويح»، لأنني كتبت تحت هذا العنوان مقـالات في شهر رمضان لجريدة الإتحاد الصـادرة في أبو ظبي. . . ولكن مـا شاء الله كـان، فلقد شاء الله أن أبدأ بهذه الخماسيات وأن يكون هٰذا الكتـاب هو الكتـاب الأول في سلسلة «روضة التائبين»، على أن يكون مجالس التراويح إن شـاء الله هو الكتاب التالي في هذه السلسلة.

ونسأل الله أن يعيننا على الخير، وأن يجعله خالصاً لـوجهه الكـريم، والله يعلم أنه لا هدف إلا رضاه، وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله عـلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخميس الخامس من رجب الفرد عام ألف وأربعمائة وسبعة للهجرة النبوية الشريفة

الموافق الخامس من آذار سنة ألف وتسعمائة وسبع وثمانين.

د. فضل بن حسن بن أحمد آل عباس
غفر الله له ولوالديه وأكرمه بصلاح زوجه
وذريته وإخوانه.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تمهيد

كثيراً ما تتردد على ألسنة الناس، هـذه الكلمة، كلمـة الرجـوع إلى الله، كنا نسمعها منذ نعومة أظفارنا، ونحن نسمعها اليـوم، والرجـوع إلى الله، تبـارك وتعـالى يتصـوره النـاس صـوراً مختلفـة، حسب ثقـافـاتهم ومستوياتهم وأمزجتهم، فربمـا تصور بعضهم أن الـرجوع إلى الله أن يقبـع المسلم في زاوية من زوايا المسجد فيكون صوّاماً قوّاماً، وقد يتصور بعضهم أن الـرجوع إلى الله أن تنقـطع عن علائق الحيـاة الدنيـا، فـلا يعنيـك من أمرها شيء، وربما يتصور بعضهم أن الـرجوع إلى الله يتحقق بـأداء بعض الشعائر، دون أن يكون لذلك صلة في الحياة والأحياء.

وإذا أردنا أن نتصور الرجوع إلى الله تبـارك وتعالى تصـوراً صحيحاً فالقرآن الكريم يحدثنا عن الأنبياء عليهم السـلام، وعن أسس دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، وإذا نحن أنعمنا النظر في هذه الآيات الكريمة وتدبرناها تـدبراً واعيـاً، أدركنا أن الـرجوع إلى الله تبـارك وتعالى، وأن الـدعـوة إلى الله التي كـان يدعـوها الأنبيـاء عليهم السـلام، لم تكن دعـوة تقتصر عـلى إقامة الشعائر، ولم تكن دعوة بعيدة عن دنيا الناس كذٰلك، بل كانت عـلى العكس من ذٰلك تستوعب قضايا الحياة الظاهرة، وتخترق أسوار النفوس في القضايا الباطنة كذلك.

هذه هي الدعوة إلى الله التي بينها القرآن الكريم. وهٰذا هو الرجوع

إلى الله إذا أردنا أن نتصوره تصوراً صادقاً صحيحاً، فالأنبياء عليهم السلام مع إجماعهم على الدعوة لتوحيد الله وعبادته، ولكن كل واحد كان يركز على جانب من جوانب المجتمع وناحية من نواحي الحياة؛ فنوح عليه السلام أرشد قومه ليتركوا النظرة الطبقية والتفاوت الاجتماعي الذي كانوا يؤمنون به، وأرشدهم كذلك إلى إقامة صرح الحق في نفوسهم، وتقديمه على غيره من روابط الدم.

وهود عليه السلام أرشد قومه إلى عدم الاغترار بالقوة الماديّة والتمسك بأسبابها وترك البطش والتجبر. وأما صالح عليه السلام فقد رأى قومه تشغلهم متع الحياة وتصدهم لذائذها عن الحق. أما إبراهيم أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء عليه الصلاة والسلام، فلقد أراد لقومه أن يبنوا علاقاتهم على أصول ثابتة من الحق، وقواعد صحيحة من الخير. . . ولوط عليه السلام نهى قومه عن فواحش سيئة وأعمال ذميمة، نهاهم عن اللواط، وقطع الطرق، وإتيان المنكر في مجتمعاتهم ونواديهم، وشعيب عليه الصلاة والسلام نهى قومه عن تطفيف الكيل والميزان.

هكذا كان رسل الله عليهم الصلاة والسلام جميعاً في دعوتهم إلى الله يعملون على إصلاح ما أفسد الناس في هذه الدنيا، فالرجوع إلى الله إذن لا يمكن أن يكون عزلة عن الحياة والأحياء، ولا يجوز أنْ نفهمه على أنَّه ابتعاد عن ميادين العمل، وهرب، وتنصل من تحمل المسؤوليات.

وإذا كان هذا شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد بعثوا إلى أقوامهم خاصة، إذا كان هذا شأنهم، فمما لا ريب فيه أنّ دعوة سيدنا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى النَّاس عامة وهو خاتم النبيين لا تترك شأناً من شؤون الحياة إلا وتأمر المسلم أن يندفع ليميز بين خيره وشره، لذا نجد أن مفهوم الدين عند المسلم يشمل الدنيا والآخرة معاً، وليس كما يظن

كثير من الناس بأن هناك مفهومين إثنين: الدين والدنيا، فالدنيا ليست مقابلة للدين، ليست هناك دائرتان، إحداهما تسمى الدين، والثانية تسمى الدنيا، وكل منهما لها شعابها وقضاياها الخاصة، بل هناك شيء واحد ومفهوم واحد هو الدين، وهذا الدين ينظم شؤون الدنيا ويدعو للآخرة كذلك.

تصرفات المسلم كلها ـ إذن ـ سواء كانت أعمالاً لما قبل الموت، أم أعمالاً لما بعده، وسواء كانت للدنيا أم للآخرة، أعمال المسلم كلها ينبغي أن تنبثق عن هذا الدين فما أقره الدين فهو حلال، وما لم يقره فهو حرام ينبغي أن يتجنب.

وهناك قضية تتفرع عن هذه القضية، فإذا كان الدين في الإسلام يشمل شؤون الدنيا والآخرة،فليس هناك رجال دين في الإسلام؛ ذلك لأن الدين يشمل دائرتي الدنيا والآخرة، وعلى هذا فإنَّ أي حرفة أو علم أو عمل، أياً كان ميدانه لا بد أن يكون الدين أساسه، ورجال الدين في عرف الناس هم الذين تخصصوا في دراسة القضايا الشرعية، وهذه القضايا الشرعية إذا نظرنا فيها نظرة فاحصة،وجدناها قضايا فقهية عامة تصلح شؤون المال والسياسة والأسرة والمجتمع والدولة، هذه هي تشريعات الإسلام.

وإذا أردنا أن نسمي الأشياء بأسمائها المعروفة في عصرنا، فإن التشريعات الإسلامية تشمل القوانين على تعددها المدني والجنائي والأحوال الشخصية، وتشمل علوم السياسة والاجتماع والأخلاق، فهذه كلها جزء من التشريعات الإسلامية والفقه الإسلامي.

ليس في الإسلام ـ إذن ـ رجال دين، في الإسلام علماء متخصصون... وعلى هذا فهؤلاء على اختلاف تخصصاتهم هم مسؤولون

عن الـدعـوة إلى الله تبـارك وتعـالى، هـذا في المجـالات الـعلميـة التخصصية... أما مجرد الدعوة إلى الخير، فهٰذا واجب كل مسلم يقـدر عليه.

الـدعـوة إلى الله ـ إذن ـ ينبغي أن تكـون ميـدان كـل مسلم يبتغي الفوز والفلاح، والأجر والثواب، ونسيان هذه الحقيقة كانت لـه آثار سيئة سلبية على كثير من المجتمعات الإسلامية، حيث ظن بعض الناس في هذه المجتمعـات، أن الدعـوة إلى الله وظيفة رسميـة لا يجوز أن يقـوم بهـا غـير أصحابها، أو أنها حرفة خاصّة لا تزاولها إلا فئة معينة، وكـان من الطبعـي أن يؤدي هـذا القصور الخـاطىء إلى هوّة سحيقـة، وفجـوة عـريضـة بـين المدعوِّين والداعين.

وقـد زاد في تعميق هذه الهـوة واتساع ذلـك الخرق، أن هـذه الفئـة نتيجة لعملها الرسمي ابتعدت في دعوتها عن واقع الناس، وواقـع الحياة، فلم يجد الناس في أقوالهم ما يشفي غلةً أو يبرىء علة، أو يُذهب ظمأً، أو ما يعينهم على حـل الألغاز المعقـدة من حولهم... ونتيجـة لهٰذا الشعـور، أصبحت هناك حواجز نفسية وأسوار مرتفعة بين المدعوين والداعين...

وممـا زاد الطين بلة أن هـذه الفئة الـداعية لم تعـدّ إعـداداً صحيحـاً وافياً، يمكنها من أن تخوض غمار الحيـاة، وأن تتوجـه إلى مشكلات النـاس وهمومهم واهتمامـاتهم؛ لذلـك فأنت تسمـع دائماً أن النـاس حينما يصفـون كلام هٰؤلاء لا يزيدون على قولهم بأنه كلام مشايخ، أو كـلام وعظي، بـل نرى بعض الناس يصف كل كلام لا يرضيه ولا يعجبه بأنه كلام وعـظي، وهكذا أصبح الكلام الوعـظي يقال عـلى كل كـلام لا يجد النـاس فيه مـا يجذبهم أو يعجبهم.

وهٰذا لعمر الحق تنكـر وابتعاد عن الحق، كيف، كيف يكـون ذلك

والوعظ الذي هزئ به الناس اليوم هو وظيفة الأنبياء عليهم السلام، بل أسنده الله إلى نفسه تبارك وتعالى في أكثر من آية من كتابه الكريم، فقال سبحانه «يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين» [النور - ١٧] وقال سبحانه «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» [النحل: ٩٠] ويقول لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام: «وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» [النساء: ٦٣] وتقول عاد لنبيها عليه السلام «قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين». [الشعراء: ١٣٦]

والوعظ - كما يقول الخليل - التذكير بالخير فيما يرق له القلب، وهو زجر مع تخويف كذلك(١). الوعظ - إذن - هو دعوة تؤثر في النفوس وتصلحها، وترقق القلوب وتطمئنها، هذا هو الوعظ الذي اشتهر به كثير من أئمتنا من أمثال الحسن البصري - رحمه الله تعالى.

بقيت قضية لا بد من الإشارة إليها: يرى بعض علماء الاجتماع في الغرب، أن وظيفة الواعظ وعمله مما لا جدوى فيه لمجتمع،ويوازن بين الواعظ والممثل، فالممثل ينقل الناس من الخيال إلى الحقيقة، والواعظ ينقل الناس من الحقيقة إلى الخيال.

وهذا يمكن أن يصدق في المجتمعات التي لا صلة فيها بين الدين والحياة، لكننا قد عرفنا من قبل أن الدين كما أنزله الله تبارك وتعالى، وكما يفهمه المسلم الصادق يشمل دائرة الدنيا ودائرة الآخرة معاً، فالواعظ المسلم لا ينقل الناس من الحقيقة إلى الخيال، وإنما يبصرهم بكثير من الحقائق التي لا غناء لهم عنها ولا بد لهم منها، ولكن ما هي صفات الواعظ لكي يكون كلامه مؤثراً في النفوس؟، وبعبارة أخرى ما هي صفات الداعية إلى الله تعالى؟ وما هي الوسائل التي ينبغي أن يتبعها الداعية في تبليغ دعوته؟ ذلك ما سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى.

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٥٢٧.

صفات الداعية:

قال تعالى **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم، وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم وإمّا يَنْزَغَنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾** [فصلت: ٣٣ - ٣٦]

هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تبارك وتعالى تبين لنا بياناً جلياً القيمة العليا للدعوة إلى الله تبارك وتعالى،ومنزلة الدّاعين ومكانتهم، وإذا كانت الدعوة إلى الله وظيفة الأنبياء عليهم السلام، ورسالة ورثتهم من بعدهم، فإنَّ ذٰلك ينبغي أن يكون حافزاً لكل فردٍ كي يعطيها نفائس وقته، وعُصارة قلبه، وثمرة فؤاده، . . .

ولكن هذه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى مسؤولية جسيمة ضخمه، ولا أدل على ذٰلك من أن هذه الآيات الكريمة التي ذكرت عقب آية الدعوة إلى الله، والآيات التي ذكرت قبلها كذٰلك، والآية الكريمة هي قوله سبحانه: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾** وقد عرفتم الآيات الثلاث التي ذكرت بعد هذه الآية، أما الآيات التي ذكرت قبلها فهي قوله سبحانه **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها**

ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون، نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت ٣٠ ـ ٣٢].

من هذه الآيات الكريمة جميعها ندرك أن من استحق أن يشرف بوسام الدعوة إلى الله فلا بد أن تتهيأ له صفات، وتجتمع له خصال لا يمكن التسامح فيها، ولا يجوز التساهل ولا ينبغي التهاون فيها، ويمكننا أن نوجز هذه الصفات مما ترشد إليه الآيات الكريمة بما يلي:

١ ـ إن الداعية إلى الله تبارك وتعالى يجب أن يكون مستقيماً، وهذه الإستقامة تنتظم مسلك الداعية وفكره على السواء، وسنفصل القول عنها في خماسية فيما بعد إن شاء الله.

٢ ـ ومن الصفات التي ينبغي أن يحرص عليها الداعية إلى الله أن تكون الدعوة شغله الشاغل فلا يخاف ولا يحزن، والخوف قلق يعتري الإنسان من أجل حاضره، والحزن قلق يعتريه من أجل ماضيه، والدعوة إلى الله حري أن تنتزع هٰذين المرضين والعرضين الخطيرين، وأن تستلهما من نفس الداعية وقلبه.

٣ ـ ومن الصفات التي ترشد إليها الآيات الكريمة ما يجب أن يتحلى به الداعية من العمل الصالح، حيث يصبح ديدناً له وطبيعة فيه.

٤ ـ ومن تلك الصفات اعتزازه بالتحدث عن عقيدته ودعوته، وهذا القول يختلف عن أولئك الذين يتبجحون ويدّعون، ولذلك ذكره الله تبارك وتعالى بعد العمل الصالح «وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين».

٥ ـ من الصفات الواجب توافرها للداعية أن ينسى حظ نفسه في دعوته، لأنه ينتظر ما عند الله سبحانه، فحظه عند ربه ينسيه حظ نفسه، وهذه الصفة من شأنها أن تعبد له الطريق في دعوته إلى الله، وأن تيسر له السبل «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم»

٦ ـ بقيت صفتان شاء الله واقتضت حكمته أن يكون ذكرهما بعد ما تقدم من صفات: إحداهما الصبر فلربما تكون العقبات كثيرة في طريق الداعية إلى الله، والنفوس ليست سواء في تقبلها للحق وتلقيها لأنوار التنزيل، وقد يحتاج الداعية إلى مصابرة ومثابرة، وجلد وجهد، بل قد يتحمَّل إيذاءً ومشقة، فلا بد أن يتغلب على ذلك كله بهذه الصفة صفة الصبر «وما يلقاها إلا الذين صبروا».

٧ ـ أما الصفة الأخيرة ـ وقد تكون من أشد هذه الصفات ـ فهي ما ينبغي أن يقاومه الداعية مقاومة داخلية ناتجة من وسوسة الشيطان ونزغه ونفثه، ذلك أنّ الداعية إلى الله سبحانه قد تتهيأ له الصفات السابقة جميعها، فيوسوس له الشيطان أنه داعية ناجح، وأنه استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه بلباقته وحنكته، فيبعث ذلك في نفسه الغرور، والغرور طريق إلى الكبر، والكبر والغرور يمحوان الإخلاص، لذلك قلت إن هذه الصفة هي من أصعب هذه الصفات وأشقها، ولهذه الحكمة جعلها الله تبارك وتعالى الصفة الأخيرة التي على الداعية أن يتنبه لها، **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فآستعذ بالله﴾**... إذ قد يصل الداعية إلى قمة الخير، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم نزغ الشيطان فينزل إلى الحضيض،

هذه صفات خُلُقية أرشدت إليها الآيات الكريمة، فإذا استطاع الداعية أن يحمل نفسه عليها، فإنّه يتخطى بذلك أكبر عقبة، ويسير شوطاً كبيراً في بلوغ هدفه الذي يريد.. وإنّما أقول يتخطى أكبر عقبة، ويقطع أكبر شوط، لأن هناك أموراً لا بد أن تتحقق للداعية، وهذه هي التي يمكن أن نسميها وسائل، ومن هذه الوسائل:

وسائل الدعوة إلى الله:

أولاً: أن يعد الداعية نفسه إعداداً تاماً حتى يكون على بصيرة فيما

يقول، ولمن يقول، فهٰذان طرفان لوسيلة واحـدة.

أما الطرف الأول فهو الإعداد العلمي والتربوي، فالداعية لا بُدّ لـه من أسلوب جذّاب لكي يؤثر في نفوس المدعوّين، وهو ما عبّر عنه القرآن الكـريم بالقـول البليغ. قـال سبحانـه ﴿أولئـك الـذين يعلم الله مـا في قلوبهـم فأعرض عنهم وعظهم، وقل لهم في أنفسهـم قولاً بليغاً﴾ [النساء: ٦٣] والقول البليغ هو الذي يصل به الداعي إلى قلوب الناس. قال الراغب: القول البليغ والبـلاغة تقـال على وجهـين أحدهمـا أن يكون بذاته بليغاً وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى المقصـود به، وصـدقاً في نفسـه ومتى اخترم وصف من ذلـك كـان ناقصاً في البلاغة، والثاني أن يكون بليغاً باعتبـار القائـل والمقول لـه، وهو أن يقصد القائل أمراً فيرده على وجه حقيق أن يقبله المقول له»[1]

ومن هنـا نـدرك أن أسلوب الخـطابـة يختلف عن أسلوب الـدرس، وهٰكذا فإنَّ لكل حالةٍ ما ينـاسبها، وقـد يكون القـول البليغ مثـلاً ينتزعـه الداعية من الواقع، ويكثر هذا في سنّة النبي عليه وآلـه الصلاة والسـلام، ومن ذٰلك:

١ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خـطاً مربعـاً وخط خطاً في الوسط خـارجاً منـه، وخط خططاً صغـاراً إلى الذي في الـوسط من جانبـه الذي في الـوسط وقال: هـذا الإنسان وهـذا أجله محيط بـه ـ أو قد أحاط به ـ وهٰـذا الذي هو خارج أمله وهـذه الخطط الصغـار الأعراض فـإن أخطأه هـذا نهشه هـذا وإن أخطأه هـذا نهشه هذا.[2]

---

(١) المفردات ص ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب «في الأمل وطوله» ٦٠٥٤/٤ ج ٥ ص ٢٣٥٩.

٢ ـ عن المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها[1].

٣ ـ عن أبن عمر عن النبي ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي. قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبدالله: فوقع في نفسي أنها النخلة ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال هي النخلة؟[2]

ولقد سار الصحابة والتابعون على هذا المنهج النبوي الرشيد، فهذا الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقد كان يسير مع أحد الناس فمرت بهم جنازة، يسأل صاحبه ترى لو خُيِّر هٰذا أن يرجع إلى الدنيا فيتصدق بربع ماله أو ثلثه أيفعل؟ قال له صاحبه: يا أبا سعيد إنه يتصدق بأكثر من ذلك إذا ضمن الرجوع، قال الحسن رضي الله عنه: ولكن ترى أيرجع؟ قال الرجل: لا، قال الحسن: أستُحمل مثل ما حمل؟ قال نعم فقال الحسن: ما دمت واثقاً من ذلك كله فتصدق اليوم قبل أن تحمل فتتمنى أن ترجع لتصدق بمالك كله.

وهكذا يختار الداعية الطريقة التي يجدها ملائمة لكي يكون قوله بليغاً.

ثانياً: ومن الأساليب التي يسلكها الداعية القدوة الحسنة، فلربما

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل ٢٣٢٢/١٣، ج ٧ ص ٧٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم باب طرح المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم ٦٢/٥ ج ١ ص ٣٤.

كانت القدوة أكثر تأثيراً من القول. والشواهد كثيرة في تاريخ المسلمين على ذلك، فبعد صلح الحديبية قال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك، اخرج فلا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.[1]

وفي سيرة الخلفاء الراشدين كثير من هذه الأمثلة العملية. ومما اشتهر في ذلك أن أحد المملوكين جاء يوماً لأحد العلماء، وشكا له ما يلاقيه من ظلم سيّده، وطلب منه أن يتحدث عن فضل العتق لعل سيده أن يعتقه، ووعده هذا العالم خيراً، ومضت الأيام دون أن يتكلم الشيخ عن فضل العتق، والعبد ينتظر بفارغ الصبر، وفي ذات يوم تكلم الشيخ عن فضل العتق ولما انتهى من كلمته قال «وها أنا أبدأ بعتق عبدي فلان» وبدأ الناس يعتقون مماليكهم، وكان من جملة أولئك الذين عتقوا ذلك المملوك، وسأل الشيخ بعد ذلك: ليتك قلت ذلك مبكراً يا سيدي، فقال الشيخ: أي بني كلمتني ولم أكن أملك ثمن مملوك فانتظرت هذه المدة كلها حتى استطعت أن أشتري مملوكاً، فإني لا أحب أن أطلب من الناس شيئاً إلا حينما أكون قادراً على فعله ليقتدي بي الناس.

فالداعي لا بد أن يكون صورة صادقة عن دعوته.

ثالثاً: أما الطرف الثاني فهو معرفة الداعي بنفسيّات من يدعوهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد ١٥/٢٥٨١.

قال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أنْ يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ [الأنعام: ٥١]... إنَّ كثيراً من النّاس يؤثر فيه الترهيب، ولكن بعضهم يؤثر فيهم الترغيب، بعض الناس تستهويهم القصة، وآخرون تجذبهم القضايا الفكرية، وآخرون يستهويهم الحديث عن القضايا التجريبية وتطبيقاتها العملية، التي تنطق بها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فيجمل بالداعية أن يعرف نفسيات هؤلاء جميعاً، حتى تكون كلماته أشد وقعاً، وأكثر سمعاً، وأعظم تأثيراً.

رابعاً: وأكثر ما تكون الدعوة تأثيراً في النفوس إذا كان الداعية مترفعاً عما في أيدي النّاس، ويقتدي بالأنبياء عليهم السلام، الذين ما كانوا يسألون الناس أجراً ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [الشعراء ١٠٩]... ﴿قل ما سألتكم من أجْرٍ فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾ [سبأ: ٤٧]... فكلما كان الداعية بعيداً عما في أيدي الناس، كُلَّما أحبّه النّاس واجتمعوا حوله، وكانت كلماته تنفذ إلى أفئدتهم، وقد سئل بعض المعاصرين للحسن البصري رحمه الله لماذا كان الناس يقبلون عليه ويثنون عليه ويتأثرون به ومنه، فقال: لقد مكث أعوامه الكثيرة لم يطلب من أحد شيئاً»، ذلك أن الداعية ينتظر مغنماً أعظم أجراً، وثواباً أوفر جزاءً عند ربه تبارك وتعالى.. ويكفي ما جاء في أحاديث النبي عليه وآله الصلاة والسلام (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها وخير لك من حمر النَّعم)[1] وقوله ﷺ: «نضرَّ الله آمرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب فضل من أسلم على يديه رجل باب ١١٤١) حديث ٢٨٤٧ حـ٣ ص ١٠٩٦.

(٢) رواه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٢٦٥٨/٧ وقال حديث حسن.

وكلما كان الداعية أكثر صبراً كان أعظم أجراً، والأجر على قدر المشقة ـ كما يقولون ـ ولا شك أن هناك عقبات كثيرة يواجهها الداعية، وهذه العقبات قد تكون ناشئة عن الترف الماديّ، وقد تكون ناشئة عن الانحراف الفكريّ، وقد تكون ناشئة عن الجمود والتحجر العقلي، ومن أجل ذلك أرشدنا الله تبارك وتعالى إلى الأساليب التي يتبعها الداعية إلى الله سبحانه.

قال تبارك وتعالى: **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** [النحل: ١٢٥]. والحكمة هي وضع الشيء في محله، والإصابة في القول والعمل **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾**. [البقرة: ٢٦٩] وهذه الحكمة يمكن أن تكون أسلوباً لأولئك الذين انحرفت أفكارهم في رحلة الحياة فقد تكون الحكمة لهم سفينة النجاة،

أما الموعظة الحسنة فهي أسلوب لعامّة الناس وجماهيرهم. هذان أسلوبان للدعوة إلى الله.

أما الجدال بالتي هي أحسن فهي طريقة يسلكها الداعية مع أولئك الذين لم تكن صورة الإسلام واضحة في نفوسهم، وهؤلاء من غير المسلمين في الغالب، وأعني بغير المسلمين هنا الذين يرتابون في أي شيء من دين الله، أو ينكرون أي حكم من أحكام التشريع المعلومة بالضرورة، سواء كان أولئك من غير المسلمين فعلاً، أم ممن ينتسبون إلى الإسلام بأسمائهم وهوياتهم، ولكنهم يمارون في أحكام الشريعة، يجحدون الحدود وبعض العبادات، أو ينكرون بعض القضايا العقدية، هؤلاء أمرنا القرآن أن نجادلهم بالتي هي أحسن، فهم وأهل الكتاب سواء، قال تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم. وإلهنا وإلهكم واحد**

ونحن لـه مسلمون﴾ [العنكبـوت: ٤٦]. . .

فـالجدال بـالتي هي أحسن هو أسلوب يختلف عن أسلوب الحكمـة والموعظة الحسنة، وهو وإن كان نوعاً من أنواع الـدعوة إلى سبيـل الله، إلا أن الصورة التي عبر بهـا القرآن عنـه ترشـدنا إلى نـوع من التغايـر؛ فهناك أمران: أمر بالدعـوة وأمر بـالجدال «أدع وجـادل»، وعلى هـذا فيمكننا أن نجعل الجدل أسلوباً ثالثاً، وهذا الجدال ينبغي أن يكون بطريقة بعيدة عن مظاهر الغلظة والقسوة، وتكدير الخواطـر والإساءة إلى المشـاعر، اللهـم إلا إذا كـان أولئك المجـادلون من الـذين تجاوزوا الحـدّ وخرجـوا عن جـانب اللياقة والذوق فمثل أولئك لا بد أن يلاقوا جـزاءهم الرادع، وهـذا معنى قوله سبحانه «إلا الذين ظلموا منهم».

وبالجملة فإن الداعي لا ينبغي أن يستكين مهما كانت المعوقات والعقبات والعراقيل، فالدعوة واجب شرعي أولاً، وأجرها على الله ثانيـاً، وهو أجر عظيم يجازى به صاحبه ثالثاً.

ونـرجو أن يكـون في هذه الخـماسيات الخـير الكثير للمسلمـين عـلى اختلاف فئاتهم، نـرجو الله سبحـانه أن ينتفعـوا بها فيـما يهذب نفـوسهم، ويشـذب عـواطفهم، ويصحـح مسـيرتهم وأفكـارهم، ويصلح شؤونهم وأحوالهم، ويبصرهم ويذكرهم بالـواجبات الكبـيرة الملقاة عـلى عواتقهم، والتي سيسألهم الله تبارك وتعـالى عنها، ويعلم الله أن كـل كلمة منها كانت خالصة لوجه الله تبارك وتعالى وما توفيقي إلا بالله عليه تـوكلت وإليه أنيب ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً يا أرحم الراحمين.

الخماسية الأولى

قال تعالى: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ١ - ٥].

اعلموا - أرشدكم الله - أنه قد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث كثيرة، وهي أطول سور القرآن، وأكثرها أحكاماً، وهي أولى الزهراوين وكبراهما، وقد شاء الله أن يذكر في أولها وآخرها على السواء ما يثلج صدور المؤمنين ويبهج نفوسهم، ففي أولها صفات المتقين، وأما آخرها فهو مما أكرم به سيدنا رسول الله ﷺ ليلة المعراج، حيث أعطي خواتيم سورة البقرة.

التقوى:

والخماسية التي معنا حريّة بالعناية والتقدير والاهتمام، لأن فيها أوصافاً يجب على المسلم أن يتحراها محاولاً أن يتحلى بها، وبخاصة أنها أول آية في كتاب الله، تبيّن أحوال المتقين، فورودها في أول القرآن دليل على أهمية شأنها وعظيم خطرها، ومن أهميتها كذلك أنها وصف لأولئك الذين انتفعوا بالقرآن الكريم واهتدوا به، فتلوه وتدبروه. وقبل أن نتحدث عن هذه الأوصاف الخمسة، يجب أن نقدم لذلك حديثاً عن التقوى، لأن هذه

الأوصاف إنما هي للمتقين، والمتقون هم الـذين أكرمهم الله تبـارك وتعالى بوسام التقوى، والتقوى هي خـير زاد كما جـاء في كتاب الله تبـارك وتعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾. [البقرة ١٩٧].

مراحل التقوى:

والمتدبر لكتاب الله تبارك وتعالى يجد أن التقوى هي من أكثر الأمـور التي وجه القرآن لهـا العنايـة، وحمل النفـوس على الاهتـمام بها بمـا لا مزيد عليـه. وأصل التقـوى من الوقـاية. **وأول مـراحل التقـوى**: الوقـايـة من الشرك، **والمـرحلة الثانيـة**: اجتناب الكبـائر، أمـا **المرحلة الثـالثة**: التي تكمل بها التقـوى فهي الابتعاد عن الصغـائر، ويـدل لذلـك ما روي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين،حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس»[1].

تعريفات التقوى:

وعـلى هذا فـالتقوى هي أرفـع الدرجـات التي يجب عـلى المؤمن أن يـرتفع إليهـا مهما تحمَّـل في سبيل ذلـك من صعاب ومشقـة، ولقد ذكـروا للتقوى تعريفات كثيرة، وتعددت في ذلك كلماتهم وأقوالهم، وسأذكـر لكم بعض التعريفات لكي تكون نبراساً نهتدي بنورها، فلقد قيل: «إن التقوى أن يُـطاع الله فلا يعصى، ويُـذكر فـلا ينسى ويُشكـر فـلا يكفـر» وقيـل: «التقوى: هي ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعـة» فالمتقي هـو الذي لا يصر عـلى معصية وإن كـانت صغيرة، ولا يغـتر بـطاعـة وإن

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب من درجات المتقين ٢٠/٢٤٥٣ وقال حـديث حسن غريب.

كانت عظيمة، وقيل: «إن التقوى أن لا تختار على الله سوى الله، وأن تعلم أن الأمور كلها بيد الله».

ومن تعريفاتهم للتقوى أن لا يجد الناس في لسانك ولا في فعلك عيباً، وأن لا يجد الملائكة في سرك عيباً. وقيل: «إن المتقي من يزين سره للحق كما يزين ظاهره للخلق».

ومن تعريفات التقوى كذلك: «أن لا يراك مولاك حيث نهاك» وقيل إن المتقي: «من سلك سبيل المصطفى - عليه وآله الصلاة والسلام - ونبذ الدنيا وراء القفا، وكلف نفسه الإخلاص والوفا واجتنب الحرام والجفا».

ويجمع هذه التعريفات جميعاً أمور ثلاثة:

أولاً: أن تتجنب الذنوب صغيرها وكبيرها، فإن الإصرار على الصغائر قد يؤدي إلى الكبائر.

ثانياً: أن تحذر من كل ما تقدم عليه من قول وعمل، كالذي يسير في طريق مليء بالشوك يكون حذراً في كل خطوة يخطوها، وهذا ما جعله علامة للتقوى بعض الصحابة رضوان الله عليهم. فقد قيل إن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ فقال بلى؟ قال: فما عملت، قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

ثالثاً: أن لا تحقر شيئاً من صغائر الأمور، فلقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مرّ بتمرة مسقوطة فقال «لولا أن تكون صدقة لأكلتها[1]

ولقد قال بعضهم في هذه الأمور الثلاثة:

---

(١) رواه البخاري في كتاب البيوع باب ما يُتنزه من الشبهات رقم الباب ٤ رقم الحديث ١٩٥٠ ج ٢ ص ٧٢٥.

خــل الــذنــوب صــغـيرهــا
وكـبـيرهــا فـهــو الـتـقـى
وافــعــل كـماش فــوق أر
ض الـشــوك يحـذر مــا يــرى
لا تحـقــرن صــغـيرة
إن الجـبــال مــن الحصى

ولقد روي في الأثر «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده».

الفرق بين العبادة والتقوى:

مما تقدم ندرك خطر التقوى، وعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، وندرك أن التقوى ثمرة يانعة لا بد لتحققها من خمسة أمور هي: الإيمان، والطاعة، وترك المعصية، والتوبة، والإخلاص. فإذا انتفى واحد من هذه الخمسة انتفت التقوى.

ومن هنا نعلم أن التقوى ليست هي العبادة ـ كما يظن كثير من الناس ـ فرب عابد كثرت عبادته، ولكن لا ترفعه عبادته لدرجة التقوى.

وفي الكتاب والسنة أدلة كثيرة، وبراهين ساطعة على ما بينته لك، قال تعالى: **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾** [العنكبوت: ١٦] وقال تعالى: **﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾** [نوح: ١ ـ ٣] وقال سبحانه: **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [البقرة: ٢١]. فانظروا أرشدكم الله كيف ميزت هذه الآيات الكريمة بين العبادة والتقوى، فنوح وإبراهيم عليهما السلام

كل يأمر قومه بالعبادة والتقوى، وفي الآية الثالثة أمر للناس من الله تعالى أن يعبدوا الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، راجين أن ترتفع بهم عبادتهم وأن توصلهم إلى درجة التقوى.

وفي السنة المطهرة يقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ههنا التقوى ههنا التقوى ههنا ويشير ﷺ إلى صدره[1]. ومن هذا الحديث الشريف ندرك أولاً أن التقوى لا بد لها من تجنب هذه الأعمال جميعاً التي ذكرت في الحديث، وندرك ثانياً أن التقوى إنما هي سر بين العبد وبين ربه ولهذا أشار النبي الكريم ﷺ إلى صدره. ويؤيد هذا من كتاب الله تبارك وتعالى ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [النجم ٣٢].

ومن أجمع الآيات التي بينت حقيقة التقوى وبينت أن هذه التقوى لا ينعم المرء بدفئها وظلها ونورها، إلا بعد أن يتصف بأمهات الفضائل، ويوفق لأمهات العبادات وأصولها، أقول من أجمع الآيات هذه الآية الكريمة، ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا،

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله رقم الباب ١٠ رقم الحديث ٢٥٦٤ ج ٤ ص ١٩٨٦.

وأولئك هم المتقـون﴾ [البقرة: ١٧٧]. فانظروا ـ أرشدني الله وإياكم ـ إلى الخصال الكريمة والصفات الحميدة التي تحدثت عنها هٰذه الآية الكريمـة وكيف أنها ذكر فيها أصول الشريعة الثلاثة: العقائد والعبادات والأخلاق، وفصل فيها خمس عشرة خصلة، ولقـد جعلت التقوى ثمرة ذٰلك كله، كـما جـاء في آخـر الآيـة الكـريمـة. **﴿أولئـك الـذين صـدقـوا وأولئـك هم المتقون﴾** [البقرة: ١٧٧].

وبعدما تقـدم ندرك السر، ونـدرك الحكمة التي من أجلهـا ذكر الله التقـوى في أول كتابـه الكريم اللهم آجعلنا من المتقـين، الـذين قلت فيهم **﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيّاً﴾** [مريم: ٦٣]. ولنبدأ الآن بأوصاف هٰؤلاء المتقين التي بينها الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة.

الصفة الأولى (الذين يؤمنون بالغيب):

والغيب هو ما يقابل المحسوس، وليس ما يقابل الـواقع. كـما يقول بعض المـرجفين ممن حـرموا نـور الهدايـة ـ والله تبارك وتعـالى عـالم الغيب والشهادة ـ وإنما ذكرت هذه الصفة في مقدمة صفات المتقين،لأنها تدل عـلى صـدق أصحابها، ذٰلك أن تعلق الإنسـان يكـون بمـا يشـاهـده عن طـريق حواسه،

ولكنّ هؤلاء المتقين كان أول مدح لهم أنهم صدقـوا بما أخـبرهم الله به مما لا تتعلق به الحواس، فكان إيمانهم بما غاب عنهم لا يقـل عن إيمانهم بما تشاهده حواسهم، بـل يتفوق عليـه، وسواء كـان هذا الغيب يمكن أن يقـام عليه دليـل عقلي كـالإيمان بـالله وصفاتـه أم لا دليل عليـه كـالإيمـان بـالقدر، وسـواء كان هـذا الغيب من الأمور التي كـانت مشـاهـدة لبعض الناس كالرسول صلّى الله عليه وآله وسلم الذي شاهده الصحـابة رضـوان

الله عليهم وشرفوا بأنوار مشافهته ورؤيته والقرب منه، ولم يشاهده مَنْ بعدهم هذه المشاهدة الحاضرة، سواء كان هذا أم ذاك فهو غيب يستحق المؤمنون به الثناء.

ومن الإيمان بالغيب، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما جاء في الحديث الصحيح[1]. قال تعالى ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [الملك: ١٢] وفي حديث الملائكة السائحين في الأرض بيان لثناء الله تبارك وتعالى على هؤلاء المؤمنين الذين يسبحون ربهم ويسألونه الجنة ويعوذون به من النار. حيث قال ﷺ «إنَّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم ما يقول عبادي قال: فيقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول: هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال: فيقول فما يسألوني؟؟ قال يسألونك الجنة، قال: فيقول: وهل رأوها؟؟ قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول فكيف لو أنهم رأوها؟؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً، وأشد طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فَمِمَّ يتعوذون؟؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول فكيف لو رأوها، قال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، وقال فيقول: فأشهدكم أني غفرت لهم قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (سورة لقمان) رقم الباب ٨٦٩ رقم الحديث ٤٤٩٩.

يشقى بهم جليسهم.[1]

إن الإيمـان بالغيب بـرهان صـدق على فضـل أولئك الـذين مـلأت أنفسهم الثقة بالله تبارك وتعالى والثقة بنبيه صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلم يـرتابـوا بشيء مما أخـبر الله عنه، ومما بينه رسـول الله عليـه وآلـه الصـلاة والسلام.

وذهب بعض المفسرين إلى تفسير قولـه: «يؤمنون بـالغيب» أي أنهم يؤمنـون بقلوبهم لا بألسنتهم وحـدها كـإيمان المنـافقين ﴿وإذا لقـوا الذين آمنـوا قالـوا آمنا وإذا خلوا إلى شيـاطينهم قالـوا إنا معكم﴾ [البقـرة: ١٤] وهي مثـل قـولـه سبحـانــه ﴿ذلـك ليعلم أني لم أخنــه بـالغيب﴾ [يـوسف: ٥٢] في قصة يـوسف عليه السـلام. أي لم أخنه في حـال غيابي عنه.

وبالجملة فإن الإيمان بالغيب اختبـار وآمتحان لأولئـك المتقين، فـإذا ثبتوا لهٰذا الامتحان وتخطوه كلفوا بما بعده، فهو أصـل تتفرع عليـه الأوامر والنواهي جميعها ولـذلك ذكـر الله تبارك وتعـالى بعد الإيمـان بالغيب بقيـة الصفات، فما داموا قد تخطوا أول صفة وصدقوا فيها كان يسيـراً عليهم أن يتصفوا بما بعدها من صفات.

الصفة الثانية «ويقيمون الصلاة».

وإقـامـة الصـلاة هي أول الأركـان العمليــة التي يُختـبرُ بهــا هؤلاء المتقـون، وإقامـة الصلاة تـأديتها تـامة بـأركانها وآدابهـا والمداومـة عليهـا،

(١) رواه البخاري في كتاب الـدعوات بـاب فضل ذكـر الله عز وجـل رقم الباب ٦٦ رقم الحديث ٦٠٤٤ ج ٥ صفحة ٢٣٥٣.

والمحافظة عليها في مقدماتها ونتائجها، والخشوع فيها، والإقبال عليها بنشاط وجد ورغبة من غير فتور ولا كسل، ومن شأن هذه الصلاة أنها تكسب صاحبها قوة في الحق وثباتاً على الخير وزيادة في اليقين، وتنفي عنه القلق والهلع، والاضطراب والجزع، وتجعله سوي التفكير مرهوب الجانب، مستقيم السير، لا تهزه الحوادث والصعاب، ولا تبطره النعم، ولا تضعفه النقم.

ثم إن من شأن هذه الصلاة كذلك أن تدخله في زمرة المفلحين الفائزين ولو لم يكن من ثمرتها سوى أنها تورثه الفردوس لكان في ذلك خير غنيمة وأعظم فائدة، ودليل ذلك من كتاب ربنا تبارك وتعالى **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعا،وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾** [المعارج: ١٩ - ٢٣] ويقول في آخر هذه الصفات **﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون﴾** [المعارج: ٣٤ - ٣٥].

ويقول سبحانه في سورة أخرى من كتابه الكريم **﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾** [المؤمنون: ١ - ٢]، ويقول في آخر هذه الصفات، **﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾** [آيات: ٩ - ١١] فانظروا - أرشدكم الله - إلى عظم شأن الصلاة في هذين الموضعين من كتاب الله. الموضع الأول في سورة المعارج حيث بيّن الله سبحانه ما يخلص الإنسان من سيّء الصفات، وهي الجزع، والهلع ومنع الخير حيث ذكرت الصلاة مرتين، وفي السورة الثانية سورة المؤمنون حيث بيّن الله الصفات التي يستحق صاحبها الفلاح والفوز، وفي هذه كذلك ذكرت الصلاة مرتين، ففي الموضع الأول قال: قد أفلح

المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» وفي الموضع الثاني قال: «والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون».

وسيأتي للصلاة زيادة تفصيل إن شاء الله تعالى.

الصفة الثالثة: (ومما رزقناهم ينفقون):

طبع الإنسان على الحرص وصدق الله ﴿**وأحضرت الأنفس الشح**﴾ [النساء: ١٢٨] وحب التملك في الإنسان لا ينازع فيه أحد، لذلك نجد القرآن الكريم في آيات مُحكمات كثيرة يثني على المنفقين تارة، ويحث على الإنفاق تارة أخرى.

ولما كانت بعض النفوس أشد حرصاً وأكثر إمساكاً جعل الله تبارك وتعالى بعض هذا الإنفاق واجباً وافترضه على عباده، وهكذا تشمل النفقة، نفقة التطوع كما تشمل فريضة الزكاة.

والله تبارك وتعالى جلت حكمته ـ لم يكلف الناس شططاً ولا رهقاً، ولذا جاء نظم الآية الكريمة ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ فنفقتهم لا تعدو أن تكون شيئاً قليلاً مما أعطاهم الله، حتى الزكاة المفروضة كانت قليلة النسبة فهي تختلف باختلاف المال المزكى فقد تكون واحداً في الأربعين، إذا كانت دراهم أو ذهباً وفضة، وكذلك بعض الأنعام كالغنم، وقد تكون عشراً كالزروع التي تسقى بماء السماء وقد تكون نصف العشر «ومما رزقناهم ينفقون» فلم يسأل الله الناس جميع أموالهم أو أكثرها، ولو سئلوا ذلك لشق عليهم وبخلوا فأخذوا، وهذه الحكمة العظيمة فيما طلب منهم هي في حقيقتها نعمة من الله، ﴿**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٠].

لذلك امتن الله على المسلمين فلم يسألهم أنْ ينفقوا اموالهم جميعها ولم يشق عليهم في السؤال، وتدبر قوله سبحانه ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم، ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ [محمد: ٣٨]. . . أي إن يسألكموها فيجهدكم ويشق عليكم في السؤال، وهذا معنى قوله «يحفكم» والإحفاء: المبالغة، ومنه إحفاء الشارب أي المبالغة في استئصاله. (تبخلوا ويخرج أضغانكم)، أي إذا بالغ في السؤال وأجهدكم فيه وطلب منكم أن تنفقوا أكثر أموالكم، بخلتم وأظهرتم كراهيتكم لهذا الدين، وسيأتي لهذه الصفة مزيد بحث فيها بعد إن شاء الله.

الصفة الرابعة: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)

وهذه الصفة تبين وحدة الدين الذي أرسل الله به أنبياءه عليهم السلام، مهما تباعدت أزمنتهم وأمكنتهم، ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥٢]. فأساس دعوة الأنبياء عليهم السلام توحيد الله تبارك وتعالى ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣]. فالأنبياء إخوة، والمؤمنون كذلك.

وفي هذه الصفة مدح وثناء على من آمن من أهل الكتاب، ولكنه مع ذلك مدح للمسلمين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ولا يفرقون بين أحد من رسله ويقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

إن الإيمان بما أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى غيره من الأنبياء يستلزم الإيمان بالأنبياء أنفسهم. ومن بدهيات عقيدة المسلم

وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام. أما الذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، فيقول القرآن الكريم فيهم ﴿أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً أليماً، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١٥٢].

الصفة الخامسة: (وبالآخرة هم يُوْقنون).

اعلموا - أرشدكم الله - أن اليقين هو إيقان العلم بالشيء بنفي الشك والشبهة عنه، وقد يكون بدهياً، وقد يكون بحاجة إلى نظر واستدلال، فيقينك بالشيء لا يكون تاماً إلا إذا اشترك في إثباته عقلك ووجدانك، بحيث يصير من الأمور التي تملك عليك كل مشاعرك وأفكارك، فلا يتطرق له أدنى ريب.

ولكي تتصوروا اليقين تصوراً صحيحاً، أضرب لكم مثلاً برجلين ذهبا للمحكمة لأداء شهادة، وبينما هما يسيران لقيهما أحد الناس وعرف أنهما ذاهبان للشهادة وأن هذه الشهادة غير صحيحة، فذكرهما الله تبارك وتعالى، وذكرهما الآخرة، أما أحدهما فقال أنا أعرف هذا كله ولو كان زوراً ما سعيت إليه، واستمر في طريقه إلى المحكمة، وأما صاحبه فلقد ذرفت عيناه الدموع، وبلغ منه الندم مبلغه، وقال كيف أدَّعي الإيمان بالله وأنا ذاهب لأشهد شهادة تغضب الله، وأخذ يستغفر ربه ويبكي ذنبه، هذان اثنان ادعيا الإيمان، لكن أحدهما لم يصل إيمانه إلى درجة اليقين فاستمر في سيره إلى المحكمة ليشهد زوراً، ولكن الأخر رده يقينه.

ولأجل هذا ذكرت هذه الصفة بعد قوله سبحانه يؤمنون بالغيب ومع أن الآخرة من الغيب. ولكن خُصت الآخرة باليقين وذلك للعناية بشأنها.

إنَّ الإيقان بشيء ما لا يترك للمرء مجالاً للتقصير أو الغفلة، فنسأل الله أن يرزقنا اليقين فإن من أيقن بالآخرة لا بد أن يعمل لها. وما أحسن ما قيل «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا - يعني النوم واليقظة -، وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أنَّ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة»، فإيّاك أن تدعي اليقين بلسانك وهو أبعد ما يكون عن عقلك ووجدانك، فإنَّ ذلك شأن المغرورين.

وقد قال بعضهم: عشرة من المغرورين: من أيقن أنَّ الله خالقه ولا يعبده، ومن أيقن أن الله رازقه ولا يطمئن به، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن أيقن أن الديان يحاسبه فلا يصحح حجته، ومن أيقن أن الصراط ممره فلا يخفف ثقله، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم ومن أيقن أن الموت آتٍ فلا يستعد له ومن أيقن أن القبر منزله فلا يعمره، ومن أيقن أن النَّار دار الفجار فلا يهرب منها، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار فلا يعمل لها.

وبعد هذه الصفات يذكر الله تبارك وتعالى جزاء أولئك المتقين **﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** فهم أولاً المتمكنون من الهدى الثابتون عليه، والهداية نعمة من نعم الله عظيمة، «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» (محمد - ١٧)، وهذا القسم الأول من الجزاء العظيم، أما القسم الثاني فهو الفلاح، فهؤلاء المتقون كملت لهم السعادة وسيلة وغاية، ومبدأ ونهاية. وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخماسية الثانية

قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

اعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن مما يدل على شأن التقوى أن الله تبارك وتعالى ذكر صفات المتقين في الزهراوين سورة البقرة وآل عمران، والرسول ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شافعاً ومشفعاً، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة وكأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقتان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركه وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة[1].

وقد عرفتم صفات المتقين في سورة البقرة، بل في أولها، وتلك عناية

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة باب ٤٢، حديث ٨٠٤، ج ١ ص ٥٥٣.

ما بعدها عناية، أما صفات المتقين في سورة آل عمران فيشاء الله أن تكون صفات خمساً كذلك وهي:

١ ـ الإنفاق في السراء والضراء.

٢ ـ كظم الغيظ.

٣ ـ العفو عن الناس.

٤ ـ الاستغفار للذنوب.

٥ ـ عدم الإصرار على الفاحشة.

وقد جعل الله الجنة التي عرضها السماوات والأرض، ومن قبلها المغفرة من ربهم جزاء أولئك المتقين.

الصفة الأولى: الإنفاق في السرَّاء والضرَّاء:

والإنفاق في السراء والضراء، أي في العسر واليسر، والمنشط والمكره، فهم ينفقون على الرغم من قلة ذات اليد، وهذا هو الأجر العظيم، وهذه هي المنزلة الرفيعة أن ينفق المنفق مع الحاجة الملحة.

ولقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة «سبق درهم مائة ألف درهم قالوا يا رسول الله: كيف يسبق درهم مائة ألف قال: رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف»[1] وبيان ذلك وكما بينه الرسول أن صاحب الدرهم كان له درهمان فأنفق واحداً منهما، فيكون قد أنفق نصف ماله ولكن الذي أنفق مائة ألف كانت عنده ألوف مؤلفة فالمائة ألف ليست إلا نزراً يسيراً من ماله.

الصفة الثانية: كظم الغيظ:

وأما الصفة الثانية فهي كظم الغيظ، وكظم الغيظ أن يكتم الإنسان

(١) اخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الزكاة حـ ١ ص ٤١٦ وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

غيظه وأن يطفىء غضبه، وأن لا يترك في قلبه شيئاً من الحقد على أحد، قال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً»[1]. وقال «ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»[2].

الصفة الثالثة: العفو عن الناس:

والصفة الثالثة «والعافين عن الناس» وما أجمل أن يعفو الإنسان عمن أساء إليه، كيف وهو يطمع في عفو الله تبارك وتعالى، وفي الكتاب والسنّة حثّ على هذا العفو، ويكفي أن نقرأ هذا التوجيه القرآني لأبي بكر رضي الله عنه، وقد كان ينفق على مسطح، ولما اشترك في حادثة الإفك أراد أبو بكر أن يمتنع عن الإنفاق عليه ويقطع صلته عنه، فأنزل الله قرآناً ليكون موعظة للمسلمين جميعاً فقال سبحانه ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ (النور: ٢٢).

وقد جاء رجل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون علي[3]، قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ[4] ولا يزال معك من الله ظهير[5] عليهم ما دمت

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في كظم الغيظ باب ٧٤ /حديث ٢٠٢٢ ج ٦ ص ٢٢٥ وقال حسن غريب. ورواه أحمد في مسنده ٣٢٧/١ عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد في مسنده ١٢٨/٢ عن ابن عمر.

(٣) يجهلون عليّ: أي يسيئون، والجهل هنا القبيح من القول

(٤) تسفهم الملّ: الملّ هو الرماد الحار أي كأنما تطعمهموه، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحارّ من الألم.

(٥) الظهير: المعين والدافع لأذاهم.

على ذلك[1] وقول الله سبحانه: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ (الشورى: ٤٠) ويقول: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف - ١٩٩) ومن أجل ذلك ختمت الآية بقوله سبحانه «والله يحب المحسنين» ذلك لأن كظم الغيظ والعفو عن الناس هو غاية الإحسان.

الصفتان الرابعة والخامسة: الاستغفار وعدم الإصرار على الذنب:

أما الصفة الرابعة فهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾.

والصفة الخامسة قوله: ﴿**ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ وفي هاتين الصفتين الكريمتين حكمة وبيان، فربما يظن بعض الناس أن التقي معصوم عن أن يقع منه خطأ، وأن تكون منه زلة، ولكن العصمة للأنبياء، عليهم السلام فالتقي مهما كانت درجة تقواه قد يزل وقد يخطىء وفي الحديث الشريف «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم[2]» فالمتقي قد يزل ولكنه بمجرد زلته يذكر جلال الله وعظمته، ويذكر عفوه ومغفرته فيستغفر من ذنبه.

ويقول الله «ولقد أذنب عبدي ولقد عرف أن له رباً يغفر الذنب».

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطعها رقم الباب ٦ /رقم الحديث ٢٥٥٤ /ج ٤ ص ١٩٨٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة باب سقوط الذنوب والاستغفار توبة رقم ٢ /رقم الحديث ٢٧٤٩ ج ٤ ص ٢١٠٦.

ومن صفات المتقي أنه لا يصر على ذنبه، ويبين هذا المعنى ويفسره قوله سبحانه **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** (الأعراف: ٢٠١) هكذا المتقون إذا مستهم أي لمةٍ من الشيطان، وأي وسوسة،فإنهم لا يمكنون الشيطان من أن يستحوذ عليهم، بل يتذكرون عداوته لهم، ويذكرون قول الله سبحانه **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** (فاطر: ٦).

وبعد هذا التذكر يقول الله سبحانه **﴿فإذا هم مبصرون﴾** أي يبصرون مواقع الخطأ فينزعون عنه ويقلعون، هذا هو شأن المتقين، أما غيرهم فهم يمدون الشياطين بالغي، أي يمكنون الشياطين من إغوائهم، وهذا معنى قوله سبحانه: **﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾** (الأعراف: ٢٠٢).

وخلاصة القول وزبدته أن المتقي مهما بلغت درجة تقواه فليس بمعصوم عن الخطأ، فلا ينبغي أن نكون عوناً للشيطان على مسلم كما يفعل كثيرون من الناس،فإذا أخطأ أحدهم تجد الآخرين يحفظون له هذا الخطأ طيلة حياته، بل بعد موته كذلك، وليس هذا شأن المسلمين.

صفات المتقين بين سورتي البقرة وآل عمران.

هذه صفات المتقين في السورتين الكريمتين، إذا أنعمنا النظر فيها وتدبرناها وجدنا أنها تشتمل على كل مبادىء الدين، وتحتوي جميع أفعال الخير، ولا تترك خلقاً كريماً إلا وتنبه إليه، ففي مضمار العقيدة «ويؤمنون بالغيب»،«يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون» وفي مضمار العبادة (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

(ينفقون في السراء والضراء) (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) وفي الحياة الاجتماعية يكظمون غيظهم ويحسنون إلى الناس ويعفون عنهم، وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الصفات نشير إلى مسألتين اثنتين:

الأولى: إن الإنفاق ذكر في السورتين الكريمتين، ففي سورة البقرة ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ ولكن في سورة آل عمران ﴿**ينفقون في السراء والضراء**﴾ وفي هذا ما فيه من حثّ المسلم على الإنفاق، لأن هذا الإنفاق مصعد لمنزلة التقوى.

الثانية: إن كل سورة من السورتين الكريمتين ذكر فيها من صفات المتقين ما يتناسب مع السياق ويلائم الموضوع، ففي سورة البقرة كان التركيز على قضايا العقيدة ﴿**يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾ كما كان التركيز على إقامة الصلاة كذلك، أما في سورة آل عمران فقد ذكرت الآيات في سياق غزوة أحد التي كانت فيها دروس كثيرة للمسلمين فذكر فيها الإنفاق في السراء والضراء، وذلك لحاجة المجاهدين إليه، وذكر فيها كظم الغيظ، والعفو عن الناس، ذلك لأن المسلمين أصيبوا في أحد، وقد أسلم كثير ممن حارب المسلمين في هذه الغزوة، فكان كظم الغيظ والعفو عن الناس، أمراً لا بد منه، وذكر فيها الاستغفار من الذنب، وقد كان منهم في غزوة أحد ما كان ولذا رأينا الجزاء في سورة آل عمران يختلف عما جاء في سورة البقرة، ففي سورة البقرة كما عرفنا ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ أما في سورة آل عمران فقد كان الجزاء مغفرة من ربهم وجنات وهذا وايم الحق هو لب الإعجاز التربوي والبياني معاً.

وأخيراً لا آخراً فإن ذكر المتقين لم تختص به السور المدنية بل ذكـر في السور المكية كذلك، وقد تقدمت لنـا آية الأعـراف **﴿إن الذين آتقوا إذا مسهم طـائف من الشيطان تـذكـروا﴾** (الأعـراف: ٢٠١)، وفي سـورة الليـل **﴿فأمـا من أعـطى وآتقى وصـدق بـالحسنى فسنيسره لليسرى﴾** (الآيـات: ٥ - ٧)، وفي سـورة ص **﴿أم نجعـل الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾** (آية ٢٨) وهذه سور مكية. وقد ذكر في مقابلة المتقين الفجار، وهذا دليل على عظم منزلة التقوى، فالإيمان يقابله الكفر، والهدى يقـابله الضلال ولـذلك قـال الله سبحانه **﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواهـا﴾** (الشمس: ٧ - ٨).

وما أحسن الوصف بالتقوى، وما أشنع الـوصف بالفجـور، فاللهم امنحنا التقوى وباعد بيننا وبين الفجور، يا عليـماً بذات الصـدور، أصلح لنا جميع الأمور، ونجنا من عذاب القبور، وصل اللهم على كـامل النـور، سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه، وأعـظم اللهم لنا ولهم الأجـور، ونجنا في يوم النشور، يا غفور.

الخماسيتان: الثالثة والرابعة

قال الله تعالى: ﴿**زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**﴾ [آل عمران: ١٤-١٧]

هذه الآيات الكريمة متصل بعضها ببعض، فإنها تحذر من الداء، وترشد إلى الدواء، فالعاقل - وليس أدل على العقل من الإيمان - من تجنب المرض، ولم يخدع بكل ما هو زائل وعرض، وإذا اشتهى شيئاً وأحبه فإنه ينظر فيما اشتهاه وأحبّه إلى صحة القصد وسلامة الغرض.

العاقل - وليس أدل على العقل من الإيمان - من يعالج الداء بالدواء أما الظالم لنفسه الذي لم يستعمل عقله الذي أكرمه الله به فيما هو خير، فإنما هو الذي يستفحل فيه المرض، ويترك الجوهر من أجل العرض، فالناس واحد من اثنين: مؤمن عقل عن الله، وعقل هواه، وظالم جحد نعم الله وفي مقدمتها نعمة العقل، فالصنف الأول: هو الذي يكون له القرآن شفاء، أما الصنف الثاني: فلا يزيده القرآن إلا مرضاً وداء.

وصدق الله ﴿ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ [سورة الاسراء: ٨٢].

وفي الآيات التي شرفنا بتلاوتها خماسيتان اثنتان:

الخماسية الأولى: في قوله سبحانه: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

وقبل أن نتحدث عن هذه الخماسية الكريمة ينبغي أن نقدم لها بمقدمات لا بد منها:

المقدمة الأولى: أقسام الزينة:

اعلم أن الزينة قسمان: زينة تامة، وزينة ناقصة، أما الزينة التامة، وهي الزينة الحقيقية، فهي التي لا يشين المرء منها شيء في الدنيا ولا في الآخرة - كما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله[1] - فكلها خير. وأما الزينة الناقصة فهي التي تكون خيراً من جانب ولكنها شر من جانب آخر.

ومثال القسم الأول، وهي الزينة التامة الحقيقية: الإيمان والعلم، والأخلاق الحسنة، قال سبحانه ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ [الحجرات: ٧]، وقد قالوا: زينة الرجال الأدب، وليس للمرء زينة بعد الإيمان خير من العلم. وفي الدعاء: «اللهم زينا بالعلم، وجملنا بالحلم، ومتعنا بالعافية، وأكرمنا بالتقوى». قال الشاعر:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا

(١) المفردات ص ٢١٨.

إن الجـمـال مـعـادن ومـنـا
قـب أورثـن مجـدا

وأما القسم الثاني: فكل زينة يكون فيها جانب الخير إذا لم تتعد فيها حدود الشرع، وذلك كالمال والأثاث، والثياب، والرياش، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى جعل الثياب والأثاث نعمة آمتن بها على الناس فقال: **﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشا﴾**[1] ولكن هذه إذا تجاوز الإنسان فيها ما أحل له، كان إثمها أكبر من نفعها وشرها أكثر من خيرها. وترجع الزينة كلها إلى أصول ثلاثة:

١ ـ زينة نفسية، وهي التي تحدثنا عنها من قبل كالعلم والأخلاق الحسنة والإيمان.

٢ ـ الزينة البدنية: كالقوة، والطول، والجمال على اختلاف مواضعه.

٣ ـ الزينة الخارجية: كالجاه والمال وما يتصل بذلك.

وهذان القسمان يمكن أن يغلب فيهما جانب الخير، وذلك حينما يكونان سبباً لشكر الله تعالى، لأنهما من نعم الله التي لا تحصى، وقد يكونان شراً ووبالاً، وذلك حينما يكونان سبباً للطغيان، فكم من صاحب مال أعرض وتكبر، وكم من صاحب جاه تسلط وتجبر، وكم من جمال جلب على صاحبه كل آفة.

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك كله **﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾**[2]، وها هم عاد غرتهم قوتهم فاستكبروا في الأرض، وها هو قارون غره ماله، فخرج على قومه في زينته فخسف الله به وبداره الأرض، فما أجمل الزينة التي هي خير في بدايتها ونهايتها.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٦.
(٢) سورة العلق: ٦، ٧.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم في حديثه عن الزينة، فهو تارة يسند هذا الفعل إلى الله، كقوله سبحانه ﴿**ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾[1] وتارة يسندها إلى الشيطان سواء كان شيطان الجن أم شيطان الأنس، كقوله تعالى ﴿**وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾[2] ﴿**وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم**﴾[3] وتارة ثالثة يبني الفعل فيه للمفعول ـ المجهول ـ وذلك مثل قوله سبحانه ﴿**زين للناس حب الشهوات**﴾[4]، ولذلك اختلف المفسرون، فبعضهم ذهب إلى أن المزين هو الله لأنه هو الذي خلق هذه المشتهيات جميعها. وذهب بعضهم إلى أن المزين هو الشيطان لأنه هو الذي يحض عليها، ويوسوس للناس ليقبلوا عليها متجاوزين للحدود التي حدّها الله.

والذي يظهر لي أن التزيين يمكن أن يكون من الله، وذلك إذا تمتع الإنسان بهذه المشتهيات في دائرة المباح الذي أحله الله، وقد يكون المزين هو الشيطان، وذلك إذا خرج الإنسان عن الجادة وأعطى نفسه حظها دون أن يبالي بحلال أو حرام.

وعلى هذا يكون مجيء الفعل مبنيا للمجهول لغاية بيانية رائعة، ولحكمة بالغة، زين للناس، فمن المزين؟ إنه الله إذا تمتع الناس بهذه في حدود ما أحل لهم. أما إذا تجاوز الإنسان الحد فليس الله هو المزين حينئذ. وهذا يصدق على الزينة البدنية، والزينة الخارجية. ألا ترى أن الله حرم إبداء الزينة إلا في ظروف خاصة، ولفئة خاصة كذلك، فقال سبحانه

---

(١) سورة الحجرات: ٧

(٢) الانعام: ٤٣

(٣) سورة الأنعام: ١٣٧.

(٤) سورة آل عمراان: ١٤.

﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾[1] وقال: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن. . ﴾[2]

المقدمة الثانية: غريزة الشهوة

اعلم أن الشهوة إنما هي توجه النفس ونزوعها في تحصيل ما ترغبه وتريده، ولذا فإن الأمور الصعبة التي لا تجد النفس فيها غاية ليست من المشتهيات، وهذه الشهوة قد تكون أمراً لا بد منه، وذلك مثل الطعام الذي تشتهيه النفس عند الجوع من أجل أن يحافظ الإنسان على نفسه، ومن ذلك المحافظة على البقاء بالتناسل، وقد لا تكون الشهوة أمراً ضرورياً حينما تستقيم الحياة بدونها. والله تبارك وتعالى الذي خلق هذا الإنسان أودع فيه هذه الشهوات ولكنه أرسل إليه الرسل حتى لا تطغى هذه الشهوة فينحرف وينزلق في أوحال الردى والغواية.

والإسلام الذي أنعم الله به علينا وعلى الإنسانية إن أرادت أن تهتدي سواء السبيل، حرم على الإنسان أن يميت هذه الشهوات، فلا يجوز له أن يعطل هذه الأجهزة التي أنعم الله بها عليه.

وسيدنا رسول الله ﷺ يبين بكل صراحة ووضوح أن المسلم إذا وضع شهوته في مباح كانت أجراً له وصدقة، أما إذا كانت هذه الشهوة تتخطى حدود الحلال فإنها تنزل بالإنسان عن المستوى الكريم الذي أكرمه الله به، تنزل به إلى درك الحيوانية والبهيمية.

ولقد نعى القرآن على أقوام تركوا هدى الأنبياء عليهم السلام، وذلك في قوله سبحانه ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

---

(١) سورة النور: ٣١.

(٢) سورة النور: ٣١.

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾[1].

المقدمة الثالثة: سبب ذكر النساء دون الرجال

اعلموا هداني الله وإياكم أن القرآن الكريم معجز بنظمه وهدايته، والبيان والهداية لا ينفصل أحدهما عن الآخر، والآية الكريمة التي نشرف بالوقوف مع أسرارها، وننعم بجني ثمارها، ابتدأت بقوله سبحانه **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء﴾**،

وأذكر قبل أيام أنه قد وجه لي سؤال من امرأة أمريكية خلاصته: «لماذا ذكر النساء، ولم يذكر الرجال؟ لماذا قال الله (زين للناس حب الشهوات من النساء) فنص على شهوة الرجل للمرأة ولم تذكر شهوة المرأة للرجل؟ لماذا أهملت غرائز النساء وعواطفهن؟ ولم تشر من قريب أو بعيد إلى شهوة النساء للرجال؟ والإجابة عن هذا السؤال من وجوه:

أحدها: أن الآية الكريمة يقول الله تعالى فيها (زيّن للناس)، وكلمة الناس لا تخص الرجال وحدهم، بل تشمل النساء والرجال على السواء، ومعنى هذا أن الآية تشير إلى النوعين جميعاً، إلى حب الشهوة من الرجال، وإلى حبها من النساء كذلك. وهذه دقة القرآن ببلاغته وإيجازه وروعته. إن الآية لم تقل (زين للرجال حب الشهوات)، وهذا السؤال يمكن أن يرد ويسأل لو أن الآية جاءت هكذا زين للرجال. ولكن الآية قالت (زين للناس).

ثانيها: أن القرآن الكريم مبني على الإيجاز في القول، وهذا الإيجاز

---

(١) سورة مريم: ٥٩، ٦٠.

من أبرز سمات القرآن وصفاته. ألا ترى إلى قوله سبحانه ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾[1] مع أن هذه السرابيل تقي الحر والبرد كذلك، ولكن القرآن اكتفى بذكر شيء يدل على غيره، وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وعلى هذا نفهم من الآية أنه زين للناس جميعاً حب الشهوات، فالرجال زين لهم حب الشهوات من النساء، والنساء زين لهن حب الشهوات من الرجال.

ثالثها: هناك ملحظ خلقي ونفسي واجتماعي، هدفت له الآية الكريمة، ذلكم أن القرآن الكريم قد أحاط المرأة بسياج خلقي كريم، لأن الله الذي خلق المرأة هو الذي أودع فيها هذه الحساسية والشفافية، وأراد لها أن تكون مصونة بعيدة عن كل ما يثير الشبهات حتى في أجواء النفوس، وهذه إشارة بديعة في الآية الكريمة، ولذا اكتفت الآية بذكر جانب واحد وهو جانب الرجل يحب الشهوات من النساء، وطوت الجانب الآخر وهو حب الشهوات من الرجال وذلك فيه تكريم إيما تكريم للمرأة، ومراعاة لهذه الجوانب النفسية، ولذا فهي مطلوبة دائماً لا طالبة يبحث عنها وليست هي التي تبحث وتخطب.

رابعها: أن ما ذكر في الآية الكريمة من الشهوات ليست خاصة بالرجال وحدهم بل منها ما هو للنساء وللرجال سواء، وهي شهوة البنين، فكل من الرجل والمرأة سواء في طلب البنين وحبهم، ونرجح أن ذكر البنين هنا لا يقصد فيه الأبناء فحسب كما يذكر بعض المفسرين، ولكنه يشمل البنات كذلك، وإنما ذكر البنون للتغليب كما في قوله سبحانه: (وكانت من القانتين)[2] فإنه يشمل القانتات كذلك.

---

(١) سورة النحل: ٨١.

(٢) سورة التحريم: ١٢.

ومنها ما يكون النساء أكثر اشتهاء لها من الرجال وذلك كالذهب والفضة. ومنها: ما يغلب فيها اشتهاء الرجال كالخيل المسومة.

ومن هذه الأجوبة جميعاً ندرك أن الآية لم تهمل عواطف النساء، وإنما احتفظت لهن بشفافيتهن وحساسيتهن وحيائهن الذي طبعهن الله عليه.

الزينة الأولى: النساء:

وقد آن لنا بعد هذه المقدمات أن نرجع إلى الآية الكريمة، فلقد بدأت الآية الكريمة بذكر حب الشهوات من النساء، وهذا من الترتيب البديع في الآية الكريمة ذلك أن شهوة الرجال للنساء وشهوة النساء للرجال تشترك فيها الغريزة والعاطفة على السواء، ومن أجل هذا يبين الرسول الكريم ﷺ أنه ليس هناك فتنة أشد على الرجال من فتنة النساء وأن بني إسرائيل كانت أول فتنتهم بالنساء»[1]

وتظهر الزينة في النساء للرجال في مظاهر شتى، فقد تحمل على الفاحشة ـ نعوذ بالله من الفواحش ـ وقد تحمل على قطيعة الرحم، وعدم تحري الحلال في الرزق، وقد تحمل على ترك الواجب، ولذا حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من أن يحملهم حب أزواجهم وأولادهم على ارتكاب محرم أو ترك واجب فقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم**﴾[2]، وهذه الآية وإن

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الذكر باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٢٦ /حديث ٩٩. عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» ج٤ ص ٢٠٩٨

(٢) سورة التغابن: ١٤.

كانت نزلت في سياق معين وسبب خاص، إلا أنها تظل عامة في لفظها يمكن أن تصدق على قضايا كثيرة من قضايا البشر.

ولقد حذر النبي عليه وآله الصلاة والسلام من أن ينساق الرجال في طاعة النساء فتزين لهم الشهوات فيعق الرجل أمه من أجل زوجه. كل هذه وغيرها من الزينة المحرمة من النساء على الرجال.

وهناك مظاهر لهذه الزينة ذات وجه مشرق، وأثر طيب وهي التي يجد فيها كل من الرجل والمرأة في الآخر ما يحصن به نفسه، من عفة فرج وغض بصر وطهارة لسان ونظافة قلب، فيجد كل في الآخر زينته، وبهجة نفسه، وطيب نَفَسِه. وهذه هي الزينة التي يصدق عليها قول الله: ﴿قل من حرم زينة الله﴾[1].

الزينة الثانية: البنين

وأما زينة البنين فهي زينة طبيعية غريزية كذلك، وذلك لما يجد الإنسان فيهم من امتداد أثر، وذيوع خبر، وهذه الزينة لها مظهران كذلك:

أما المظهر الأول: فهو الذي يجعل صاحبه يسلك شططاً، ويقول خطأً وغلطاً، ويتجلى ذلك حينما يكون أولئك الأولاد سبباً في ارتكاب المحرم وترك الواجب، يحولون بين الأب وبين الجهاد، ويمنعونه من قولة الحق، ويدخل من أجلهم في مداخل الشيطان، فيجمع لهم المال من حرام وحلال ويشغلونه في دنياه عن آخرته، ويكونون سبباً في غروره وكبره، يعتز بهم دون خالقه، ومن أجلهم يمنع حق الله.

ولقد جاء في الأثر أن الله تبارك وتعالى يذكر العبد يوم القيامة بما أنعم عليه، فيقول: «رب أن لي أولاداً خشيت أن يصيبهم الفقر من

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

بعدي، فأمسكت عن الإنفاق في سبيلك، فيقال له: لقد أصاب أولادك ما خشيته عليهم فلقد افتقروا من بعدك» ولقد جاء في الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه يصف الأولاد (بأنهم مجبنة ومبخلة)[1]. أي يكونون سبباً في وصف الأب بالجبن والبخل، وبالجملة فإن آفات هذا المظهر كثيرة لا تحصى.

أما المظهر الثاني: فهو مظهر الزينة الطيبة التي تزين صاحبها ولا تشينه، وذلك حينما يوجه هؤلاء الأولاد الوجهة الصالحة الكريمة ليكونوا وسائل خير للآباء في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلأنهم أداة شكر وأداة بر، يبرون آباءهم ويجد الآباء فيهم نعمة يشكرون الله عليها، وهذا البر لا ينحصر مجاله في الدنيا، ولا يقتصر أثره عليها، وإنما يمتد بعد الموت كذلك فيكونون من الأعمال الباقية لآبائهم.

وأما في الآخرة فيكرم آباؤهم بهم، وقد ورد في بعض الآثار أن (من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا)[2]

وبالجملة فهذا المظهر الخير إنما يتحقق حينما يدرك الآباء واجبهم بتربية أبنائهم تربية صالحة، وتنشئتهم على الفضيلة والخير، ويمتثلون قوله سبحانه ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾[3].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب بر الوالد والإحسان إلى البنات - رقم الباب (٣)، رقم الحديث ٣٦٦٦ - ٢/١٢٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب في ثواب قراءة القرآن - حديث ١٤٤٠.

(٣) سورة التحريم: ٦.

الزينة الثالثة: القناطير المقنطرة من الذهب والفضة:

وهذه الزينة لها مظهران كذلك: مظهر خير حينما ندرك أننا مستخلفون في هذا المال، فنقوم به على الوجه الذي أراده الله وأمر به رسوله ﷺ (نعم المال الصالح للمرء الصالح)[1] نصل به رحماً، ونعين به كلا، وننفس به عن صاحب كربة، ندرك أنه نعمة من نعم الله، يجب أن نشكر الله تعالى عليها.

ومن مظاهر هذا الشكر أن لا نحله مكانة من قلوبنا، بل ندعه في أيدينا لنضعه فيما يرضي الله ورسوله، فلقد كان أصحاب الرسول ﷺ - رضي الله عنهم - خير موجهين لنا، في كيفية استعمال هذا المال، وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثير أمثلة حية وشواهد صدق على ذلك التوجيه، وهنا يكون المال زينة خير لصاحبه.

والمظهر الثاني: هو المظهر الذي تبينه هذه الآيات الكريمة، **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾**[2] وحين ذلك يكون المال فتنة.

والله تبارك وتعالى حذرنا في كتابه الكريم وهو يجمع بين فتنة المال والولد في آيات كثيرة، وكذلك سيدنا رسول الله ﷺ، فلقد جاء في كتاب الله تبارك وتعالى: **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾**[3]. وفي هذه الآية الكريمة

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٤/١٩٧ عن عمرو بن العاص. قال في مجمع الزوائد ٤/٦٤ ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) سورة التوبة: ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة الكهف: ٤٦.

إشارة وإرشاد وتحذير للمسلم لكي لا يشغله هذان ـ المال والبنون ـ عن الباقيات الصالحات التي تحل صاحبها مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ولقد نعى القرآن على أقوام كان المال والولد سبباً في فتنتهم وغرورهم وصلفهم وابتعادهم عن الحق، فقال سبحانه: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1]، ويرد الله على هؤلاء بقوله: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾[2] أما الذين شكروا الله تعالى على هاتين النعمتين فهم الذين تقربهم هذه الأموال والأولاد عند الله زلفى. ويشهد لهذا حديث النبي عليه وآله الصلاة والسلام (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[3].

وقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾[4] في هاتين الآيتين الكريمتين خير بيان في أن المال والولد قد يؤديان إلى خيانة الله ورسوله، وخيانة الأمانات جميعها، وذلك حينما يفتتن بهما، فيدخل الإنسان بهما مداخل الهلكة.

---

(١) سورة سبأ: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة سبأ: ٣٧.
(٣) رواه مسلم في كتاب الوصية: باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الباب: ٣ ـ رقم الحديث ١٦٣١ ـ ٢/١٢٥٥.
(٤) سورة الأنفال: ٢٧ - ٢٨.

وجاء في التنزيل في الحديث عن المنافقين والكافرين بأنهم **﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1]. وفي حديث النبي ﷺ (أتدرون ما الرقوب فيكم؟ قالوا: الذي لا ولد له، قال الرقوب كل الرقوب، الرقوب كل الرقوب، الرقوب كل الرقوب، الذي له ولد ولم يقدم منهم شيئاً، ثم يقول النبي ﷺ: «أتدرون ما الصعلوك، فيقولون: الصعلوك فينا الذي ليس له مال، فيقول: الصعلوك كل الصعلوك، الصعلوك كل الصعلوك الصعلوك كل الصعلوك الذي له مال فمات ولم يقدم منه شيئاً، ثم يقول: أتدرون ما الصرعة؟ قالوا: الصريع فينا. فقال: للصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة. الرجل يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرعه غضبه)[2].

والآيات والأحاديث التي جمعت بين فتنة المال والولد كثيرة، وكلها تحذر المسلم من أن يمكن الشيطان كي يصل إلى مبتغاه ومشتهاه، حيث قال: **﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾**[3]، فيقول الله له فيما يقول: **﴿اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾**[4] فالآية الكريمة تبين أن

---

(١) سورة المجادلة: ١٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/٣٦٧، ومسلم في صحيحه، حديث رقم ٢٦٠٨، ٤/٢٠١٤ إلا أنه لم يذكر فيه الصعلوك.

(٣) سورة الإسراء: ٦٢.

(٤) سورة الإسراء: ٦٣ - ٦٥.

الشيطان لا يستطيع أن يشارك عباد الله في أموالهم وأولادهم، والعاقل هو الذي يتذكر هذه الآية، فلا يسمح لنفسه أن تشرئب وتشمخ، ولا أن تتسفل وتدنو من أجل مال وولد، فينمي المال تنمية حلالا، ويربي الولد تربية صالحة، فلا يبخل بالمال ولا يبذره، ولا ينفقه في حرام، ولا يمكن الولد من أن يطغيه أو يغويه، بل يعرف لله حقه بهذه النعم، فلا يكون من أولئك الذين قال فيهم الشاعر:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة
فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم رزقوا وما رزقوا

الزينة الرابعة: الخيل المسومة

و(الخيل معقود بنواصيها الخير) كما جاء في الحديث الصحيح[1] ولقد كانت الخيل مظهراً من مظاهر الفخر والخيلاء كما يدل اسمها عليها، وللخيل مظهران كذلك: **فهي مظهر خير**، وزينة طيبة محببة، وذلك حينما تكون غايتها خيراً من أجل إعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾**[2] **﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾**[3]. وهذه الآية الكريمة تدلنا على أنه يلتحق بالخيل كل ما هيأه الله تعالى للإنسان فيها بعد

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب ـ باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر ـ رقم الباب ٢٤ ـ رقم الحديث ٣٤٤٥ ـ ٢/١٣٣٢.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

(٣) سورة النحل: ٨.

في القتال أو الركوب كالسيارات والطائرات المدنية أو الدبابات والطائرات العسكرية وغير ذلك مما يمكن أن يهيئه الله سبحانه لهذا الإنسان.

والمظهر الثاني: مظهر شر وسوء، حينما تكون غايتها الفخر الكاذب، والاختيال على الخلق، والبغي في الأرض، ولقد بين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام هذين المظهرين حيث قال: الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له فهي لذلك أجر. ورجل ربطها تغنياً ثم لم ينسَ حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر)[1]

وقال: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[2]، و(الخيل ثلاثة: خيل أجر وخيل وزر، وخيل ستر، فأما خيل ستر فمن اتخذها تعففاً وتكرماً وتجملاً ولم ينسَ حق بطونها وظهورها في عسره ويسره، وأما خيل الأجر فمن ارتبطها في سبيل الله فإنها لا تغيب في بطونها شيئاً إلا كان له أجر، حتى ذكر أرواثها وأبوالها، ولا تعدو في واد شوطاً أو شوطين إلا كان عليه وزر).

وهذا كما قلت من قبل كما يصدق على الخيل، فإنه يصدق على ما

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ـ باب الخيل لثلاثة ـ رقم الباب ٨ ـ حديث رقم ٢٧٠٥ ٢/١٠٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

يسد مسدها عند الناس، ويصدق على السيارة وغيرها، وذلك مندرج تحت قوله عليه وآله الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى. . .)[1]

الزينة الخامسة: الأنعام والحرث:

والأنعام هي المواشي وتطلق على الإبل والبقر والغنم، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين. . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾[2]، والحرث مقصود به زراعة الأرض واستثمارها.

والأنعام والحرث لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر، ذلك أن أصحاب الحرث فيما مضى كانوا يعولون كثيراً على الأنعام لحراثة الأرض، ولحمل محصولها من زرع وثمر، وللإفادة من أرواثها في تقوية الأرض، والأنعام والحرث لهما مظهران كذلك، شأنهما في ذلك شأن الأمور المتقدمة فهما من الزينة الخيرة الطيبة إن أدى فيهما حق الله، وكانا وسيلة من وسائل الشكر، وهما على العكس من ذلك حينما يكونان وسيلة من وسائل الجحود، فيشغل بهما صاحبهما عن حقوق الله سبحانه. ولعلهما يصرفان الإنسان أكثر من غيرهما عن العبادة والطاعة.

وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة بيان كاف شاف لهذين المظهرين. قال سبحانه: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ـ رقم الباب: ١ ـ رقم الحديث (١) ـ ٣/١.

(٢) سورة الأنعام: ١٤٣ ـ ١٤٤.

والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾[1]. فانظر إلى نعم الله الكثيرة في هذه الأنعام: دفء ومنافع وأكل وجمال، ويظهر هذا الجمال أكثر ما يظهر وهي رائحة جائية، ذاهبة آيبة.

وقال سبحانه: **﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأيَّ آيات الله تنكرون﴾**[2]. وقال سبحانه **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾**[3] ويقول سبحانه: **﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾**[4] والآيات التي تتحدث عن الأنعام كثيرة وهي في مجموعها بيان وتفصيل لإنعام الله وفضله في هذه الأنعام، وبيان لحكمته وقدرته.

أما الآيات التي جاءت في شأن الحرث فأجمل بها بياناً وأعظم بها آثاراً لقدرة الله. قال سبحانه **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم﴾**[5]. وقال سبحانه: **﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر**

---

(١) سورة النحل: (٥-٩).
(٢) سورة غافر: ٧٩ ـ ٨٠.
(٣) سورة النحل: ٨٠.
(٤) سورة النحل: ٦٦.
(٥) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

فيه تسيمون ينبت لكم بـه الزرع والـزيتون والنخيـل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[1] وقـال سبحانه ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[2].

ويقول اللطيف الخبير: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منـه خضراً نخـرج منه حبـاً متراكبـاً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنـات من أعناب والـزيتون والـرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾[3] وقـال: ﴿وهو الـذي أنشأ جنـات معروشـات وغير معروشات والنخـل والزرع مختلفـاً أكله والزيتـون والرمـان متشابهـاً وغـير متشابـه كلوا من ثمـره إذا أثمـر وآتـوا حقـه يـوم حصـاده ولا تسرفـوا إنه لا يحب المسرفـين﴾[4]. وقال سبحـانه: ﴿وهـو الذي مـد الأرض وجعـل فيهـا رواسي وأنهاراً ومن كـل الثمـرات جعـل فيهـا زوجـين اثنين يغشي الليـل والنهار إن في ذلـك لآيات لقـوم يتفكرون وفي الأرض قـطع متجـاورات وجنـات من أعنـاب وزرع ونخيـل صنوان وغير صنـوان يسقى بماء واحـد ونفضل بعضهـا على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[5].

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تلمح مـظاهر الـزينة في هـذه النعم العـظيمة من نعم الله، ولقـد بين سيـدنا رسـول الله ﷺ بيانـاً شـافيـاً مـا

(١) سورة النحل: ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة النحل: ٦٧.
(٣) سورة الأنعام: ٩٩.
(٤) سورة الأنعام: ١٤١.
(٥) سورة الرعد: ٣ ـ ٤.

للمسلم من أجر كبير من جراء عنايته بهذه النعم حتى أنه لا يأكل منها إنسان أو حيوان أو طير أو يستظل في ظلها واحد من الناس إلا كان في ذلك صدقة وأجر، وتلك كلها مظاهر خير.

قال رسول الله ﷺ (ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه[1] أحد إلا كان له صدقة[2]). وعن جابر أن النبي ﷺ دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها فقال لها النبي ﷺ «من غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟ فقالت: بل مسلم. فقال: «لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة»[3]

أما مظهر الشر في الأنعام والحرث، فحينما تكون الشغل الشاغل للإنسان فتملك عليه كل لحظات حياته، فيضيع كل الأوقات وينسى الذي يمنحه الأقوات، وهذا ما أشار إليه سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام بقوله (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[4].

ويقول الله سبحانه بعد أن ذكر هذه الأصناف التي زينت للناس ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾، ومتاع الدنيا قليل لو أعطي الإنسان الدنيا كلها، فكيف به إذا لم يأخذ منها إلا قليلاً، والله عنده حسن المآب.

---

(١) لا يرزؤه: لا ينقصه ويأخذ منه.

(٢-٣) رواه مسلم ـ كتاب المساقاة ـ باب: فضل الغرس والزرع ـ رقم الباب ٢: حديث ١٥٥٢ ـ ١١٨٨/٣.

(٤) رواه أبو داود ـ كتاب الإجارات ـ باب في النهي عن العينة رقم الباب ٢١ ـ ح ٣٤٤٥ العينة بالكسر: السلف، وقوله: «أخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع» حمل هذا على الاشتغال بالزرع في حق يتعين فيه الجهاد.

إن المرجع الكريم عند ربنا سبحانه، ومن أجل هذا المرجع يقول سبحانه في الآية التي تلي هذه الآية ﴿**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد**﴾[1]

معنى قوله حب الشهوات

وقبل أن ننتقل إلى الخماسية الرابعة يطيب لي أن أنقل للقارىء الكريم كلاماً جيداً لكاتب العربية والإسلام الأديب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ رحمة الله عليه ورضوانه ـ

«راجعت تفسير محمد عبده وتفسير الألوسي لهذه الآية فلم أر فيهما ما يهدي إلى السر، والمفسرون جميعاً متفقون على أن «حب الشهوات» يراد به المشتهيات، فالمعنى: زين للناس المشتهيات من النساء... الخ، وهذا يجعل الآية موضع نقد، ويذهب بهاء التعبير بحب الشهوات، وإعجاز هذه الآية هو في لفظة «حب الشهوات»، فلو قال المشتهيات أو الشهوات أو حب النساء، لما كان ذلك شيئاً.

وللشهوات وظائف طبيعية في الناس، فكونها زينت للناس أمر لا معنى له، وليس فيه جديد، ولكن «تزيين حبها» هو السر، لأن حبها هو سبيل الحرص عليها، والإكثار منها كالذي يجد مالا ينتفع به، فالمال في نفسه منفعة، وليس في ذلك شيء عجيب. ولكن الذي يبتلي بحب «المال» تنقلب فيه هذه المنفعة ضرراً، فيبخل، ويبتلى بالحرص ثم يبتليه الحرص على المال بمحق حياته كلها. فالشأن إذاً «ليس في المشتهيات، ولا في الشهوات، ولكن في (حب الشهوات).

ثم أن حب الشهوات متى كان سبباً في الحرص عليها، والإكثار منها

(١) سورة آل عمران: ١٥.

فهـو خطأ وضرر، فـإذا «زيّن» ذلك لـلإنسان، كـان أشد ضرراً وأمعن في بـاب الخـطأ. وهـذه هي حكمـة استعـمال «زين». فكـأن هنـاك ثـلاث درجـات: الشهـوة وهي عمـل طبعي، ثم حب الشهـوة، وهـذه إضـافـة جديدة من العقل تزيد فيها، ثم تزيين هذا الحب، وهي إضافة ثابتة تزيـد في الزيادة وتضـاعف الخطأ، وعـلى هذا تلحق الشهـوات في هذا الـترتيب بالحد الخارج عن العقل، وهذا الحد هو أول الجنون، كما يشاهد في ذهاب أثر العقل وضعف حكمه عند «تزيين شهـوة محبوبـه» بحيث لا يبقى لعقل حكم، ولا حكمة مع هذا التزيين.

وجعلت «زين» مبنية للمجهول، لأن بعض هـذا محبوب محمـود فهو من زينة الله ويدخل في قولـه تعالى ﴿**قـل من حرم زينـة الله التي أخرج لعباده**﴾ [الأعراف: ٣٢]، وبعضه مذموم مكروه، فهو من تزيين الغرائـز الفاسدة، وبعضه حمق وجنون، فهو من تزيين الشيطان.

والغـرض من الآية تجاوز الحد المعقـول من شهوات الـدنيـا، فـإن تجاوزه يجعل الدنيا هي الغاية مع أنها وسيلة فقط، ولهذا قـال (ذلك متـاع الحياة الدنيـا) ثم قال (حب الشهـوات) بالجمـع ولم يقل الشهـوة. فتكون (الشهوات) مختلفة متباينة، تقدر كل واحدة باعتبارها الخـاص في الأصناف التي وردت في الآيـة فالشهـوة للنساء غـيرها من البنـين، وهذه غـيرها من الخيل المسومة... الخ. فكـل واحدة ذات شـأن خاص في النفي كـما هو مشاهد، ولكن للجنون بها كلها متى «زين حبها في النفس» شيء واحد.

وانـظر الحكمة العجيبـة في الترتيب، فـالنساء شهـوات من الغريـزة والعاطفة، والبنين شهوات من العـاطفة والنفس، والمـال الكثير من النفس فقط، والخيـل المسومـة، والأنعام والحـرث، هذه الثـلاثة تـارة أجـزاء من المال، وتارة أجزاء من عاطفـة النفس، كما يغـرم بالخيـل بعض الناس، أو

بالأنعام أو بالزراعة. ولذلك جاءت في الآية بعد النساء والبنين، لأنها لاحقة بالغريزة والعاطفة والنفس.

ويدخل في الخيل المسومة كل ما يقتنى للمباهاة والزينة، أو لأغراض القوة على إطلاقها، ومنه السيارات والطيارات.. الخ.. ويدخل في الأنعام كل ما يقتنى للتجارة والكسب. وفي الحرث كل ما يقتنى للاعتماد والإيجاد، ومنه المصانع والمعامل.. الخ. فإذا حققنا هذا وجدنا هذه الأبواب جامعة لكل الشهوات الناشئة من جميع قوى الجسم الإنساني والنفس.

أما ما كان خاصاً بشهوات العقل، فلم يدخل في الآية، وهذا من أعجب إعجازها، لأن أمور الفنون والعلوم (لا تزين) إلا لفريق محدود من الناس، أي لا يزين حب الشهوات منها، وهذا الفريق عادة هم النوابغ العبقريون، وهؤلاء العبقريون في الحقيقة لا يجدون من العلوم والفنون متاع الحياة الدنيا، ولكن مصائب الحياة الدنيا...»[1]

(١) رسائل الرافعي، جمع وترتيب محمود أبو رية، ط عيسى البابي الحلبي ١٣٦٩هـ ص ٢٣٣.

الخماسية الرابعة

قوله تعالى: ﴿**الصادقين والصابرين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**﴾[1].

اعلموا أرشدني الله وإياكم أن هذه الخماسية في الآية الكريمة متصلة اتصالاً محكماً بالخماسية التي تحدثنا عنها من قبل. وهذا شأن القرآن الكريم في إحكام الروابط بين آيه كما سنبينه إن شاء الله. ولا بد من مقدمة قبل أن نتحدث عن هذه الخماسية. فنقول وبالله التوفيق، وهو ولينا في الأمر كله.

صفات المؤمنين في السورة متلائمة مع سياقها

لقد بيّن الله تبارك وتعالى في كتابه المحكم أوصاف عباده في آيات كثيرة، وذلك من أجل أن يبادر الناس ليحققوا هذه الأوصاف في أنفسهم، ولكن هذه الأوصاف كانت تذكر بما يتطلبه المقام، وبما يقتضيه السياق، فآية البر في سورة البقرة ذكر فيها خصال كثيرة تبلغ خمس عشرة خصلة، وكانت هذه الخصال جميعها تدور حول أصول ثلاثة: العقيدة والعبادة والأخلاق. قال تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى المساكين وابن**

(١) سورة آل عمران: ١٧.

السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾(1). فهذه الآية الكريمة التي هي واسطة العقد في سورة البقرة، كبرى الزهراوين ـ الزهراوان سورة البقرة وآل عمران ـ وإنما سميت واسطة العقد، لأنه سبقها حديث مستفيض عن اليهود فيه عرض لأوصافهم الكثيرة المذمومة، وذكر بعدها تكاليف كثيرة مما أمر به المؤمنون، تكاليف لهذه الأمة، فبعد هذه الآية، آية البر، ذكرت آية القصاص، فآيات الوصية، فآيات الصوم، ثم أحكام الأموال والقتال والحج، وأحوال الأسرة، فكانت هذه الآيات واسطة العقد كما رأينا، لأنها كانت فاصلاً بين الحديث عن اليهود وبين ما شرع لهذه الأمة مما يسعدها ويحييها، فكان ما ذكر في هذه الآية من صفات وخصال متلائماً مع سياقها وهدفها وهو التنفير مما اتصف به اليهود من أوصاف والإعداد لأوصاف تمكن المؤمنين من القيام بتنفيذ التكاليف والتزام الأوامر والتشريعات التي ذكرت بعد هذه الآية الكريمة.

وهكذا ذكرت فيها صفات المؤمنين، وقد ذكر فيها ما يتلاءم مع السياق، ولنأخذ هذه الآية الكريمة من سورة براءة **﴿التائبون العابدون، الحامدون السائحون، الراكعون الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾**.(2)

فإن هذه الآية الكريمة ذكرت في أثناء الحديث عن المنافقين أو المتخلفين عن الجهاد، لأن سورة براءة تحدثت عن غزوة تبوك. ولذا بدأت هذه الآية بذكر صفة التائبين، وهذا يتلاءم تلاؤماً تاماً، ويتناسب تناسباً

---

(1) سورة البقرة: ١٧٧.
(2) سورة التوبة: ١١٢.

دقيقاً مع ما جاء في السورة الكريمة، قبل هذه الآيات وبعدها، فقبل هذه الآية حدثتنا السورة الكريمة عن قوم قال الله فيهم ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾[1] وبعدها نقرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾.[2]

ولعلكم تدركون السر الآن والحكمة التي من أجلها بدئت هذه الصفات بقوله تعالى: (التائبون) ثم ذكر العابدون والسائحون والحامدون، ذلك لأن الآية ترغيب بالتوبة للذين تخلفوا عن الجهاد بدون عذر، وحث على العبادة لأن المنافقين لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى.

وهناك آية ثالثة عددت أوصاف المؤمنين، ولكن هذه الآية خصت المؤمنات بالذكر، ونعني بها آية الأحزاب ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[3] إن هذه الآية الكريمة ذكرت في سياق الحديث عن أزواج

---

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٥.

النبي، أمهات المؤمنين، ﷺ ورضي عنهن، وما جاء فيها من صفات متلائم مع هذا السياق خير تلاؤم.

وبالجملة فإن هذه الآيات جميعاً ترشد المسلمين والمسلمات إلى ما ينبغي أن يحققوه في أنفسهم وأحوالهم ومعاملاتهم من صفات خيرة، إلا أن كل آية ذكرت فيها الصفات التي تتناسب مع موضوع السورة وسياق الآيات.

وبعد هذه المقدمة التي نرجو أن يكون فيها فائدة وخير، نأتي يحدونا الجلال للخماسية التي نتحدث عنها. وقد اقتصر في الآية الكريمة على هذه الأوصاف الخمسة، الصبر، الصدق، القنوت، الإنفاق، والاستغفار بالأسحار، ولكن لم يا ترى؟

صلة الآية بما قبلها:

قلت إن لهذه الآية الكريمة صلة وثيقة بما قبلها، وقد حدثتنا الآية الكريمة عما زين للناس، كما أودع في غرائزهم ونفوسهم، وهذه المزينات لا بد لها من مقاومة جريئة حتى لا تحول الإنسان عن مسيرته الخيرة، والآية الكريمة التي معنا جاءت علاجاً، ودواء، وحصناً وسلاحاً، وزاداً تغذي المسلم، وتعلمه، وتمنحه القدرة والقوة، وتمنعه من أن يضعف أمام هذه المزينات، وإليكم بيان ذلك:

الصفة الأولى: الصبر

المزينات خمس ـ كما بيناها من قبل ـ والصفات في الآية الكريمة خمس، ثم إن هذه الصفات لم تبدأ بصفة التوبة كما في سورة التوبة، ولم تبدأ بصفة الإيمان أو الإسلام كما في سورتي البقرة والأحزاب، ولكنها بدأت بصفة الصبر، ذلك لأن مقاومة ما لا يحل من هذه المزينات لا بد له

أولاً وقبل كل شيء من الصبر، وكيف يمكن أن تقاوم شهوة كشهوة النساء إذا لم يكن المسلم متحصناً بهذا الصبر؟ ومن أجل هذا كان الصبر نصف الإيمان، ومن أجل هذا كذلك وجدنا ربنا تبارك وتعالى يذكر الصبر في جميع المواطن المهمة، حتى لقد ذكر الصبر في كتاب الله تعالى في أكثر من سبعين موضعاً.

ولقد وجدنا النبي ﷺ يبين الدرجة العليا للصبر في كثير من أقواله وأفعاله، «فأمر المؤمن كله خير لأنه إما أن يصبر وإما أن يشكر»(١) ومن هنا قيل: «الصبر نصف الإيمان» وهل الإيمان إلا شكر وصبر؟ ولقد جعل النبي ﷺ «الصبر ضياء»(٢) والقرآن الكريم جاء فيه قوله سبحانه ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾(٣)، فإذا كانت الشمس ضياء وهي أصل الكواكب، فإننا نفهم من هذا أي من جعل النبي ﷺ الصبر ضياء، نفهم منه أن الصبر هو أصل الفضائل، وهذه قضية لا مرية فيها.

ولقد فطن الراغب - رحمه الله - إلى هذه الحقيقة، وهي أن الصبر أصل لفضائل كثيرة، فالصبر هو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل، فإن كان حبساً للنفس في بلاء فهو صبر، وإن كان حبساً لها في قتال فهو شجاعة، وهكذا فضائل النفس جميعاً، ولهذا قال سبحانه ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾(٤)، فهذه الآيات جمعت وبينت ما للصبر من منزلة، كما بينت ما يتشعب له الصبر من

---

(١) روى مسلم في كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير عن النبي ﷺ «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» ج ٤ ص ٢٢٩٥.

(٢) رواه مسلم - كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء - حديث ٢٢٣ - ١/٢٠٣.

(٣) سورة يونس: ٥.

(٤) سورة البقرة: ١٧٧.

فضائل كثيرة، فالبأساء يطلق على الفقر وكل ما يشبهه من نوازل، والضراء تطلق على المرض وكل ما يلحق بالنفس مما تكرهه، وحين البأس تطلق على ساحة الوغى وما يشبهها مما يقتضي الثبات ويتطلب القوة.

ولعظم منزلة الصبر جعل الله لكل شيء جزاء معلوماً، وأجراً معيناً مقدراً، اللهم إلا الصبر فلم يخصه الله بجزاء معين أو أجر مقدر، وإنما جعل أجره لا يحصى، قال تعالى **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**[1]

ولقد حث الله نبيه في آيات كثيرة على الصبر، وبين له أن الصبر إنما هو سنة الرسل عليهم السلام وبخاصة أولي العزم منهم، قال سبحانه **﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾**[2] وقال: **﴿واصبر لحكم ربك﴾**[3]، وقال **﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾**[4]، وقال **﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾**[5] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فإذا كانت هذه صفة أولي العزم عليهم السلام، فما أجدرنا أن تكون صفة الصبر جوهرية في أنفسنا حتى لا نجزع ولا نعجز.

وضد الصبر الجزع، والجزع صفة يكرهها الله ورسوله، والجزع والعجز أخوان. ولقد نهانا النبي الكريم ﷺ عن العجز (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا

---

(١) سورة الزمر: ١٠.
(٢) سورة النحل: ١٢٧.
(٣) سورة الطور: ٤٨.
(٤) سورة القلم: ٤٨.
(٥) سورة الأحقاف: ٣٥.

ولكن قل قدر الله وما شاء فعل)[1].

والعجز صفة تنخر كيان الإنسان كله، تحول بينه وبين كل خير، فإذا أصبح العجز للإنسان خلقاً وعادة فإنه يحول بينه وبين حلاوة العبادة، ويحرم الأمة من نعمة السيادة، ويسلبها صفات القيادة والريادة، هذا كله في الدنيا، أما في الآخرة فيحرمها ما خص الله به المؤمنين بقوله ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[2].

هذا هو العجز والجزع، فإذا أردنا أن نتجنب كل هذه المثالب، فلا بد من أن يكون الصبر الأساس لكل ما ندع ونذر، لذلك بدئت هذه الآية الكريمة بالصبر، لأنه هو الذي يمنحها القوة على المقاومة، ويقطع دابر ما للنفس والشيطان من وسوسة ومساومة.

الصفة الثانية: الصدق:

أما الصفة الثانية فهي الصدق، وإذا كانت هذه المزينات لا بد لها من صبر نقاوم به تأثيرها وشدتها، فإنه لا بد لها من صدق كذلك، إن كثيرين من الناس يدّعون مقاومة هذه المزينات، ولكنهم يحرمون الصدق. كثيرون يدعون الزهد والعفة والتواضع والقناعة، ولكنهم مع ذلك تكون حقيقتهم غير ما ادّعوه، ولذلك كان الصدق الصفة الثانية بعد الصبر، وليس الصدق صدق الحديث فحسب، إنما الصدق أن تصدق مع نفسك ومع الناس بعد أن تصدق الله سبحانه، إنما الصدق أن يكون ظاهرك وباطنك سواء، يصدق كل منهما الآخر، وقولك وعملك سواء.

ولقد بين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام أن الصدق يؤدي إلى البر، والبر يؤدي إلى الجنة، والصدق مراتب تصل بصاحبها ليكون

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر.

(٢) سورة يونس: ٢٦.

صدّيقاً، والصدّيقية مرتبة دون النبوة، قال سبحانه ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[1] فذكرت رتبة الصديقين بعد رتبة النبيين، فإذا أردت أن تكون صديقاً فلا بد أن تتحرى الصدق في كل شيء، في قولك وعملك ونيتك وظنك، فصدق القول التبرؤ من الكذب، وصدق العمل التبرؤ من الفخر والرياء، وصدق النية التبرؤ من الوسوسة وسوء الظن. قال تعالى: ﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾[2]. فإذا تحريت الصدق في ذلك كله، وتغلبت على خطرات السوء، ووساوس الشيطان، وهواجس النفس وأوهامها، فلا حرج على فضل الله بأن يكرمك بهذه الرتبة الرفيعة. يقول سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام (ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)[3]

وإذا كان الصبر يحبس نفسك في مقاومة هذه المزينات السابقة، فإن الصدق يعينك على تقويم نفسك في معاملة هذه المزينات، الصبر يمنحك القوة، والصدق يمنعك الهوة.

الصفة الثالثة: القنوت:

وللقنوت معان كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرة، ولكنها لا تخرج عن الطاعة والخضوع. قال تعالى ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) سورة محمد: ٢١.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ـ حديث رقم ٥٧٤٣ ـ ٢٢٦١/٥.

صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً﴾[1]، وللقنوت أثر كبير ووظيفة عظيمة في محاربة المزينات وعدم الاغترار بها، ذلك لأن الصبر حبس النفس فهو في الحقيقة قهر لهذه النفس وحملها على تحمل ما تكره، وأما الصدق ففيه حمل النفس على أن تتفاعل مع واقعها. وعلى هذا فليس فيهما ـ أي الصبر والصدق ـ أمر إيجابي يشغل النفس ليحل محل هذه المزينات، وهنا يأتي دور القنوت، لأن القنوت هو الطاعة والعبادة.

وعلى هذا ندرك أهمية القنوت، ذلك أن الإنسان لم يجعل الله له قلبين في جوفه، فإذا أراد أن يتخلص من شيء مما يشغله ويملأ عليه تفكيره فإن خير ما يعينه على ذلك أن يشتغل بغيره، وكلما استطاع الإنسان أن ينمي هذا الشيء الجديد، استطاع أن يتخلص من سابقه، فإذا هيمنت صفة القنوت على صاحبها، وبدأ يتذوق حلاوة العبادة والطاعة ـ القنوت ـ كان ذلك خير عون له على طرح كل ما تعلقت به النفس من حب الشهوات، قال سبحانه ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[2]، وهكذا تجد في صفة القنوت ما يعمر قلبك، وينير دربك، ويرضي ربك.

الصفة الرابعة: الإنفاق.

وانظر رحمك الله كيف جاءت صفة الإنفاق بعد الصبر والقنوت، وإياك أن تظن أن سبب ذلك هو عدم أهمية هذه الصفة أو التقليل من أثرها وشأنها، فالإنفاق من أبرز الصفات التي تمتحن بها النفوس، ويختبر بها الناس، ألا ترى أنها ذكرت أول صفة من صفات المتقين في قوله

---

(١) سورة الأحزاب: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٨.

سبحانه ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضرّاء﴾[1].

أما مجيئها هنا على هذا الترتيب فله أسراره وحكمه، وعظاته ودروسه. ومن هذه الأسرار والدروس أن الصفات الثلاثة المتقدمة وهي الصبر والصدق والقنوت ليست لفئة دون فئة من الناس، أما الإنفاق فإنّما هو للقادرين عليه. ومن هذه الأسرار والحكم كذلك أن حب الشهوات قد يحمل كثيراً من الناس على إنفاق المال دون حساب. ومن هذه الأسرار كذلك أن هذا الإنفاق قد يكون رياء إذا لم يكن عند المنفق صبر وصدق وقنوت، لأجل ذلك كله وغيره ذكرت هذه الصفة في المرتبة الرابعة.

فإن قيل: فما شأن الإنفاق في محاربة حب الشهوات؟ قلنا إن له شأناً كبيراً، فإذا كان الإنفاق ناشئاً عن صدق وعبادة، فإنه يعين على انتزاع حب الدنيا من قبل المنفق ليطمع فيما عند الله تعالى، وهذا من شأنه أن يذيب حدة حب الشهوات، ويذهب جدّتها ذلك لأن النفوس طبعت وجبلت على الحرص وحب المال. قال تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾[2] وقال: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[3] والإنفاق من أعظم وسائل محاربة الشح في النفس. وفي الحديث الصحيح (أنفق يا ابن آدم أنفق عليك)[4].

الصفة الخامسة: الاستغفار بالأسحار:

وإنما ختمت هذه الصفات جميعاً بهذه الصفة لأنها سياج لكل ما

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٣، ١٣٤.

(٢) سورة النساء: ١٢٨.

(٣) سورة الحشر: ٩، سورة التغابن: ١٦.

(٤) رواه البخاري ـ كتاب النفقات ـ باب فضل النفقة على الأهل ـ حديث ٥٠٣٧ ـ ٥/٢٠٤٥.

تقدمها من صفات وأحوال والسحر هو آخر الليل، وقد وردت أحاديث عن سيدنا رسول الله ﷺ وآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم في محافظتهم على تخصيص هذا الوقت للاستغفار، فهذا ابن عمر رضي الله عنهما كان يسأل نافعاً أدخل السحر، فيقول نافع: لا فيصلي ابن عمر، فإذا قيل له نعم، أي دخلنا في السحر جلس يستغفر، ولقد شاع بينهم أن يعقوب لما قال لأبنائه سوف أستغفر لكم ربي»، أراد أن يؤجله إلى وقت السحر.

وقد أثنى الله سبحانه على المتقين كقوله ﴿**كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون**﴾[1]، والاستغفار طلب المغفرة من الله، وأصل الغفر الستر، ولقد بين القرآن الكريم أن للاستغفار فوائد كثيرة، ونتائج طيبة، لا تقتصر على محو الذنب وحده، وهذه الفوائد لها دائرتان إثنتان:

الأولى: دائرة الأفراد.

والثانية: دائرة الجماعة.

ومن هذه الفوائد سعة الرزق، والحياة الطيبة، وزيادة القوة إلى غير ذلك مما تكون به السعادة. قال تعالى: ﴿**وأن استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله**﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿**ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم**﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم**

(١) سورة الذاريات: ١٧، ١٨.
(٢) سورة هود: ٣.
(٣) سورة هود: ٥٢.

مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[1].

فإذا تساءلت ما صلة الاستغفار بهذه النعم العظيمة؟ قلت لك: إن الاستغفار هو محو الذنوب، وإن الأمة المسلمة إنما تؤتى من قبلها ويصيبها المكروه، وتحل بها النكبات، ويستولي عليها عدوها، ويتسلط عليها، أقول الأمة المسلمة إنما يصيبها ذلك كله بسبب ذنوبها ومعاصيها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[2] وإلى قوله سبحانه للمسلمين في غزوة أحد ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾[3]، فإذا كانت المعاصي بسبب الذنوب، وكان الاستغفار يمحو هذه المعاصي ويسترها، فإن من نتيجة ذلك أن تتنزل رحمة الله على هذه الأمة، فيمنّ عليها بالحياة الطيبة فيكون لها سنداً، ويرسل لها مدداً، ويهيء لها رزقاً رغداً، هذا في محيط الجماعة.

أما في دائرة الأفراد فإن في الاستغفار فضلاً عن مغفرته الذنب جلاء القلب، وتفريج الكرب، وستر العيب، وأمتنا التي تعاني اليوم من شظف العيش، ومرارة الطيش حري بها أن ترجع إلى الاستغفار فهو لها أنور سراج، وخير علاج، وهو الذي يزيل عنها هذا الضعف، وينقلها من هذا الضيق، إلى أرحب طريق، ويحول ما تتخبط به من خذلان إلى السعادة والتوفيق، فبالذنوب تموت القلوب، ورحم الله ابن المبارك حيث يقول:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها

---

(١) سورة نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٥.

وتــرك الــذنــوب حــيــاة الــقــلوب
وخــير لــنــفــســك عــصــيــانها
وهــل أفــســد الــديــن إلا المــلوك
وأحــبــار ســوء ورهــبــانها؟

ولقـد صدق ابن المبـارك، فـإن الـذنـوب تـورث هـذين المـرضـين الخـطيرين، وهما مـوت القلوب الذي يصيب الأفـراد والذل الـذي يصيب الجماعة، فإذا تحقق الاستغفار سلمت الأمة من هذه الأمراض.

ثم اعلموا أرشدكم الله أن الاستغفار الحق ليس هذا الذي ينطق به اللســان فحسب، وإنما هـو الذي يجري على القلب فينتقـل إلى اللســان، والاستغفار باللســان وحده دون أن يكـون للقلب فيه دخـل وأثر، إنما هو ذنب يضـاف إلى غـيره من الـذنـوب، وهـذا هـو الـذي قـال فيـه أربـاب القلوب: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار».

ولعلكم الآن تـدركـون لمـاذا ذكـرت هـــذه الصفـة (والمستغفــرين بالأسحار) في سياق حب الشهوات، ذلك لأن هذا الاستغفـار يجلو القلب فيجعله مرآة ناصعة القلب يصلح لنظر الله تبارك وتعالى، لأن الله إنما ينظر للقلوب، ومن كان هذا قلبه فإنه لا محل فيه لحب الشهوات المحرمة.

الصلة بين الآيتين:

بقيت كلمة أخيرة في هذه الخماسية: كانت الشهوة الأولى في الخماسية الثالثة شهوة الجنس وهي حب الشهوات من النســاء أو حب الشهوات من الرجال، وهذه تحتاج أكـثر ما تحتـاج إلى الصبر وهي الصفـة الأولى في هذه الخـماسية، ويلحق بـالنســاء البنـين فهم محتـاجـون إلى الصـبر في تـربيتهم كذلك، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**

لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾[1]، وهـاتان الشهـوتان بحاجة كذلك إلى الصدق.

أما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة، وهما مبعث الـطمع والخيـلاء، ـ كما مـر من قبـل ـ فـما أحـوجهـما إلى صفتي القنـوت والإنفـاق، لأن القنوت هـو الخضوع والـطاعة، ولأن الإنفـاق هو محـاربـة الشح، وبهذين يتغلب الإنسان على شهـوة القناطـير المقنطرة وشهـوة الخيل المسومة.

أما الأنعام والحـرث، وهما أكـثر هذه المـزينات إشغـالاً لصاحبهـما، يمنعانه من لذيذ نومه، ويمـلآن كل ليلتـه ويومـه، وذلك لمـا فيهما من كثـير عمـل ونصب، ويكفي أن نشاهـد بعض أولئـك الـذين اشتغلوا بـزرعهم وأنعامهم، لندرك هذه الحقيقة، ولعـل هذا هـو السر ـ والله أعلم ـ في أن آخر صفة كانت في هذه الآية الكريمة (المستغفرين بالأسحار) لأن صـاحب الأنعام والحرث قلما يجد الوقت الذي يمكنه من هذه النعمة العظيمة، والمنة الكريمة، وهي الاستغفار بالسحر، فما أعظم هذا الترتيب البديع في الآيات الكـريمة. وصدق الله **﴿وبـالحق أنزلنـاه وبالحق نـزل﴾**[2] و**﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾**[3] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة طه: ١٣٢.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٥.

(٣) سورة الكهف: ١.

الخماسية الخامسة

قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آيـاتـه زادتهم إيمـانـاً وعـلى ربهم يتـوكلون الـذين يقيمـون الصلاة وممـا رزقناهم ينفقـون أولئك هم المؤمنـون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾[1].

الحكمة من بيان صفات المؤمنين:

من عـظيم فضل الله تعـالى، وجميل منّـه أن بيّن لعبـاده مـا يجب أن يتحلّوا بـه من وصف، ويتزينـوا به من عمـل، ليكونـوا مؤمنين صـادقين، ذلـك لأن بعض النـاس لا يقـدرون عـلى اقتحـام العقبـة، ولا يمكنهم أن ينضبطوا في كثير من تصرفاتهم، فيحاول أحدهم أن يضع مقاييس خاصـة للإيمان والاستقامة والحق، ولا يتردد بعد ذلـك أن يمنح هـذه الأوصاف لمن شاء، فقد تجده يترك بعض الفرائض، أو يفعل بعض المنهيـات ومع ذلـك يـأبى إلا أن يطلق عـلى نفسه أنـه هو المؤمن محـاولاً أن ينال من غـيره وهـو يوجه لهم التهم دون دليل، أو يلقي في طريقهم الشبهـات.

ومن رحمـة الله سبحانـه أن لم يـترك هـذا الأمـر لأهـواء النـاس، أو مشتهياتهم، بل بين لنا سبحانه صفات المؤمنين في آيـات كثيرة من كتـابه، وكـانت هذه الصفـات في كل آيـة منسجمة مـع موضـوعات السـورة التي ذكرت فيها.

---

(١) سورة الأنفال: ٢ ـ ٤.

انسجام الصفات مع سياق السورة التي ذكرت فيها:

ألا ترى إلى قوله سبحانه في سورة النور ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

أقول: ألا ترى أن هذه الآيات الكريمة جاء فيها وصف المؤمنين متفقاً مع السياق، منسجماً مع موضوع الآيات الكريمة، ذلك لأن الحديث كان سابقاً عن المنافقين،وكان هؤلاء المنافقون يتسللون من مجلسه عليه الصلاة والسلام لواذاً،ظانين أن لا يطلع عليهم أحد، كما يتسلل اليوم كثيرون من شرعه عليه وآله الصلاة والسلام، فإذا كان المنافقون يتسللون من المجلس، فإن المنافقين في أيامنا هذه يتسللون من شرعه.

وكل من هؤلاء وأولئك يدّعي الإيمان، بل أن منافقي اليوم أشد سوءاً، لأنهم يدعون الوصاية على هذا الشرع، ويعطون أنفسهم الحق ليصفوا المسلمين بما شاؤوا من الصفات، فتارة يسمونهم المتشددين، وأخرى المتزمتين، وثالثة المتشنجين، ورابعة الأصوليين، وفئة أخرى تسميهم الرجعيين، إلى غير ذلك من أوصاف.

ولم يكن المنافقون قديماً يجرؤون على مثل هذا، فجاءت آية النور تبين أن المؤمنين الصادقين هم الذين يثبتون مع الرسول عليه وآله الصلاة

(١) سورة النور: ٦٢ ـ ٦٣.

والسلام، لا يتركون مجلسه إلا لعذر قاهر، وذلك بعد أن يستأذنوه عليه وآله الصلاة والسلام، فانظر إلى هذه المقارنة بين الفئتين، الفئة التي تتسلل من مجلسه لواذاً عليه وآله الصلاة والسلام، والفئة التي لا تغادر إلا لعذر وبعد استئذان.

وأنظر إلى هذه الآية في سورة الحجرات ﴿**إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾[1]، فإن هذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله سبحانه ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾[2]، وهم قوم ادّعوا الإيمان بألسنتهم، فجاءت الآية الكريمة تبين أن هذا ليس شأن المؤمنين، إنما المؤمنون الذين ثبت الإيمان في قلوبهم فخلا من كل ريب وشك، وبذلوا النفس والمال في سبيل الله. وهكذا جاءت آية الحجرات متسقة متفقة مع الآية التي قبلها.

أحببت أن أذكر هذه المقدمة كي يتذوق القارىء الكريم حلاوة الآيات، وذلك حينما يدرك مغزاها الذي جاءت من أجله وسياقها الذي جاءت فيه، وليستطيع الإجابة عما يعرض له من أسئلة سواء كان ذلك مما يجول في خاطره، أم مما يوجهه إليه غيره. وبعد هذا يدرك أن كل آية ابتدأت بقوله تعالى (إنما المؤمنون) جاءت تناسب الظرف والموضوع، والسياق. ولنرجع إلى الآية الكريمة التي اشتملت على أوصاف خمسة:

الصفة الأولى: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم.

الذكر ضد النسيان، والوجل: استشعار الخوف، والقلب هو آلة الإدراك والإرادة والشعور، بيان ذلك أن إدراكنا الأشياء قد يكون عن

(١) سورة الحجرات: ١٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٤.

طريق محسوس كالسمع والبصر، وقد لا يكون كـذلك، بـل يكون إدراكـاً معقولاً وهو الفؤاد.

ولما كانت آلة السمع الأذن، وآلة البصر العين، فإن القلب هو الـة الإدراك الـذي محله الفؤاد، وإن شئت قلت هو آلـة الفؤاد. قـال تعـالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئـك كان عنـه مسؤولاً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾[٢] فـانظر كيف جمـع هذه الثـلاث ـ أعني القلب والأذن والعين ـ وفي الآية السـابقة جمع السمع والبصر والفؤاد، ويمكننـا أن نفهم من هاتين الآيتين الكريمتين ارتباط الأذن بالسمع لأنها أداته وآلته، وارتباط العين بالبصر لأنها طريقته ووسيلته، وارتباط القلب بالفؤاد،

ومما يزيد هذا المعنى توضيحاً وتفسيراً هذه الآيـة الكريمـة وهي قولـه سبحانه ﴿وأصبـح فؤاد أم موسى فـارغاً أن كـادت لتبدي بـه لولا أن ربطنا عـلى قلبها﴾[٣]، فـانظر كيف جمـع الفؤاد والقلب في آية واحـدة، وذكر منته على هذه المرأة الصالحة الصابـرة بأن ربط عـلى قلبها، كـما امتنّ على عباده بقوله: ﴿وليربط على قلوبكم﴾[٤]، فنسـأل الله أن يربط عـلى قلوبنا حتى لا يضلها الهـوى، ولا يزلهـا الشيطان، ولا تـذلها الشهـوة، ولا يعلهـا المرض، ولا تغـل على مسلم، ولنـرجع بعـد هـذه التعـريفـات إلى الصفة الأولى فنقول وبالله التوفيق.

حث القرآن والسنة على الذكر.

اعلم أرشـدك الله أن ذكـر الله تبـارك وتعـالى يجلو القلوب ويهـذب

(١) سورة الإسراء: ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.
(٣) سورة القصص: ١٠.
(٤) سورة الأنفال: ١١.

النفوس، ولذلك وجدنا النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة تحث عليه وتثني على الذاكرين وتوبخ أولئك المعرضين عنه، بل ترشد إلى الإكثار منه والدوام عليه. قال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[1] وقال سبحانه: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾[2]، وقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[3]، وقال سبحانه ﴿فاذكروني أذكركم﴾[4]، وقال: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[5]، وقال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله)[6].

الشيطان يحول بين الإنسان وذكر ربه:

واعلم أن بغية الشيطان من العبد التي يبذل من أجلها كل ما يستطيع من دهاء ووسوسة، وإغواء وغواية، أن يحول بين الإنسان وبين ذكر ربه، وعندها يصل إلى ما يريد، وعندها يتملك هذا الإنسان ويستولي عليه، ويسوقه إلى ما يريده منه، ومصداق ذلك في قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٥.
(٣) سورة الأحزاب: ٢١.
(٤) سورة البقرة: ١٥٢.
(٥) سورة الجمعة: ١٠.
(٦) رواه الترمذي ـ كتاب الدعوات ـ باب خير الأعمال ـ حديث ٣٣٧٤.

﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[1].

أقسام الذكر:

واعلم أن الذكر قسمان: ذكر يحمل عليه الخوف من الله تبارك وتعالى، وذكر سببه الإنعام والإحسان، ذكر الجلال وذكر الجمال، ذكر الهيبة وذكر الحب، ذكر الخوف وذكر الرجاء. ولقد فهم بعضهم أن كل واحد من هذين الذكرين له من النتائج ما يختلف عن الآخر، قالوا: ألا ترى إلى قوله سبحانه في هذه الآية ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾[3]، فالذكر الذي نتيجته الوجل يؤدي إلى الخوف، والذكر الذي نتيجته الرجاء والإحسان يؤدي إلى الطمأنينة لأن هذا الوجل تنشأ عنه الطمأنينة التامة قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾[4]،

وعلى هذا فالوجل هو الذي يعقب الذكر ثم يطمئن القلب، والوجل استشعار الخوف - كما قلت من قبل - وبهذا روى تفسيره عن بعض الصحابة رضوان الله غليهم. فعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، يا شهر بن حوشب، أما تجد له قشعريرة؟ قلت: بلى، قالت: فادع الله فإن الدعاء يستجاب عند ذلك. وعن ثابت البناني: قال: قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي؟ قالوا:

(١) سورة المجادلة: ١٩.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) سورة الزمر: ٢٣.

ومن أين لك ذلك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي. وسيأتي للذكر مزيد تفصيل إن شاء الله.

الصفة الثانية: قوله ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾

وهذه صفة ناشئة عن الصفة التي قبلها، فإذا كان ذكر الله سبحانه يؤدي بالذاكرين إلى وجل القلوب واستشعار الخوف هيبة من المذكور سبحانه، وخوف عقابه ورجاء ثوابه، فإن من هذا حاله إذا تليت عليه آيات الله زادته هذه الآيات إيماناً.

تأثير القرآن على النفوس:

والقرآن الكريم له من التأثير على النفوس ما لا يوجد لكتاب آخر، فإذا أقبلت على تلاوته النفوس صادقة، فإنه سيمدها بنور تهتدي به في الظلمات، وتزداد به يقيناً، وهذا هو الفرق بين تلاوة المتدبر الذاكر، وبين تلاوة اللاهي الغافل، فإذا أردنا أن نعرف تلاواتنا ونتبصر بها، فلننظر إلى نتائجها ونهاياتها، فإذا هي أثرت في هذه النفوس، فآبت إلى رشدها، وأعرضت عن غيّها، وذكرت ما قامت به من عقوق، وذكرت ما عليها، من حقوق لله وللناس فأصلحت عقوقها، وأدت حقوقها، وزال ما فيها من شك وريب، وحاولت أن تصلح كل نقص وعيب، وهذا كله دليل وعلامة على زيادة الإيمان؛ كانت تلاوة المتدبر الذاكر.

إن القرآن كلام الله سبحانه، فإذا تلاه المسلم بهذا اليقين تلاه وهو يستشعر أنه خطاب الله إليه، وفيه إقامة الحجة عليه، فإن ذلك سيزيده إيماناً لا محالة. وهناك نماذج كثيرة من أولئك الأبرار الذين دفعتهم تلاوة الآيات إلى التخلص من الشر والضير، ونفعتهم فجلبت لهم كل خير، ألم

يأتكم نبأ أبي الدحداح رضي الله عنه حينما استمع إلى قول الله **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾**[1] كيف أنفق خير ما يملك وهو بستان لـه قريب من مسجد رسول الله ﷺ، فبينما كان أهله، امرأته وأولاده فيه، قال لها: يا أم الدحداح أخرجي فلقد أقرضت هذا الحائط ربي؟!

ألم يأتكم نبأ ابن عمر رضي الله عنهما، حينما قرأ قوله تعالى **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**[2]، فوقف وبدأ يفتش في نفسه عن أحب الأشياء إليه فأنفقه في سبيل الله تعالى؟!

ألم يأتكم نبأ هذين الزوجين الصالحين الصحابيين الجليلين أبي الدرداء وأم الدرداء وقد كانا يتلوان كتاب الله، فلما وصل إلى قوله تعالى: **﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين﴾**[3]. فقال يا أم الدرداء إن لله مراجل تغلي في جهنم، وقد خلصت نفسك من نصفها، وهو الإيمان بالله العظيم، فخلصي نفسك من نصفها الآخر وهو الحض على طعام المسكين.

ألم يأتكم نبأ هؤلاء الصحابة الذين سمعوا قول الله تعالى **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**[4]، فأجهشوا في البكاء والحزن لأنهم خشوا عذاب الله حتى ذهب

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ٩٢.

(٣) سورة الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤.

(٤) سورة التوبة: ٣٤.

عمر رضي الله عنه فسأل النبي عليه وآله الصلاة والسلام عن ذلك، فأخبره النبي أن ذلك فيما لم تؤد زكاته؟!(1)

والأخبار في ذلك لا يحصيها كتاب ولا تستوعبها ذاكرة، ولا يوفيها قلم، تلك التي تبين لنا تأثير القرآن بمن صدق في تلاوته فازداد إيماناً.

وقد ذكر الزمخشري في كشافه عند تفسير قوله سبحانه ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾(2) عن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قَعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل عليّ، فتلوت: (والذاريات) فلما بلغت قوله تعالى ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: (فورب السماء والأرض إنه لحق) فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه حتى ألجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه».

نعم إن القرآن كائن حي يقبل عليك بقدر ما تقبل عليه، ويمنحك

---

(1) رواه البخاري ـ كتاب الزكاة ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز، قول ابن عمر «من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال» ـ ٢/٥٠٩.

(2) سورة الذاريات: ٢٣.

(3) الكشاف للزمخشري: ٤/٤٠٠.

من الإيناس بقدر ما يكون لـك من الإخلاص، وسيـأتي مزيـد بحث لهذه الصفة في خماسية لاحقة إن شاء الله.

الصفة الثالثة: قوله (وعلى ربهم يتوكلون).

أي عليه لا على غيره ـ كما يشير إليه النـظم الكريم ـ والتـوكل عـلى الله تفويض الأمر إليه في كل شيء، ولقد ذكر الله التوكل في آيـات كثيرة، تارة يأمر به، وتـارة يبين لنـا أنه من صفـات عباده الأبـرار، يقول الـرسل عليهم السلام وقد كذبهم أقوامهم ﴿وعلى الله فليتوكـل المؤمنون ومـا لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[1]، ويقول يعقوب عليه السـلام لبنيه: ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾[2]، ويقول مـوسى عليه السلام: ﴿يا قـوم إن كنتم آمنتم بالله فعليـه توكلوا إن كنتم مسلمـين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا بـرحمتك من القـوم الكـافـرين﴾[3]، ويقـول لنبيـه عليـه وآلـه الصـلاة والسـلام ﴿وتـوكل عـلى الحي الذي لا يمـوت وسبح بحمـده وكفى به بـذنوب عباده خبيراً﴾[4]، ويقـول سبحانـه: ﴿فإن عصـوك فقل إني بـريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبـك في السـاجدين﴾[5]، ويقـول سبحانـه: ﴿فتوكـل على الله إنـك على الحق

---

(١) سورة إبراهيم: ١٢.
(٢) سورة يوسف: ٦٧.
(٣) سورة يونس: ٨٤ ـ ٨٦.
(٤) سورة الفرقان: ٥٨.
(٥) سورة الشعراء: ٢١٦ ـ ٢١٩.

المبين﴾[1] وهذه الآيات الثلاث جاءت في سور متجاورة مرتباً بعضها مع بعض، فالآية الأولى في سورة الفرقان والثانية في سورة الشعراء التي تليها، والآية الثالثة في سورة النمل وهي بعد سورة الشعراء.

ثمرة التوكل:

ونتيجة التوكل وثمرته هي من خير الثمار والنتائج لأن صدق التوكل يحيطك برعاية من توكلت عليه، فيكون الله حسبك يكفيك كل ما أهمك وما لا تهتم به. قال سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[2]، وهذا ليس في أمر الرزق فحسب، بل هو عام في كل أمر.

ويخطىء كثير من الناس في فهم التوكل فيظنون أنه انقطاع عن الأسباب، وهذا أمر ينافي روح الإسلام العامة والخاصة، فالكتاب والسنة لا تحصى فيهما تلك النصوص التي تحث على العمل. قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[3] وقال في تسخير البحر: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾[4]، وأمر بالعمل في آيات كثيرة. ولقد بينت السنة ذلك خير بيان (اعقل وتوكل)[5]، (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[6]، وكانت الطير أحرى من الإنسان بأن يرزقها

---

(١) سورة النمل: ٧٩.

(٢) سورة الطلاق: ٣.

(٣) سورة الملك: ١٥.

(٤) سورة الروم: ٤٦.

(٥) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة ـ باب: اعقلها وتوكل حديث ٢٥١٩، ٧/٢٠٥. وقال: حديث غريب.

(٦) رواه الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب في التوكل على الله ـ حديث ٢٣٤٥ ـ ٧/٩٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الله في وكناتها وعشوشها، ولكن إنها تغدو خماصاً تخرج جائعة باحثة عن القوت فيهيئه الله لها فتروح بطاناً أي ترجع ممتلئة بطونها، وهذا المثل بالطير الذي ضربه النبي عليه وآله الصلاة والسلام جدير بأن يكون للمسلم فيه ذكرى وموعظة.

مفهوم التوكل:

إن التوكل تفويض إلى الله في كل شيء وإن الذي أمرك بالتفويض أمرك بالعمل، فلا يجوز لك أن تفعل واحداً منهما وتترك الآخر، فالتوكل بدون عمل انحراف وجهل، والعمل بدون توكل فسق وجحود. قال أحدهم: رأيت يوماً وأنا سائر في طريقي عصفوراً يحمل في منقاره بعض الطعام، فيلقيه في فم بومة عمياء، قعدت عن تحصيل القوت، فقلت في نفسي سبحان الله: ألست أكرم على الله من هذه البومة، ففيم العمل، ولم النصب؟ أفلا أجلس فيهيء الله لي ما هيأ لها، فسمعت وكأن هاتفاً يهتف بي: أيهما أكرم لك، أن تكون مثل هذه البومة أم أن تكون كالعصفور؟ كن كالعصفور يجري الله على يديك الخير.

إن التوكل لا يجوز إلا على الله سبحانه، ونحب أن ننبه إلى هذا الأمر، لأننا نسمع كثيراً من الناس يقول بعضهم لبعض: «متوكل على الله وعليك» وهذا أمر لا يجوز أبداً إن التوكل على الله وحده، فلا يجوز أن يكون على أحد من خلقه، حتى على الأنبياء والمرسلين، وليس معنى هذا أنه يجوز أن يقول: متوكل على الله ثم عليك، فهذه العبارة وتلك سواء.

والتوكل أن تفوض إلى الله، وأن لا تشك في وعده، وأن تحسن الاعتماد عليه.

وهذه الصفات الثلاث: الوجل، وزيادة الإيمان، والتوكل هي

صفات قلبية، أي من الأعمال التي محلها القلب، ولهذا بدىء بها لأن القلب هو الأساس، فمن صلح قلبه صلحت جوارحه.

الصفة الرابعة قوله: (الذين يقيمون الصلاة).

وقد ذكر الله هذه الصفة مع ما لها من منزلة بعد الصفات الثلاث، لأن الصلاة من قلب لاه غير مطمئن لا تزيد صاحبها إلا بعداً، أما إذا كانت الصلاة من قلب خائف وجل تؤثر فيه الآيات فتصقله، فتلينه وترققه، ويعتمد على الله في كل شيء، فهذه هي الصلاة الزكية التي تصله بخالقه، وقد قال سبحانه ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾[1]، وقال: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[2].

وينبغي أن ننبهك هنا إلى أن القرآن الكريم يذكر فيه دائماً فى معرض الثناء والمدح، أو في سياق الأمر والتوجيه، يذكر فيه دائماً إقامة الصلاة، وليست الصلاة فحسب، وما أعظم الفرق بينهما.

إن الله سبحانه أثنى على عباده بقوله: ﴿**وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿**ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة**﴾[4]، وقال: ﴿**قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة**﴾[5]،

(١) سورة طه: ١٤.
(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.
(٣) سورة الحج: ٣٤.
(٤) سورة البقرة: ١٧٧.
(٥) سورة إبراهيم: ٣.

وقال: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾[1]، ولن تجد آية واحدة من كتاب الله قيل فيها صلوا، بل إن كلمة المصلين وردت في قوله ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[2] وهذا يدفعنا للتساؤل عما بينهما من فروق، فنقول وبالله التوفيق.

مفهوم الصلاة:

ليست الصلاة هذه الحركات التي يقوم بها المصلي فحسب، وإنما الصلاة عبادة يشترك فيها الكيان البشري كله، الجسم والفكر والروح، فإذا كان الجسم يتحرك بأركان الصلاة ركوعاً وسجوداً، وقياماً وقعوداً فإن الفكر يتدبر ويتأمل، وإن الروح لتخشع وتعرج في ملكوت الله، ومن أجل ذلك كله كان للصلاة هذه المنزلة في دين الله، فكانت أول ركن عملي من أركان الإسلام بعد الشهادتين، ومن هنا كان للعبد من صلاته ما عقل منها.

والصلاة لا تقتصر ثمرتها على أدائها فحسب، وإنما لكي تكون هذه الصلاة جديرة عند الله تعالى بالقبول فلا بد لها من وسيلة قبلها وغاية بعدها، فإذا اجتمعت لها مقدماتها ونتائجها كانت الصلة بين العبد وخالقه.

مقدمات الصلاة:

أما مقدماتها فهي أن يطهر المرء لها ظاهره وباطنه، وأن يقبل عليها برغبة وجد ونشاط، وأن يعد نفسه إعداداً يليق بالوقوف بين يدي علام الغيوب، ولقد ذم الله المنافقين لأنهم يصلون دون أن تتحقق هذه المقدمات في صلاتهم، فلم يطهروا لها بواطنهم، ولم يقبلوا عليها بجد ونشاط. قال

---

(١) سورة البقرة: ١١٠.

(٢) سورة الماعون: ٤، ٥.

تعالى: **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾**[1].

نتائجها:

وأما نتائجها فهي أن تلجم صاحبها عن الفحشاء، وتحول بينه وبين المنكر وتعده ليكون عنصر خير، قال سبحانه: **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**[2] فإذا اجتمعت للصلاة هذه المقدمات والنتائج، فإن من أكرمه الله بذلك يكون مقيم الصلاة.

أما من كانت صلاته عارية عن ذلك كله لا يطهر لها باطنه، ولا يقبل عليها إقبال فرح بها، ولا تصل به إلى هذا السمو الروحي والخلقي والاجتماعي فلا يسمى مقيم الصلاة عند ذلك.

وعلى هذا فإقامة الصلاة ليست الصلاة فحسب، وإنما أداؤها كاملة غير منقوصة، ولهذا لم يذكر القرآن في معرض الثناء أو في معرض الأمر إلا إقامة الصلاة، فإذا أديت الصلاة على هذه الصفة، كنت من الذين فازوا بالبشارة، أما إذا لم تؤد الصلاة على هذه الصفة فإن مؤديها لا يسمى مقيماً للصلاة.

وللصلاة شأن في دين الله، فهي رمز الجماعة المسلمة، وهي الشعيرة الاجتماعية المعلنة في أوقات متعددة كل يوم، بل قل هي العبادة التي لا يخلو منها وقت من أوقات الليل والنهار فلو أننا استعرضنا أوقاتنا كلها لوجدنا أنه لا تخلو لحظة من لحظات اليوم إلا ويرتفع فيها صوت المؤذن لهذه الصلاة، فإذا كنا نصلي الفجر مثلاً فإن أناساً في منطقة أخرى يصلون

---

(١) سورة النساء: ١٤٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

الظهر، وآخرين يصلون العصر، وغيرهم يصلي المغرب، وجماعة يصلون العشاء، وصدق الله ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[1].

ولعظم شأن الصلاة فرضت في السماء.

ولم يُرَ تشديد النكير على شيء كما كان على ترك الصلاة، فالرسول عليه وآله الصلاة والسلام يبين في كثير من الأحاديث الصحيحة «إن تاركها يحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف»[2]، ذلك لأنه إن شغله عنها الملك فهو مع فرعون، أو المال فهو مع قارون أو الوزارة والإدارة فهو مع هامان، أو التجارة والجاه فهو مع أبي بن خلف.

ومما يدلك على عظيم شأن الصلاة، وفظاعة جريمة تاركها، أن سيدنا رسول الله ﷺ بين أنه(أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء)[3] القتل وترك الصلاة - إذن - هما أول الجرائم سؤالاً يوم القيامة، ويبدو لنا أن سر هذه المقارنة - والله أعلم - هي ما بين هاتين الجريمتين من صلة، وما بينهما من تشابه، فقاتل النفس أزهق نفساً فحال بينها وبين الحياة، وتارك الصلاة قتل روحه حينما حرمها من حياتها، بيان ذلك: أن الإنسان خلقه الله من عنصرين عنصر أرضي وهو هذا الجسم الترابي، وعنصر علوي وهو الروح، وهي التي صار

---

(١) سورة يونس: ٦.

(٢) قال ﷺ: من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة، وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان، وأبي بن خلف رواه أحمد بإسناد جيد من حديث عبدالله بن عمرو، وكذا رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان في صحيحه. المنذري.

(٣) أخرجه النسائي عن ابن مسعود.

الإنسان بسببها تراباً حياً فوق تراب الموت، فإذا ذهبت عاد تراباً ميتاً في تراب ميت.

ولكل من هذين العنصرين غذاؤه اللائق به، فغذاء الجسم من جنسه، من هذه الأرض ولكن غذاء الروح شيء آخر، وسيأتي لذلك بيان مفصل إن شاء الله، فإذا منع الإنسان جسمه من غذائه، فإنه سيحكم عليه بالموت، وإذا منع روحه من غذائها فقد حكم عليها بالعدم والنهاية وأهم عنصر يتحقق فيه غذاء الروح هو الصلاة، وأظنك الآن تدرك الحكمة التي جمع من أجلها بين قاتل النفس وتارك الصلاة، ذلك أن حكمهما قاتل، لكن الأول قتل نفساً بعيدة عن نفسه، وأما تارك الصلاة فلقد حكم على روحه هو بالقتل والإماتة، وهي إماتة له، فأنت بالروح لا بالجسم إنسان.

ولعظم شأن الصلاة كذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يهرع إليها دائماً إذا حزبه أمر قائلاً: (أرحنا بها يا بلال)[1]، و(بين لنا عليه وآله الصلاة والسلام: إنه جعلت قرة عينه في الصلاة)[2]، فأعظم بعبادة، وأكرم بشعيرة جعلت فيها قرة عين النبي ﷺ.

ولقد عرف الأبرار شأن هذه الصلاة، سئل أحدهم يوماً أيهما أحب إليك صلاة ركعتين أم دخول الجنة؟ فقال: إن صلاة ركعتين والله أحب إليّ من دخول الجنة، قيل: ولم؟ قال: لأن في صلاة الركعتين إرضاء لربي، وفي دخول الجنة إرضاء لنفسي، وإرضاء ربي خير من إرضاء نفسي.

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب الأدب ـ باب صلاة العتمة ـ حديث ٤٩٦٤، عون المعبود ١٣/٣٣٠.

(٢) رواه عن أنس كل من أحمد في مسنده والنسائي والحاكم في مستدركه (الجامع الصغير ١/٥٦٧)

وأخيراً فلها لهذه الصلاة من شأن كانت آخر وصية لسيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى (الصلاة وما ملكت أيمانكم)[1]

الصفة الخامسة: (ومما رزقناهم ينفقون).

والنفقة تشمل الزكاة وصدقة التطوع. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة، وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة كذلك تحث على الإنفاق وتأمر به، حتى ان ملكين يناديان كل مطلع شمس يقول أحدهما (اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[2]. وقد تحدثنا عن هذه الصفة من قبل في الخماسية الرابعة. وصدق الله: ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[3].

يقول الله سبحانه بعد ذكر هذه الصفات (أولئك هم المؤمنون حقا)، وما أعظمها من شهادة من الله ـ والله أكبر شهادة ـ وهنيئاً لمن نال هذه المرتبة وشرف بهذه الدرجة فكان مؤمناً حقاً. وقد سئل الإمام الحسن البصري رضي الله عنه، وهو الذي أرضع بلبان النبوة، فلقد كانت أمه تخدم إحدى أمهات المؤمنين، وكان طفلاً صغيراً فإذا بكى وضعته على ثديها فنال هذه البركة العظيمة، وكان إمام صدق علماً وورعاً وزهداً، وأجرى الله على لسانه الحكمة، فلم يُرَ كلام مؤثر ككلامه، سئل يوماً هل أنت مؤمن؟ فقال: إن سألتني عن الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ ١/٢٦٩٧. قال في مجمع الزوائد: إسناده حسن لقصور أحمد بن المقدام عن درجة أهل الضبط وباقي رجاله على شرط الشيخين.

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة ـ حديث ١٣٧٤ ـ ٢/٥٢٣.

(٣) سورة البقرة: ١٩٥.

فأنا مؤمن، وإن سألتني عن قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. . .) الآية، فلا أدري أأنا منهم أم لا؟. .

شمول هذه الصفات لأعمال القلوب والجوارح.

وهذه الصفات الخمس شملت أعمال القلوب والجوارح، وشملت العبادات القلبية والبدنية والمالية، فالأوصاف الثلاثة من أعمال القلب ـ كما قلنا من قبل ـ والصلاة تجمع بين عبادة البدن والروح، والإنفاق عبادة مالية، ولهذا قال الله سبحانه في جزاء هؤلاء المؤمنين ﴿**لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾، فانظر كيف كافأهم بهذه الأمور الثلاثة:

الدرجات أولاً، والدرجات هي المنازل العليا التي لا يعلم كنهها إلا الله وحده، ولقد وردت آثار كثيرة في بيان هذه الدرجات، وفيها بين الدرجة والدرجة، ويظهر أن هذه الدرجات جزاء للصفات الثلاث الأولى، وهي وجل القلب، وزيادة الإيمان عند تلاوة الآيات والتوكل على الله.

والجزاء الثاني هو المغفرة، ويظهر أن هذه المغفرة كانت جزاء للصلاة، فقد ورد أن الصلوات كفارات للذنوب، وهذا معنى المغفرة،

وأما الرزق الكريم فهو جزاء الإنفاق مما رزقهم الله، فكما أنفقوا من رزق الله في الدنيا كافأهم برزق في الدنيا والآخرة فما أعظم هذا الترتيب البديع المعجز، جعلنا الله من هؤلاء، وجزى الله سيدنا محمداً خير ما يجزى نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه، وصلّى الله على سيدنا محمد وسلم.

الخماسية السادسة

قال سبحانه: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

الصفة الأولى: المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

هذه الآية الكريمة التي ذكرت فيها صفات المؤمنين سبقتها آية ذكر فيها أوصاف المنافقين، وهي قوله سبحانه ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم، نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾[2].

فالمنافقون والمنافقات فسدت طباعهم، وأظلمت قلوبهم، وقلبوا حقائق الأشياء، فاستحبوا المنكر الذي ينكره الشرع والعقل، ولم يقف

(١) سورة التوبة: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) سورة التوبة: ٦٧ ـ ٦٨.

الأمر بهم عند هـذا الاستحباب، بـل أمروا بـه وزينوه لغـيرهم، وكرهـوا المعروف الذي هـو خير كله،

ولم يقف بهم الأمر عند هـذه الكراهـة، بل نهوا عنـه، وصدوا عنـه الناس، وشوهوا صورتـه الجميلة الجذابـة، وقبضوا أيـديهم بخلاً وشحـاً، ونسوا الله المنعم ذا الجلال والإكرام،

وبعد أن بينت الآية جـزاء أولئك المنـافقين وجعلتهم مـع الكفار في هذا الجزاء بينت الآية التي بعدهـا ـ وهي الآية التي نتحـدث عنها صفـات المؤمنين ـ فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وهذه الولاية حرم منها المنافقون، فالمنافقون والمنافقـات بعضهم من بعض، أما المؤمنـون فبعضهم أولياء بعض، وشتان بين التعبيرين، ذلـك أن المنافقـين ليس بينهم ولاية، فـلا تجمعهم رابطة مـا، وما ذلـك إلا لأنهم هيمنت عليهم صفتـا البخـل والجبن، فما يبدو بينهم من روابط ليس إلا مصلحة خاصة سرعان ما تزول فهم لا يستطيعون التضحية بشيء من دنياهم.

ولقد حدثنـا القرآن عن طبيعتهم هـذه في آيات كثـيرة، نكتفي منها بمثـال واحد، فهـا هم حينما وعـدوا اليهود من بني النضـير أن ينـاصروهم ويقاتلوا معهم، بين القـرآن كذبهم: ﴿**ألم تـرَ إلى الذين نـافقوا يقـولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم**﴾[١]، ويقول القـرآن تعقيبـاً على هـذا القول: ﴿**والله يشهـد أنهم لكاذبـون لئن أخرجـوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صـدورهم من الله ذلك بـأنهم قوم لا يفقهون**﴾[٢]

---

(١) سورة الحشر: ١١.

(٢) سورة الحشر: ١١ ـ ١٣.

أما المؤمنون فأكرم بما بينهم من ولاية، هـذه الولايـة التي أمرهـم الله بها، فكانت الأساس المتين والركيزة القوية التي انبثقت عنها كل الصفـات الخيرة، ولاية المؤمنين بعضهم لبعض هي التي ركز عليهـا القرآن في آيـات كثيرة، وبين أنها أساس القوة التي منـح الله المؤمنين فـإذا انفرط عقـد هذه الولاية تلاشت كل الصفات التي بنيت عليها، ولقـد حذر الله المؤمنـين في آيات كثيرة أن تتلاشى هذه الولاية فيما بينهم وأن يتخذوا غير المؤمنين أولياء فقال سبحانه: **﴿لا يتخذ المؤمنـون الكافـرين أولياء من دون المؤمنـين ومن يفعــل ذلــك فليس من الله في شيء إلا أن تتقــوا منهم تقــاة، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾**[1].

فانظر إلى هذا الوعيد الإلهي والتهديد الرباني إن هم تمردوا وخرجوا عن هـذا النهي الذي نهوا عنـه، وهو أن يتخـذوا الكـافـرين أوليـاء، وأن يتركوا ولايـة بعضهم لبعض فمن يفعل ذلـك، أي من ترك ولايـة المؤمنين واتخـذ غيرهم أوليـاء «فليس من الله في شيء» وهو تهـديد تتقـطع له نيـاط القلوب، ومـاذا يبقى للمؤمن إن تخلى الله عنه؟ (ليس من الله في شيء) أي لا يواليه الله تبارك وتعالى فلا ينصره الله ولا يرضى عنه، ويكون بينـه وبين الله كل البعد، ثم قال الله بعد ذلـك في تحذيـر آخر «ويحـذركم الله نفسه» أي يحذركم عقاب نفســه،

فانظر كيف تولى الله نفسه هذا التحذير، ولم يتركـه لأحد غـيره، ولم تـأتِ هذه العبـارة الكريمـة، أعني يحـذركم الله نفســه إلا في سيـاق ولايـة المؤمنين لغيرهم» فلقد تولى الله تعالى بنفسه هذا التحذير، وما ذلـك ـ والله أعلم ـ إلا لأنه ليس هناك شيء أخطر على المؤمنـين من أن يوالـوا غيرهم، لأن في هذه الموالاة إطفـاء لنور الـدين، وذبولاً لـزهره، وإضعـافاً لشجـرة الإيمـان، لذلـك تولى الله هـذا العقاب بنفســه، ويحذركم الله نفســه، فـما

---

(١) سورة آل عمران: ٢٨.

أحرانا أن نبتعد عن جريمة يتولى الله فيها نفسه العذاب والعقاب.

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1]. فانظر إلى أنواع هذا الغضب، نعوذ بالله، حيث حكم الله على هذا المتولي لغير المؤمنين بأنه منهم، ثم أكد الله لنا بأنه لا يهديه ولا يكرمه بنور الهداية، وثالثاً وصفه بالظلم، وفي آية أخرى: ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[2]،

والآيات في هذا كثيرة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾[3]، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾[4]، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾[5] في هذه الآيات جميعاً نداء للمؤمنين ووصف لهم بالإيمان، وذلك كله للاهتمام بهذه القضية الخطيرة ووجوب مراعاتها، والوصف بالإيمان ليكون باعثاً لهم على أن يتركوا هذه الموالاة فإذا فعلوا ذلك، أكرمهم الله بالغلبة والنصر على عدوهم، ومنَّ عليهم بالرضوان وصدق الله: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[6].

الصفة الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الإسلام،

---

(١) سورة المائدة: ٥١.

(٢) سورة التوبة: ٢٣.

(٣) سورة الممتحنة: ١.

(٤) سورة الممتحنة: ١٣.

(٥) سورة النساء: ١٤٤.

(٦) سورة المائدة: ٥٦.

وقاعدة من قواعد هذا الدين، ولكنها ليست قاعدة محدودة المعالم، ضيقة المساحة، بل هي قاعدة عريضة تنتظم أصول الإسلام، لذلك أكد عليها كثيراً في الكتاب والسنة على السواء، تارة بالأمر بها، وتارة أخرى بجعلها صفة من الصفات التي يحبها الله تبارك وتعالى، والتي يتبوأ المسلمون بها منزلة سامية عالية في الدنيا والآخرة.

فمن الأول قوله سبحانه **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**[1] وقوله سبحانه يحدثنا عن لقمان الذي آتاه الله الحكمة وهو يعظ ابنه: **﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾**[2] ومما جاء عن حذيفة (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضنّ على الخير أو ليسحتنكم الله جميعاً بعذاب، وليؤمرنّ عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم﴾[3]، وقوله عليه وآله الصلاة والسلام: (يا أيها الناس إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر من قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتسألوني فلا أعطيكم وتستنصروني فلا أنصركم)[4]، والشواهد كثيرة في ذلك أكثر من أن تحصى.

ومن الثاني ـ أي كونها صفة يبوأ المسلمون فيها منزلة سامية في الدنيا والآخرة قوله: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[5] وقوله: **﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم**

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة لقمان: ١٧.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/٣٩٠ عن حذيفة

(٤) رواه أحمد والبزار (انظر: مجمع الزوائد ٧/٢٦٦) وفيه عاصم بن عمر أحد المجاهيل

(٥) سورة آل عمران: ١١٠

الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾[1].

والآية التي معنا، والتي كانت فيها نتيجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رفعة في الدنيا والآخرة، أما رفعة الدنيا فقوله سبحانه **﴿أولئك سيرحمهم الله﴾**، وأما رفعة الآخرة فقوله: **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾**، ومنها ما جاء في هذه السورة سورة براءة **﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾**[2]، والنصوص الكريمة كثيرة كما قلت من قبل.

والناظر في كتاب الله تبارك وتعالى، وسنة رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، يجد أن هذا المبدأ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما ركز عليه في العهد المدني، فنحن لا نكاد نجد سورة من السور المكية أمر فيها المسلمون بتحقيق هذا المبدأ، صحيح قد يذكر ذلك حكاية عن السابقين كما مر معنا في وصية لقمان لابنه.

وعلى هذا يكون هذا المبدأ من المبادىء التي أشير إليها في العهد المكي، على أنها من الصفات الخيرة المحببة، أما إيجابه على المسلمين وحثهم عليه ومطالبتهم به، فإنما كان في العهد المدني حينما صار للمسلمين مجتمعهم الخاص بهم، وهذا أمر منسجم مع المنطق والواقع، ذلك لأن المعروف هو ما أقره الشرع والعقل والعرف، والمنكر ما أنكره الشرع والعقل والعرف، وذلك لا يتحقق تحققاً تاماً إلا في مجتمع توحدت فيه أصول العبادات والعادات، ولم يكن ذلك متحققاً في المجتمع المكي،

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.

(٢) سورة التوبة: ١١٢.

الذي كان في ظاهره وغالبيته وأعرافه العامة والخاصة غير منسجم مع أصول الإسلام وقواعده.

ومما يرشد إلى هذه القضية التي أشرت إليها أنا ندرك بداهة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعنا الذي نعيش فيه يختلف تماماً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإيطالي أو الفرنسي، إذ تختلف الأصول والأعراف، بل الفروع كذلك بين مجتمعنا وبين تلك المجتمعات، لذلك وجدنا أن هذا المبدأ قرر أكثر ما قرر في العهد المدني.

والنتيجة التي تترتب حتماً على ما ذكرت أنه لا عذر لأحد في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما دام المجتمع يزعم أنه مجتمع مسلم، وما دام الإسلام يدعي أنه دين هذه المجتمعات.

وإذا كنا نتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد من أن ندرك ما لهذا المبدأ من نتائج إيجابية أو آثار سلبية واقفين مع نصوص الكتاب والسنة غير مبعدين ولا مغربين هذه واحدة، وأما الثانية فلا بد من أن نعرف منزلة هذا المبدأ من هذا الدين وأما الثالثة: فلا بد أن ندرك ميادين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذه أمور ثلاثة لا بد من أن نعرض لها ليكون المسلم على بينة من أمره.

أولاً: منزلته:

أما منزلة هذا المبدأ من الإسلام فمما يدلنا عليها ويبينها لنا خير بيان هذه الآية الكريمة **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾**[1]، فانظر كيف ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) سورة التوبة: ٧١.

المنكر قبل أعظم ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة، وما ذلك إلا لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل جماعي، أعني أنه مسؤولية الجماعة المسلمة،أما الصلاة والزكاة فيمكن أن يكونا عملين فرديين.

ثم إن الصلاة والزكاة من أركان الإسلام، فربما يخطر في قلوب بعض الناس بأنه ما دام قد أدى هذه الأركان من صلاة أو زكاة، فقد فعل كل ما يجب عليه، فلا عليه إن لم يفعل غيرهما، وعلى هذا يهون عليه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، محاولاً أن يقنع نفسه، بأنه قد أدى الأركان وهي أكثر أهمية من غيرها فجاءت الآية الكريمة لترد على هذا الفهم، ولتمحو ذلك الوهم، حيث ذكرت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الصلاة والزكاة،

وهذا من روائع النظم وبديع التركيب في الآية الكريمة، فكم من مصلٍ ومؤد للزكاة إنما هداه الله لهاتين العبادتين لأنه وجد من يأمره بمعروف وينهاه عن منكر، ثم إن الصلاة والزكاة لا تتم ثمرتهما للفرد والجماعة إذا عطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والأمثلة في مجتمعنا كثيرة.

لعلك تعرف كثيرين من الناس، يأبى أحدهم إلا أن يصلي في الصف الأول، ولكنه مع ذلك يترك لأهله زوجه وأولاده الحبل على الغارب، يدعهم وما يفعلون، وربما يجد حرمة من حرمات الله تنتهك، وباباً من أبواب الشرع يوصد، فلا يتحرك له طرف، ولا يشمئز له قلب.

لذلك كان هذا المبدأ ـ أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ سياجاً واقياً للصلاة والزكاة وغيرهما من أجل أن يكون للعبادة نتيجتها المرجوة منها.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية الكريمة ذكر قبل الصلاة والزكاة، كي لا ترد الصلاة على صاحبها ويضرب بها وجهه، ولكي لا

تكون الزكاة حجة على صاحبها، وليست هذه الآية وحدها هي التي قدم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أركان الإسلام من صلاة وزكاة، فهناك غيرها من الآيات، ويكفي أن نقرأ قول الله تعالى ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[1]. فانظر كيف قدم الأمر بالمعروف على الإيمان بالله، مع أن الإيمان بالله هو أساس لقبول الأعمال، ولكن يقال في هذه الآية ما قيل في الآية السابقة، ذلك أن الإيمان بالله إذا أردنا أن نستظل بظلاله الوارفة، ونجني من ثماره اليافعة، ونستضيء بأنواره الكاشفة: إذا أردنا ذلك فلا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا اتبع كل واحد هواه، وكان الإيمان أماني عند كثير من الناس، وليس الإيمان بالتمني.

منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ إذن ـ لها المكانة الأولى في نفس المسلم، لأن لها هذه المكانة عند الله ورسوله ﷺ، ومن أجل ذلك كله ترتبت عليهما النتائج الخطيرة إيجاباً وسلباً، فما هي هذه النتائج والآثار؟

ثانياً: نتائجه وآثاره:

وسوف لا نجد عنتاً ولن نلاقي صعوبة، ولن نتحمل عناء في بيان النتائج الإيجابية، أو الآثار السلبية التي تترتب على هذا المبدأ العظيم، فمن حسن الحظ – والمنة لله ورسوله ـ فصل ذلك تفصيلاً وافياً في الكتاب والسنة.

النتائج الإيجابية:

١ ـ من النتائج الإيجابية للمجتمع الذي تحقق فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخيرية ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون**

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[1]، ومع هذه الخيرية أن الله ضمن لهذه الأمة ـ ومن أحسن ضماناً من الله ـ أن تكون أفضل الأمم، وهذه الأفضلية والخيرية تتجلى آثارها في كل ميدان من ميادين الحياة،

ومن هذه الميادين: القوة، والعلم فلا يمكن أن تتحقق الخيرية لأمة إلا إذا كانت مرهوبة الجانب، فالضعف والخيرية لا يجتمعان، ولن تتحقق الخيرية كذلك إذا كانت الأمة تتخبط في دركات الجهل، فالخيرية والجهل لا يجتمعان.

ومن ميادين الخيرية التفوق والعزه، ومن ميادين الخيرية الأخوة والحب، ذلك أن التفوق والتباغض من أفظع وأفدح الشرور التي تبتلى بها الأمم والجماعات.

ومن ميادين الخيرية الشجاعة والبذل، فإن شر ما تصاب به الأمم شح هالع، وجبن خالع،

ومن ميادين الخيرية: الصبر والتحمل والإيثار، ذلك أن الجزع والأنانية يذهبان بريح الأمة ويقضيان على روح الجماعة، فتتحول إلى كيانات فردية هزيلة متنافرة.

وبالجملة فإن ميدان الخيرية ينتظم كل الصفات التي تؤهل الأمة للقيادة والسيادة والريادة،وتنتشلها من وهدة الذل وحفر الظلام، وتخلصها من عوامل الخوف، فلا تخشى إلا الله، ولن تتحقق هذه الخيرية إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ من النتائج الإيجابية الفوز والفلاح، وهذا نحده في قوله سبحانه

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٤.

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1]،

٣ ـ الصلاح ونجد هذا في قوله سبحانه: ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾[2].

٤ ـ الرحمة، وهذا ما نطقت به الآية التي معنا (أولئك سيرحمهم الله).

٥ ـ البشارة من الله تبارك وتعالى، والبشارة من الله عنوان الخير، وتجد هذا في قوله سبحانه ﴿الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[3].

وهذه النتائج جميعاً تظهر آثارها في هذه الحياة الدنيا، أما في الآخرة فهناك نتيجة طيبة، وهي مساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر. وهذه النتيجة نقرؤها في الآية التي معنا ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[4]

هذه بعض النتائج الإيجابية بإيجاز وإجمال.

الآثار السلبية:

أما الآثار السلبية التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي كثيرة،وفي مقدمتها أضداد النتائج السابقة، فإذا كانت الخيرية نتيجة إيجابية، فمعنى هذا أننا إذا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمسينا شر أمة، وفقدنا جميع الميادين التي تنتج عن هذه الخيرية، وصار

---

(١) سورة آل عمران: ١١٤.

(٢) سورة التوبة: ١١٢.

(٣) سورة التوبة: ٧٢.

الضعف والجهل، والتأخر والذلة، والبغض والتدابر، والجبن والبخل، والجزع والأنانية والأثرة وغيرها السمات والصفات البارزة وكلها سوء وشر... ويجري هذا التبدل في كل النتائج التي ذكرت من قبل، فلا فلاح ولا صلاح، ولا رحمة ولا بشارة، وبالتالي نفقد أفضل ما يتمناه المسلم من صفات، نفقد رضوان الله تبارك وتعالى.

ومن الآثار السلبية التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحيلولة بين الأمة وبين أن تنتصر على عدوها، وهذا ما يشهد له قول الله كما في حديث سيدنا رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر من قبل أن تستنصروني فلا أنصركم)[1]، ومعنى هذا أن الأمة لن تتمكن من النصر على عدوها، حتى لو أنها تمكنت من أعظم أسباب القوة عدة وعدداً، والواقع خير شاهد على ذلك فنحن من حيث العدد أكثر من عدونا بأضعاف مضاعفة، ومن حيث العدة تنفق أمتنا الأموال الطائلة الكثيرة على التسلح، وعلى سبيل المثال فهناك بلد واحد فقط بلغ مجموع ما عليه من ثمن أسلحة لدولة واحدة من الدول الكبرى ما يقرب من خمسة آلاف مليون دولار، هذا بلد واحد، وهذه الديون لدولة واحدة، فكم على هذا البلد من الديون لغير هذه الدولة؟ ثم هذه دولة عربية واحدة وهي من مجموع بضع وعشرين دولة، وهذا كله تحقيق لقول الله الذي جاء على لسان النبي ﷺ (من قبل أن تستنصروني فلا أنصركم).

ومن الآثار السلبية كذلك عدم إجابة الدعاء حيث تغلق أبواب السماء حتى لا يصعد ذلك الدعاء ـ والدعاء مفتاح السماء ـ والله تعالى

(١) سبق تخريجه.

يقول ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[1] فإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رد هذا الدعاء، حتى لو كان الداعي من أهل الخير، ويشهد لهذا ما جاء في الحديث الآنف الذكر (يا أيها الناس إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر من قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتسألوني فلا أعطيكم)[2].

ومن الآثار السلبية ما يصيب الأمة من أمور جسام حيث يسلط عليها شرارها فيذيقها الله لباس الجوع والخوف، يقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[3]، ويعلم الله أن هذا من أعظم العقوبات، وأشد أنواع الغضب، ذلك أن أي نازلة تصيب الأمة يمكن أن ترتفع بالجؤار إلى الله. قال تعالى ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾[4]. ولكن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع هذه الإجابة.

نحن نعلم أن الدعاء لا يستجيبه الله إذا لم يكن الداعي أهلاً للإجابة، ومن هذا ما جاء في الحديث الصحيح عن الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك[5]. أما في مسألتنا هذه - وهي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فإن أولئك الخيار

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة النحل: ٥٣.

(٥) رواه مسلم - كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب - ح ١٠١٥ - ٧٠٣/٢.

الـذين طاب مـطعمهم ومشربهم وتحروا الحـلال في كل شيء وابتعـدوا عن كل شبهة، هم الـذين لا يستجاب لهم، ومن هنـا كان الأمـر خطيـراً كل الخـطورة، فإذا كـان الخيار لا يستجـاب لهم دعاء، فـذلك إنمـا يعني بكل صراحة إيذان الله بالحرب، وهذه قضية بحاجة إلى بيان:

إن الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر واجب بـإجمـاع العلماء، فـإذا تركته الأمة فقد تركت واجباً، فأثمت جميعها فلا يستجاب لخيـارهم دعاء، وقد يقال، فإذا كان بعض الناس من خيار هذه الأمة أمروا بمعروف أو نهوا عن منكر، والأمة سادرة في غيها أفلا يستجاب لهم إذا دعوا لهذه الأمـة أن يغير الله ما بها من سوء؟ وللإجابة عن ذلك أقول:

هـذا الدعـاء لـه جـانبـان: جـانب فـردي وجـانب جمـاعي، ونعني بالجانب الفردي أن يدعو هذا الإنسان بالخـير لنفسه، ولمن أحب، بتفـريج كرب ومغفرة ذنب، وسـتر عيب، ونعني بالجـانب الجماعي أن يـدعو هـذا الفرد للأمة لإصلاح وضعها وتغيير واقعها فيستجيب الله دعاءه في الجـانب الأول، لأنه جانب خـاص، أما الجـانب الآخر وهـو ما يتعلق بـالأمة فـلا يستجيب الله تبارك وتعالى فيه الدعاء، لأن إجابة الدعـاء مخالفـة لسنة الله تبارك وتعالى، ونستدل لذلك بما نقله العلامة المنـاوي في فيض القديـر عما جـاء في الحلية عن أنس رضي الله عنـه يقول قـال رسـول الله ﷺ: (يـأتي زمان على الناس يدعو فيه المرء للعامة فيقول الله له: ادع لنفسك أستجب لك أما العـامة فـإني عليهم ساخط)[1] والـذي نفهمه من هـذا أن الدعـاء

---

(١) الحلية ٦/١٧٥ وقال غـريب من حديث صـالح تفـرد به داود بن المحبر. وفي سنن أبي داود ـ كتاب الملاحم ـ حديث ٤٣٢٠ ـ ٤٣٢١ قال رسـول الله ﷺ كيف بكم وبزمـان يـوشك أن يـأتي يغربـل الناس فيـه غربلة تبقى حثـالة من النـاس قد مـرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه فقـالوا كيف بنـا يا رسـول الله فقال تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تنكرون وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتهم.

للعامة ليس معناه إلا الدعاء للأمة، وهذا متفق مع الحديث الصحيح الذي ذكرناه (وليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

ومن هذا كله نتبين أن أمر الدعاء خطير، وأخطر ما فيه حينما يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إننا نسمع في كل مسجد وفي كل خطبة وفي كل ناد دعاء كثير من الناس، اللهم ول أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا»، ويؤمن المستمعون على هذا الدعاء، ولكننا نجد الداعين والمؤمنين على السواء هم الذين يرفعون الظالمين إلى سدة المسؤولية فكيف يجيب الله دعاءهم وأعمالهم تخالف هذا الدعاء؟ فما أجدر المسلمين أن يتنبهوا لهذا الأمر الخطير وأن يذكروا أن استجابة الله لهم مرتبطة باستجابتهم لله. قال تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾[1]، فالله يجيب دعوة الداعي إذا استجاب الداعي لربه، وإلا فكيف نطلب من الله أن يستجيب لنا ولا نطلب من أنفسنا الاستجابة لله، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. إننا نطرب ونترنم على قول عمر رضي الله عنه (من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه) ولكننا نكون أكثر طرباً وترنماً على قول ذلك الأعرابي لعمر رضي الله عنه: «والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا». ونكتفي عند هذه القولة والترنم بها والطرب لها، وواقعنا العملي مناقض كل التناقض وبعيد كل البعد عن روح هذه الكلمات وعرفها الطيب وفوحها الشذى.

ومن الآثار السيئة التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

المنكر أن يضرب الله قلوب الأمة بعضها ببعض، فتصير قلوباً قاسية سوداء، ويصبح بأس الأمة بينها شديداً، ويذيق بعضهم بأس بعض، ويضرب بعضهم رقاب بعض، وهذه العقوبة ـ يعلم الله ـ أشد من التي قبلها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإليه المشتكى والمفزع ونستشهد لذلك بقوله ﷺ (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد،فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ـ إلى قوله (فاسقون) ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً)[1].

ومن الآثار السيئة ما تتعرض له الأمة من لعنة الله كما جاء في الآية، وفي هذا الحديث، وماذا بعد هذا من داهية تسود لها الوجوه، وتصفر لها الأنامل؟!، ذلك أن اللعنة إنما هي طرد من رحمة الله، وماذا يبقى لقوم حرمهم الله رحمته.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما جاء في النصوص الآنفة الذكر فيهما صلاح الدنيا والآخرة، ولذا نجد كثيراً من الأمم الكافرة التي التزمت بقولة الحق والإنكار على الظالم والباغي، ومحاسبة المخطىء، نجد هذه الدول قد صلحت لها دنياها، ونحن نسمع في الأخبار، ونقرأ في وسائل النشر،الكثير عن هذه المواقف التي يخضع فيها كل واحد بقطع النظر عن مركزه ومنزلته ومنصبه وجاهه يخضع للمحاسبة والمراقبة، حتى لقد وصل الأمر أن أبعد من يتسنمون أرقى المناصب عن مناصبهم، وما

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي ـ رقم الحديث ٤٣١٤.

أمر فضيحة (ووترجيت) ببعيد، وما يوم حليمة بسر.

ويلوح لي أن هذا سر من أسرار الآية الكريمة التي قدم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الإيمان بالله في قوله ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغير المسلمين فيه صلاح دنياهم، وللمسلمين مع الإيمان بالله فيه صلاح دنياهم وآخرتهم. وهذا مقام يطول القول فيه، ولا يسمح لنا المقام أن نواصل الحديث فهو حري بكتاب خاص به.

ثالثاً: ميادينه:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقتصر على ميدان واحد من ميادين الحياة - كما يظن بعض الناس - فلا يقتصر على القضايا الدينية حيث نأمر المقصر بأداء الفرائض من صلاة وصيام، وننهى المرتكب للمحرمات عن هذه المحرمات، ولكنه يشمل فيما يشمل أمور الحياة كلها، يشمل ميدان السياسة، والثقافة، والتعليم، ويشمل الميادين الاقتصادية، والاجتماعية، يشمل الفرد والأسرة على السواء، ذلك أن الإسلام الذي أكرمنا الله به ينظم هذه الميادين جميعها، ويحكم ما بينها من علاقات، فلا يمكن أن يدعي أحد بأنه ينفذ أوامر الله ورسوله في شؤون الصلاة والصيام، أما اختيار نظم الحياة الأخرى، فله أن يختار ما شاء، ذلك قول لا يرتضيه الإسلام أبداً فللدين دائرتان اثنتان: الدنيا والآخرة ولا ينبغي أن تفصل إحداهما عن الأخرى، ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) سورة النساء: ٦٥.

وإذا كـان الأمر كـذلك، أي إذا كـان الإسلام ينـظم جميع منـاحي الحياة فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل ميادين الحياة جميعاً فهـو الذي يحكم في قضايا الأمة السيـاسية وكيفيـة معاملتهـا لأعدائهـا إيجابـاً أو سلباً، ويبين لها كيف ينبغي لها أن تكون علاقاتها مع الأمم؟ وعلام ينبغي أن تبنى هذه العلاقات؟ فنقرأ في ذلك قولـه سبحانـه ﴿لا ينهاكم الله عن الـذين لم يقاتلوكم في الـدين ولم يخـرجـوكم من ديـاركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليهم إن الله يحب المقسـطين إنمـا ينهـاكم الله عن الـذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم، وظاهـروا على إخـراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمـون﴾[١]. وهو الـذي يحكم الأمـور العسكريـة كذلـك ﴿وأعـدوا لهم مـا استـطعتم من قـوة﴾[٢]. ﴿قـاتلوا الـذين يلونكم من الكفـار وليجـدوا فيكم غلظة﴾[٣]. كـما يحكم في أمـور المجتمع والأسرة ﴿وآت ذا القـربى حقه والمسكـين وابن السبيـل﴾[٤] ﴿ولا يبدين زينتهن إلا مـا ظهر منهـا﴾[٥]، ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾[٦]، ويحكم أمور الاقتصاد ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾[٧] ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[٨] ﴿ولا تؤتـوا السفهاء أمـوالكم التي جعـل الله لكم قيـامـاً وارزقـوهم فيهـا

---

(١) سورة الممتحنة: ٨ ـ ٩.
(٢) سورة الأنفال: ٦٠.
(٣) سورة التوبة: ١٢٣.
(٤) سورة الإسراء: ٢٦.
(٥) سورة النور: ٣١.
(٦) سورة النور: ٣١.
(٧) سورة الإسراء: ٢٦.
(٨) سورة الإسراء: ٢٩.

واكسوهم﴾(١) إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة المتعددة.

وفي السنة المشرفة تفصيل تام لذلك، فكل مخالفة لهذه التعاليم في جميع هذه الميادين فإنها تدخل في دائرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هذا ما ندين الله به ونلقى الله عليه.

أما فرية تديين السياسة وتسييس الدين فليست كلمة حق أريد بها باطل، وإنما هي كلمة باطل أريد بها باطل.

وعلى هذا فليس مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ فردياً، يوصي به الأفراد بعضهم بعضاً، وليس خاصاً بقضايا العبادات - كما قلت من قبل - إنما هو مبدأ اجتماعي عام لا تقف أمامه الحواجز والأسوار، بل يخترقها جميعها لتصل كلمة الحق إلى من تعنيهم هذه الكلمة، ولكن لا بد أن تؤدى هذه الكلمة مع الحكمة دون عنف أو تجهم.

وللإمام النووي كلام جيد في شرحه لصحيح الإمام مسلم عند قول طارق بن شهاب أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه».

---

(١) سورة النساء: ٥.

وبما يتساهل أكثر الناس فيه من هـذا الباب مـا إذا رأى إنسانـاً يبيع متاعاً أو نحوه فإنهم ينكرون ذلك، ولا يعرفون المشتري بعيبه، وهـذا خطأ ظـاهر، وقـد نص العلماء على أنـه يجب على من علم ذلـك أن ينكـر عـلى البائع وأن يعلم المشتري به، والله أعلم».

وأمـا صفة النهي ومـراتبه فقـد قال ﷺ في هـذا الحـديث الصحيـح (فليغيره بيده، فـإن لم يستطع فبلسـانه فـإن لم يستطع فبقلبـه) «فقولـه ﷺ فبقلبـه: معناه: فليكـرهه بقلبـه، وليس ذلك بـإزالة وتغيـير منه للمنكـر، ولكنـه هو الـذي في وسعه. وقـوله ﷺ (وذلـك أضعف الإيمان): معنـاه: والله أعلم أقله ثمرة.

قال القاضي عياض رحمه الله: «هذا الحديث أصـل في صفة التغيـير فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنـه زواله بـه قولاً كـان أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسـه أو يأمـر من يفعله، وينزع الغصـوب ويردها إلى أصحـابها بنفسـه أو بأمـره، إذا أمكنه ويـرفق في التغيير جهـده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخـوف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبـول قولـه، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهـل الصلاح والفضـل لهذا المعنى، ويغلظ عـلى المتمادي في غيـه والمسرف في بطالتـه إذا أمن أن يؤثر إغـلاظـه منكراً أشد مما غيره لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده، واقتصر على القول باللسان والـوعظ والتخويف فـإن خاف أن يسبب قـوله مثل ذلك غير بقلبه، وكان في سعة، وهذا هو المـراد بالحـديث إن شاء الله تعالى، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلـك إلى من له الأمـر إن كان المنكـر من غيره، أو يقتصر عـلى تغييره بقلبـه، هذا هـو فقه المسـألة وصـواب العمل فيهـا عند العلماء والمحققـين خلافـاً لمن رأى الإنكار بـالتصريح بكـل حال وإن قتـل

ونيل منه كل أذى. هذا آخر كلام القاضي رحمه الله».

قال إمام الحرمين رحمه الله: «ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان، قال: وإذا جار والي الوقت وظهر ظلمه وغشمه ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة، ونصب الحروب، هذا كلام إمام الحرمين.

وهذا الذي ذكره من خلعه غريب، ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه»[1].

قضايا لا بد منها.

هذا ما ذكره الإمام الصالح شيخ الإسلام النووي رحمه الله تعالى، وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الصفة نحب أن نقف بك عند بعض القضايا:

أولاً: وأول ما نلفت آنتباهك إليه أن أبا سعيد رضي الله عنه وهو الصحابي الجليل، وهو من السبعة المكثرين من الرواية عن الرسول ﷺ، وهم أبو هريرة، وأبو سعيد هذا، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وأم المؤمنين الصديقة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، والمكثرون هم الذين رووا أكثر من ألف حديث عن الرسول ﷺ. وأقول: إن أبا سعيد رضي الله عنه عد تقديم خطبة العيد على الصلاة منكراً، فكيف إذا كانت مخالفة الشرع تعطيلاً لحدود الله، أو ارتكاباً لمحرم، أو تركاً لواجب، كيف إذا كانت المخالفة في أمر لا يحتمل التأويل، لا شك أن ذلك يكون أولى بالإنكار

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/٢٦.

وإلا أوشك الله أن يعم الجميع بعقاب منه كما جاء في بعض الآثار (إن الأمة إذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نزعت منها هيبة الإسلام، وحرمت بركة الوحي) .

ثانياً: إن النهي عن المنكر له صور متعددة، فقد يكون للذي يتعاطى المنكر بإرشاده ونصيحته وتذكيره بمقام الله، ولكن هذه الصورة قد لا تجدي كثيراً عند أصحاب القلوب القاسية، والطباع الفاسدة المنحرفة، وإذاً فلا بد من آتباع طريق آخر، وأضرب مثالاً لذلك:

قد تجد بائعاً يسرق ويغش وينقص المكيال والميزان ومع ذلك فإنك تسكت عنه، وقد يكون سكوتك هذا شفقة عليه، وقد يكون خوفاً من أن تعرض نفسك لسؤال وجواب، وقد يكون ناشئاً عن عدم اهتمام واكتراث. وقد تجد موظفاً يسوف في قضاء حاجتك أو يخفي معاملتك في أحد أدراج مكتبه ومع ذلك فأنت تمتنع أن تخبر عنه للأسباب المتقدمة. وقد يشكو لك أحد الناس ظلماً وقع عليه في ماله أو نفسه أو عرضه، وقد تطلع أنت على هذا دون أن يشكو لك أحد، وقد تجد مختلساً يختلس الأموال العامة أو ينتهك الحرمات، أو يخالف الآداب العامة، ومع ذلك كله تصم أذنيك وتغمض عينيك، وهذه صور كثيرة من صور المجتمع لا يكاد يمضي يوم إلا وأسأل عنها أكثر من مرة، يقول السائلون: أيجب عليهم أن يخبروا بذلك أولي الشأن أم يمكنهم السكوت على هذا؟

والحق أن كل هذه الصور وما يشبهها من المنكرات التي لا يجوز لأحد أن يسكت عنها، فيصم أذنيه ويغمض عينيه، إن من يسكت عن مثل هذا مخالف لكتاب الله وسنة رسوله عليه وآله الصلاة والسلام،

ويصدق عليه أنه من الذين رأوا المنكر فلم ينكروه، فالواجب على المسلم أن يكون قواماً بالقسط، ولا يكون كذلك إلا إذا ردع صاحب المنكر عن منكره، قال تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى﴾[1]

والتغاضي عن هذه الصور جميعها وما يشبهها سكوت عن المنكر واتباع للهوى، فالمؤمن الصادق يتحرى الحق دائماً حتى لا يعرض نفسه ومجتمعه لعقاب الله. وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه)[2].

الصفة الثالثة: (ويقيمون الصلاة):

ولقد تحدثنا عن هذه الصفة في خماسية سابقة، ومع ذلك فإن الحديث عن الصلاة لا يمل. ذلك لأن للصلاة كأي عبادة من عبادات الإسلام جوانب ثلاثة: الجانب الروحي، والجانب الفكري، والجانب الاجتماعي، وهذا بالطبع غير الجانب البدني الذي تؤدى فيه الصلاة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً.

الجانب الروحي في الصلاة.

أما الجانب الروحي فهو ما يشعر به المصلي من السكينة والطمأنينة. وهو يقف بين يدي ربه يخشى الله كأنه يراه، وهو يستحضر عظمته وجلاله، يفرح وهو يعلم أن الله يوجه وجهه نحوه في صلاته، ويرتجف فؤاده وهو يخاف مقام ربه، وتطمئن نفسه وهو يذوق حلاوة القرب من الرب في سجوده.

---

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) ج ١ ص ٢. ورواه ابن ماجة في كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٠/٤٠٠٥.

الجانب الروحي يظهر في تلك الشفافية التي يكرم بها مقيم الصلاة فيتغلب على عنصر الحمأ المسنون فتكسبه الصلاة صلابة في الحق، وتحول بينه وبين أن يسلط الشيطان عليه، فيكبح جماح نفسه فينهاها عن هواها، فتكون له جنة، ويشم من خلالها ريح الجنة، ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾[1].

الجانب الروحي يزيل كل ما يدنسه من أدران، ذلك لأن الصلاة مضخة تطفأ بها نار الشهوة والمعصية، وتحرق بها شرارة الشيطان الذي خلق من نار.

وبالجملة فالجانب الروحي في الصلاة ينفح به المسلم نفحة نور، والله نور السموات والأرض، ولذا فكلما استغرق في صلاته، كلما تجرد من آدميته وكان أقدر على العروج إلى السماء ذات البروج فتضفي عليه من زينتها، وتكسبه من أحكامها، وهي التي زينها الله وبناها وما لها من فروج.

الجانب الفكري.

وأما الجانب الفكري فإنما يكون بمقدار تدبره لما يتلو من كتاب الله فيصير أكثر تحملاً كلما كان أكثر تأملاً، فيسد كل ما حوله من ثغرات، فيمنع وصول الشيطان إليه... فيشتد عوده... فتذهب شقاوته وتكثر سعوده.

الجانب الفكري في الصلاة من شأنه أن يجعل مقيمها نافذ النظرة، لا تنال منه الحوادث والصعاب، ولا يخدعه البهرج والسراب، لا يرضى الهوان والصغار، لأن الصلاة جعلت منه راهب ليل وفارس نهار.

---

(١) سورة النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

الجانب الفكري في الصلاة يكسب المصلي من قوة التفكير ونور العلم، ويمنحه من أسباب الفهم، كل ما يزيل عنه أعراض الوهم.

الجانب الفكري في الصلاة يمنح المصلي من إرهاف الحس، ما يزيل عنه أمراض النفس، فيكون مؤمناً قوياً يواجه كل مشكلة، ويحل كل معضلة، وكما تكسب الصلاة صاحبها نضارة، فإنها والله تجعله صاحب حضارة.

الجانب الاجتماعي:

وأما الجانب الاجتماعي، فيكفي أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتشعر صاحبها بما عليه لغيره من حقوق، فتحول بينه وبين كل عقوق، فيكون أرق فؤاداً، وأرفع عماداً.

الجانب الاجتماعي في الصلاة يذهب من المصلي شهوة الأنانية والأثرة، ويحول بينه وبين لوثة المعصية، فيحب للناس ما يحب لنفسه.

أما الجانب البدني في الصلاة وهو ما يهمل الحديث عنه كثير من الناس، فما أعظم ما فيه من حكم، وما أكثر ما فيه من حسنات، يقف المصلون صفاً واحداً، يتبعون الإمام في كل حركة من حركاتها، لا يتقدم عليه أحد منهم، لأن ذلك مما يبطل الصلاة، ويحبط عمل صاحبها، وايم الله في ذلك أرقى قواعد النظام، وأرقى مبادىء الأحكام، طاعة في غير معصية، فإذا أخطأ الإمام قُوِّم، وإذا جهل علم وهذه حسنة لا تقل عن التي قبلها.

تلكم هي الصلاة التي افترضها الله على عباده والتي هي عمود الدين.

الصفة الرابعة: (ويؤتون الزكاة):

ولقد تكلمنا عن الإنفاق من قبل، ولكن الزكاة أخص من الإنفاق، لأن النفقة تشمل التطوع والفرض، ولكن الزكاة إنما هي ذلك الركن الذي افترضه الله على المسلمين، وإذا كانت الصلاة عبادة بدنية وروحية فإن الزكاة هي العبادة المالية وهي قنطرة الإسلام كما يقولون.

ولا تكاد تجد الصلاة تذكر في كتاب الله إلا ومعها الزكاة، وذلك فيه أعظم دليل وأعظم توجيه لأولئك الذين يستسهلون قضية الصلاة، ويقللون من شأن الزكاة ولقد أحسن أبو بكر رضي الله عنه حيث لم يفرق بين هاتين العبادتين، فسوى في حروب الردة بين من ارتد عن الإسلام كله وبين من منع الزكاة وحدها.

والزكاة تطهر النفس وتزكيها، قال سبحانه: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾**[1]، والزكاة حق من حقوق الله ليس فيه منة على أحد. قال سبحانه: **﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾**[2]، وسيأتي للزكاة تفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

الصفة الخامسة: (ويطيعون الله ورسوله):

وطاعة الرسول كما رأينا لا تنفصل عن طاعة الله تعالى، فكما أن من

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) سورة فاطر: ٢٩ ـ ٣٠.

صلّى ولم يزك ليس بمحسن، فكذلك من يزعم طاعة الله دون طاعة رسوله ﷺ فليس بمحسن. قال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾[1]، وقال: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[2]

واعلموا - أرشدكم الله وإياي - أن طاعة الله ورسوله تشمل كل ما وصل إلينا من أوامر ونواه، فليس مطيعاً من امتثل بعض الأوامر دون بعض، أو من اجتنب بعض المنهيات دون بعض ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون**﴾[3] فطاعة الله ورسوله ينبغي أن تكون في المنشط والمكره وفي اليسر والعسر، وفي الأمور الخاصة والعامة، وفي العبادات والمعاملات، فكما تشمل الوفاء بالعهود وإيفاء العقود تشمل كذلك إقامة الحدود، يقول عليه الصلاة والسلام (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه﴾[4].

ولقد نعى القرآن على أقوام ادعوا الطاعة في الظاهر، ولكنهم بيتوا في أنفسهم شيئاً آخر. قال سبحانه: ﴿**ويقولون طاعة، فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً**﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿**فأولى لهم**

---

(١) سورة الأنفال: ٢٠.

(٢) سورة النساء: ٨٠.

(٣) سورة البقرة: ٨٥.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب فرض الحج مرة في العمر - ٧٣/ ١٣٣٧ - ٩٧٥/٢.

(٥) سورة النساء: ٨١.

طاعة وقول معروف﴾[1].

وبالجملة فإن طاعة الله ورسوله عليه وآله الصلاة والسلام لا تتم ولا تكمل إذا روعيت بعض جوانب هذا الدين دون بعضها الآخر، وإن هذه الطاعة شاهد صدق على حب الله ورسوله، وما أحسن قول من قال:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في القياس شنيع
إن كنت يا هذا بحبك صادقاً
إن المحب لمن يحب مطيع

والفوز في الدنيا والآخرة لن يتحقق إلا بهذه الطاعة قال سبحانه: **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾**[2] والطاعة لا بد أن تكون في الظاهر والباطن. قال سبحانه: **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾**[3].

فانظر أرشدك الله كيف علقت طاعة الرسول بالهداية، (وإن تطيعوه تهتدوا) ويفهم من هذا أن مخالفته ﷺ ضلال.

هذه الصفات الخمس ذكر القرآن لها نتيجتين اثنتين:

الأولى: (أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم)

---

(١) سورة محمد: ٢١.

(٢) سورة النور: ٥٢.

(٣) سورة النور: ٥٣، ٥٤.

الثانية: ما وعدهم الله به من جنات ومساكن طيبة ورضوان من الله وذلك هو الفوز العظيم.

نسأل الله أن يجعلنا من أولئك ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[1] وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(1) سورة الأحزاب: ٧١.

الخماسية السابعة

قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾(التوبة: ١٢٨ - ١٢٩).

هاتان الآيتان هما آخر سورة براءة، ويروى عن أبي رضي الله عنه «أنهما من آخر القرآن نزولاً» وفي الآية الثانية تحقيق لمقام التوحيد، وفقر العبودية، أما الآية الأولى ففيها بيان لأوصاف سيدنا رسول الله ﷺ، وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على أوصاف خمسة للنبي الكريم، أولها قوله سبحانه وتعالى: «من أنفسكم» والثانية «عزيز عليه ما عنتم» أما الوصف الثالث فهو «حريص عليكم» وأما الوصفان الرابع والخامس فهما اسمان من أسمائه سبحانه أكرم بهما نبيه وعبده وصفوته من خلقه سيدنا محمداً ﷺ «بالمؤمنين رؤوف رحيم»

وإليكم بيان هذه الأوصاف.

الوصف الأول: «من أنفسكم».

يقول ربنا تبارك وتعالى وهو يمتن علينا، «وعزتي لقد جاءكم رسول من أنفسكم»وهذه منّة منه سبحانه حيث جاء في سورة آل عمران ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾

(آية ١٦٤). ولقد اختلف المفسرون في هذا الخطاب: هل هو للعرب أو هو للناس جميعاً؟ وسبب اختلافهم هذا أن النبي أرسل إلى الناس جميعاً، وهو بشر يوحي إليه، ولكنه من العرب وبعث فيهم، فمن نظر إلى بشرية النبي قال. إن الخطاب عام، ومن نظر إلى أنه عليه وآله الصلاةوالسلام عربي قال: إن الخطاب للعرب،

ولكن الذي يلوح لي فهمه في الآية الكريمة أن الخطاب للمؤمنين، أياً كان جنسهم وأياً كانت لغتهم، وأستدلُّ لذلك:

١ ـ بما تصرح به آية آل عمران «لقد منّ الله على المؤمنين»

٢ ـ إن السياق في هذه الآيات كان خطاباً للمؤمنين، فلقد جاء في نهاية الآية الكريمة ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ (التوبة: ١٢٢). وجاء بعد هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفاروليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (التوبة: ١٢٣).

٣ ـ قال سبحانه في آية الجمعة ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً﴾ (الجمعة: ٢). ولم يقل «من أنفسهم» وهو فرق دقيق يجب أن نحسب له حسابه في تفسير الآية الكريمة.

وهذه صفة ترشد المؤمنين لقضية فيها شرفهم وعزهم، فالرسول العظيم الذي أثنى عليه ربه بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤) إنما هو من أنفس المؤمنين، فحري بالمؤمنين إذن أن يفخروا بهذا التكريم، وجدير بهم أن يزكّوا أنفسهم، لأن نفس النبي أزكى النفوس،﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس: ٧-٩) فإذا كان النبي من أنفس المؤمنين فإن هذا من شأنه أن يكون سبباً في فلاحهم .

إنَّ كـون الـرسـول من أنفسنـا نعمـة من الله، لأن من شـأن هـذا الوصف أن يكون النبي صاحب النفس الزكيـة، عـارفاً بـآفات النفـوس، وعالما بما يصلحها، فلا يكلف المؤمنين فوق ما يطيقـون، ولهذا يقـول عليه وآله الصلاة والسلام شارحاً هذا المعنى: «أما والله إني لاخشـاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفـطر، وأصلي وأرقـد وأتزوج النسـاء»[1] وذلك رد عـلى الثلاثة نفر الذين وصفت لهم عبادته عليه وآله الصلاة والسلام فتقـالوهـا، فأراد أحدهم أن يصـوم الدهـر، وأراد الآخر أن يقـوم الليل، أمـا الثالث فقد عزم أن يعتزل النساء.

وهذه منة من الله أن يكون الرسول من أنفسنا، ويزيد هـذه القضية بياناً، حديث حنظلة وقد ذهب إلى النبي عليه وآله الصلاة والسـلام باكيـاً يقول يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنّة حتى كأنّا رأي عيْن فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً» فيقول له النبي صاحب النفس الكبيرة الزكية: والذي نفسي بيده لو تدومون على مـا تكونـون عندي، وفي الـذكر لصـافحتكم المـلائكـة عـلى فـرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة ساعة «ثلاث مرات»[2].

ولـو لم يكن الرسـول من أنفسنا لصعب علينـا أن ننسجم مـع هـذه الحياة الدنيا، وأن نعبرها ونعمرها لنعمر آخرتنا، ولهذا كان هذا الوصف للنبي الكريم هو أول الأوصاف الخمسة؛ لأنه أساس لها جميعها.

---

(١) رواه البخـاري في كتاب النكـاح باب الـترغيب في النكـاح رقم البـاب ١ رقم الحـديث ٤٧٧٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبـة - باب فضـل دوام الذكـر والفكر في أمور الأخرة والمـراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات رقم الباب ٣ حديث ٢٧٥٠ ج ٤ ص ٢١٠٦.

الوصف الثاني: عزيز عليه ما عنتم:

ومعنى هـذا الوصف أنـه يصعب عليه مخـالفتكم، ويشق عليـه إعراضكم، فهو يحب لكم الخير، ولقد كان الوصف يظهر في سيرته عليـه وآله الصلاة والسلام، ففي السيرة المطهرة مـا لا يُحصى مِنْ حبِّه عليـه وآله الصلاة والسلام لهذه الأمة أن تلتزم بشرع الله،

وقد بيّن لنا عليه وآله الصلاة والسلام أن الله أعطى كـل نبي دعوةً مجـابة، وإذا كـان الأنبياء عليهم السـلام قد استعملوا هـذه الـدعـوات في دنياهم، فإن النبي أجل دعوته إلى يوم القيامة، من أجل هذه الأمة،

وها هو يبين لنا خير بيان بضرب الأمثال فما مثله إلا كمثـل من أوقد ناراً فجعلت الفراشات والهوام تقع في هذه النار، وجعل هذا الرجل يردها ليحـول بينهـا وبـين أن تحـترق. يقـول النبي: «وأنـا آخـذ بِحُجَـزِكم عن النار»[1] أي أردكم عنها حتى لا تقعوا فيها.

ومما يوضح لنا هذه الصفة الكريمة قوله عليه وآله الصلاة والسلام في حديث نزول القرآن «إن أمتي لا تطيق ذلك» ومثل هذا ماكـان في حديث: فـرض الصـلاة ليلة المعـراج، حيث فـرضت الصـلاة خمسـين ثم صـارت خمسة.

إن كتب السنة المطهـرة والسيرة المشرفـة مزدحمـة بالأخبـار التي تفسر هذه الصفة الكريمة.

الوصف الثالث: «حريص عليكم»

وهذه الصفة منبثقة عما قبلها، فهو حـريص على إيمـان هذه الأمـة،

---

(١) أخـرجه البخـاري في كتاب الـرقاق بـاب الانتهـاء عن المعـاصي، رقم البـاب ٢٦ رقم الحديث ٦١١٨، ٥/ ٢٣٧٩

وحريص على أن تبوأ منزلة عليا، ومكانة سامية في هـذه الدنيـا، حتى تتبوأ مقعـد صدقٍ عند مليـك مقتدر، ومن هـذا الحـرص حـرم عـلى المسلم أن يكون إمعة، يقول «لا تكونـوا إمعة تقـولون إن أحسن النـاس أحسنا وإن ظلم الناس ظلمنا ولكن وطنـوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنـوا وإن أساءوا فلا تـظلموا»[1] ومن هـذا الحرص أراد لهـذه الأمة أن تكـون ذات شخصيـة مستقلة، لا تتبـع سنن من قبلهـا، «حتى لـو دخلوا جحـر ضب تبعتموهم»[2]

ولـذا فإننـا نجد كثيـراً من أحاديثـه الشريفة تحـرم على المسلمين أن يتشبهوا بغيرهـم «نظفوا افنيتكم ولا تشبهوا باليهود»[3] ومن هذا الحرص حرم عليهم أن يعطوا الذلة من أنفسهم، وحرم عليهم أن تفتنهم الـدنيا، وأراد لهم أن يكـونوا كـالجسد الـواحد، إذا اشتكى منـه عضو تـداعى له سـائر الأعضـاء بـالحمى والسهـر[4]، وحـرم عليهم الأعتــداء عـلى الأعــراض والأمـوال والأنفس» كل المسلم عـلى المسلم حـرام مـالـه ودمـه وعـرضـه» فحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[5] «لا ترجعـوا بعدي كفـاراً

---

(١) أخرجه الترمذي في كتـاب البر والصلة، بـاب ما جـاء في الإحسان والعفـو، رقم الباب ٦٣، رقم الحديث ٢٠٠٨، ٦/٢١٥، وقال: حديث حسن غريب

(٢) أخـرجه البخـاري في كتاب الاعتصـام بالكتـاب والسنة، /بـاب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم رقم الباب ١٤ رقم الحديث ٦٨٨٨، ٦/٢٦٦٩

(٣) اخرجه الترمذي في كتـاب الادب باب مـا جاء في النـظافة، بـاب ٤١، حديث ٢٨٠٠ ٨/٣١، وقال حديث غريب

(٤) رواه البخـاري في كتاب الادب /بـاب رحمة النـاس والبهائم، رقم البـاب ٢٧/حديث ٥٦٦٥/ ٥/٢٢٣٨

(٥) أخـرجه مسلم في كتـاب البر والصلة بـاب تحريم ظلم المسلم وخـذلـه واحتقـاره ودمـه وعرضه وماله، باب ١٠، حديث ٢٥٦٤ /٤/١٩٨٦

يضرب بعضكم رقاب بعض»[1]، «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[2]، «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[3]

وبالجملة فإن حرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام على هذه الأمة يظهر في كل جانب من جوانب حياتها.

الصفتان الرابعة والخامسة «بالمؤمنين رؤوف رحيم»

وهما وصفان مستقلان لكل منهما معناه، وليس كما يقول كثير من المفسرين بأن الرأفة شدة الرحمة، وإنما قدمت لمراعاة الفواصل، فهذا قول لا نرتضيه في القرآن، وعلى هذا فالرأفة ما كانت تتعلق بدفع ضرر أو رفع بلاء، والرحمة تشمل هذا وتشمل جلب الإحسان وإيصال الخير، وعلى هذا فالرحمة أعم من الرأفة، فالنبي بالمؤمنين رؤوف يدفع الضرر عنهم، ويجنبهم كل ما فيه بلاء، وهو رحيم بهم بإسداء الخير وجلب الإحسان.

فمعنى هٰذين الوصفين أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام كان في أحواله الشريفة كلها، لا يدع باباً من أبواب الفتنة، ولا جانباً من جوانب الضرر إلا وهو يحذر المسلمين من أن يقعوا فيه ويلجوه، كما أنه لا يدع أي باب من أبواب الخير، ولا جانب من جوانب الإحسان إلا ويفتحه على مصراعيه لينعم به المؤمنون،

---

(١) اخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان معنى قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض /باب ٢٩/حديث ٦٥ جـ ١ ص ٨١

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر باب ٣٥، حديث ٤٨/ جـ١ ص٢٧

(٣) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد باب البراءة من الكبر والتواضع باب ١٦، حديث ٤١٧٩، ٢/١٣٩٩

إن رأفة النبي ورحمته بالمؤمنين له شواهد حق وصدق في سيرته العطرة، وأقواله الكريمة، لقد كان رحيماً بالخلق على اختلاف أجناسه وأنواعه، أليس هو القائل: «في كل كبد رطبة أجر»[1] أليس هو القائل في الأرقاء والعبيد: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[2]

ويوم فتح خيبر مرّ بلال بصفية وابنة عم لها على قتلى قومهما فجعلت ابنة عمها تصيح وتلطم، فلما رأى النبي عليه وآله الصلاة والسلام ذلك قال لبلال: «أنزعت الرحمة من قلبك يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»[3] ولقد صدق الله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وصدق رسوله حيث قال: «أنا نبي التوبة ونبي الرحمة»[4]

فإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان في الدنيا هما الرحماء

وهذه الأوصاف التي كرم بها سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام أراد الله تبارك وتعالى بذكرها أن تعرف الأمة منزلة هذا النبي، لا من أجل أن تترنم بهذه الصفات، ولكن لتقتدي بالنبي الكريم» ﴿لقد

(١) رواه مسلم في كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها رقم الباب ٤١ رقم الحديث ٢٢٤٤ ج ٤ ص ١٧٦١.
(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك رقم الباب ٢ رقم الحديث ٣٠ ج ١ ص ٢٠.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٩٧.
(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب في أسمائه ﷺ رقم الباب ٣٤ رقم الحديث ٣٥٥؛ ج ٤ ص ١٨٢٩.

كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (الأحزاب: ٢١). فذكر هذه الصفات الكريمة يضع الأمة المسلمة أمام مسؤوليات جسام، ومن شأن هذه الصفات أن تنشر الوئام والخير، وأن تضع أسس التكافل في حياة المسلمين، حينما يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، ويكون حرصه على الخير لا من أجله فحسب، ويكون رحيماً «فالراحمون يرحمهم الله».

ولقد ذكر النبي عليه وآله الصلاة والسلام أوصاف أهل الجنة، هذه الأوصاف التي لا بد أن تتحقق في الدنيا،حتى يستحقوا الجنة والرضوان في الأخرة، فيقول عليه الصلاة والسلام: «وأهل الجنة ثلاثة: - ذو سلطان موفق مقسط متصدق، ورحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[1].

وقد حذر الله تبارك وتعالى، وحذر النبي عليه وآله الصلاة والسلام من أن تنزع الرحمة من القلوب، فتصبح القلوب قاسية، فيكون ذلك سبباً في بعدها عن الله وطردها من رحمته، فقال سبحانه في شأن بني إسرائيل: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾(المائدة: ١٣) وبين سبحانه أن قسوة القلب تدخل صاحبها زمرة الفاسقين. فقال سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ (الحديد: ١٦). ويقول عليه وآله الصلاة والسلام «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى إن شئت يا نبي الله، قال: إن شراركم الذي ينزل وحده ويمنع رفده ويجلد عبده، قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال:الذي يبغض

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم الباب ١٦ رقم الحديث ٢٨٦٥ ج ٤ ص ٢١٩٧.

الناس ويبغضونه، قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنباً، قال ألا أنبئكم بشر من ذلك قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذي لا يرجى خيره ولا يؤمن شره»[1] وهذه الأوصاف نعوذ بالله منها تنشأ أكثر ما تنشأ من عدم الرحمة.

وهكذا وصف الله نفسه بالرحمة في أول سورة من كتابه الكريم، ووصف نبيه بالرحمة، وأراد من عباده أن يكونوا كذلك، اللهم ارحمنا واجعلنا من الرحماء،

«فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». وتلك غاية العبودية وأعظم درجات التوكل. حسبي الله لا إله إلا هو» بيده الخير، عليه توكلت فليس أحد من الخلق حرياً أن يُتوكل عليه، وهذا معنى الآية الكريمة «عليه توكلت» أي عليه وحده لا على غيره من الخلق، وهو رب العرش العظيم»، والعرش أعظم من السماوات والأرض.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون[2] عظماً أنت جابره

ومن الأمثلة على رحمته ﷺ أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه إياه ثم قال آحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده

(١) رواه ابن عساكر عن معاذ وقال السيوطي ضعيف قال المناوي: ورواه الطبراني من حديث ابن عباس، وضعفه المنذري. ج ٣ ـ ص ١١٥.
(٢) يكسرون.

شيئاً ثم قال: آحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله به من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل ما قلت بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال نعم، فلما كان الغد أو العشيّ جاء فقال ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك؟ قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها خلّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قُمام[1] الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار[2].

ومن ذلك ما روي عن خوات بن جبير من الصحابة قال: نزلت مع رسول الله ﷺ بمر الظهران فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني، فأخرجت حلة من عيبتي فلبستها وجلست إليهن فمر رسول الله ﷺ فهبته فقلت: يا رسول الله جمل لي شرود وأنا أبتغي له قيداً. فمضى وتبعته فألقى علي رداءه ودخل الأرك فقضى حاجته وتوضأ، ثم جاء فقال يا أبا عبدالله ما فعل شراد جملك. ثم ارتحلنا فجعل كلما لحقني قال السلام عليك يا أبا عبدالله ما فعل شراد جملك. فتعجلت المدينة وتركت مجالسته والمسجد فطال ذلك علي فتحينت خلو المسجد ثم دخلت فطفقت أصلي فخرج من بعض حجره فصلى ركعتين خففهما وطولت رجاء أن يذهب عني فقال: طول يا أبا عبدالله ما شئت فلست ببارح حتى تنصرف، فقلت والله

(١) أي ما تلقمه من الأرض فتأكله.

(٢) رواه البزار عن أبي هريرة بسند ضعيف.

لأعتذرن إليه. فانصرفت فقال: السلام عليك يا أبا عبدالله ما فعل شراد الجمل، فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت. فقال رحمك الله مرتين أو ثلاثاً ثم لم يعد.

ومن شفقته ﷺ تخفيفه وتسهيله على المسلمين وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم فقد قال ﷺ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة[1] ومن ذلك قوله: «خذوا من العمل ما تطيقون إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلَّى وهو ناعس لا يدري لعله يريد أن يستغفر الله فيسب نفسه»[2].

ومن شفقته أنه دعا ربه أن يجعل سبه ولعنه لأحد من أمته رحمة به، فقد قال ﷺ اللهم إن محمداً بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وقربة تقربه بها[3].

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداه ملك الجبال وسلّم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، وقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً[4].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة باب السواك رقم الحديث ٢٥٢ ص ٢٢٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء. باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين ٢٠٩/٥٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه ٢٥/ ٨٨ - ٢٦٠٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٣٠٥٩/٧.

وعن انس ان النبي ﷺ قال: إني لأدخل الصلاة وأنا أريد اطالتها فاسمع بكاء الصبي فاتجوّز في صلاتي مما اعلم من شدة وجد أمّه من بكائه [1]

(١) اخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب من اخف الصلاة عند بكاء الصبي

الخماسية الثامنة

قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون، وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات وذلك ذكرى للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (هود ١١٢ - ١١٥).

هذه الآيات الكريمة من سورة هود ولقد قال النبي ﷺ «شيّبتني هود»[(١)].

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد أن قصّ الله على نبيه من أنباء الأولين، وبين سننه التي لا تتخلف في أخذ الظالم، ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ (هود ١٠٢ - ١٠٤).

الصفة الأولى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما « ما نزل أشد ولا أشق

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير /سورة الواقعة. رقم الحديث ٣٢٩٣. ج ٩ ص ٣٧.

على رسول الله ﷺ من هذه الآية، ولذا يرى بعضهم أن قوله ﷺ «شيّبتني هود» ليس إلا من أجل هذه الآية الكريمة.

معنى الاستقامة:

والاستقامة هي العمل بكمال الشريعة وفي معنى الاستقامة روايات كثيرة وأقوال متعددة. ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف: ١٩٩) ومهما قيل في معنى الاستقامة فإن مؤدى هذه الأقوال جميعها لا يخرج عن تفسير الاستقامة بلزوم منهج الله الذي بينه في كتابه أو بينه النبي عليه وآله الصلاة والسلام في سنته.

الاستقامة هي الجانب العملي:

ويظهر من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة أن الاستقامة هي المنهج العملي وذلك أن لهذا الدين جانبين: جانباً نظرياً وهو الإيمان إذا وقر في القلب وجانباً عملياً: هو تنفيذ التكاليف أمراً ونهياً والآيات الكريمة والأحاديث الكثيرة خير شاهد لما قلت ففي سورة فصلت تقرأ قول الله سبحانه: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدينا وفي الآخرة**﴾ (فصلت: ٣٠-٣١) وفي سورة الأحقاف وكلتاهما من الحواميم نقرأ قول الله ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**﴾ (الآيات ١٣-١٤).

وفي السنة المطهرة يقول النبي عليه وآله الصلاة والسلام وقد سأله أحد أصحابه رضوان الله عليهم يا رسول الله قل لي قولاً في الإسلام لا

أسأل أحداً غيرك فيقول ﷺ قل آمنت بالله ثم استقم [1] فالإيمان هو الجانب النظري لهذا الدين والاستقامة هي الجانب العملي.

وقد قالوا إن الاستقامة عين الكرامة، بل هي أعظم الكرامات وأشرفها،لأنها أعلى المقامات وأرفعها، ويدلك على درجة الاستقامة ما قاله بعض العارفين «أيها العبد إن نفسك تواقة،وإن إرادتك متوجهة لكي يمنّ الله عليك بالكرامة، ولكن اعلم أن الله أراد لك وطلب منك الاستقامة، فالكرامة منيتك وبغيتك وطلبك من الله،وإليها توجهت إرادتك، والاستقامة هي التي أرادها الله منك، وشتّان بين ما أردته لنفسك وهو الكرامة وما أراده الله لك ومنك وهو الاستقامة» قال سبحانه: ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ (فصلت: ٦) وقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾ (الشورى: ١٥).

ولما كان الناس يتساهلون في أمر الاستقامة فيصفون بها من يشاءون وربما يطلقونها على من لا يستحقها ويصفون بها من هو بعيد عنها، فقد يعجبهم من الرجل حديثه أو تستهويهم بعض صفاته فيحكمون عليه بأنه مستقيم، وقد يكون بعيداً عن تنفيذ كثير من أوامر الله، وقد يكون من الذين يتجرأون على بعض محارمه من أجل ذلك بينت هذه الآية الكريمة الشروط والأوصاف والدعائم والأركان التي لا بد أن تتحقق في المرء حتى يوصف بالاستقامة.

الاستقامة إذن ليست من الأمور التي تُترك لاجتهاد الناس وأحكامهم وآرائهم وأهوائهم، إنما هي من الأمور التي تولى الله تبارك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل باب ٦٣/ حديث ٣٩ ج ١ ص ٦٥.

وتعالى بيانها، حتى لا يختلف فيها الناس، وسنبين لك إن شاء الله دعائم الاستقامة وأركانها حتى لا تزلّ في حكمك، ولا تضلّ في قولك، ولا ينحرف بك هواك، فإذا عرفت فالزم، واستعذ بالله من الجهل بعد المعرفة، ومن الضلالة بعد الهدى.

الصفة الثانية: (ولا تطغوا).

أركان الاستقامة:

ومن أول أركان الاستقامة ودعائمها قوله سبحانه ولا تطغوا وهي الصفة الثانية في هذه الخماسية الكريمة والطغيان تجاوز الحد في كل شيء، والزيادة على المطلوب، حتى في العبادة، والزيادة والنقص أخوان.

وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحذر من الطُغيان وهي تبين عاقبته الوخيمة، ونتائجه المخوفة المرهبة، ومن رحمة الله وكرمه ومنّهِ أنه بين لنا الأسباب التي يمكن أن تجر إلى الطغيان حتى نتجنبها، وسنبين لك تلك الأسباب راجين أن ينفعنا الله تبارك وتعالى ولنستمع أولاً إلى بعض الآيات الكريمة.

قال سبحانه: **﴿كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾** (العلق: ٦ - ٧) وقال ذو العزة والجبروت: **﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد الذين طَغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾** (الفجر: ٦ - ١٤) وقال جل من قائل: **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾** (طه: ٨١) وقال: **﴿إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً﴾** (النبأ:

٢١ - ٢٢) وقال سبحانه حديثاً عن أصحاب الجنة: الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ (القلم: ٣١).

والناظر في هذه الآيات الكريمة المتدبر لها يدرك أولاً أن الطغيان، والفساد في الأرض لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وذلك أن الفساد إنما ينشأ عن الطغيان، ﴿الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾ (الفجر: ١١ - ١٢) وفرعون الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم كان من المفسدين، وما ذلك إلا لأنه طغى ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ (طه: ٢١).

وإذا كان الطغيان من أقوى أسباب الفساد، بل هو السبب الرئيس في الفساد، فإن من أول نتائجه حلول غضب الله تبارك وتعالى في الدنيا قبل الآخرة ﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ (طه: ٨١) ﴿وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ (النجم: ٥٢) ولعلك تتساءل بعد هذا كله عن أسباب الطغيان، وإليك بيان ذلك.

أسباب الطغيان:

إن الذي يحمل على الطغيان الشعور بالاستعلاء، ومن أسباب هذا الشعور بالاستعلاء.

١ ـ المال:

أن يُغرّ الإنسان بنعمة المال، فيظن أن ما أعطيه من مال ومتاع إنما هو لفضله على غيره، فينسى الله المنعم ويظن أنه قد استغنى بهذا المال عن المنعم الوهاب فيسبب له هذا الشعور وتلك الرؤية، هذا الشذوذ النفسي فيطغى ويتجاوز الحد الذي أمر أن يقف عنده، وهذا ما أرشدت إليه الآية

الكريمة، ﴿إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾ (العلق: ٦ - ٧) ومعنى الآية أن الإنسان حينما يرى نفسه قد استغنى عن غيره، بل عن ربه سبحانه، وأنه ليس بحاجة إلى أحد، وإنما غيره بحاجة إليه، حينما يرى نفسه كذلك ويقنعها بهذا الوهم، يقع في الطغيان ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ (القصص: ٧٦). وهذه طبيعة الإنسان عندما تنحرف به السبل ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنَّما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا وما هم بمعجزين أو لم يعلموا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (الزمر: ٤٩ - ٥٢).

وهكذا تبين هذه الآيات الكريمة أن تلك نتيجة الطبيعة المنحرفة في هذا الإنسان، وأن هذا الانحراف لا يصحح، وأن هذا الاعوجاج لا يقوم إلا بالإيمان ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (الروم: ٢٧).

إن هيمنة المال على صاحبه وشعوره بالاستغناء تدفع به إلى الترف. والترف مظهر اجتماعي نجده في كثير من المجتمعات التي ضعف فيها الوازع الديني والخلقي، وهذا الترف ينقل صاحبه إلى حالة نفسية من الهوج والهوس وفي حالة أشبه بالمرض إن لم تسكنه، وهذه الحالة هي التي سماها القرآن بطراً، وهذا البطر هو دهشة تعتري النفس من سوء احتمال النعمة وعدم القيام بحقها، وهذا ينشأ كما قلت عن الترف الذي هو التوسع في النعمة، كما أن هذا البطر هو الذي يؤدي بصاحبه إلى الطغيان، لأنه خفة تحمل صاحبها على أن يتجاوز الحد الذي أعد له، ورحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده. وليس معنى هذا أن كل مال أعطيه الإنسان تكون

نتيجته الترف والبطر والطغيان، بل إن كثيرين ممن أنعم الله عليهم لم تزدهم النعم إلا شكراً، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (العلق: ٦ - ٧) ومعنى الآية أنه يطغى حينما يرى نفسه على هيئة، استغنى فيها عن غيره.

٢ - القوة.

أن يغر الإنسان بنعمة القوة وهذا ما أرشدت إليه الآيات الكريمة **﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد﴾** (الفجر: ٦). وعاد حدثنا عنهم أنهم قالوا: **﴿من أشد منا قوة﴾** (فصلت: ١٥) وثمود حدثنا القرآن عنهم بأنهم **﴿جابوا الصخر بالواد﴾** (الفجر: ٩) وكذلك **﴿فرعون ذي الأوتاد﴾** (الفجر: ١٠) هذه الأمم الثلاث الذي طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد كان طغيانهم ناشئاً عما منحهم الله من قوة، مع أن القوة لله جميعاً.

وإذا كان المال والترف ينتج عنه البطر فإن البطر الناشىء عن القوة أكثر سوءاً، ذلك أن الإنسان ضعيف، لأنه من حمأ مسنون، فإذا سولت له نفسه أنه قد تجاوز هذا الضعف وتغلب عليه، حدث له شعور من تلك الخفَّة وتلك الدهشة كان من نتيجته أن تجاوز الحد الذي أُعدّ له **﴿ألم ترَ إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾** (البقرة: ٢٥٨) وهذا هو - وايم الله - أسوأ ما يصل إليه الإنسان من طغيان حينما تسول نفسه مشاركة الله فيما تفرد به.

إننا لنرى اليوم نماذج كثيرة من أولئك الطغاة أفراداً وأمماً الذين غرتهم قوتهم، فظنوا أن هذه القوة المادية هي كل شيء، فطغوا في الأرض

محاولين أن يخضعوا كل إرادة لأغراضهم وأهوائهم ومصالحهم، وأن يتحكموا في مقدرات الآخرين، والنماذج كثيرة - كما قلت - وصدق الله: **﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب﴾** (البقرة: ١٦٥).

٣ - العلم

ولعلك تعجب أن يكون العلم سبباً من أسباب الطغيان فإذا كان ذلك في المال والقوة أمراً ظاهراً، فكيف يكون العلم الذي يقاس به تقدم الأمم ورقيها، كيف يكون سبباً من أسباب الطغيان؟ ولكن إذا عرفت أن العلم، وهو نعمة الله العظمى على الناس نعمة الله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، أقول إذا عرفت أن هذا العلم إنما ينضبط بالإيمان حينما تدرك أن الفضل فيه لله وحده أدركت أنه هو العلم النافع.

أما إذا فصل هذا العلم عن الإيمان فإنه سيكسب صاحبه بطراً، هو أكثر سوءاً من البطر الناشيء من المال والقوة قال سبحانه: **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون﴾** (غافر: ٨٣ - ٨٥) وهذه الآيات الكريمة تبين لنا هذا البطر الناشيء عن العلم المنفصل عن الإيمان، الذي يصل بصاحبه إلى الطغيان فرحوا بما عندهم من العلم هذا الفرح جعلهم يبطرون، غير معترفين لله تبارك وتعالى بما هيأ لهم من أسباب المعرفة والاكتشاف والاختراع.

وفي عصرنا بل في كل عصر كذلك نماذج كثيرة لأولئك الذين طغوا بسبب العلم، ويكفي أن نقرأ قول ربنا تبارك وتعالى: **﴿وليزيدن كثيراً**

منهم ما أنزل إليك من ربك طُغياناً وكفرا﴾ (المائـدة: ٦٤) ونقرأ قـوله سبحـانه: **﴿فـما اختلفـوا إلا من بعـد مـا جـاءهم العلم بغـياً بينهم﴾** (الجاثية: ١٧).

المال والقوة والعلم نعم عظمى من نعم الله فإذا انحرف الإنسان بها عن غايتها طغى وبغى وأكثر في الأرض الفساد، لا تعجب بعـد ذلك كله إذا عرفنا أن أول ركن من أركان الاستقامة هو عـدم الطغيـان وذلك قـوله سبحـانه: **﴿فـاستقم كما أمـرت ومن تاب معـك ولا تـطغـوا إنـه بمـا تعملون بصير﴾** (هود ١١٢) لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

ولكن عـدم الـطغيـان وحـده لا يؤهـل الإنسـان لـيرتفـع إلى مقـام الاستقامة الرفيع، وليتبوأ هذه المنزلة العالية بـل لا بد لـه من أسباب يجب أن تتحقق حتى يُسمَّى مستقيماً، لا بـد من أن نتجنب الـطغيـان ونتجنب الطاغين كذلك، ولا ريب أن الطغيان هـو شر أنواع الـظلم فليكون المـرء مستقيماً فإن الدرجة الأولى التي يصعدها ليصل إلى مقام الاستقـامة هي أن لا يـطغى وأن لا يظلم أما الدرجـة الثانيـة فهي ألا يركن إلى الـظالمين. وصـدق الله **﴿ولا تـركنـوا إلى الـذين ظلمـوا فتمسكم النـار﴾** (هـود ١١٣).

الصفة الثالثة: الركون إلى الظالمين.

معنى الركون:

الـركون هـو الميـل والحب القلبي، وذهـب كثـير من المفسرين إلى أنـه الميل اليسير، وقال جماعة من المتأخرين منهم، إنه الاعتماد والاستناد، لأنـه مأخوذ من الركن وهو ما نستند إليه، فالراكن إلى الظالم هـو من اعتمد عليـه واستند إليه

ومن هذه الأقوال جميعها يظهر لنا أن معنى الركون إلى الظالمين هو مداهنتهم والرضا بما يعملون وتزيين ظلمهم لهم، وهذه الصفة ذكرها الله تبارك وتعالى مع الطُغيان، وقد فقه هذا الأمر من أكرمهم الله بالعلم والصلاح، ومن هؤلاء الحسن البصري رضي الله عنه حيث قال «جعل الدين بين لاءين: لا تطغوا ولا تركنوا إلى الذين ظلموا»، وفي رواية بُني الدين على لاءين». وهذا فقه صحيح جيد؛ ذلك لأن كثيرين من الذين يتجنبون الظلم والطغيان قد يكون ذلك ناشئاً عن ضعف فيهم، أو عن خوف منهم، أو يكون نتيجة عوامل اجتماعية أو نفسية، لذلك نجد بعضهم «يستمرئ الظلم من غيره.

وقد توعد الله الذين يركنون إلى الذين ظلموا بمسيس النار، نعوذ بالله من مسيسها وحسيسها، سائلين أن يجعلنا من أولئك الذين قال فيهم ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها**﴾ (الأنبياء ١٠١).

من هم الذين ظلموا؟

وكما اختلف المفسرون في تفسير الركون، اختلفوا كذلك في تعيين الذين ظلموا: أهم أعداء الإسلام والمسلمين،أم هم العصاة المتجبرون من هذه الأمة

ويظهر لنا والله أعلم بما ينزل أن هذا الوصف يشمل كل ظالم سواء كان من المسلمين أم من غيرهم، وعلى هذا التفسير فالآية الكريمة تحرم على المسلمين أن يركنوا إلى أعداء الله، وأن يثقوا بوعدهم وأن يداهنوهم في معصية الله على حساب دين الله.

والتاريخ والواقع شاهدان على ذلك كله فكم من وعود وكم من عهود قطعها أولئك على أنفسهم، ولكنهم نقضوها جميعاً، وفي الحديث والقديم تذكرة لأولي الألباب، قال تعالى: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ (المائدة: ٥١).

وكما يحرم الإسلام الركون إلى الظالمين من غير المسلمين، فإنه يحرم على المسلم كذلك أن يركن إلى الظالم المنتسب إلى الإسلام، فإنه بركونه إليه يشاركه في ظلمه، وبالتالي يشاركه فيما يستحق من عذاب وعقاب، قال سبحانه ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ (فاطر ٢٧ : ٢٩).

وفي القرآن والسنة وفي أقوال الأئمة وأعمالهم خير دافع وأعظم مانع لتجنب الركون إلى الظالمين، فلقد روي في الأثر: «ليخرجن ناس من قبورهم على صورة القردة بما داهنوا أهل المعاصي ثم وكفوا عن علمهم وهم يستطيعون»[١].

ولقد سأل أحدهم سفيان رحمه الله تعالى: قال أنا أخيط للظلمة، فهل أنا ممن يركن إليهم، فقال له سفيان لا يا هذا، أنت منهم ولكن الذي يبيعك الإبرة لتخيط لهم هو من الراكنين».

صورة الركون إلى الظالم:

والركون إلى الظالم له صور متعددة منها:

١ ـ أن يعتمد الإنسان على الظالم من أجل لُعاعة من لُعاعات الحياة الدنيا، فيزين له ظلمه، ويمدحه ويثني عليه، وإذا مدح الفاسق اهتز عرش الرب: «لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يكُ سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل»[٢]، ومن هذا القبيل الركون إلى أعداء الله الذين اغتصبوا بلاد المسلمين، وانتهكوا حرمات الحق، وهذا الحكم يشملهم ويشمل كل من

---

(١) النهاية لابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٠ ومعنى وكفوا قصّروا ونقصوا.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده جزء ٥ ص ٣٤٦ عن بريدة.

أعانهم كذلك، فالركون إلى أعداء الإسلام سواء كان ضررهم مباشراً أم غير مباشر، وسواء ظلم المسلمين بأنفسهم أم بسلاحهم، أم أعانوا على ذلك بالكلمة أو المال أو السلاح، إن ذلك كله تشمله الآية الكريمة، **ومن فعل هذا فلا بد أن تمسه النار، ولن يجد ولياً له في الدنيا ولا في الآخرة، ولن ينصره الله أبداً.**

ولقد كانت هذه الآية الكريمة إحدى المعجزات لهذا القرآن، فلقد حدثنا التاريخ القديم بأن جميع الذين ركنوا إلى الظالمين في أيام الحروب الصليبية وحروب التتار وغيرها، خذلهم الله تبارك وتعالى ولم يكتب على أيديهم نصراً، والذي قاله التاريخ القديم يصدقه التاريخ الحديث كذلك، فالله لا يكرم بالنصر من ركن إلى أعدائه، وما أجمل قول القائل:

قد خص بالصفع في الدنيا ثمانية
لا لوم في واحد منهم إذا صفعا
المستخف بسلطان له خطر
وداخل في حديث اثنين قد جمعا
وآمر غيره في غير منزله
وجالس مجلساً عن قدره ارتفعا
ومتحف بحديث غير حافظه
وداخل بيت تطفيل بغير دُعا
وقارىء العلم مع من لا خلاق له
وطالب النصر من أعدائه طمعا

٢ - ومن صور الركون إلى الظالمين،أن يرى الظالم يظلم فلا يردعه عن ظلمه ولا ينصر المظلوم،وسيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام

يقول: «أنصر آخاك ظالماً كان أو مظلوماً، قيل يا رسول الله: هـذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قـال: تحجزه، تمنعـه فإن ذلـك نصره»[1]

وقد شدد الإسلام النكير وتوعد الرسول عليه وآله الصـلاة والسلام في كثـير من الأحاديث القـدسية وغـير القدسيـة أولئك الـذين يركنـون إلى الظالمين، فيصمـون آذانهم عن أنين المـظلوم، وهم يقدرون عـلى نصرته، ولكن منعهم الهوى والتملق، أو المجاملة المحرمة، أو تحقيق مصلحـة ما، أو جبن، أو غـير ذلك من الأسبـاب أن يرفـع هـذا الـظلم عن المـظلوم. وسنذكر بعض الأحاديث التي تحمل الوعيد الشديد لمثل أولئك الراكنين.

عن ابن عبـاس رضي الله عنهـما مـرفـوعـاً قـال الله تبـارك وتعـالى: [وعـزتي وجلالتي لأنتقمن من الـظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل][2]

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً [أمر بعبد من عباد الله يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحـدة فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه وأفاق قال علام جلدتمـوني؟ قالـوا إنك صليت صلاة بغير طهر، ومررت على مظلوم فلم تنصره][3].

وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: [من نصر أخاه بـالغيب وهو يستطيع نصره، نصره الله في الدنيا والآخرة][4].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإكـراه، باب يمين الرجـل لصاحبـه أنه أخـوه إذا خاف عليـه القتل أو نحوه رقم الباب ٧. رقم الحديث ٦٥٥٢ ج ٦ ص ٢٥٥.

(٢) قـال في مجمـع الـزوائـد ج ٧ ص ٢٦٧ رواه الـطبراني في الكبـير والأوسط وفيـه من لم أعرفهم.

(٣) قال في المجمع ج ٧ ص ٢٦٨ رواه الطبراني وفيه يحي بن عبدالله البابلي وهو ضعيف.

(٤) قال في المجمع ج ٧ ص ٢٦٧ رواه البزار بأسانيد وأحـدها مـوقوف عـلى عمران وأحـد أسانيد المرفوع رجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني.

وعن أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (من أُذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره، أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة)[1].

وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاءين («ولا تطغوا» «ولا تركنوا»)

ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن. فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك. أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الميثاق على العلماء قال الله سبحانه ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾

واعلم أنَّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، آتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكَّ بك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء. فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك. وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ [مريم: ٥٩] فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سقم. وهيء زادك فقد حضر السفر البعيد. وما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء والسلام.

وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك -

(١) قال في المجمع ج ٧ ص ٢٦٧ رواه الطبراني في الكبير وأحمد ج ٣ ص ٤٨٧ وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات.

وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً - وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء . وقال الحسن «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه»[1].

ولقد سُئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يُسقى شربة ماء فقال لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت»[2].

نتائج الركون إلى الظلم:

وخلاصة القول إن الركون إلى الظالمين له نتائج ثلاث كل واحدة أسوأ من غيرها.

الأولى: نتيجة أخروية وهي قوله سبحانه فتمسكم النار،

الثانية: نتيجة أخروية ودنيوية معاً، وهي أنه لا يجد ولياً يعينه ويدافع عنه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

الثالثة: نتيجة دنيوية، وهي أنه لا ينصر أبداً، ﴿ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ (هود: ١١٣). نسأل الله السلام ونعوذ بالله من أن نطغى ونظلم، أو أن نركن إلى الظالمين والطغاة، ونسأل الله أن يحفظ علينا ديننا، وأن يحفظ لنا جوارحنا من أن نعصيه بها، اللهم لا حول ولا قوة إلا بك، لا حول عن معصيتك إلا بعصمتك، ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك.

الصفة الرابعة: [وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين].

هذه هي الدعامة الثالثة من دعامات الاستقامة، وإذا كانت الدعامة

(١) رواه البيهقي في الشعب من رواية يونس بن عبيد ح ٧/ ص ٥٣.

(٢) الكشاف /الزمخشري ٢/٤٣٣.

الأولى والثانية: «لا تطغو» و«لا تركنوا إلى الذين ظلموا» دعامتين اجتماعيتين، فإن الدعامة الثالثة وهي إقامة الصلاة دعامة روحية، ذلك أن الاستقامة مقام رفيع - كما قلت من قبل - ولا بد أن تجتمع له وتتهيأ له العوامل الاجتماعية والروحية والفكرية.

وإقامة الصلاة تحدثنا عنها من قبل، ولكن الحديث عن الصلاة لا يُمل، بل هو كما قيل «كلما كرر يحلو» ويكفي أن سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قال: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[1] وقال ﷺ (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، قال الحسن وما يبقى من الدرن)[2] وقال: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[3].

وإنما ذكرت الصلاة في سياق الحديث عن الاستقامة، لأن الاستقامة هي الجانب العملي لهذا الدين، ولا شك أن أهم وأعظم الأمور العملية الصلاة، وفي ذكر إقامة الصلاة في أثناء الحديث عن الاستقامة رد حاسم حازم على أولئك الذين يطلقون العنان لألسنتهم دون قيد، وكثيراً ما تسمعهم يصفون فلاناً من الناس بأنه مستقيم، ولكنك بعد بحث تجده تاركاً للصلاة فإذا سألتهم كيف تصفون فلاناً بالاستقامة وهو لا يصلي قالوا لك إنه خفيف الظل مرح، لم يرتش، ويقابل الناس مقابلة حسنة، ويظنون أن هذه الأوصاف تؤهل للاستقامة ولكن الأمر ليس كذلك،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ج ٣ ص ١٢٨ عن أنس بن مالك.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات رقم الباب ٥١ رقم الحديث ٦٦٨ ج ١ ص ٤٦٢.

(٣) رواه مسلم في نفس الموضع رقم الحديث ٦٦٧.

فإقامة الصلاة دعـامة لا يمكن التسـاهل فيهـا. وهي ركن ركين لا تستقيم الاستقامة بدونها.

وقوله سبحانه: ﴿طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ قـالوا إن في هـذا إشارة للصلوات الخمس، فطرف النهار الأول يشمل صلاة الفجر، وطرفه الثاني يشمل الظهر والعصر وزلفاً من الليل أي سـاعات من الليـل، وهي الساعات الأولى، لأن الزلفى هي القرب، وتشمل المغرب والعشـاء ولكن الذي يظهر لنا ـ وهو خالٍ عن التكلف ـ أن هذه الآية وما شابهها توجيه للمسلم لتكون كل أوقاته طاعة لله تبارك وتعالى وذكراً له، وعملاً لما يقربه منه.

بقي قوله سبحانه ﴿إن الحسنـات يذهبن السيئـات﴾ وقد رووا في سبب نـزولها أن رجـلاً أصـاب من امـرأة قبلة فقـالت لـه اتق الله فنـدم، وشكى ذلك للرسول عليه وآله الصـلاة والسلام، فنـزلت الآية[1]، وعـلى هذا فسروا الحسنات بأنها الصلوات الخمس، ولكن لا يمكننا أن نقبل هذه الـرواية هكـذا، فالسـورة مكية وحـادثة الـرجل وهـو أبو اليسر كـانت في المدينة، وسياق الآية لا يدل على أنها نـزلت وحدهـا منفصلة عما قبلهـا وما بعدها وعلى هذا فيصعب ـ كما قلت ـ أن نسلم بهذه الـرواية. وقـد تكون الحادثة وقعت، وقد يكون الرسول ﷺ قرأ عليه هذه الآية لمـا سمع نـدمه ورأى بكاءه، وعلم صدق توبته.

ويظهر أن الحسنات في الآية تشمل الصلوات وغيرها، وتفسير الآيـة عـلى ما مرّ من أن الحسنات يـذهبن السيئات، أي فعـل الحسنـة يـذهب السيئة التي سبقتها هو أحد تفسيرين للآية الكريمة. أما التفسير الآخر فهـو

---

(١) رواه البخـاري في كتاب التفسـير ـ تفسير سـورة هود ـ بـاب وأقم الصلاة طـرفي النهـار وزلفاً من الليل ـ رقم الباب ١٧٧ /رقم الحديث ٤٤١٠ ج ٤ ص ١٧٢٧.

أن فعل الحسنات ينفر صاحبه من فعل السيئات، فالذي يداوم على الحسنات ويكثر منها يمقت السيئات ويبتعد عنها، وتنفر نفسه منها، وهذا تفسير حسن جيد، فإن الذي يستلذ الحلال لا يستلذ الحرام، وأن الذي يذوق حلاوة الأنس لا يستطيع وحشة الغفلة، وأن الذي يعيش في عز الطاعة، يصعب عليه أن يرى نفسه في ذل المعصية، ومن ينعم بالأنوار يستوحش من الظلمة [إن الحسنات يذهبن السيئات] فإذا كان التفسير الأول يفهم منه أن من عمل سيئة، ثم فعل حسنة بعدها، محت هذه الحسنة السيئة، أقول إذا كان هذا هو التفسير الأول للآية الكريمة، فإن معنى التفسير الثاني أن الحسنة تنفر صاحبها من فعل السيئة، فمن داوم على الحسنات أعرض عن السيئات، وهذا معنى شريف يسعد به القلب وتستريح له النفس.

واعلم أن السيئات التي تذهبها الحسنات ـ كما هو شأن التفسير الأول للآية ـ إنما هي الصغائر. أما الكبائر فلا بد لها من التوبة النصوح، وإن كانت حقوقاً مالية فلا بد من ردّها لصاحبها أو عفوه عنها، ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: ١١٤] قال ﷺ «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه»[(١)].

الصفة الخامسة: «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»

واعلم أن الصبر ثبات القلب على ما يرضي الرب، والرسول ﷺ يقول: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر»[(٢)]. . وإنما ذكر الصبر في سياق الاستقامة، لأنه دعامة تشترك فيها

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع باب ١٩ حديث ٢٥٨٨، ج ٤ ص ٢٠٠١.

(٢) رواه أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٠٧ عن ابن عباس.

النفس والروح والفكر، فمن أعطي فكراً سليماً ووهب نفساً مطمئنة وروحاً فيها شفافية. إن من وهبه الله ذلك كله يمكن أن يكون الصبر خلقاً له.

وإنما ذكر الصبر آخر دعامة من دعامات الاستقامة، لأنه هو الذي يثبّت ما قبله، ألا ترى أن إقامة الصلاة بحاجة إلى صبر واستمع إلى قول الله: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾ (طه: ١٣٢) ثم ألا ترى أن عدم الركون إلى الظالمين بحاجة للصبر كذلك، وكذلك عدم الطغيان بحاجة إلى صبر ومجاهدة، ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا**﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾ [العنكبوت: ٦٩] ولكي يحافظ الإنسان على توازنه فلا يطغى، لا بد أن يصبر على ذلك، ولقد قالوا إن الصبر قد يكون صبراً لله، وصبراً في الله وصبراً بالله، وصبراً مع الله، ﴿**واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ [هود: ١١٥]، فإذا أردت أخي أن تكون مستقيماً محسناً فعليك أن تحقق هذه الأوصاف، وأن تتصف بهذه الدعائم.

قال ابن قيِّم الجوزية «الصبر بالله هو أول الاستعانة بالله، ورؤيته أنه هو المصَبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والصبر لله: هو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

والصبر مع الله وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه. ومع أحكامه الدينية صابراً نفسه معها سائراً بسيرها. مقيماً بإقامتها، يتوجه معها

أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها. فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره، ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين»[1].

وأشد صبر على الصابرين الصبر عن الله. فقد قيل: «الصبر لله غَناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج»[2].

اللهم منّ علينا بالاستقامة، واجعلنا ربنا من المستقيمين إليك والمستغفرين وجنبنا اللهم الاعوجاج قولاً وعملاً، واجعلنا من المستقيمين على الطريقة، وأكرمنا اللهم بنفحات الحقيقة يا ذا المنّ والفضل، نعوذ بك من أن نظلم أو نظلم، ومن أن نركن للظالمين، واجعلنا اللهم ربنا مقيمي الصلاة وذرياتنا، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، وأكرمنا بالصبر وجنبنا كفران نعمتك والجزع على الدنيا. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٦٤.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٦٧.

الخماسية التاسعة

قال سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾ (لقمان: ٣٤).

أسباب نزول الآية:

ذكروا في سبب نزولها أن رجلاً يسمى الوارث بن عمرو جاء إلى النبي ﷺ فقال له: «يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الساعة قال للسائل: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ثم تلا النبي ﷺ ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث**﴾ إلى آخر السورة[1].

صلة الآية بما قبلها:

هذا من حيث الآثار التي وردت في الآية الكريمة، أما من حيث

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (سورة لقمان) - باب إن الله عنده علم الساعة - ٢٦٩/٤٤٩٩ - ج ٤ ص ١٧٩٣.

ارتباطها بما قبلها، فلقد جاء قبل هذه الآية الكريمة، ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم. واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إن الله عنده علم الساعة﴾ إلى آخر الآية (لقمان: ٣٣ - ٣٤) فلقد جاءت هذه الآية الكريمة مبينة لقوله سبحانه: ﴿إن وعد الله حق﴾.

نظم الآية:

نلاحظ في نظم الآية حكماً بيانية لا بد من التنبيه لها:

هناك صور ثلاث في نظم هذه الآية الكريمة:

الصورة الأولى: الحديث عن الساعة.
الصورة الثانية: الحديث عن إنزال الغيث وما في الأرحام.
الصورة الثالثة: عن معرفة الغد ومكان الموت.

أما الصورة الأولى فلقد جاءت على هذا النظم البديع «إن الله عنده علم الساعة» وأما الصورة الثالثة فلقد بدئت وصدرت بهذا النفي: «وما تدري نفس» بقيت الصورة الثانية، وقد عبر عنها بالفعل المضارع «وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام».

ومن الحق أن نتساءل عن الحكمة البديعة وروعة البيان في نظم الآية الكريمة «لم لم تجيء هذه الأمور على نسق واحد، فلم يقل مثلاً إن الله عنده علم الساعة وتنزيل الغيث، وعلم ما في الأرحام ومعرفة غد الإنسان وعلم الأرض التي فيها يموت.

وللأجابة عن هذا التساؤل نقول: إن القرآن معجز بنظمه، فنظم

القرآن هو أساس إعجازه كما يقول المحققون من العلماء ـ وسنلمح بعض دقائق هذا الإعجاز في الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

جاء التعبير عن الساعة بهذه الجملة الاسمية (إن الله عنده علم الساعة)، ذلك لأن قيام الساعة محدد في علم الله قبل أن يخلق الله الخلائق، لم يحدث عليه تغيير، ولم يطرأ عليه تبديل، فهو أمر ثابت مستقر، لذلك جاء التعبير عنه بهذه الجملة الثابتة وعنده علم الساعة، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام والثبات.

أما الصورة الثالثة في الآية الكريمة فلقد جاءت بهذا النفي القاطع **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾** والدراية غير العلم، فهي علم معه فطنة، وقد جاءت هذه الصورة بهذا النفي القاطع،

أما الصورة الثانية هي **﴿ينزل الغيب ويعلم ما في الأرحام﴾** فقد جاءت بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث، ذلك لأن إنزال الغيث دائم بدوام السنة كلها بحسب المكان والمنطقة والمناخ، ففي بعض البلاد يكون المطر في الشهر الأول من السنة، وفي بعضها في الشهر السادس أو السابع أو غيرها.

وكذلك ما في الأرحام أمر يتجدد دائماً، وسيظل كذلك ما دامت الحياة، لذلك كان التعبير عنه بالفعل المضارع.. هذه الحكمة البيانية الأولى، وبقيت حكمة ثانية في الآية الكريمة.

وهي أن الصورة الأولى والثالثة لا يستطيع أحد من الناس إدعاء معرفتها فلا يستطيع أحد أن يقول أنا أعلم الساعة كما لا يستطيع أحد أن يدعي أنه يعلم علم ما في الغد أو يعلم أين ستكون منيته.

أما إنزال الغيث وعلم ما في الأرحام فلقد شاء الله أن تكون له

بعض العلامات والأمارات، فإنزال الغيث له علاماته ـ كما يعرف ذلك علماء الأرصاد، وعلم ما في الأرحام كشف الله للناس عن طريق العلم بعض علاماته، وسنفصل القول في هاتين المسألتين قريباً إن شاء الله.

وسنحاول أن نتحدث عن كل أمر من هذه الأمور الخمسة بما يفتح الله وييسر، فمنه التيسير وله الفضل وهو الفتاح العليم.

الأمر الأول: (إن الله عنده علم الساعة):

اعلموا أرشدكم الله أن الله تبارك وتعالى جلت حكمته وعظمت قدرته خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وكان لا بد من دارين: الدنيا والآخرة من أجل أن توفى كل نفس ما كسبت **﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم﴾** (غافر: ١٧)، فيوم القيامة هو الذي لا ظلم فيه، وكأن الدنيا هي الدار التي يكثر فيها الظلم، والساعة علم على ذلك اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، وقد جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى متعددة الأسماء والصفات، وذلك بما يتناسب مع سياق كل آية، فهي الساعة وهي الحاقة، والطامة، والصاخة ويوم القيامة، ويوم الفصل، ويوم الجمع.

وفي القرآن الكريم تساؤلات كثيرة عن الساعة **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** (الأعراف: ١٨٧). **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾** (النازعات: ٤٢ - ٤٦). **﴿يسألك الناس**

عن الساعة، قل إنما علمها عند الله، وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ (الأحزاب: ٦٣) **﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق، ألا إنّ الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾** (الشورى: ١٧ - ١٨) وفي الحديث: «إن جبريل عليه السلام سأل سيدنا رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[١]

وهذه الآيات الكريمة جميعها تدل دلالة واضحة صريحة على أن الخلق ملائكة وأنبياء في علم الساعة سواء، ومع هذه الأدلة المتواترة نجد بعض الكاتبين يتجرأ على قولة غريبة منكرة، وهي أن الساعة من الأمور التي يمكن معرفتها عن طريق العدد، لقد غر هذا الكاتب وهو صاحب رسالة «عليها تسعة عشر» ما بينه من خاصية هذا العدد، غره مثل هذا فلم يقف عند هذا الحدّ، مع ما عليه من مآخذ، ولكنه تجاوز هذا الحدّ بادعائه هذه الدعوى الجريئة وهو أمر منكر لا بدّ من التنبيه له والتحذير منه.

علامات الساعة:

والرسول عليه وآله الصلاة والسلام بيّن للمسلمين أمارات هذه الساعة وعلاماتها وأشراطها، ففي الحديث الصحيح سئل النبي عليه وآله الصلاة والسلام متى الساعة، فقال: «إذا ضيعت الأمانة، قيل: وكيف تضييعها قال: إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»[٢] وفي حديث جبريل عليه السلام: «ولكني أخبرك عن أماراتها إذا ولدت الأمة ربتها وإذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم باب فضل العلم رقم الباب ١ رقم الحديث ٥٩ ج ١ ص ٣٤.

رأيت الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان»

وهذه الأحاديث الكريمة وما ماثلها تبيّن بعض الأمور التي تكون بين يدي الساعة، وهذه الأمور كلها تدور حول قضية خطيرة، وهي أنّ الساعة يسبقها هذا التغيير في الكون، وهذا الفساد في السياسة والمجتمع وشؤون الحياة، فالأمانة وهي أمر فطري في الإنسان كان في الكتاب والسنة خير حافظ له، كما دل عليه حديث الرسول ﷺ «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»[1] هذه الأمانة تضيع، وكيفية تضييعها أن تعطى القوس لغير باريها، وأن يتولى شؤون الناس من ليسوا أهلاً للولاية، فيصدق الكاذب ويكذب الصادق، ويخون الأمين ويؤمن الخائن، ويتصدر الرويبضة[2] شؤون الناس.

وهذا الانقلاب في الكون بينه الحديث الآخر «أن تلد الأمة ربتها» فيكون الصغير حاكماً، والكبير محكوماً، ويكون الأب خادماً، والابن مخدوماً، وتكون البنت سيدة، والأم أمة، وهكذا ترى الحفاة العراة البهم العالة رعاء الشاة متطاولين في البنيان، وهذا يمكن أن يحمل على الحقيقة، ويمكن أن يكون كناية عن انقلاب أوضاع الحياة انقلاباً تاماً يعز الفاسق ويسود، ويطغى الجاهل، ويقل الفقهاء والصالحون، فيقمعون ويقهرون ويضطهدون.

وبالجملة فإن الأحاديث التي بينت علامات الساعة كثيرة، وهي تدور حول هذا المعنى الذي ذكرت، فبعضها يجمل، وبعضها يفصل، والذي ينبغي أن يعني الإنسان ليس وقت الساعة، إنما العمل لذلك اليوم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب رفع الأمانة ٦١٣١/٣٥ ج ٥ ص ٢٣٨٢.

(٢) الرويبضة تصغير الرابضة وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها (النهاية لابن الأثير ٢/١٨٥).

حتى لا يؤخذ على غرّة، ولا تأتيه الساعة بغتة، **﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾** (يس: ٤٩ - ٥٠) فهنيئاً لمن عدّ الدنيا ساعة، واشتغل فيها بالطاعة وعمل لما يرضي الحبيب، فإن كل آتٍ قريب.

الأمر الثاني: (وينزل الغيث):

والغيث هو ما يسميه الناس اليوم بالمطر، مع أن المطر في القرآن لم يرد إلا في سياق العذاب، وجاء التعبير القرآني بهذه الصيغة «ينزّل» لأن أمر الغيث يختلف من بلد لآخر، فهو دائم دوام الحياة، وهو نعمة الله تبارك وتعالى على خلقه، **﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتا، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾** (الفرقان: ٤٨ - ٤٩)

وإذا كان الله قد أنزل لنا الهدى من السماء، فكان غيث القلوب والأرواح، فإنه قد تفضل على الخلق بما يصلح الأبدان والأشباح، ولا بد أن نعرض لقضية يتساءل عنها كثير من الناس، وهي كيف يكون إنزال الغيث مما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمه ونحن نرى المتخصصين بالأرصاد الجوية يعرفون هذا الأمر، فنحن نسمع النشرات الجوية من الإذاعات وقد تصدق في كثير من الأحيان؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نقول وبالله التوفيق.

إن إنزال الغيث رحمة من الله تبارك وتعالى، فالناس أياً كان علمهم وثقافتهم ومعرفتهم لا يستطيعون أنّ ينزلوا قطرة ماء واحدة، وهذه الدول الكثيرة التي تعاني من الجفاف خير شاهد على ذلك، حتى ما يسمّى بالمطر الاصطناعي، مع كونه غير مجدٍ من الناحية الاقتصادية، لا يفي بتأمين

حاجات الناس، فالله تبارك وتعالى إنما ينزل الغيث رحمة من عنده ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ (الروم: ٤٨ - ٥٠).

وإذا كان إنزال الغيث رحمة من الله، فإنه سبحانه هو الذي يعلم زمانه ومكانه ومقداره، والناس لا يستطيعون أن يتحكموا في شيء من ذلك كله، أما قضية الأرصاد الجوية فمع كونها تعتمد على كثير من الأمارات والعلامات إلاّ أنها تبقى مسألة ظنية لا يستطيع البشر إن يصلوا فيها إلى رأي حاسم، وإنما يعلمون أمارات مما علمهم الله، ثم إن الناس لا يستطيعون أن يحكموا على هذا الغيث بقلة أو كثرة، كما أنهم لا يستطيعون أن يعرفوا شيئاً من هذا إلا في أوقات معينة، فهم لا يستطيعون أن يحكموا على سنةٍ ما بأنها ستكون سنةً خصبة أو ممحلة، وبالتالي فإن قضية الأرصاد الجوية، وهي التي كانت تعرف من قبل بالتنجيم، أصبحت ذات مقاييس وعلامات يمكن أن تعرف قبل يوم أو يومين، وقد لا يصدق حدسهم كذلك.

إن إنزال الغيث سيظل مهما تقدم العلم من الأمور التي استأثر الله تبارك وتعالى بعلمها، وصدق الله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ (الحجر: ٢١ - ٢٣). وصدق الله ﴿وأنزلنا من السماء ماء

بقـدر فأسكنّـاه في الأرض وإنّا عـلى ذهاب بـه لقادرون﴾ (المؤمنـون: ١٨).

الأمر الثالث: (ويعلم ما في الأرحام):

والرحم هو المكان الذي يكون فيه أصـل تكوين الجنـين، وقد سـماه القرآن قراراً مكيناً، **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قـرار مكين إلى قـدر معلوم فقدرنـا فنعم القادرون، ويـل يـومئـذ للمكـذبـين﴾** (المرسـلات: ٢٠ - ٢٤) **﴿الله يعلم مـا تحمـل كــل أنثى ومـاتغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبـير المتعـال، سواء منكم من أسر القـول ومن جهر بـه ومن هـومستخف بالليل وسارب بالنهار﴾** (الرعد: ٨ - ١٠).

وعلم مـا في الأرحام يشمـل جميع الصفـات وكل الأحـوال، وأولهـا الذكورة والأنوثة، ثم ما بعد ذلـك من صفات متعـددة ومختلفة، من لـون وحجم أو غير ذلك مما يتصل بالجنين والرحم على السواء. وهنا قضية يكثر التساؤل عنها، كيف يكون هذا مما استأثر الله بعلمه، وقد توصـل العلم اليوم لمعرفة نوع الجنين ذكراً أو أنثى؟.

هل توصل العلم لمعرفة نوع الجنين؟

ولقد غالى في هذه القضية كثير من الناس، فهم بين مفرط ومفـرّط، فمنهم من زعم أن العلم استطاع أن يتوصل إلى معرفـة نوع الجنين أذكـراً أم أنثى منذ الأيام الأولى، ، ومنهم من أنكـر ذلك كله زاعـماً أن مثل هـذا يخالف الآية الكريمة،ومنهم من خرج بـالآية عن تـأويلها إلى تـأويل آخـر، فزعم أن معنى الآية (ويعلم ما في الأرحام) أي الصفـات الخلقية والخلقيـة

التي سيكون الجنين عليها فيما بعد، وليست قضية الذكورة والأنوثة، إذ أن من المعلوم أن خلايا الذكورة والأنوثة تتميز بعد هذه الأسابيع الستة، فإما المبيض للأنثى أو الخصية للذكر، أما العلامات التامة للذكورة والأنوثة فإنها تظهر متأخرة عن هذا الوقت.

ومرحلة البطن هي المرحلة الأخيرة التي يكون فيها للجنين أغشية تحيط به، حفظاً من الله تبارك وتعالى، ولقد جاءت عبارة القرآن دقيقة كل الدقة (ويعلم ما في الأرحام)،

والذي توصلت إليه وسائل العلم الحديث اليوم لا تشمل المرحلة الأولى، إنها قد تشمل المرحلة الثانية، أي عندما يكون الجنين في البطن تام التخلق، قد ميزت فيه علامات الذكورة والأنوثة، . وهذه لم يعرض لها القرآن الكريم،

بيان ذلك أن كلمات القرآن كلمات دقيقة معبرة. ألا ترى إلى قوله (نطفة في قرار مكين) وإلى قوله (في بطون أمهاتكم في ظلمات ثلاث) إن ذكر الرحم في موضع، وذكر البطن في موضع آخر له دلالاته وإيحاءاته العلمية والبيانية، ألا ترى أن القرآن لم يقل ويعلم ما في البطون، ولم يقل يخلقكم في أرحام أمهاتكم.. في ظلمات ثلاث.

وسأحاول أن أبين وجه الحق والتأويل المرتضى للآية الكريمة، ومن الله العون، وهو ولي التوفيق والهداية.

نظم الجملة الكريمة (ويعلم ما في الأرحام) إذا أخذ وحده، فإنه لا يدل على أن هذه القضية مما استأثر الله بعلمه، إذا قلت فلان يعلم الناس، فإن هذا التركيب لا يدل على أن غيره لا يعلم، وعلى أنه هو الذي يعلم وحده، ولو أن هذه الجملة جاءت وحدها منفردة، ما كان يفهم منها أن غير الله لا يعلم ما في الأرحام، ولكن هذه الجملة الكريمة جاءت وسط أمور متعددة، وهذه الأمور بعضها تقدم على هذه الجملة

وبعضها تأخر عنها، فالمتقدم عليها (علم الساعة، وإنزال الغيث)، والمتأخر عنها (ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) وكل من هذه الأمور المتقدمة والمتأخرة مما استأثر الله بعلمه، إذ لا يستطيع أحد ادعاء معرفته، وعلى هذا فينبغي أن تعطى هذه المسألة وهي: علم ما في الأرحام حكم ما قبلها وما بعدها، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قدمنا لك شيئاً منها، دلت دلالة واضحة صريحة مبينة، على أن هذه الأمور الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، وإذن فعلم ما في الأرحام هو لله وحده، ولكن يبقى السؤال بحاجة إلى إجابة، ويظل الأمر بحاجة إلى حل، إذ كيف نجيب عن توصل العلم والطب لمعرفة نوع الجنين؟.

وأمام هذا التساؤل الملح، وأمام هذه الحقيقة العلمية رأى بعض العلماء أن يتنازل بعض التنازلات فأول الآية الكريمة على أن الله يعلم ما في الأرحام، أي يعلم لون الجنين، وحجمه، وصفاته التي لا يعرفها الناس من ذكاء وفطنة وعقل وعلم، أما الذكورة والأنوثة فليست مما استأثر الله بعلمه وهذا تنازل في تأويل الآية - كما قلت - لا نتفق مع قائليه، ولا نرضاه في تأويل الآية، وذلك أمر يحتاج إلى بيان وتفصيل:

كثير من الآيات القرآنية بينت لنا أطوار خلق الإنسان بياناً دقيقاً لم يصل إليه العلم إلا في أيامه الأخيرة، نقرأ هذا في قول الله سبحانه: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** - والقرار المكين هو الرحم كما قلت من قبل - **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** (المؤمنون: ١٢ - ١٤).

والآيات كثيرة التي تحدثنا عن اطوار الخلق، وكذلك الأحاديث في السنة المطهرة، ولكن هذه الآيات ميزت بين مرحلتين واعني بهما مرحلتي الرحم والبطن، ودليل ذلك من القرآن الكريم ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون** ﴾ (الرمز:٦)، والظلمات الثلاث هي :
ظلمة الرحم والبطن والمشيمة ـ كما قال الأقدمون ـ وهي الأغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين ـ كما يقول المحدثون ـ ومرحلة الرحم إنما هي مرحلة الأسابيع الستة الأولى التي أخبر عنها النبي عليه وآله الصلاة والسلام في قوله (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)، وفي حديث آخر: (يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة. . .)[1].

وعلى هذا الأساس ندرك روعة القرآن في كلماته، وروعة الكلمة القرآنية في دقتها، وندرك بما لا يقبل ريباً أن النطفة في الرحم ستظل غيباً. على أنني سمعت ممن أثق فيهم من الأطباء عن أستاذة إنجليزية في الطب، وقد عرضت لهذه القضية، وبعد أن قررت لطلابها أن هناك أكثر من طريقة يمكن بوساطتها أن يعرف نوع الجنين، لكنها تقرر بعد ذلك أن تلك

(١) صحيح مسلم – كتاب القدر– باب كيفية خلق الآدمي في بطن امه –١/١–٢.

قضية تترتب عليها سلبيات اجتماعية متعددة، ولذا فهي تصر على أنه ليس من مصلحة الإنسان أن يتوغل في بحث هذه القضية،

ونظن هذا صحيحاً، فكم من آمرأة، وكم من رجل لا يسرهما أن يكون جنينهما نوعاً معيناً، وماذا ينتج من مشكلات نفسية وجسدية في أثناء الحمل، بعد أن يكون غير ما توقعاه، وغير ما يحبّان، إن علم ما في الأرحام سيظل غيباً لا يعلمه إلا الله، وإن معرفة ما في البطون ربما يعلمها بعض الناس، أو يصدق حدسهم في معرفتها، ولكن دون أن يكون لذلك جدوى بل ربما تنتج عنها مضاعفات سلبية سيئة.

الأمر الرابع: «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً».

﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ (النمل - ٦٥)

إنما الغيب كتاب صانه
عن عيون الناس رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى
صفحة الحاضر حيناً بعد حين

ويقول الشاعر الجاهلي:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم

وهذه قضية بدهية، ولكن الذي نحب أن ننبه إليه هنا، أن بعض الناس ينخدعون بمن يسمون العرافين والفتاحين، والعرافات والفتاحات، فيذهبون لهم لمعرفة مستقبلهم فيما يدعون ويذرون، وهذا ما كان معروفاً عند الجاهلية بالاستقسام بالأزلام، والذي سمّاه القرآن فسقاً، وعدّه رجساً

من عمل الشيطان، وقرنه مع الخمر والميسر والأنصـاب،

وهذه من الأمور التي شدد الإسلام على فاعلها، بل بينت الأحاديث والآثار أن هناك خطراً على عباداتهم أن لا تقبل منهم، وأن تحبط أعـمالهم، ولهـذا فلقد شرع الإسـلام الاستخـارة، وبـين سيـدنـا رسـول الله ﷺ أن الاستخـارة تكون في كـل أمر يشكـل على الانسـان معرفتـه، ولهـذا يقـول الصحـابة رضـوان الله عليهم: كان رسـول الله ﷺ يعلمنا الاستخـارة كما يعلمنا السورة من القرآن».

وكيفية، الاستخارة أن يصـلي المرء ركعتـين غير الفـريضة، يقـرأ في الأولى بعد الفاتحة «قل يا أيها الكافرون» وفي الثانية بعد الفاتحة قل هو الله أحـد» وبعـد أن يسلم يحمـد الله ويصلي عـلى نبيـه ﷺ ويـدعـو دعـاء الاستخـارة: اللهم إني أستخـيرك بعلمـك وأسـألـك من فضلك العـظيم وأستقـدرك بقدرتـك، فإنـك تقدر ولا أقـدر وتعلم ولا أعلم وأنت عـلام الغيوب ـ اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ ويسمي الأمر الـذي يريـد ـ فإن كان حجـاً قال: ان كنت تعلم أن حجي هـذا العام، وإن كـان سفراً قـال إن كنت تعلم أن سفري كـذا إلى بلد كذا وهكـذا إن كـان تجـارة أو زواجاً أو شركة أو أي أمر يريـده، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمـر خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمـري وعاجـلي وآجلي فـاقدره لي ويسره لي ثم بـارك لي فيـه، اللهم وإن كنت تعلم أنـه شر لي في ديني ومعـاشي وعـاقبة أمـري فاصرفـه عني واصرفني عنـه واقـدر لي الخـير حيث كـان ثم رضني به ولا حول ولا قوة إلا بك وصـلّى الله على سيـدنا محمـد وعلى آلـه وصحبه[1]. ويترك الأمر لله تبارك وتعالى، فالذي يختاره الله هو الخير، فإن لم يطمئن صلّى ركعتين أخريـين ودعا الـدعاء نفسـه ولا يشترط لـه أن يرى

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد بـاب قول الله قـل هو القـادر ١٠/٦٩٥٥ ـ ج ٦ ص ٢٦٩٠.

شيئاً في منامه كما يظن كثير من الناس.

ومن شأن هذه الاستخارة أن يسكن بها القلب وتطمئن لها النفس، ويحصل لها الرضى. أما غير ذلك من الوسائل فلا ينبغي لمسلم أن يتعاطاه، لأنه يتنافى مع عقيدته.

بقي شيء في هذه القضية، وهو ما يجري على ألسنة بعض الصالحين دون أن يكون لهم فيه دخل، ودون أن يورثه هذا شيئاً من الكبر، فهذه أمور ظنية، قال العلامة أبو الفضل الشهاب الألوسي في تفسيره الموسوعي، روح المعاني:

«وقد يقال فيما يحصل للأولياء من العلم بشيء مما ذكر أنه ليس بعلم يقيني قال علي القاري في شرح الشفا: الأولياء وإن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء،لكن علمهم لا يكون يقينياً،وإلهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنياً، ومثل هذا عندي بل هو دونه بمراحل علم النجومي ونحوه بواسطة إمارات عنده بنزول الغيث وذكورة الحمل أو أنوثته أو نحو ذلك،ولا أرى كفر من يدعي مثل هذا العلم فإنه ظن عن أمر عادي، وقد نقل العسقلاني في فتح الباري عن القرطبي أنه قال: من ادعى علم شيء من الخمس غير مسندة إلى رسول الله ﷺ كان كاذباً في دعواه، وأما ظن الغيب فقد يجوز من المنجم وغيره، إذا كان عن أمر عادي وليس ذلك بعلم وعليه فقول القسطلاني من ادعى علم شيء منها فقد كفر بالقرآن العظيم، ينبغي أن يحمل العلم فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به دون مطلق العلم الشامل للظن وما يشبهه»[1]

الأمر الخامس: (وما تدري نفس بأي أرض تموت)

إن الله سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

---

(١) روح المعاني ج ٢١ ص ١١٢.

والـذي يعلم خائنـة الأعين ومـا تخفي الصدور، يعـرف الأمـور حسب مـا تقتضيها الحكمة. وإنَ هناك أموراً جعل للإنسان منها كسب واختيار، وإن هناك أموراً أخـرى آقتضت حكمة الله سبحـانه وتعـالى أن لا يطلع عليهـا أحـداً ﴿عـالم الغيب فـلا يـظهـر عـلى غيبـه أحـداً إلَّا من آرتضى من رسـول، فإنـه يسلك من بين يـديه ومن خلفـه رصـداً ليعلم أن قـد أبلغـوا رسالات ربهم وأحـاط بما لـديهم وأحصى كـل شيء عـدداً﴾ (الجن: ٢٦-٢٨).

ألا تـرى أن الله جعل حـركة اليـد والعين من الأمـور الاختياريـة، ولكنه لم يَكِل حـركة القلب لـك أيها الإنسـان، فأنت قـد تحرك يـدك وقد تقفها عن الحركـة، ولكن حركـة القلب لم يتركهـا لك أنت، لأنَّ الحكمـة الربانية البالغة آقتضت ذلك، ألا ترى أنها لو تركت لك فلربما غفلت عنها حيناً من الدهر، وهكذا الإنسان في موته فكما أنه خُلق ولم يستشر، ولم يدر والداه أين سيولد، فكذلك الموت. وقد أخرج الإمام أحمد وجماعة عن أبي غرة الهذلي قال: قال رسـول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بـأرض جعل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يقدمها، ثم قرأ عليه الصـلاة والسلام «وما تدري نفس بأي أرض تموت».

ومـن كـانـت مـنـيـتـه بـأرض
فـليس يمـوت في أرض سـواهـا

وصدق الله ﴿أينما تكـونوا يـدرككم الموت ولو كنتم في بـروج مشيدة﴾ (النسـاء: ٧٨).

وبعد: فإنَّ في الآية غير ما ذكرناه علوماً كثيرة وحقائق على درجة من الأهمية وعظم الشأن لا يتسع المقـام لذكـرها. ولكن نختم هـذه الخماسيـة بـأدب واحد من آداب الآيـة الكريمـة: وهو أن هـذا الإنسـان لا ينبغي أن

يتطاول إلى ما لا ينبغي لـه، ولا ينبغي أن يخرج عن دائـرته، وعن الحدّ الذي أعد له، فإذا كنت أيها الإنسان لا تدري ما هـو خاص بـك وما هـو ألزم لك من غـيره، وما هـو ضروري لك، إذا كنت لا تـدري عن رزقك شيئاً ماذا تكسب من غدك، إذا كنت لا تدري عن أجلك شيئاً بأي أرض تموت فلماذا تتجاوز حدك؟! وتذهب إلى أكثر مما هـو لك؟ لمـاذا تبحث عن الساعة ما دمت تجهل ألصق الأشياء بك، وأمسها حاجـة لك؟! إن ذلـك أدب عظيم ينبغي ان نتعلمه من الآية الكريمة، ورحم الله امرءاً عرف حده ووقف عنده.

وتختم السورة الكريمة بقوله سبحانه «إن الله عليم خبير» وهـو يشمل العلم الظاهر، والخفي معاً.

الخماسية العاشرة

قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (الحديد: ٢٠).

حقيقة الدنيا:

ما أعظم شأن هذا القرآن الذي صرف الله فيه للناس من كل مثل لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، وقد رأينا في الخماسيات السابقة فنوناً من القول وأمثالاً، وفي هذه الآية الكريمة شرح وتفصيل لهذه الدنيا، فلقد جمعت الآية الكريمة هذه الحقائق الدقيقة للحياة الدنيا، حتى يستطيع الإنسان أن يوازن موازنة صحيحة مبنية على أسس ثابتة بين الحياة الدنيا والآخرة، ومع أنّ ما ذكر عن الدنيا، وما وصفت به ليس بعيداً عن الناس فهم يحيونه في واقعهم، ويعيشون هذه الأوصاف كل يوم من أيامهم، ولكن تذكير القرآن بها لغفلة الناس، فمع ما يرونه من فتنة الدنيا وفتكها، إلا أنهم مع ذلك يلهثون في طلبها، ويحرصون عليها، حرص من يظن أنه يعيش فيها عيشة الخلود.

وفي الآية الكريمة تذكرة للناس بدأها الحق تبارك وتعالى بإعلام الناس، وهذا الإعلام من الله سبحانه من أجل إيقاظهم من سباتهم

وتنبيههم من غفلتهم، وتحذيرهم من أن يؤخذوا على غرة، ومن أن يستمروا في هذه الغفلة ﴿**يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾ وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، قال ابن عمر إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وتزود من شبابك لهرمك، ومن صحتك لمرضك ومن غناك لفقرك، ومن فراغك لشغلك ومن حياتك لموتك»[1]. ومن أقوال أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام «إن أشد ما أخافه عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه حب الدنيا، ألا إن للدنيا أبناء وللآخرة أبناء فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض، فإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مودعة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ألا وإنكم في يوم فيه عمل وليس فيه حساب، ألا وإنكم توشكون على يوم فيه حساب وليس فيه عمل» صحيح أن الدنيا ارتحلت مودعة، وصحيح أن الآخرة قد ارتحلت مقبلة،

يسر المرءَ ما ذهب الليالي
وكان ذهابهن له ذهاب

يا أيها المعدود أنفاسه
لا بد يوماً أن يتم العدد

لا بد من يوم بلا ليلة
وليلة تأتي بلا يوم غد

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب قياس الدنيا بالنسبة للآخرة ١٥/٢٣٢٤ وقال حسن صحيح.

وغـرور دنـيـاك الـتي تـسـعـى لهـا
دار حـقـيـقـتـهـا تـزول وتـذهـب
وجمـيـع مـا حـصـلتـه وجـنـيـتـه
حـقـاً يـقـيـنـاً بـعـد مـوتـك يـنـهـبُ
تـبـاً لـدار لا يـدوم نـعـيـمـهـا
ومـشـيـدهـا عـمـا قـريـب يخـرب
والـروح فـيـك وديـعـة أودعـتـهـا
سـتـردهـا بـالـرغـم مـنـك وتـسـلبُ

وفي الحديث الشريف «ما الدنيا في الآخرة إلا كأن يضع أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم رجعت إصبعه»[1] وفي الحديث «الدنيا حلوة نضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[2]

وقد يظن بعض الناس أن كل هذه الآثار والأقوال هدفها أن يعيش المسلمون في الدنيا فقراء عالة على غيرهم من الناس، وليس الأمر والله كذلك، ولكن الغرض والغاية أن لا يفتتن المسلمون بالدنيا فتنسيهم الآخرة، فلا يكسبون هذه ولا تلك، وهذا هو وضعهم في واقعهم، لقد طغت المادة اليوم على المسلمين، ولكنهم مع ذلك يعيشون في الدنيا عالة على غيرهم حتى في كسرة الخبز، وهذا تصديق للحديث الذي روي عن سيدنا رسول الله ﷺ «من كانت الدنيا همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه، جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»[3]

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب قياس الدنيا بالنسبة للآخرة ١٥/٢٣٢٤، وقال حسن صحيح
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٦٠٦١/٧.
(٣) رواه أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٨٢ عن زيد بن ثابت.

ولقد حدثنا القرآن عن قوم يعبدون الله على حرف ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذٰلك هو الخسران المبين**﴾ (الحج: ١١).

صفات الدنيا:

ومن صفات الدنيا أنها تَغُر وتضر وتمرُّ، فإذا غرت ضرت، وإذا ضرت ذهبت ومرّت، فتركت في النفوس مرارتها، وشنت عليها غارتها، ولقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن ذلك المشهد الذي يكون يوم القيامة بين المؤمنين والمنافقين ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير**﴾ (الحديد: ١٣ ـ ١٥).

قول المؤمنين للمنافقين في الآخرة.

وما أجدرنا أن نقف عند تلك الأوصاف التي ذكرها المؤمنون للمنافقين، حينما نادوهم (ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) وتلك أول جريمة من جرائمهم فتنوا أنفسهم بأنواع كثيرة من الفتن، فتنوها بالشهوات، والمظاهر الخدّاعة، والجاه الكاذب، والمنصب الذي لا يدوم، والمال الحرام، والولد العاق، والمرأة المتبرجة، والبروج المشيّدة

(وتـربصتم) وهذه هي جـريمتهم الثانيـة، تربصـوا بالمؤمنـين سوءاً، وعقدوا لحربهم لواء، تربصوا بهم، وما هي إلا إحدى الحسينين **﴿قل هل تربصون بنـا إلا إحدى الحسنيـين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصـوا أنا معكم مـتربصون﴾**

(وارتبتم) فحـال الريب بينكم وبـين أن يقبل منكم عمـل، وظننتم أنكم ستبلغون في عداوة المؤمنـين كل أمـل، فلن تفتح لكم أبـواب السماء ولن تدخلوا الجنة إلا إذا دخل في سم الخياط الجمل، وهيهات هيهات.

(وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله) وغـرتكم الأماني الكـاذبة، وقـد سـولت لكم أنفكسم أن مكـركم سـتزول منه الجبـال، وأنكم ستصيبـون مقاتل المسلمين بما عندكم من نبـال، فأبى الله إلا أن يتم نـوره، (وغركم بالله الغرور) والغَرور كل ما ينحرف بأهله عن الجادة، وقد يكـون شيطانـاً من شياطين الجن والأنس، وقد يكون جاهاً، وقد يكون مالاً، وقد يكـون من أمور المادة أو أوصاف الجسم.

وهـذه الأمور الخمسـة هي التي تصـد عن الحق، وتـزين الـدنيـا في نفوس أصحابهـا، فتجلب عليهم كل ضرر. أمـا المؤمنون الصـادقون فلم يفتنوا بالنعمة، وتربصوا، ولكن كما أمرهم الله، تربصوا أن يحل بـأعدائهم سـخط الله وغـضبـه، **﴿ونحن نتـربص أن يصيبـكم الله بعذابٍ من عنده أو بـأيدينـا فتربصـوا إنا معكم مـتَربصون﴾** التـوبة: ٥٢) وآمنـوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، ولم تغرهـم الأماني، ولم يغرهـم بـالله الغرور وصـدقوا الله فصـدقهم الله، ونصحـوا لله ورسـولـه، فتـحقـق لهم وعـد الله.

﴿لـيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرض كـما استخلف الـذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[النور: ٥٥]

واجتنبوا الطواغيت أن يعبدوهـا وأنابـوا إلى الله، فكان لهم البشرى وصـدق الله **﴿والذين اجتنبـوا الـطاغـوت أن يعبـدوهـا وأنـابـوا إلى**

الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب﴾ (الزمر: ١٧-١٨).

وشر الطواغيت هذه الدنيا يقول سهل التستري رضي الله عنه، «الطاغوت الدنيا وأصلها الجهل، وفرعها الشهوات، وزينتها التفاخر وثمرتها المعاصي، وميراثها العقوبة وقسوة القلب، نعوذ بالله من ذلك».

أقوال النبي ﷺ في الدنيا:

والأحاديث التي وردت في شأن الدنيا والتحذير من الاغترار بها كثيرة، ومن الخير لنا جميعاً أن نستمع إلى بعض هذه الأحاديث المروية عن سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام راجين أن يكون في سماعها موعظة وعبرة.

١ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال (هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا[1].

٢ ـ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»[2]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله رقم الباب ٤ رقم الحديث ٦٠٥٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، رقم الباب ٥ رقم الحديث ٦٠٥٧.

٣ ـ وعن عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: (أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء) قالوا: أجل يا رسول الله قال: (فابشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم)[1].

٤ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل: وما بركات الأرض؟ قال (زهرة الدنيا) فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزّل عليه، ثم جعل يمسح جبينه، فقال (أين السائل) قال: أنا، قال أبو سعيد، لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: (لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حُلوة، وإن كل ما أنبت الربيعُ يقتل حبطاً أو يُلِمّ، إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا ما امتدت خاصرتاها، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حُلوة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونه هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[2]

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها رقم الباب ٧، رقم الحديث ٦٠٦١.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها رقم الباب ٧، رقم الحديث ٦٠٦٣.

٥ ـ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنّداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر». (١)

٦ ـ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد(٢)

٧ ـ عن المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ (أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها، قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال فالدنيا

= (حبطاً أو يلم) يقال حبطت الدابة حَبَطاً إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت، أو يلم أي تقرب من القتل. والمعنى أن الربيع ينبت أحرار العشب فتستكثر منه الماشية فتفرط في الأكل (فثلطت وبالت) الثلط الرجيع الرقيق وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة، وفيه إشارة إلى كثرة المآكل وتنوعها.

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في المبادرة بالعمل رقم الباب ٣ رقم الحديث ٢٣٠٧ وقال حديث حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب قول النبي ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» ٢٣١٣/٩ وقال حسن غريب. (أطت السماء): الأطيط صوت الأقتاب، وحنين الإبل: أصواتها وحنينها أي أن كثرة الملائكة في السماء قد أثقلها حتى أطت وهذا كناية عن كثرة الملائكة وازدحامهم فينبغي لها أن تصيح من جهة هذا الازدحام ومن خشية الله (الصعدات): أي الطرق: جمع صعيد الأصل بمعنى التراب، أو وجه الأرض وقيل جمع صُعُدة وهو فناء الدار والمعنى لخرجتم من بيوتكم إلى فنائها أو إلى الطرقات والصحارى كما هو شأن المحزون الذي ضاق عليه الأمر (تجأرون): أي ترفعون أصواتكم بالدعاء (تعضد) أي تقطع.

أهون على الله من هذه على أهلها)[1]

٨ ـ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم)[2].

٩ ـ وعن مستورد قال قال رسول الله ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع)[3].

١٠ ـ عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ثلاثة اقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فقال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل به رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ٢٣٢٢/١٣ وقال حديث حسن.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله ٢٣٢٣/١٤ وقال حسنٌ غريب.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب قياس الدنيا بالنسبة للآخرة ٢٣٢١/١٥ وقال حسن صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ٢٣٢٦/١٧ وقال حسن صحيح.

١١ ـ عن ابن عمر قال: «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدّ نفسك في أهل القبور فقال لي ابن عمر ـ لمجاهد ـ إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك فإنك لا تدري يا عبدالله ما اسمك غداً»[1].

١٢ ـ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: الزهادة في الدنيا ليس بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»[2].

١٣ ـ عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ، يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى[3].

١٤ ـ وقال ﷺ من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[4].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في قصر الأمل ٢٥/٢٣٣٤.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٩/٢٣٤١ وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه
والمعنى أن تكون رغبتك في المصيبة لأجل ثوابها أكثر من رغبتك في عدمها.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب اليد العليا خير من اليد السفلى ٣٢/٢٣٤٤ وقال حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب من بات آمنا في سربه معافى في يديه ٣٤/٢٣٤٧ وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية.

١٥ ـ عن أبي أمامة قال: قال ﷺ: إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة، وأحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفض بيده فقال: عُجلت منيته قلت بواكيه، قل تراثه،

وعنه عن النبي ﷺ قال: عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً (أو) قال ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[1].

١٦ ـ عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سُفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء، أتتبعوني، فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة، وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت حياضا رواء أن تتبعوني، فقالوا بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضاً أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.[2]

ما يستفاد من الأحاديث الشريفة:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه ٢٣٤٨/٣٥ وقال حديث حسن.

(أغبط): أي أحق أن يتمنى مثل حاله (خفيف الحاذ): أي ضعيف الظهر من العيال والحاذ هو الحال وخفيف الحاذ قليل المال والعيال (غامضاً): أي غير مشهور (الكفاف) بقدر الحاجة).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦٦٧/١)، وقال في المجمع (٢٦٠/٨) ورواه الطبراني والبزار، وإسناده حسن.

ومن هـذه الأحاديث الشريفـة ندرك أن المسلم يجب عليـه أن يوازن بين أعماله وأقوالـه حتى لا يخرج عن الجـادّة في قول أو عمـل، كما تعلمنـا هذه الأحاديث أنه لا يجوز للمسلم أن يكون عالة على غيره في هذه الحياة، فإنّ اليد العليا خير من اليد السفلى.

ونتعلم من هـذه الأحـاديث كـذلـك أنَّ المسلم الـواعي والـزاهـد الصادق، ليس هو الـذي حرم نفسـه الطيبـات من رزق الله، وقلبه معلق بـالحياة، فكم من واحـد يحرم نفسـه من لذيـذ المأكـل والملبس والمشرب، ولكن تجـد الدنيـا أسرت قلبه وملكت عقله ولبـه، فاستصغـر ذنبه، وكـاد ينسى ربه، شُغل بـالدنيـا ولم يقطف منهـا زهرة، ولم ينعم بمبـاحاتهـا عمره ودهره، فهو كما قيل «من الورشة إلى الفرشة».

إن الزاهد في الدنيا كما علمتنا هـذه الأحاديث الشريفـة من لا تملك عليه الدنيـا حياتـه، فهو ينتفـع بما أبـاحه الله لـه من طيبات، ويمتنـع عن المحرمات، ولكنه لم تشغله الدنيـا عن خالقـه ومولاه ولم تجعله يتبـع هواه، وكأنه يعيش لحظات عمره، وهو يدرك مناجاة الحق، تستشعر نفسه مناجاة ربه «عبدي إنما خلقتك لأجلي، وخلقت الحياة كلهـا لأجلك، فلا يغـرنك ما خُلِقَ لأجلك عمن خلقت لأجله».

تعلمنا الأحاديث الشريفة السابقـة أن نتحرى الحـلال في كل شيء، وأن نتوخى القناعة فيما قسم لنا، وأن نطمئن لحكم الله ونرضى، فما أجمـل الرضى. ولنرجع للآية الكريمة.

الامور الخمسة في الآية:

اعلمـوا ـ أرشدكم الله ـ أن الآيـة الكريمـة بينت أن غايـة الدنيـا لا تخرج عن هذه الأمـور الخمسة: لعب، ولهـو، وزينة، وتفـاخر، وتكـاثر وقـد جاء في كتـاب الله تعالى آيـات كثيرة تحـذر من الاغترار بهـذه الحياة، وهذه الآيات تقتصر على ذكر اللهو واللعب، بعضها يتقدم فيه ذكر اللعب على اللهو، وآيات أخرى يتقدم فيها ذكـر اللهو عـلى اللعب، فقد جـاء في

سورة الأنعام ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ (آية ٣٢) وفي السورة نفسها قوله سبحانه ﴿وذروا الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ (الأنعام: ٧٠) وفي سورة الأعراف: ﴿ونادى أصحاب النّار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ (الأعراف: ٥٠ - ٥١) وفي سورة العنكبوت ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (آية ٦٤) أي الحياة الدائمة الطيبة التي تستحق أن تسمى حياةً.

ونلاحظ أن كل آية تحدثت عن الدنيا كان لا بد أن يأتي بعدهاحديث عن الآخرة، كما رأينا ذلك في الآية الأولى من سورة الأنعام، وفي آية سورة العنكبوت، ولكن بعضها الآخر نعى على الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً كما رأينا ذلك في الآية الثانية من سورة الأنعام، وآية سورة الأعراف.

واتخاذ الدين لعباً ولهواً يكون بنسيان حدوده وأوامره ونواهيه، وبالإعراض عن أحكامه وآدابه، وبالإستهزاء منه ومن الداعين إليه.

ومن صور اتخاذ الدين لهواً ولعباً السكوت عن معصية العصاة، وجناية الجناة، وتزيينها لهم، والثناء عليهم ومدحهم بما لا يستحقون، هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، يقول الله ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ (الأعراف: ٥١) ومعنى هذا أن ما يلاقونه من عذاب، وما يُصب عليهم من سخط الله تبارك وتعالى لسببين اثنين.

الأول: نسيانهم ليوم الآخرة، ليوم لقاء الله تبارك وتعالى.

الثاني: جحودهم بآيات الله وإنكارهم لها، وتأويلها عن حقيقتها، والتهاون بها، هؤلاء هم الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ونسوا الله فنسيهم.

وإذا كانت الدار الآخرة هي الحيوان، أي الحياة الباقية الكريمة التي تمتلىء بالحركة والحيوية، إذا كانت الآخرة كذلك، فهي التي تستحق الرعاية والعناية، لذلك ضرب الله أمثلة كثيرة لهذه الدنيا قال سبحانه: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ (الكهف٤٥ - ٤٦) ويقول سبحانه: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنْ لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقومٍ يتفكرون﴾ (يونس: ٢٤)

فانظروا - أرشدكم الله - إلى هذه المواعظ الغالية المؤثرة، وإلى هذه الأمثلة الحية، التي تستند إلى الواقع والمشاهدة، وانظروا إلى هذه التشبيهات البليغة، فما مثل الناس في هذه الحياة يبنون بكل ريعٍ آيةً يعبثون، ويتخذون من متاعها وكأنهم خالدون، وماهي إلا لحظة حاسمة فينتهي كل شيء.

الناس في هذه الحياة ليسوا إلا كهذه الأرض تكون هامدة جامدة مقحلة جرداء، فينزل الله عليها الماء من السماء، فتصبح مخضرة، نضرة، حتى إذا بلغت غايتها في النضارة والخضرة والزينة، وفرح أهلها بها، وهي في هذه الحلة القشيبة، وعلى هذه الحالة العجيبة، أتاها أمر الله فزالت خضرتها، وذهبت نضارتها، وأصبح كل ما فيها هشيماً تذروه الرياح،

وصار حصيداً قد ذهبت كل أسباب نفعه، وهكـذا الناس في الحيـاة؛ يظن أحدهم أنه قد بلغ الغاية فيها يريد، وأصبح قريباً من النهايـة ليحقق أمله، فتحق عليـه كلمة القـدر، فيذهب سلطانـه، وتتلاشى أركـانـه، ويتسـاقط بنيانه،

والآية الكريمة التي نشرف بالحـديث عنها، رتبت أمـور الحياة تـرتيباً عجيباً، فقد بدأت بتشبيه الحيـاة، باللعب واللهـو، واعلموا أرشـدكم الله أن هذا التشبيه باللعب واللهو، إنما هو تشبيه لأعمال الدنيا الخاصة بها التي ليس فيها مصلحة ولا نفع، أما العبادات وأعمال الخير، وما لا بـدّ منه من ضرورات الحيـاة فليس داخلاً في هـذا التشبيه، فـإنَّ العبـادة يبقى أثـرهـا لصاحبها بعـد هذه الـدار، وكذلـك السعي لكسب القوت الحـلال للمرء ولمن يعول من الأمور التي يؤجر عليها، بل هي من لب العبادات كذلك.

واعلموا أنَّ اللعب واللهو همـا الاشتغال بمـا لا يعني العاقـل من لهو وطرب، سواء كان ذلك محـرماً أم غـير محرم، بيـان ذلك: أن هنـاك أموراً ثبت تحريمها بالشرع، كالزنا واغتصاب الأموال، والاشتغال ببعض الآلات التي تشغـل الإنسان عن القيـام بواجبـه، وهناك أمـور أُخر لم يـرد نص في تحـريمها، وذلـك كالألعـاب التي ليس فيها نفـع، كـما هـو شأن كثير من الألعاب المنتشرة في عصرنا، فهذا كله يصدق عليه أنّه لهـو ولعب، لأنه لا نفـع فيه، أمـا إذا كانت هـذه الألعـاب تحقق غـرضـاً ومصلحـة كـأعـمال الفروسية والرماية، فإن هذا مما أباحه الشرع ولا حرج فيه، وهذا من يسر الإسلام وسماحته، ومواكبته للفطرة، وفي ذلك أحاديث كثيرة،

فلقد أخرج النسائي «ليس اللهو إلا في ثلاثة تـأديب الرجـل فرسـه وملاعبته أهله ورميه بقوسه ونبله»[1] وقال ﷺ: «كـل شيء من لهو الـدنيا باطل إلا ثلاثة، انتضالك بقوسك، وتـأديبك فـرسك، ومـلاعبتك أهلك

(١) أخرجه النسائي في كتاب الخيل باب تأديب الرجل فرسه ٢٢٢/٦.

فإنها من الحق»[1] وجاء أيضاً: «آرموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا» وقال «إن الله تعالى ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه محتسباً، والمعين به، والرامي به في سبيل الله»[2]

بقي أن نتحدث عن أمرين اثنين:

أولاً: التفرقة بين اللعب واللهو

ثانياً: الحكمة من ترتيب هذه الأمور الخمسة في الآية الكريمة.

أولاً: الفرق بين اللهو واللعب:

قلنا إن اللعب واللهو يشملان كل ما ليس فيه نفع للعاقل من هوى وطرب. ومع ذلك فليسا شيئاً واحداً، فلقد فرق بعضهم بين اللهو واللعب، بأن اللعب كل ما شغل به الإنسان لتعجيل مسرة، وأما اللهو فهو ما يشغل به صاحبه لا لشيء ولكن إضاعة للوقت فقط كاللعب بالورق (الكوتشينة، الشدَّة). وقد ذكروا فروقاً أُخر، لا نرى في ذكرها مصلحة وفائدة.

ولكن الذي ينبغي أن ينبّه إليه أن اللهو إذا أُطلق دون ذكر شيء معه، فإنما يخصّ النساء، والمتعة بهن، وقد روي عن بعض المفسرين أن اللهو يقصد به المرأة والمتعة بها في لغة اليمن، وفسّر به بعضهم الآية الكريمة ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٧] هذا هو الفرق بين اللعب واللهو.

ثانياً: حكمة ترتيب الأمور الخمسة في الآية الكريمة:

بدأت الآية الكريمة بذكر اللعب؛ لأن كثيراً مما يشغل الإنسان يقصد به تعجيل مسرة، وهذا هو اللعب - كما قلنا من قبل - وذكر اللهو في المرتبة الثانية؛ لأن اللهو كما قلنا يطلق ويراد به المتعة بالنساء، ويرجح هذا القول ذكر الزينة في المرتبة الثالثة، والزينة غالباً، ما تكون للنساء،

(١، ٢) أخرجهما ابن ماجة في كتاب الجهاد باب الرمي في سبيل الله رقم الباب ١٩ حديث ٢٨١١.

وقـد تكون لغـيرهن كذلـك، ولذا قـال بعض المفسرين في قولـه سبحانـه **﴿وهو الذي سخـر البحر لتـأكلوا منه لحـماً طريـاً وتستخرجـوا حلية تلبسونها﴾** (النحل: ١٤) قالوا أي تلبسها نساؤكم للتزين بها لكم.

وهذه الزينة غالباً ما تحمل المتزينـين بها عـلى الفخر، لأنهم ينـظرون إلى أنفسهم، وينـظرون إلى هذه الـزينة التي أعـطوهـا فيـدفعهم ذلـك إلى الفخر على الناس.

واعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن الفخـر هو من أكـثر الأمور التي تحجب المرء عن النور الإلهي، وتحول بينه وبين الطمأنينة والسكينـة الربـانية، لأنَّ هذا الفخور غرته هٰذه الأشياء الأرضية، والفخر إنما يكون بالزينـة، وهذه الزينة ـ كما قلنا في خماسية سابقة ـ ليست إلا أموراً أرضية ترابية، منشؤهـا الأرض وأصلها التراب، ولذلك فإنَّ الله سبحانه بيَّن في أكثر من آية سخطه وكراهيته وعدم حبّه لأولئك الذين يفخرون بما أُعطوا، ويظنّون أنهم فُضّلوا عـلى غيرهم، قـال سبحانـه **﴿إن الله لا يحب من كان مختـالاً فخـوراً﴾** النساء: ٣٦) وهذه خـاتمة آيـة ذكرت بعـد الأمر بعبـادة الله والإحسان إلى الناس وفي مقدمتهم الوالدان.

ويفهم من قـوله: **﴿إن الله لا يحب من كـان مختـالاً فخـوراً﴾** أن هؤلاء الـذين وصفوا بـالاختيال والفخـر لا يعبدون الله حق العبـادة، وإن كنت تجد بعضهـم يؤدي بعض الشعائر، ولا يحسنون إلى الناس، ذلك لأن الفخـر يحول بـين صاحبـه وبين الإحسـان، لأن الفخور إنمـا يعـطي ـ إن أعطى ـ وهو يشعر بالترفع والفضل لنفسه، وبالمهانـة والضعة لغـيره، وقال سـبحـانه: **﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾** [لقمان: ١٨] وتصعير الخد أن يشيح بوجهـه عن الناس، ويعرض عنهم، وهو كناية عن الكبر الناشيء عن الفخر.

وقال تعالى: **﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾** [الحديد: ٢٣] فالفـرح والبطر، والأسى

والجحود كل هذه ناشئة عن الفخر، ناتجة عن الاختيال، والاختيال والفخر قرينان، إلاَّ أنهم فرقوا بينهما بأن الاختيال يكون في المشي والهيأة، والفخر يكون في الكلام والحديث والتبجّح فكلاهما باهت، ولا يكاد أحدهما ينفصل عن صاحبه، فإن الذي يختال في مشيته، يفخر على الآخرين بنعمته وزينته.

وأرجو أن تكون قد أدركت السر الذي من أجله ذكر التفاخر بعد الزينة.

وبعد هذه ذكر التكاثر في الأموال والأولاد، ذلك لأن التكاثر غالباً لا يكون في بداية الحياة، وإنما يكون فيما بعد، فكأن غاية هذه الدنيا ونهاية ما يجده الإنسان فيها ـ الإنسان الذي أعرض عن الحق ـ كأن غايته لا تصل إلى أبعد من هذا التكاثر ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً**﴾ (سبأ: ٣٥) ﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**﴾ (التكاثر: ١، ٢).

تلكم هي الدنيا، فليفتش كل واحد منكم بعد هذا الذي سمعتموه، ليرى أيجد غير هذه الأمور الخمسة لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، إنك أخي لن تجد شيئاً آخر، وهي مراحل تبدأ من طور التمييز وهي السنّ التي تستطيع أن تميز فيها بين الأشياء، يبدأ طور اللعب، ثم تتوالى الأطوار والأدوار إلى أن تصل إلى طور التكاثر، وهناك يبلغ الأمر نهايته، ويبلغ الكتاب أجله، فينتهي كل شيء «كأن لم تغن بالأمس» ينتهي كل شيء كأن شيئاً لم يكن، ولذا فبعد هذه الأمور الخمسة قال سبحانه «كمثل غيث» والغيث هو الماء النازل من السماء، «أعجب الكفار نباته» والكفار هم الزراع، ويمكن أن يكونوا الكافرين، ولكن هذا النبات كما قال الله «يهيج فتراه مصفراً» تذهب خضرته ونضرته، ويتم جفافه، ويحين قطافه فتراه مصفراً، ففقد كل ما يرغبك فيه، ثُمَّ يكونُ حطاماً، فتاتاً وهشيماً، كذلك الحياة.

هـذه هي الـدنيـا تغـر وتضر وتمر، ثم يقـول الله سبحـانـه ﴿وفي الآخـرة عـذاب شـديـد ومغفـرة من الله ورضـوان﴾، ﴿تلك الـدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبـة للمتقين، من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جـاء بالسيئـة فلا يجـزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانـوا يعملون﴾ (القصص: ٨٤ - ٨٥). ﴿يـا أيها النـاس إن وعد الله حق، فـلا تغـرنّكم الحيـاة الـدنيـا، ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ (لقمان: ٣٣) فإن أردتموها في جيوبكم، فـآحذروا أنْ تكـون في قلوبكم، واحـذروا أن تمكّن في نفـوسكم فـترتفـع فـوق رؤوسكم.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا منتهى آمالنا، وأعنّا اللهم عـلى أن نجعلها مزرعة للآخـرة، فما أسعـد من استطاع أن يعـبرها، ليعمـر بها آخرته، ومـا أشقى من رضي أن يعمرهـا، فيستغني بها عـما بعدهـا، ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بهـا والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مـأواهم النار بمـا كانـوا يكسبون﴾ (يـونس: ٧ - ٨).

قـال ابن أبي الدنيـا: حدثني محمـد بن إدريس سمعت أبا صـالح ـ كاتب الليث ـ يذكر عن الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ في موعظته: أيهـا الناس، تقـووا بهذه النعم التي أصبحتم فيهـا على الهـرب من نـار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليـل، وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الـدنيا أنقهـا وزهرتهـا، فهم كانـوا أطول منكم أعـماراً وأمـد أجسـامـاً، وأعـظم أحـلاماً، وأكـثر أموالاً وأولاداً، فخـددوا الجبال وجـابوا الصخـر بالـواد، وتنقلوا في البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فـما لبثت الأيام والليالي أن طوت آثـارهم، وأخربت منـازلهم وديارهم، وأنست ذكـرهم،

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً؟ كانوا بلهو الأمل آمنين، وعن ميقات يوم موتهم غافلين، فآبوا إياب قوم نادمين،

ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون المتخلفون يبصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نقمته، وزوال نعمته عمن تقدمهم من الهالكين ينظرون والله في مساكن خالية خاوية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلوب إليها مصروفة، والأعين نحوها ناظرة، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم بعدهم في أجل منقوص ودنيا منقوصة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه، فلم يبقَ منه إلا جمة شر، وصبابة كدر، وأهاويل عبر، وعقوبات غير، وأرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل، وغيره طول الأجل، ولعبت به الأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دعى بدر، وإذا نهى انتهى، وعقل مثواه فمهد لنفسه[1].

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا أمير من طلبها، وخادم من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة فمن طلبها رفضته ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الأخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، الدنيا عروس وطالبها ماشطتها، وبالزهد ينتف شعرها ويسود وجهها، ويمزق ثيابها. ومن طلق الدنيا فالآخرة زوجته. فالدنيا مطلقة الأكياس لا تنقضي عدتها أبداً، فخل الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها، وخذ من الدنيا ما يبلغك الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة.

(١) البداية والنهاية لابن الأثير ١١٩/١٠.

وقد بينا في هـذه الخماسيـة عنايـة الإسلام بمـا يصلح المسلم في دنياه وآخرته، فلا يظنن أحد بهؤلاء الأئمة أن مـا قصدوه في كلماتهم، أن يعيش المسلمون عالة على غيرهم، فسيرتهم الخاصة لا تـدل على شيء من هـذا. كل الذين قصد إليه هؤلاء الأئمة وغيرهم فيما ذكرناه من أحاديث وأقـوال أن لا يجري المسلمون وراء دنيـاهم ويتركـوا آخرتهم، أن لا يشـتروا الضلالـة بالهدى، وأن لا يـأخذوا عـرض هذا الأدنى، ويقـولون سيغفـر لنا. . . إن هناك معادلة لا بد أن يـدركها المسلمـون وهي أنهم إذا ضيعوا الآخـرة من أجل الدنيا فسيفقدونهما معاً،ولعل واقـع المسلمين اليـوم خير شـاهد عـلى ذلك وأصح دليل.

لقد أكرمنا الله بهذا الـدين من أجل أن نصلح دنيـانا وآخـرتنا، مـا يرتاب في ذلك أحد، وكيف يـرتاب ذو عقـل وهذا سيـدنا رسـول الله ﷺ يدعو ربـه ويعلمنا هـذا الدعـاء: (اللهم أصلح لي ديني الذي هـو عصمة أمـري وأصلح لي دنياي التي فيهـا معـاشي، وأصلح لي آخـرتي التي فيهـا معادي واجعل الحياة زيادة لي في كـل خير واجعـل الموت راحـة لي من كل شر)[1].

أكرمنا الله بهذا الدين ـ إذن ـ وجعلنا شهداء على الناس واستخلفنـا في الأرض، وكـل ذلك لا يمكن أن يتم لنـا إذا كنا عـالة عـلى الآخرين في أمور دنيانا، وقضايانا الحياتية اليومية من طعام وشراب وكساء، ومـا لا بد منه من وسائل للحياة على هذه الأرض.

ومن الخـير أن نرجعكم أرشـدكم الله إلى الحديث الأخـير السـادس عشر في هذه الخماسية الذي أخرجه الإمـام أحمد عن ابن عبـاس رضي الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٤٠.

عنها أن سيدنا رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه وقعد الآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه: اضرب مثل هذا ومثل أمته)[1] وأرجو أن ترجعوا إلى الحديث لتدركوا مغزاه العظيم ومعناه وهدفه، فهو بحق ذو معنى ومغزى عظيمين وهدف سامٍ يبصّر المسلمين بكثير من الحقائق، ونجتزىء هنا من هذه الحقائق، ونكتفي ببعضها:

فالحديث يبين أن الله سبحانه وتعالى بعث نبيه عليه وآله الصلاة والسلام بهذا الدين من أجل سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم، فوضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وأحلّ لهم الطيبات جميعاً، وجعل لهم الأرض ذلولاً ليمشوا في مناكبها، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأمرهم أن يستثمروا كل ما أكرمهم الله به في هذا الكون من بحار وأنهار وشمس وقمر، وسماء وأرض ﴿**له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾ (طه: ٦) ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ [ابراهيم: ٣٢] ﴿**الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ [الجاثية: ١٢]... وما أكثر الآيات الكريمة في هذا الشأن...

---

(١) مسند الإمام أحمد.

فانظروا ـ أرشدكم الله ـ كيف سخر الله للمسلمين ماتحت الثرى، وسخر لهم البحر والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، سخر لهم ما تحت الثرى ليستخرجوا منه الزيت والمعادن، وسخر لهم الأنهار ليستغلوا مياهها، والشمس ليفيدوا من طاقتها، وتلكم إشارات صريحة في كتاب الله ليستثمر المسلمون الكون الذي شاء الله أن يعمروه حيناً من الدهر.

ولقد صدق الله وعده وصدق رسوله كذلك، فانتقل المسلمون من الضيق إلى السعة، ومن مرارة الفقر إلى بحبوحة الغنى، وهذا ما بينه الحديث الذي أشرت إليه، حيث أورد المسلمون رياضا معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا... ولكن ليست هذه هي غاية الإسلام ولا غاية الرسول عليه وآله الصلاة والسلام،.. قد يكون هذا هدفاً اقتصادياً خالياً عن أي هدف آخر، وغاية أخرى، ولكن النبي صاحب رسالة وأراد للمسلمين أن يكونوا كذلك، وأن لا يقفوا عند حدود هذه الدنيا الضيقة، وعند مسافاتها القصيرة، وشهواتها الناقصة، وهنا يبين الحديث الشريف أن بعض المسلمين اكتفوا بهذه النتائج الضئيلة، ولكن الذين أكرمهم الله بصدق العزيمة ونفاذ البصيرة، اتبعوا هذا النبي في كل شيء، وساروا معه إلى آخر الشوط، **﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾**.[آل عمران: ١٤٨].

الخماسية الحادية عشرة

قوله سبحانه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شرغاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس، ملك الناس إلـه الناس، من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ (المعوذتان)

شاء الله أن تكون الخماسية الأولى أوصاف المتقين، وهي الأوصاف الخيرة التي يحبها الله ورسوله ﷺ في أول القرآن وأن تكون هـذه الخماسية الحادية عشرة وهي الأخيرة مما اخترناه من كتاب الله تعالى تتحدث عن أنواع الشر التي أراد الله أن يحصن منها عباده المؤمنين في آخر القرآن.

والمعوذتان ـ بكسر الواو ـ أي التي يستجير بهما المسلم هما قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس. وهما مكيتان عند أكثر العلماء، وذهب بعض الأئمة إلى كونهما مدنيتين آستناداً إلى بعض الروايات الصحيحة، وقد تحدثت هاتان السورتان عن شروط خمسة، وقبل ان نتحدث عن هذه الشرور واحداً واحداً يجمل بنا أن نتحدث عن فضل هاتين السورتين.

أخرج النسائي أن رسول الله ﷺ قال: أنزلت علي الليلة آيات لم أرَ

مثلهن، قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس[1]، وأخرج البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» وجاء في الحديث «أن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وحين يصبح كفته من كل شيء»[2].

هذه بعض الأحاديث التي وردت في فضل هاتين السورتين، فحري بالمسلم أن يكثر تلاوة هاتين السورتين وأن يتدبرهما.

معنى الاستعاذة

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تبارك وتعالى، وهذا الالتجاء إنما يكون من الضعيف إلى القوي، الذي يقدر على حفظه وحمايته من عدوه، ولكي تعطي الاستعاذة فائدتها وثمرتها، فإنه يجب على المستعيذ أن يصاحبه في حالة استعاذته مصاحبة فعلية، شعوره بضعفه، ويقينه بقوة الله تبارك وتعالى، وحاجته إليه في دفع هذه الشرور عنه.

إن الاستعاذة لا ينبغي أن تكون كلمة يرددها المرء من غير أن تستولي هذه المشاعر والاعتقادات على المستعيذ.

فوائد الاستعاذة:

إن قول المستعيذ «أعوذ بالله» إقرار منه بقوة الله وقدرته واعتراف منه

---

(١) رواه النسائي في كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذات رقم الباب ١٤/ حديث ٤٧٢٩ ج ٤ ص ١٩١٦.

بضعفه وتقصيره عن حماية نفسه، ففي الاستعاذة عروج من الخلق إلى الحق، والمستعيذ إنما تبرأ من حوله وقوته، ولجأ إلى كنف الله سبحانه وتعالى، ولهذا السرّ أمرنا الله أن نستعيذ به عند تلاوة كتابه،

فالاستعاذة أمن من كيد الشيطان، والتلاوة انتفاع بمائدة الرحمٰن وقد ذكر الإمام النيسابوري في تفسيره فوائد لهذه الاستعاذة وحكماً، نتحفك ببعضها. قال:

«أعوذ بالله عروج من الخلق إلى الحق، ومن الممكن إلى الواجب، لأن أعوذ إشارة إلى الحاجة التامة، وبالله إشارة إلى المعبود القادر على تحصيل كل الخيرات ودفع كل الآفات، ومن عرف نفسه بالضعف والقصور عرف الله بأنه قادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالجلال والكمال، ومن عرف نفسه بالإمكان عرف ربه بالوجوب،

الثانية سر الاستعاذة الالتجاء إلى قادر يدفع عنك الآفات، وقراءة القرآن من أعظم الطاعات، ولذلك جاء من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائل فلهذا! خصت الاستعاذة بالقراءة.. قال الله «يا عبدي قلبك بستاني وجنتي بستانك، فلما لم تبخل عليّ ببستانك بل أنزلت معرفتي فيه، لم أبخل عليك ببستاني وأنزلك فيه، وههنا لطيفة، وهي أن الله تعالى كأنه يقول للعبد أنت الذي أنزلت سلطان المعرفة في حجرة قلبك، ومن أراد أن ينزل سلطاناً في حجرة نفسه يجب عليه كنس الحجرة وتنظيفها فنظف حجرة قلبك من تلوث الوسوسة وقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أقسم في حق أبويك أنه لمن الناصحين فدلاهما بغرور، واقسم فيك لاغوينهم اجمعين فما ظنك بعاقبة معاملته معك فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

يقول الله تعالى: عبدي إنه يراك وأنت لا تراه فينفذ كيده فيك، فتمسك بمن يرى الشيطان ولا يراه الشيطان وقل أعوذ بالله من

الشيطان الرجيم

والشرور التي ذكرت في هاتين السورتين شرور خمسة ذكر في سورة الفلق أربعة منها، واختصت سورة الناس بشر واحد، لحكمة سنبينها لكم فيما بعد إن شاء الله، وقد ذكر في سورة الفلق اسم واحد للمستعاذ به وهو رب الفلق، وذكر في سورة الناس أسماء ثلاثة لحكمة نبينها فيما بعد إن شاء الله.

معنى الفلق:

وقد قالوا إن معنى الفلق نور الصبح الذي يفلق الظلام، وهو الفجر الذي يفجره كذلك، ومع صحة هذا القول، إلا أن الفلق لا يقف عند هذا التفسير، تفسير الفلق بالصبح، وإنما يشمل كثيراً من المخلوقات، بيان ذلك أن الفلق في الآية الكريمة بمعنى المفلوق، والله سبحانه وتعالى فلق كثيراً من الكائنات، ليخرج ما اقتضته الحكمة وصدق الله ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (الأنعام: ٩٤ - ٩٥) ولهذا كانت الاستعاذة في هذه السورة الكريمة بربِّ الفلق، أي رب المخلوقات التي فلقها بحكمته، فالفلق، والفرق، والخلق متقاربة في معناها ومبناها، ولقد سمى الله كتابه فرقاناً، فقد فرق به بين الحق والباطل، وفلق به ظلمات الهوى، وشبهات الشك.

الشر الأول: من شر ما خلق.

والاستعاذة بالله تبارك وتعالى من كل شر يؤلم الإنسان ويؤذيه، وقد يكون هذا الشر من داخل نفسه، وقد يكون من خارجها، فالشر الذي من الداخل قد يكون من هواجس النفس، وقد يكون من وساوس

الشيطان، والشر الذي من خارجها قد يكون من الأنس أو الجن، وكلاهما مكلف بإقامة الشرائع، وقد يكون من غير العقلاء والمكلفين، ويشمل الهوام والحشرات والريح وما في الأرض وما عليها، وهذه الشرور جميعها يشملها قوله سبحانه ﴿من شر ما خلق﴾ وقد ورد ذلك في أحاديث كثيرة منها:

* أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر فأقبل الليل قال: (يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك او شر ما خلق فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ومن شر والد وما ولد)[1].

ومن هذا تدرك أن قوله سبحانه ﴿من شر ما خلق﴾ يشمل شر المخلوقات، ولكن ربما تقول: إن هناك مخلوقات ليس فيها شر ولا يصدر عنها الشر، وهذا هو الشر الأول في السورة الكريمة.

الشر الثاني: «ومن شر غاسق إذا وقب».

وهو شر الليل إذا أظلم وهذا لا ينافي الحديث الذي أخرجه الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها ـ قالت (أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة: استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ (قيل هذا التفسير لا يناقض التفسير الأول بل يوافقه ويشهد بصحته فإن الله تعالى قال: **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾** (الإسراء ١٢) فالقمر هو آية الليلوسلطانه، فهو أيضاً غاسق إذا وقب كما

(١) أحمد بن حنبل ـ ج ٢ ص ١٣٢ عن عبدالله بن عمرو.

أن الليل غاسق إذا وقب والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق وهو أصدق الخبر ولم ينفِ عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره)[1].

ثم قال ابن القيم - رحمه الله - (والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة والخبيثة وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال: (فاكفتوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء)[2] وفي حديث آخر (فإن الله يبث من خلقه ما يشاء، والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة.

وروي أن سائلاً سأل مسيلمة كيف يأتيك الذي يأتيك فقال: في ظلماء حندس وسأل النبي ﷺ (كيف يأتيك فقال: في مثل ضوء النهار، فاستدل بهذا على نبوته وأن الذي يأتيه ملك من عند الله وإن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر، وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢١٧.

(٢) وفي رواية مسلم «لا ترسلوا مواشيكم وصبيانكم إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء فإن الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء» مجلد ٣ /ص ١٥٩٤ باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء وإغلاق الأبواب /باب رقم ٩٨ /حديث (٢١٠٣).

ومن هنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل،فيأوي كل خبيث وكلّ مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كنّ أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر الله سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ويدع الكفار في ظلمات كفرهم»[1].

الشر الثالث: «ومن شر النفاثات في العقد»

والنفث هو النفخ مع ريق، وهو أقل من التفل، وأكثر العلماء على أن المقصود بهذه الآية الكريمة السحرة، فالنفاثات في العقد هي الأنفس التي تشتغل في السحر، وهي أنفس خبيثة.

واعلم أن الناس اختلفوا في قضية السحر، فأكثر العلماء على أنه من الأمور التي لها حقيقة ووجود،ويستدلون لذلك بأدلة كثيرة من النقل والعقل، منها قوله سبحانه: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾ (البقرة: ١٠٢). ومنها قوله سبحانه عن سحرة فرعون ﴿**وجاءوا بسحر عظيم**﴾ (الأعراف: ١١٦) ومن ذلك ما ورد في السنة المطهرة عن سحر اليهود للنبي ﷺ وآله وسلم.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢١٩.

وذهب جماعة من العلماء إلى أن السحر ليس له حقيقة، وإنما هو تخيلات وتوهمات، واستدلوا بقوله سبحانه ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنّها تسعى﴾ طه: ٦٦) وليس من غرضنا هنا أنْ نناقش هذه القضية لنرجح قولاً على قول، لأننا لم نقصد بهذا الكتاب الخوض في مثل هذه الأمور، ولكن الذي نريد أن نبينه هنا أن الذين يتعاطون هٰذه الأمور هم من المشعبذين وهم قوم خربت ضمائرهم وأظلمت قلوبهم، ولا يجوز لمسلم أن يتعامل معهم فضلاً عن أن يثق بهم»

حكم الذهاب إلى المشعبذين لفك السحر:

وتوجه أسئلة كثيرة عن حكم الذهاب لهٰؤلاء من أجل فك السحر ـ كما يقولون ـ وأكثر العلماء على منع ذٰلك وبخاصة في زمننا هذا، لأنَّ أولئك ليسوا إلا جهلة،غرضهم أكل أموال الناس بالباطل، وأكثر ما يتوهمه الناس في الغالب أوهام، أو أمراض ناشئة عن فساد الأمزجة، وخير علاج لهٰذه الأمراض والأوهام الاعتصام بحبل الله، والابتعاد عن الشبهات والمحرمات، والاعتماد على الله تبارك وتعالى والتوكل عليه، وأتباع هدي النبي ﷺ الذي بينته السنّة الشريفة، والذي سنذكر طرفاً منه فيما بعد إن شاء الله.

واعلم أن تفسير النفاثات في العقد بالسحرة، هو ما ذهب إليه جمهور العلماء ـ كما قلت من قبل ـ وذهب بعضهم في تفسير الآية تفسيراً آخر، فلقد رأى هٰؤلاء أنَّ معنى الآية ﴿من شرّ النفاثات في العقد﴾ (الفلق ٤) إنما يقصد به أولٰئك المشتغلون بالنميمة، ذلك أن النمامين يشبهون بالسحرة، لأن المشتغل بالنميمة يفرق بين الصديق وصديقه، وبين الابن وأبيه، وبين المرء وزوجه، وهٰؤلاء المشتغلون بالنميمة يفعلون

فعلتهم الشنيعة دون أن يعلم بهم من قصدوا إيذاءه، وأرادوا التفرقة بينه وبين خليله، ولهذا استحق النمامون ما توعدهم الله ورسوله به من عذاب. قال سبحانه: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم**﴾ (القلم: ١٠ - ١٢) وقال ﷺ «لا يدخل الجنة قتّات» أي نمام[1] وفي الحديث عن اللذين يعذبان في قبرهما أن أحدهما كان لا يستبرىء من البول، وكان الآخر يسعى في النميمة بين الناس[2] وقال بعض المفسّرين في قوله ﴿**وامرأته حمّالة الحطب**﴾ (المسد: ٤) إنها كانت تسعى بالنميمة بين الناس فتشعل بينهم نار البغضاء والحقد، والقول الثاني في تفسير الآية الكريمة أنها كانت تضع الشوك في طريقه عليه الصلاة والسلام.

الشر الرابع: ومن شر حاسد إذا حسد» (سورة الفلق: ٥)

والحسد تمني زوال النعمة، وقد بين الله تبارك وتعالى أن الحسد من صفات اليهود، قال تعالى ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾ (النساء ٥٤) كما بين سبحانه أن كثيراً من أهل الكتاب يودون أن يطفئوا نور الله وأن يردوا هذه الأمة عن دينها، وذلك لاشتعال نار الحسد في قلوبهم، قال سبحانه ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ (البقرة: ١٠٩).

والحسد يناقض الإيمان، لأن الحسد ناشيء عن أنانية والإيمان

(١) رواه البخاري في كتاب باب ما يكره من النميمة باب رقم ٥٠ حديث رقم ٥٧٠٩ ج ٥ ص ٢٢٥١.

(٢) رواه مسلم ج ٤ - ص ١٠٦ باب وضع الجريدة على القبر - عن ابن عباس.

والأنانيةلا يجتمعان، كما أنّ الحسد ينشأ عن الطمع، وهو بعد ذلك وقبله ينفي الرضا بقضاء الله، فالحاسد ساخط على الله وساخط على الناس.

ولقد علمنا القرآن الكريم أن تترفع نفوسنا عن هذه الصفة الخسيسة. قال سبحانه: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً**﴾ (النساء: ٣٢) وفي هذه الآية من سمو التوجيه، وروعة التربية، وتزكية النفوس، والاعتماد على الله، ما يطهر القلوب، وتسمو به الأرواح، ويجعل المجتمع في نقاء وطهر، وسلامة الصدور من الحقد والهوى، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين والمؤمنات أن يتمنى كل منهم ما فُضِّل به غيره عليه، وهذا التمني قد لا يكون معه تمنِّي زوال النعمة، ومع ذلك نهى القرآن الكريم عنه، كما أن الآية الكريمة توجّه المؤمنين والمؤمنات إلى أن يسألوا الله من فضله، ففضل الله عظيم، وفي هذا منتهى الرضا والقناعة.

ولقد حذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من أن يدب فينا داء الحسد، وأن ينتقل إلينا من الأمم السابقة.

ومن فظاعة الحسد وشرّه أنه كان أول معصية عُصي الله بها في السماء، وأول ذنب اقترف في الأرض، فهذا إبليس امتنع عن السجود حسداً لآدم عليه السلام ﴿**قال أأسجد لمن خلقت طيناً**﴾ (الإسراء: ٦١) وهذا أحد ابني آدم حسد أخاه الذي تقبل قربانه ﴿**فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾ (المائدة: ٣٠).

ومن حكمة الله ورحمته أن كان هذا الحسد وبالاً على صاحبه؛ لأنه يحرمه لذة النوم، ويجعله في شقاء نفسي دائم، ولقد روي عن أمير

المؤمنين، سيدنـا علي كـرم الله وجهه قـوله: (لله درّ الحسـد ما أعـدله بـدأ بصاحبه فقتله) وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز.

اصـبر عـلى مـضض الحسـو
د فـإن صـبرك قـاتـله
فـالـنـار تـأكـل نـفـسـهـا
إن لم تجـد مـا تـأكـله

واعلموا - أرشدكم الله - أن قوله سبحانه «إذا حسـد» يدلنا على أن أثر الحسد إنما يكون بتـوجه الحـاسد لإيـذاء المحسود، هـذا ما تـدل عليه كلمة (إذا) أما إذا لم يتـوجه الحـاسد لإيـذاء المحسود، وقـدر على أن يكتم حسـده فلا شيء في ذلـك، ولقد سئـل الحسن - رضي الله عنـه - «أيحسـد المؤمن فقال للسائل أين أنت من أخوة يوسف؟»

فالآية الكريمة تبين لنا أن المؤمن ربما تخطر له خاطرة حسد، ولكنه لا ينميها، ولا يعلنها، وإنما يكتمها ويدفنها، ويتغلب على نفسه.

إن آفة الحسد ينتج عنها كثير من أنواع الشر، لأنَّ هـذا الحسد إذا قـوي في نفس صاحبـه، فإنـه يدفعـه لاقتراف كثـير من الآثام حتى يشفي غلته، ويبرئ علته، وهيهات هيهات.

والحـاسد والعـائن - أي الذي يصيب بـالعين - يشـتركـان في بعض الأمور، ولكنّ العائن لا يقتصر حسده على الإنسان. بقي أن نبين أن قول النبي ﷺ «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آنـاء الليل وآناء النهار ورجـل آتاه الله مـالاً فهو ينفقـه آناء الليـل وآناء النهـار»[1] لا يحمل على هذا الحسد المذموم، إنما معناه الغبطة - كما قال العلماء - وهاتـان الاثنتان فيهما خير كثير، لأن الـذي يتمنى أن يكون ذا علم ليعلم النـاس،

(١) البخاري - ج٦ - التوحيد - باب قول النبي ﷺ، رجل آتاه الله القرآن ص ٢٧٣٧ بـاب ٤٥.

أو يكون له مال فينفقه في مرضاة الله، له في ذلك التمني أجر إذا علم الله صدق نيته، كما مر معنا في حديث النبي ﷺ في الخماسية العاشرة. اللهم طهر نفوسنا من الحسد والحقد، واجعلنا هداة مهتدين، وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً.

هذه هي الشرور الأربعة التي اشتملت عليها السورة الكريمة، وهذه الشرور كلها إن توجهت للمرء، فإنه لا يحاسب عليها ولا يعاقب، لأنه ليس له فيها كسب ولا إرادة، ولذا ذكرت في هذه السورة مجتمعة،

الشر الخامس: «من شر الوسواس الخناس»

أما الشر الخامس فهو أشد هذه الشرور وأكثرها فتكاً، وأعظمها بلاءً، وهو شر الوسواس الخناس، شر الشيطان لأن الشيطان أساس الشر في هذه الدنيا، وكل الشرور متفرعة عنه **﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾** (طه، ١١٧) ولم تقف عداوته عند هذا الحدّ، بل انتقلت لذريتها **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾** (فاطر، ٦) **﴿يا بني آدم لا يفتننَّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾** (الأعراف: ٢٧). لذلك خصت هذه السورة الكريمة سورة الناس بذكر شر واحد وهو شر الشيطان، واشتملت سورة الفلق على أربعة شرور، ليس هذا فحسب، بل هناك حكمة عظيمة في السورتين وهي ما وعدتكم أنْ أُحدّثكم عنها من قبل.

إن سورة الفلق التي اشتملت على شرور أربعة ذكر فيها اسم واحد يستعيذ به المرء وهو رب الفلق، أما سورة الناس التي اشتملت على شر

واحد، فقد ذكر فيها أسماء ثلاثة يستعاذ بها «رب الناس، ملك النـاس، إلـه الناس، فـانظروا ـ أصلحني الله وإيـاكم ـ إلى هذه الحكمـة البالغـة، شرور أربعة ذُكر للاستعاذة منها اسم واحد، وشر واحد ذكر للاستعاذة منه ثلاثة أسماء، كل هذا لندرك شر فتك الشيطان، ومبلغ عداوته.

وانظروا ـ أرشدكم الله ـ إلى ما يلحقه هـذا الشيطان من وبـال، لقد أمرنا الله تبارك وتعالى بجهاد الأعداء، ومن قعـد عن الجهاد لحقـه الأذى، وهذا العدو منه العدو الظاهر الذي نجاهده بألسنتنـا وأيدينـا، ونعدّ لـه ما استطعنا من عدة، من قوة ومن ربـاط الخيل، ومـا يقوم مقـامها اليـوم من وسـائل حـديثة،

وهناك عدو باطن يرانا من حيث لا نراه وهو الشيطان ﴿**انـه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**﴾ (الأعراف: ٢٧) فمن تغلب على عدوه الظاهر، طـابت دنياه ولاقى حـلاوة النصر، ومن تغلب على عـدوه الباطن أكـرمـه الله بشرف العبـوديـة ﴿**إن عبـادي ليس لـك عليهم سلطان**﴾ (الحجر ٤٢) من تغلب على عـدوه الظاهـر رجع إلى القـدس ـ ونرجـو أن يكرمنا الله بهـذا ـ ومن تغلب على عـدوه الباطن أكـرمه الله بـأنسه وأدخله حضرة قدسه، فأُكرِم بالقدسين، قدس المادة وقدس الروح، قدس النـاس وقدس الله، قدس الأرض وقدس السماء، قدس الدنيا وقدس الآخرة.

أما من قتله عدوه الظاهر فـإِنَّهُ يمـوت شهيداً، وأمـا من غلبه عـدوه الباطن فإنه يصير طريداً، نعوذ بالله، وشتّان بين الشهيد والطريد.

وقـد ذكر الشيـطان بعناوين كثـيرة في كتـاب الله. الشيـطان تـارة، وإبليس أخـرى، وذكر هنـا بأنـه الوسـواس الخناس، وأصـل الـوسـوسـة الصوت الخفي وهو صـوت الحلي، وهـذه الوسـوسة قـد تكون من النفس كـذلك، قـال تعالى: ﴿**ولقـد خلقنا الإنسـان ونعلم ما تـوسـوس بـه**

نفسه﴾ (ق: ١٦). والخنّاس مأخوذ من الخنس وهو الرجوع والاختفاء.

وذكر هاتين الصفتين للشيطان إرشاد للمسلم وزيادة تحذير له، ذلك أن هذا الشيطان يبذل كل ما في وسعه من أجل إغواء الناس، فإذا ذكر العبد ربه سبحانه وتعالى خنس وتراجع عن وسوسته، فإذا غفل العبد انتهز الشيطان هذه الغفلة، ذلك هو شأن شيطان الجن، ولكن شيطان الإنس يظل على وسوسته وتزيينه للباطن، ولهذا قدم الله شياطين الإنس في الذكر على شياطين الجنّ، وما من أحد من الناس يسلم من هذه الوسوسة.

وإن أقصى ما يريد الشيطان بلوغه أن يمكّن من الدخول إلى القلب، فإذا تم له ذلك كانت الطامة، فينسى هذا القلب ذكر الرب، ولهذا قال سبحانه ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾ والصدر ساحة للقلب، فإذا لم يجد من يردعه تمكن من دخول القلب، وإذا دخل القلب أضل وأذلّ وأزلّ.

وهذا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس، قد يكون من الجنّ الذين لا نراهم، وقد يكون من الناس، ولذا يجب على المسلم أن يحذر كلاً من الوسواسين، وسواس الجنّ ووسواس الإنس (والشيطان يجري من آبن آدم مجرى الدم) كما جاء في الحديث الصحيح[1]﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم**﴾ ﴿الأعراف. ٢٠٠).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولايته أو قبل ذلك للخصم رقم الباب ٢١ رقم الحديث ٦٧٥٠ ج ٦ ص ٢٦٢٣.

أساليب الشيطان لإغواء الإنسان

وللشيطان طرق كثيرة وأساليب خبيثة يتبعها لإغواء الإنسان، قد يأمر بالشر ويحث عليه؛ وذلك إذا علم أن وليه يستجيب له، فإذا علم أن أمره بالشر من أول وهلة يمكن أن يوقظ ضمير هذا المأمور فيعصي شيطانه؛ فإنه يسلك طرقاً أخرى، إي والله،

أتعلمون - أرشدكم الله - أن الشيطان قد يأمر بالخير؟! ولكن معاذ الله أن يحب الخير لكم، إنَّما يأمر بخير ليحول بينك وبين خير أعظم، وليوقع في الشر من يستجيب إليه، ولقد قالوا إن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، ليحول بين صاحبه وبين باب من أبواب الخير هو أعظم من هذه السبعين.

حديث القرآن عن مكايد الشيطان:

لقد حدثنا القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن مكايد هذا الشيطان وحبائله وألاعيبه، وأول حديث ما كان منه لأبينا آدم عليه السلام، فإنه دخل إليه من باب هو أحب الأبواب إليه، حيث قال **﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾** (طه: ١٢٠) وهكذا أطمعه بالخلود ودوام الملك.

وحدثنا القرآن كذلك عن تزيينه لأعداء النبي ﷺ في بدر **﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾**الأنفال: ٤٨).

وحدثنا عن تزيينه الكفر، فلما استجيب له تبرأ **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إنِّي أخافُ الله ربَّ العالمين﴾** (الحشر: ١٦).

وفي خاتمة المطاف عندما يحق الحق ويُقضى يقول كلمته الأخيرة ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمُصْرِخيّ[1] إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾ (إبراهيم: ٢٢) ولقد تفضل الله علينا فعلمنا ما سيكون من الشيطان، وبيّن لنا هذا القول الذي سيتنصّلُ الشيطان فيه من كل شيء «فلا تلوموني ولوموا أنفسكم».

ووعد الله حق، ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ [النساء: ٨٧] فإذا كانت هذه هي قولةُ الشيطان الأخيرة، فلماذا لا نتعظ بها نحن في هذه الحياة؟ لماذا لا نفوت عليه أسباب كيده ومكره فنكبح جماح أنفسنا من قبل أن نلومها، ولات حين مندم، ولا ينفع اللوم.

لقد بيّن الله سبحانه وتعالى لنا جدول هذا الشيطان المريد الذي لعنه الله، وهذا الجدول المبرمج خطير لأنه ينتظم أموراً كثيرة من أمور الحياة، فما هي تلك الأمور؟ لنستمع إلى قول الله سبحانه وهو يحذرنا من هذا الشيطان: ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً أولئك مأواهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصاً﴾ (النساء: ١١٧ - ١٢٠).

هذه هي الأعمال التي أخذ الشيطان على عاتقه، وقطع عهداً على نفسه، أن ينفذها ويتممها، وسيسلك لتحقيقها كل طريق كما أخبرنا الحق تبارك وتعالى محذراً كذلك ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم

(١) أي لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة.

وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف:١٧).

والمتدبر لآي القرآن الكريم يجد أن أمهات الخبائث، وأصول الشرور هي التي يطمع الشيطان أن يغوي بها ابن آدم. نقرأ ذلك في قول ربنا سبحانه ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحْشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ (البقرة: ٢٦٨) ونقرأ قوله سبحانه: ﴿إنما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءه﴾ (آل عمران: ١٧٥). ونقرأ قوله سبحانه: ﴿إنَّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ (المائدة: ٩١) ونقرأ قوله سبحانه: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾ (محمد: ٢٥) ونقرأ قوله سبحانه: ﴿وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ (العنكبوت: ٣٨). ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ (النور: ٢١).

وفيما أخرجه الإمام مسلم رضي الله عنه، فيما يرويه النبي عن ربه. «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً»[١].

مسالك الشيطان:

وهذه أمهات الخبائث وعظائم الشرور، ولكن الشيطان يسلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (مسلم بشرح النووي ١٧/١٩٨).

لتحقيق هـذه الأهداف الخبيثـة أكثر من مسلك ـ كـما قلت من قبل ـ فـإذا عـرف أن أمره بـالشرك لم يُسمع،تـرك الشرك وأمر بمـا هـو أقـل منـه وهـو الكبائر، فـإذا لم يستجب له بعض النـاس باقـتراف الكبائـر، أكتفى منهم بـالصغائـر، وأغواهم بـالإصرار عليها، لأن الإصرار عـلى الصغـيرة ينتـج الكبيرة، فإذا لم يستفد من ذلك كله سلط عـلى هؤلاء غيرهم من النـاس، لينـالوا منهم فيؤذونهم، فيكـون التحريش الـذي أخـبر عنـه النبي ﷺ «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن لم ييأس من التحريش بينهم»[1]، فإذا استعصى عليه ذلك كله لبْس على الناس فأمرهم بالخير. جاء في الحديث الصحيحَ عن سيدنا رسول الله ﷺ «يـأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق السماوات ومن خلق الأرض فيقول الله حتى يقـول هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بـالله» وفي رواية حتى يقـول من خلق ربك؟ فـإذا بلغ ذلك فليستعـذ بالله ولينته)[2].

وفي هذا الحديث الشريف درس عـظيم لا بد أن يعيـه المسلم، وهو ما يقوم به الشيطان من حيل ووسائـل، إنه يـأتي الناس من طـريق الوعظ والتذكير «من خلق كـذا ومن خلق كذا»، حتى إذا اطمـأنّ واطمأنّ إليـه من أراد إغواءه، نفث سمّه النـاقع حتى لا تـذهب شباكـه سدىً فقـال قـولتـه الشنيعة.

والحق أن هـذا المسلك ليس لشيطان الجنّ وحـده، بـل هـو مسلك لشياطين الإنس كذلك، فهم يأتون الناس من حيث يحبون، يحدثونهم عن

(١) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين بـاب تحريش الشيـطان وبعثه سراياه لفتنة النـاس رقم البـاب ١٦ رقم الحديث ٢٨١٢ ج ٤ ص ٢١٦٦ والمقصـود أن الشيـطان يسعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

الإسلام بأنه دين الفكر ودين التسامح والحرية والمساواة، حتى إذا تمكنوا من النفوس، بدأوا في إلقاء الشبهات، وبالخروج عن حدود الآيات، وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾ (الأنعام: ١١٢) فما أجدرنا أن نحذر ونتيقظ لنفوت على شياطين الجن والإنس كل فرصة، وقد قال ﷺ إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[1] أي يضعفه ويتعبه كما يضعف ركوبته التي يركبها.

وهذا الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنَّة والناس، هؤلاء الشياطين - إذن - قد يكونون من الجن الذين لا نراهم وقد يكونون من الإنس الذين يعيشون معنا.

علاج الشرور الخمسة:

هذه هي الشرور الخمسة كما جاءت في المعوِّذتين، ومن رحمة الله بنا أنْ بيّن لنا كيف نستعصم لنسلم من هذه الشرور. أما الشران الأولان، «من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب» فلقد بين النبي ﷺ لنا كيف نخلص من هذين الشرين وقد نقلنا بعض الأحاديث التي يستعصم بها المسلم، فاحرصوا عليها، ففيها الخير والنفع كله.

وأما الشر الثالث: «ومن شر النفاثات في العقد» فإن خير ما يحفظنا منه الإكثار من قراءة هاتين السورتين مع التدبر وصدق التوكل والاعتماد على الله.

(١) رواه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٨٠ عن أبي هريرة.

علاج شر الحاسد:

أما الشران الأخيران شر الحاسد إذا حسد وشر الوسواس الخناس، فإن خير ما يتحصن به المسلم من هذين الشرين اللجوء إلى الله وتلاوة كتابه والصلاة على نبيه ﷺ. هذا من حيث الإجمال ولا بأس أن نفصل لك بعض التفصيل في القول. فأما شر الحاسد فله أنواع من العلاج.

الأول: الاستعاذة بالله من شره كما جاء في السورة الكريمة وفي الأحاديث الشريفة التي ذكرناها من قبل، فالتحصن بالله والالتجاء إلى الله، واعتقادك أن الله سميع عليم، وسميع بصير، وسميع الدعاء، وبأن هذا السمع هو سمع إجابة ليس مجرد سمع وذلك كقوله سبحانه **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾** (المجادلة: ١) فإن المراد هنا سمع إجابة، أي سمع قولها وشكايتها فاستجاب لها.

الثاني: تقوى الله، فمن اتقى الله جعل الله له مخرجاً، قال تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾** (الطلاق: ٤) وقال **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾** (الأنفال: ٢٩).

الثالث: الصبر على الحاسد، وعدم الاشتغال بحسده ومحاولة إخفائه عن الخاطر، وعدم التفكير في إيذائه. قال تعالى: **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾** (آل عمران: ١٢٠) وقال تعالى: **﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾** (لقمان: ١٧) وقال: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾** (الشورى: ٤٣) وقال سبحانه **﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** (يوسف: ٩٠).

الرابع: التوكل على الله. قال سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣) وقال: **﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز**

حكيم﴾ (الأنفال: ٤٩) وقال سبحانه: ﴿فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ (يونس: ٨٥).

الخامس: فراغ القلب من الاشتغال بشأنه، وأن يعمّر قلبه بالإيمان، ويقبل على الله تبارك وتعالى، ويخلص له في عمله وقوله وخواطره.

السادس: التوبة من الذنوب، فإن كل ما يصيب العبد بذنب، فالتوبة من الذنوب تكسب العبد قوة، وتورثه عزة، وتجعله في حصن حصين.

السابع: ومن الأسباب التي تذهب شر الحسد الصدقة والإحسان وشكر الله على نعمه؛ ذلك أن غاية الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولكن الشكر سبب في بقاء النعمة وزيادتها، فإذا شكر العبد ربه بصرف نعم الله بما يرضي الله، فإن ذلك تفويت على الحاسد، فلا يزيده حسده إلّا حسرة.

الثامن: ومن أعظم ما يذهب داء الحسد وشره، أن تحسن إلى الحاسد، فلقد وعد النبي ﷺ المحسن لمن أساء إليه أن ينصره الله عليه فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهيراً عليهم ما دمت على ذلك»[1].

وبالجملة فإن الاعتماد على الله سبحانه وإخلاص التوحيد له، والدوام على ذكره، والصلاة على نبيه ﷺ تقيك شر الحسد وغيره من الشرور.

---

(١) صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٩٨٢.

علاج شر الشيطان.

أما شر الشيطان فإن خير ما يذهبه ويحفظنا منه ذكر الله تبارك وتعالى وقراءة كتابه، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد وردت بعض الأحاديث في قراءة سور مخصوصة وآيات مخصوصة كذلك، لتكون حرزاً من الشيطان ولتذهب كيده ووسوسته. ومن هذه السور قراءة المعوّذتين، وقراءة سورة البقرة، ومن الآيات قراءة آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، وأول سورة غافر.

ومما هو حرز من الشيطان صدق التوكل على الله، قال سبحانه، **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾** (النحل: ٩٨ - ٩٩) وكثرة الاستعاذة بالله **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** (الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١) **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾** (فصلت: ٣٦).

١-عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد[1].

٢ ـ وعن أبي أيوب الأنصاري أنه كانت له سهوة فيها تمر، فكانت تجيء الغول فتأخذ منه، قال فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، قال: فاذهب فإذا

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٤ رقم الباب ١١.

رأيتها فقل: بسم الله، أجيبي رسول الله ﷺ قال: فأخذها فحلفت ألا تعود فأرسلها فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت ألا تعود، فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرى فحلفت ألا تعود فأرسلها فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت ألا تعود، فقال: كذبت وهي معاودة للكذب فأخذها فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ فقالت: إني ذاكرة لك شيئاً آية الكرسي اقرأها في بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، فجاء إلى النبي ﷺ فقال ما فعل أسيرك؟ قال: فأخبره بما قال: قال: «صدقت وهي كذوب»[1].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان)[2].

٤ ـ وعن أبي موسى الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ الأيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[3].

٥ ـ وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا

---

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن ـ باب قصة في فضل آية الكرسي ٢٨٨٣/٣، ج ٨ ص ٩٦ وقال: حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن باب ما جاء في فضل سورة البقرة ٢/ ٢٧٨٠ ج ٨ ص ٩٦ وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة ٤/ ٢٨٨٤ وقال حسن صحيح. ج ٨ ص ٩٧.

يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[1].

٦ - عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (من قرأ حم المؤمن إلى (إليه المصير) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح)[2]

٧ - وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر من ذلك.[3]

٧ - وقال ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة، فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول يا ويْلَه - وفي رواية يا ويلي - أُمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنّة، وأُمرت بالسجود فأبيت فليَ النار»[4].

٨ - وقال ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا. فيقول: ما صنعت شيئاً: قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة ٤/٢٨٨٥ وقال حديث حسن ج ٨ ص ٩٨.

(٢) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن باب ما جاء في فضل آية سورة غافر وآية الكرسي ٢/٢٨٧٩ ج ٨ ص ٩٣ وقال حديث غريب.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء[اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٧٣٣.]

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١٣٣/٣٥ ج ١ ص ٨٧.

فرّقت بينه وبين آمرأته: قال فيدنيه منه ويقول: نعم أنت[1].

٩ ـ وقال ﷺ ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن» قالوا وإياك يا رسول الله قال: «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»[2].

١٠ ـ وعن عثمان بن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي. يلبسها عليَّ. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خِنزَب. فإذا أحسسته فتعوَّذ بالله منه، واتفُل على يسارك ثلاثاً» وقال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[3].

١١ ـ وقال رسول الله ﷺ «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعَشاء»[4].

١٢ ـ وقد سأل رجل عبد الرحمن بن حنيش كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين، قال: جاءت الشياطين إلى رسول الله ﷺ من الأودية وتحدرت عليه من الجبال وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس ٢٨١٣/١٦ ج ٤ ص ٢١٦٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس ٢٨١٤/١٦ ج ٤ ص ٢١٦٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب السلام باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة ٢٢٠٣/٢٥ ج ٤ ص ١٧٢٨.

(٤) رواه مسلم في كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ٢٠١٨/١٣ ج ٣ ص ١٥٩٨.

يحـرق بها رسـول الله ﷺ، قال: فـرعب، قال جعفـر: أحسبه قـال جعل يتأخر ـ قال وجاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل، قـال ما أقـول؟ قال: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبـرأ، ومن شر ما ينـزل من السماء، ومن شر مـا يعـرج فيهـا، ومن شر مـا ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخـرج منهـا، ومن شر فتن الليـل والنهـار ومن شر كل طـارق إلا طارقـاً يطرق بخـير يا رحمن، فـطفئت نـار الشياطين وهزمهم الله»[1].

(1) رواه أحمد في مسنده ج ٣ ص ٤١٩.

من السنة الشريفة
الخماسية الثانية عشرة

عن ابن عمر[1] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب ويكنى أبا عبد الرحمن، أمه زينب بنت مظعون، أسلم بمكة مع أبيه ولم يكن بالغاً حينئذ وهاجر مع أبيه إلى المدينة وعرض على رسول الله ﷺ يوم بدر فردّه ويوم أحد فَردّه لصغر سنه وعرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه.

عن طاوس قال: ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر، ولا رأيت رجلاً أعلم من ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب لو كنت شاهداً لرجل من أهل العلم أنه من أهل الجنة لشهدت لعبدالله بن عمر وعن نافع أن رجلاً سأل ابن عمر عن مسألة فطاطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته، فقال له: يرحمك الله أما سمعت مسألتي؟ قال: بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألوننا عنه، اتركنا رحمك الله حتى نتفهم في مسألتك فإن كان لها جواب عندنا، وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به، وعن المطعم بن مقدام قال كتب الحجاج بن يوسف إلى عبدالله بن عمر، بلغني أنك طلبت الخلافة وأن الخلافة لا تصلح لعيّ - الذي يعجز عن إحكام النطق - ولا بخيل ولا غيور فكتب له ابن عمر: أما ما ذكرت من أمر الخلافة أني طلبتها فما طلبتها وما هي من بالي، وأما من ذكرت من العيّ والبخل والغيرة فإن من جمع كتاب الله عز وجل فليس بعيّ ومن أدى زكاة ماله ليس ببخيل وأما ما ذكرت من الغيرة فإن أحق ما غرت فيه ولدي أن يشركني فيه غيري. توفي ابن عمر سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وثمانين سنة، قال نافع في سبب وفاته، كان زُجٌ من أصحاب الحجاج قد أصاب رجل ابن عمر، فاندمل الجرح، فلما صدر انتقض عليه، فدخل الحجاج يعوده فقال: من أصابك؟ قال: أنت قتلتني قال: وفيم، قال: حملت السلاح في حرم الله فأصابني بعض أصحابك.(صفة الصفوة ١/٥٦٣/ - ٥٨٠).

الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً)[1].

هذا الحديث الشريف ذكرت فيه أركان الإسلام وهو ما أجمع عليه العلماء. والركن ما لا يتم الشيء إلا به، وقد شبه الإسلام بالخباء وهو البيت من الشعر وله أعمدة خمسة أحدها ما يكون في الوسط، والأربعة في كل جهة منها واحد، ومع أهمية هذه الأعمدة الخمسة، إلا أن أعظم واحد فيها، ذاك الذي يكون في وسط البيت، فإذا سقط انتهى البيت كله أما إذا سقط أحد الأركان الأربعة الباقية، والوسط لا زال قائماً فإنه يسمى بيتاً، ولكن فيه نقص، ويحتاج إلى إصلاح، كذلك الإسلام بُني على هذه الأركان ولكنّ أهمها وأساسها هو الركن الأول وهو الشهادتان، فإذا ذهب هذا الركن انتفى الإسلام، إذ لا إسلام بدون الشهادتين أما إذا انتفى ركن آخر مع وجود الشهادتين بقي الإسلام ولكنه إسلام ليس تاماً كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله.

الشهادتان إذن يقوم عليهما الإسلام تماماً، كذلك الركن الذي يوضع في وسط البيت فيقوم البيت عليه.

وذكر هذه الأركان الخمسة لا يدل ولا يفهم منه أن المسلم يكفيه أن يأتي بهذه الأركان وأن يترك غيرها مما أمر الله به، وأمر به رسوله عليه وآله الصلاة والسلام كما يحلو لبعض الناس أن يفهم ذلك، وإنما يفهم من الحديث الشريف أن هذه الأمور هي الشعائر الظاهرة التي ينبغي أن يكون للمسلمين فيها عناية، ويرعوها حق الرعاية. وإلا فهناك أمور كثيرة يجب

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان وقول النبي ﷺ بني الاسلام على خمس ١/ ٨ /حـ١ ص ١٢

على المسلمين مراعاتها كالجهاد، وإقامة الحدود، والحكم بما أنزل الله، وعدم موالاة غير المؤمنين إلى غير ذلك من أمور كثيرة هي من أسس الإسلام وشعب الإيمان. قال رسول الله ﷺ (الإسلام ثمانية أسهم، الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وحج البيت سهم، والصيام سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل الله سهم وقد خاب من لا سهم له)[1]

الركن الأول: الشهادتان:

معنى الشهادتين: تعني كلمة الشهادة الإقرار، ولكن ليس كل إقرار يمكن أن يسمى شهادة،

إن كلمة الشهادة تدلنا على أنَّ الإقرار بكلمة التوحيد، والتصديق برسالة النبي ﷺ، لا يكفي أن تكون من اللسان وحده، ذلك لأن الشهادة لا بد فيها من ثبات القلب قبل إقرار اللسان.

إن الذي يشهد بلسانه بما ليس في قلبه لا يسمى شاهداً، بل هو منافق، لقد جاء المنافقون لرسول الله ﷺ فأرادوا أن يزيفوا هذه الشهادة، فكذبهم الله، وشهد الله بكذبهم ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ (المنافقون: ١) ونفهم من الآية الكريمة أن الشهادة لا بد لها من اعتقاد القلب وإقرار اللسان، أما الإقرار باللسان وحده فلا يسمى شهادة، وشهادة الزور هي إخفاء الحقيقة.

وفي الشهادة معنى المشاهدة، ولهذا اختيرت الكلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، اختيرت لإعلان الإسلام، واختيرت لإعلان الشعائر في الأذان والإقامة، واختيرت في الصلاة فيما عرف

(١) قال في مجمع الزوائد ١/٣٨، رواه البزار وفيه يزيد بن عطاء/ وثقه أحمد وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات.

بجلوس التشهد في وسط الصلاة وآخرها إن كانت الصلاة ثلاثية أو رباعية كيف لا والله تبارك وتعالى أسندها إلى نفسه بقوله ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ (آل عمران: ١٨) وأيُّ شيء أكبر شهادة من الله؟ لا عجب أن تختار كلمة الشهادة إذن في أعظم ركن من أركان الإسلام، فلن تغني عنها كلمة أخرى.

الشهادة - إذن - هي إقرار اللسان والقلب إقراراً يقينياً ليس فيه أدنى ارتياب، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم كما قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ (الحجرات. ١٥).

إن من نتائج الشهادتين أن يكون يقينك بوحدانية الله وبرسالة سيدنا رسول الله ﷺ، أقوى من يقينك بأن واحداً وواحداً يساوي اثنين. هذا ما ترشد إليه وتدل عليه كلمة الشهادة.

أما كلمة لا إله إلا الله فهي كلمة التوحيد التي نسأل الله أن يثبتنا عليها، وهذه الكلمة الطيبة تنفي الألوهية عما سوى الله تبارك وتعالى فليس هناك من إله غيره ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ (الأنبياء: ٢٢) ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ (المؤمنون: ٩١).

حرص القرآن على تثبيت مبدأ التوحيد.

لقد حرص القرآن الكريم كل الحرص، وجهد سيدنا رسول الله ﷺ كل الجهد على إقرار مبدأ التوحيد وتثبيته في النفوس ليكون دعامة قوية تقي المسلمين من شر الانحطاط والانزلاق في الدنيا والآخرة، وذلك أن تركيز مبدأ التوحيد في النفوس من شأنه أن يسمو بالإنسان، فمبدأ التوحيد

يبعد الإنسان عن ميدان الخرافة وفرية التعدد، لأنه ينفي كل شريك عن الله تبارك وتعالى، فالالوهية لا ينبغي ان تكون إلا للقادر العليم الخالق الذي ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (يونس : ٦١) فهو الذي يجب ان نتوجه إليه بالعبادة وحده .

ثمرات مبدأ التوحيد.

ولكن مبدأ التوحيد من شأنه كذلك تثبيت دعائم المساواة بين النّاس. إن أثر الوحدانيّة يلغي كل أسباب الفرقة بين النّاس، فكما ينفي هذا المبدأ الشرك الدينيّ فإنه ينفي كذلك هذا التفاوت الاجتماعي، فمعنى «لا إله إلا الله» لا علو لأحد على أحد، ولا فضل لأحد على أحد، ولا عظمة لأحد على أحد، وإنما العلو والفضل والعظمة لله وحده، والناس سواء لأنهم جميعاً مخلوقون، لا يمتاز أحد عن أحد من حيث الخلق، وهكذا يسطع نور التوحيد فيزيل من النفوس كل نعرات الجاهلية. هٰذِهِ واحدة.

أما الثانية فإن هذا المبدأ وإن هاتين الشهادتين تشملان مبادىء الدين كله، فإن من عرف ومن علم أنه لا إله إلا الله فإنه يعرض عن كل حكم غير حكم الله، ويرضى بكل قضاء قضى به الله، ويأتمر بكل أمْرٍ أمَر به الله ويجتنب كل نهيٍ نهى الله عنه، لذلك كانت هذه الكلمة أفْضَل الذكر وكانت أفضل التقوى، وهي كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص.

وكذلك شهادة أن محمداً رسول الله تلزم صاحبها بالإيمان بكل ما أخبر عنه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وتحكيمه في كل ما يعرض له من أمور الحياة، والتسليم والإذعان دون أن تكون في النفس شبهة ريب.

ولقد حثت أحاديث كثيرة على الإكثار من هاتين الشهادتين، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الموضوع فيما بعد إن شاء الله.

الركن الثاني: إقامة الصلاة:

وإقامة الصلاة تأديتها كاملة - كما مرّ معنا من قبل -

وهذه الصلاة ذكرت عقب الشهادتين فهي تختلف عن غيرها من حيث وجوبها على كل مكلف مهما كان وضعه الاجتماعي أو الصحي أو الاقتصادي، فالزكاة إنما تجب على الأغنياء، والصوم إنما يجب على القادرين عليه، والحج إنما يجب على المستطيع، لكنّ الصلاة لا يُعذر في تركها أحد، لذلك كانت عمود الدين، وتاركها كافر كما ذهب إليه بعض من الأئمة.

ولأهمية الصلاة ومنزلتها بنيت المساجد لتؤدى فيها هذه الصلاة جماعة ولن تحظى أي عبادة بهذا التشريع الجماعي، وهذا يدلنا على معنىً آخر للصلاة، غير كونها صلة بين العبد وربه، وهو أن الصلاة من الشعائر الاجتماعية التي تمتاز بها جماعة المسلمين.

إن قراءة الفاتحة في الصلاة لتؤكد هذه الروح الجماعية «إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم» ينطق بها المسلم، ولكن نطقاً جماعياً «نعبد» و«نستعين»، «اهدنا» يقولها المسلم لا يعني بها نفسه فحسب، وإنما يعني بها كل أولئك الذين يشتركون معه في حمل لواء هذا الدين.

واعلموا أن الفقهاء عرّفوا الصلاة بأنها أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، ولكن في الحقيقة ليست الصلاة أقوالاً وأفعالاً وكفى، إنما الصلاة مع الأقوال والأفعال خشوع وتوجه يتوجه به المسلم في فكره

وروحه إلى ساحة الرضوان، إنها تفكير وتدبر، إنها شعور بالسمو والرفعة.

وإذا كانت الصلاة تمتاز عن غيرها من العبادات بأنها تجب على كل مكلف، أياً كان وضعه الاقتصادي أو الاجتماعي أو الصحي ـ كما قلنا من قبل ـ وتختلف عن غيرها كذلك بأنها شرعت فيها الجماعة فإنها تختلف كذلك عن غيرها من العبادات، فلا بد لها من الطهارة، ولا يجوز فيها أي عمل من الأعمال حتى الأعمال المباحة كالكلام والحركة والطعام والشراب، واختصت كذلك دون غيرها بما لها من أثر اجتماعي وروحيّ وخلقي حيث قال الله: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ (العنكبوت: ٤٥). لذلك شُدّد النكير على من ترك ولو فرضاً واحداً «ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله». [1]

ومما تمتاز به الصلاة عن غيرها كذلك أنها تشتمل على العبادات القولية والعملية، والفكرية كذلك، وفيها أنواع الذكر، وفيها تدبر القرآن الكريم، وفيها الدعاء والتوجه إلى الله، فمن أحسن قيام الصلاة أكرمه الله بخير الصلاة

تلكم هي الصلاة عبادة الليل والنهار.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

والزكاة هي الحق المقدر الذي أوجبه الله في مال الأغنياء للفقراء، وهذه الزكاة مع آثارها الاقتصادية الطيبة إلا أنها تؤدي وظيفة اجتماعية لا تقل أثراً إيجابياً عن وظيفتها الاقتصادية، وكذلك أركان الإسلام جميعاً.

إن في الزكاة تزكية للنفس وتطهيراً لها، وتغلباً على عناء الشح

(١) رواه احمد بن حنبل: ج ٥ ص ٢٣٨ عن معاذ.

وسطوة البخل، وسلطان الأنانية، تشيع في المجتمع وتنشر فيه روح الخير والمودة، لا عجب إن قال الله لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (التوبة: ١٠٣).

وللزكاة آدابها وأحكامها التي لا بد أن يراعيها المسلم. ومن أول هذه الآداب: أن يقصد بها المسلم وجه ربه، خالية من مَنٍّ وأذى، وأن تكون كاملة غير ناقصة، وأن تؤدى لمستحقيها إلى غير ذلك من الأحكام التي ذكرت في كتب الفقه.

وهذه الأركان الثلاثة، أعني شهادة التوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة هي التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)[1]. ذلك أن هذه الشعائر الثلاث، ذات أثر روحي واجتماعي، وهي من الشعائر الجماعية التي لا يمكن إخفاؤها. فشهادة التوحيد هي الأساس الذي يُبنى عليه كل شيء، والصلاة شعيرة اجتماعية يُعْلَنُ لها بالآذان كل يوم خمس مرات، فيلبّي المسلمون النداء. فإخفاء هذه الشعيرة إذن أمرٌ متعذر. والزكاة تظهر فيها روح التعاون، فإنها ليست واجبة في نوع واحد من المال، فهناك زكاة الثمار عند جنيها، وزكاة الزروع عند حصادها، وزكاة الأنعام عند عدادها، وزكاة التجارة عند حولان حولها، فكأن الزكاة تستمر في كثير من أوقات العام. ولذا حارب أبو بكر رضي الله عنه الذين امتنعوا عن أداء الزكاة، ولم يفرق بينهم وبين المرتدين عن الإسلام كله، فكلتاهما ردة.

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» ١٥/٢٧٨٦، ج ١ ص ١٧.

الركن الرابع: صيام رمضان:

وشعيرة الصيام مع اختلافها عما قبلها، إلا أنها تشترك معها في تهذيب النفس، وتطهير القلب. ونكتفي هنا بما روي عن النبي ﷺ: (يا أيها الناس. قد أظلكم شهرٌ عظيم مبارك، شهرٌ فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدي سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد في رزق المؤمن فيه، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء. قالوا: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال رسول الله ﷺ: يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمرة، أو على شربة ماء، أو مذقة لبن، وهو شهرٌ أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، من خفف عن مملوكه فيه غفر الله له، وأعتقه من النار. واستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما. فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة)[1].

وسنفصل القول في هذا الركن في كتابنا مجالس التراويح إن شاء الله.

الركن الخامس: حج البيت من استطاع إليه سبيلاً:

والحج هو آخر الأركان فرضاً، فقد فرضت الصلاة ـ كما نعلم ـ

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال: الخبر، ورواه من طريق البيهقي، ورواه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب باختصار عنهما.

ليلة المعراج، وفرض الصوم والزكاة في السنة الثانية للهجرة، وفرض الحج فيما بعد، في السادسة أو الثامنة أو التاسعة.

وللحج أحكامه وآدابه، وقد روعي في هذه الأحكام والآداب كل مصلحة ومنفعة ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات: **﴿الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهنّ الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب﴾** (البقرة: ١٩٧).

هذه أركان الإسلام جاءت مرتبة ترتيباً عجباً، ترتيباً بديعاً. فالركن الاعتقادي وهو الشهادتان أمر ثابت مستقر في القلب، ليس له زمان خاص. والصلاة تجب في كل يوم، وينبغي أن يحافظ على أدائها جماعة. والزكاة ليس لها وقت خاص. ولكنها تدور مع أكثر أيام العام بحسب المال المزكىٰ ثمراً أو زرعاً أو أنعاماً أو تجارة. وهذه تختلف باختلاف البلاد والعباد. فوقت الزرع والثمر في بعض البلاد يختلف عنه في بلاد أخرى، وكذلك زكاة التجارة وغيرها تختلف باختلاف الأشخاص، فبعضهم يزكي في رمضان وبعضهم في المحرم وبعضهم في رجب أو شعبان. أما الصيام فاقتضت حكمة الله العلي القدير أن يكون في كل عام شهراً لا يختلف باختلاف الناس ولا باختلاف أمكنتهم. وأما الحج فشاء الله أن يكون مرة واحدة في العمر إلا من تطوع، وأن يجتمع الحجيج في زمان واحد ومكان واحد.

إن هذه الحكمة البديعة في ترتيب الأركان وتوزعها على حياة الناس أمر له دلالاته الكثيرة التي يتعلم المسلم منها النظام والانضباط والمحافظة على كل لحظة من لحظات العمر.

بيان أن الإسلام ليس محصوراً في هذه الأركان:

بقي أمر ذو بال لا بد أن ننبه إليه، وقد أشرنا إليه إشارة موجزة من قبل، وهي أن القيام بهذه الأركان وتأديتها لا يغني عن غيرها من الفرائض والشرائع، وإنما خصت بالذكر لأن فيها معاني اجتماعية وروحية؛ ولأن لها أوقاتاً خاصة وأمكنة خاصة فلا يجوز لأحد أن يدّعي وأن يزعم بأنه ما دام قد أدى هذه الأركان فلا يضيره بعد ذلك إن ترك غيرها من التشريعات. إنّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ.

ولقد بيّن الكتاب والسنة ما يجب على المسلم أن يفعله، وما يجب عليه أن يبتعد عنه، وإليكم بعض الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في ذلك:

١ - عن السدوسي يعني ابن الخصاصية رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ لِأبايعه فاشترط عليّ شهادة أن إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن أُقيم الصلاة وأن أؤدي الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله ما أُطيقهما، الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أن من ولّى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حَضَرْتُ تلك جشعت[1] نفسي وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غُنَيْمة[2] وعشر ذود[3] هُنَّ رِسْلُ أهلي وَحَمُولَتُهُم، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال فلا جهاد

---

(١) جشعت) بكسر الشين المعجمة أي فزعت والجشع الجزع لفراق الإلف.

(٢) غنيمه: تصغير غنم أي غنم قليلة.

(٣) الذود من الإبل ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل ما بين الثلاث إلى العشر واللفظة مؤنثة ولا واحد لها من لفظها. (والرسل) بكسر الراء وسكون السين المهملة اللبن أي هن ذوات لبن طعام أهلي (وحمولتهم) أي يحملون عليها أثقالهم.

ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذن؟ قلت: قلت يا رسول الله أنا أبايعك، قال فبايعت عليهن كلهنّ[1]

٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه[2] قالوا وما بوائقه يا نبي الله، قال غشمُهُ[3] وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار لا يمحو السيّء بالسيّء، ولكن يمحو السيّء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[4].

٣ ـ عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته بالخيف من منى ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»[5]

٤ ـ وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله ما الإيمان قال أن تشهد أنه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن يكون الله

---

(١) قال الهيثمي رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد موثقون (الفتح الرباني ١/٨١).

(٢) بوائقه: غوائله وشروره واحدها بائقة وهي الداهية.

(٣) الغشم: هو الظلم وذكر الظلم بعده عطف تفسير.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك من طرق متعددة عن ابن مسعود (الفتح الرباني ١/٨٥).

(٥) قال في مجمع الزوائد، رواه ابن ماجة مختصراً ورواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون ج ١ ص ١٣٩.

ورسوله أحب إليك مما سواهما وأن تحترق في النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئاً وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ، قلت يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أني مؤمن، قال ما من أمتي أو قال هذه الأمة عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة وأن الله مجازيه بها خيراً ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لا يغفرها إلا الله إلا وهو مؤمن.[1]

٥ ـ وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء، الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل[2]».

٦ ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل إذا عمل به العبد دخل به الجنة، قال يؤمن بالله، قال قلت: يا رسول الله إن مع الإيمان عملاً؟ قال يرضخ مما رزقه الله، قلت فإن كان معدماً لا شيء له قال: يقول معروفاً بلسانه. قلت: فإن كان عيياً لا يبلغ عنه لسانه قال فيعين مغلوباً قلت: فإن كان ضعيفاً لا قدرة له قال: فليصنع لأخرق قلت: فإن كان أخرق فالتفت إليّ فقال ما تريد أن تدع في صاحبك شيئاً من الخير فليدع الناس من أذاه، قلت: يا رسول الله، إن هذا كله يسير قال: والذي نفسي بيده ما من عبد يعمل بخصلة منها يريد بها ما عند الله إلا أخذت بيده يوم القيامة فأدخلته الجنّة»[3]

---

(١) قال في مجمع الزوائد. رواه أحمد وفي اسناده سليمان بن موسى وثقه ابن معين وضعفه آخرون. ج١ ص ٥٤.

(٢) قال في مجمع الزوائد: رواه أحمد وفيه دراج وقد وثق وضعفه غير واحد. ج ١ ص ٥٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٦٣.

والأحاديث كثيرة التي تبين أن المسلم لا يكفيه القيام بهذه الأركان الخمسة وحدها، فلقد رأينا من الأحاديث الشريفة السابقة الذكر أن هناك أموراً لم يرضَ النبي عليه وآله الصلاة والسلام للمسلم أن يتركها

ففي الحديث الأول رأينا ذلك الصحابي الذي بايع النبي ﷺ، ولكنه طلب أن يرخص له في ترك الجهاد والصدقة محاولاً أن يعلل ذلك وأن يجد لنفسه عذراً، ولكن النبي عليه وآله الصلاة والسلام قبض يده وأبى أن يبايعه وقال لا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذن؟ فلما رأى ذلك الصحابي أن هذه الأعمال سواء بايع النبي ﷺ على كل شيء، فنحن نرى أن هذا الحديث يحتم على المسلم ويوجب عليه أن يتغلب على كل مظاهر الشحّ والبخل، وأن يترجم أركان الإسلام ونواهيه وأوامره ترجمة عملية، وأنه لا يكفي للمسلم لكي يكون مسلماً أن يقوم بما ليس فيه بذل وتضحية.

وفي الحديث الثاني الذي رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يبين النبي ﷺ بل يقسم أنه لا يتم إسلام المرء إلا إذا أسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن إلا إذا أمن جاره بوائقه وظلمه وغشمه وأنه لا يكسب مالاً حراماً إلا سيمحقه الله، فلا يقبل منه إن تصدق بشيء منه، ولا يبارك له فيه إن أنفق منه، فإن تركه خلفه كان زاده إلى النار.

وهكذا نجد الأحاديث الباقية جميعها تبين لنا أنّ هناك أعمالاً لا بد للمسلم أن يفي بها. إن أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها الإسلام ذات شأن وخطر ولها مزاياها وخصائصها، ولكنها لا تغني عن غيرها مما يجب على المسلم ان يعمله أو ان ينتهي عنه.

شمول الحديث للجانبين النظري والعملي:

بقيت كلمة أخيرة وهي أن هذا الحديث الشريف ينتظم فيما ينتظم،

ويشمل فيما يشمل الجانبين النظري والعملي لهذا الدين، ونعني بالجانب النظريّ التصديق القلبي أما الجانب العملي فيتمثل بما في الصلاة من حركة حيويّة تشمل الفرد والجماعة، وكذلك الزكاة والحج. إن الجانب النظري في هذه الأركان يتمثل في التصديق القلبي، كما يظهر في الصبر على حبس النفس عن الشهوات، الذي يظهر في ركن الصوم، ولكن من الواجب أن ننبه هنا إلى أن الجانب النظري في الإسلام لا يمكن أن ينفصل عن الجانب العملي كما هو شأن كثير من الفلسفات والملل، بل إن الجانب النظري والعملي كليهما لا بد من أن يتحققا في كل عبادة، فالإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

وباجتماع هذين الجانبين النظري والعملي في أركان الإسلام يصبح المسلم خلقاً آخر، تربية نفس وإرهاف حس، فهو طاهر القلب، نظيف الجوارح، عميق الفكر، يستطيع أن يوازن في الحياة بين حاجاتها ومتطلباتها، فلم تغلب عليه الصبغة النظرية فتجعل منه تجريدياً بعيداً عن الواقع، ولم تغلب عليه الصبغة العملية فتجرده من قوة العقل ونعمة التفكير.

تلكم هي أركان الإسلام، اشتملت على كل ما يصلح جوانب الإنسان جميعها، حتى لا يطغى جانب على آخر ولا تبغي جهة فيه على جهة، فيصلح لهذا الكون بكل ما أودع الله فيه.

الخماسية الثالثة عشرة

عن أبي هـريرة[1] قـال: قال رسـول الله ﷺ (من يأخـذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهنّ؟ فقال أبو هريرة: فقلت: أنـا يـا رسول الله، فـأخذ بيـدي فعـدّ خمسـاً وقـال: آتق المحـارم تكن أعبـد النـاس، وارض بمـا قسم الله لـك تكن أغنى النـاس، وأحسن إلى جـارك

(١) أبـو هريـرة اختلف في اسمه واشهـر هذه الأسـماء أنه عبـد شمس بن عـامـر وسمي في الإسلام عبدالله وكني بأبي هريرة لهرة صغيرة كانت له، قدم المدينة في سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فسار إلى خيبر حتى قدم مع رسول الله ﷺ المدينة. عن أبي هـريرة قـال: إن كنت لاتبع الرجل اساله عن الآية من كتاب الله عز وجل، لانا اعلم بها منه ومن عشيرته، وما أتبعه إلا ليطعمني القبضة من التمر أو السفة من السُّويق أو الدقيق أسـد بهـا جوعي فـأقبلت أمشي مع عمـر بن الخطاب ذات ليلة أحـدثه حتى بلغ بـابه فـأسند ظهره إلى الباب فاستقبلني بوجهـه فكلما فرغت من حـديث حدثته آخر حتى لم أر شيئاً انطلقت فلما كان بعد ذلك لقيني فقال: أبا هريرة أما لو أنـه في البيت شيء لأطعمناك، قال أبو هـريرة: مـا أحد من النـاس يهدي لي هـدية إلا قبلتهـا فامـا أن أسال فلم أكن لأسـأل، وعن عكرمـة قال: كـان أبو هـريرة يسبـح كل يـوم اثنتي عشرة ألف تسبيحـة ويقول: أسبح بقدر ذنوبي وعن ابي عثمان النهدي قال: تضيفت ابا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل ثلاثاً. يصلي هذا ثم يوقظ هـذا ويصلي هـذا ثم يوقظ هذا، توفي أبو هريـرة بالمـدينة سنة سبع وخمسـين، وعن شوذب قـال: لما حضرت أبـا هريرة الوفاة بكى فقيل: ما يبكيـك؟ فقال بعـد المفازة، وقلة الـزاد وعقبة كؤود، أيهبط منها إلى الجنة أو النار. [صفة الصفوة ١/٦٨٥].

تكن مؤمناً، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[1].

الأمر الأول: اتق المحارم تكن أعبد الناس.

إتقاء المحارم تجنبها والابتعاد عنها، والمحارم ما حرمه الله ورسوله، وقد تكون قولية كالكذب وقول السوء، وقد تكون فعليّة كالسرقة وغيرها، وهذه المحرمات هي الحجاب التي تحجب من يفعلها عن مراقي الفلاح، وتحول بينه وبين منازل الأبرار؛ ففاعل المحرمات ضعف وازع الإيمان في نفسه، وفقد سلطان المراقبة. «إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه». إن العاقل يفكر ألف مرة قبل أن يتجاوز الحدود من بلد إلى بلد بطريق غير صحيح، وإن فعل المحرمات إنما هو تجاوز لحدود الله سبحانه ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ (الطلاق: ١).

إن هذه المحارم تحول بين صاحبها وبين أن ينتفع بحسناته، ولقد تقدم لنا من قبل في خماسية الاستقامة عند قوله سبحانه ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ (هود: ١١٤) أن المراد بهذه السيئات الصغائر وليست الكبائر. وقد تكثر هذه الحسنات ولكن انتهاك حرمات الله يبدد هذه الحسنات. ففي الحديث أن سيدنا رسول الله ﷺ قال (إني لأعلم أناساً من امتي يأتون بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء يجعلها الله هباء منثوراً، قالوا يا رسول الله: صفهم لنا، قال إنهم منكم يأخذون من الليل ما

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس ٢/٢٣٠٦ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئاً.

تأخذون ولكنهم قوم إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها)[1].

ولقد ضرب النبي ﷺ مثلاً يجدر بنا أن نعيه (إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كَنْفي الصراط سوران فيهما على الأبواب ستور، وعند رأس الصراط داع يقول: استقيموا على الصراط ولا تعوجوا، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه) ثم فسره فأخبر أن الصراط هو الإسلام، والأبواب المفتحة محارم الله، والستور المرخاة حدود الله فمن كشفها فقد تعدى الحدود ووقع في المحارم، والداعي على رأس الصراط القرآن، والداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن)[2].

واجتناب المحارم إنما ينتج عن أمرين اثنين:

أحدهما: الخوف من الله تبارك وتعالى.

وثانيهما: الصبر، والصبر عن المحرم من أعظم أنواع الصبر.

ولهذا كان الذي يتقي المحارم أعبد الناس، فإن العبادة نتيجة العبودية الصادقة لله سبحانه، والعبودية لا بد لها من الصبر والخشية، والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، فهي استشعار القلب عظمة المعبود مع الخوف منه، يقول النبي ﷺ (إذا نهيتكم عن شيء فدعوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)[3] فأنت ترى أن المنهي عنه لا بد من اجتنابه كله، أما المأمور به فإنما يكون في ضمن دائرة الاستطاعة، ومن هنا كان اتقاء المحارم يرفع صاحبه فيجعله أعبد الناس.

---

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ٤٣٤٥/٢٩ ج ٢ ص ١٤١٨ وقال في مجمع الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) روى نحوه الترمذي في كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل الله عز وجل لعباده ٣٠١٩/١.

(٣) سبق تخريجه ص ١٢٩

إن الـذي يمتثل الأوامـر يسمى عابـداً، ولكن الذي يجتنب المحـارم يكون أعبد الناس، وشتان بين المنزلتين ثم إن هذه المحـرمات تجلب كثيـراً من العقوبات الإلهية. وصدق الله **﴿من يعمل سوءاً يجـز به ولا يجـد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾** (سورة النساء آية: ١٢٣).

الأمر الثاني: وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس:

﴿يـا أيها النـاس أنتم الفقراء إلى الله والله هـو الغني الحميد﴾ (فـاطر: ١٥)

إن الغنى المطلق وهو عـدم الاحتياج إلى الغـير، إنما هـو من صفات الله تبارك وتعالى وحده، ولكن غنى الناس إنمـا هو قلة الاحتيـاج، والناس تختلف نفـوسهم وطبـائعهم، فمنهم من شغله الحــرص وأثقله الـطمــع، وهؤلاء حُرموا لذّة القناعة ونعمة الرضا، ومنهم من آمنوا بقدر الله وفقهـوا قـول الله سبحانـه **﴿وفي السماء رزقكم ومـا تـوعـدون فـورب السـماء والأرض إنـه لحق مثل مـا أنكم تنـطقـون﴾** (الـذاريـات: ٢٢ - ٢٣) وهؤلاء هم الذين رضوا من الله سبحانه وتعـالى بما قسم لهم، ورضـوا عن الله تبـارك وتعالى فيـما فعل بهم، **﴿رضي الله عنهم ورضـوا عنه أولئـك حـزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحـون﴾** (المجـادلـة: ٢٢) أولئـك الـذين تملكهم الشعـور بـالغنى، فهـم لا يمـدون عيــونهم إلى مـا أعــطيـه الآخرون من زهرة الحياة الدنيا، وفقهوا قوله سبحـانه **﴿مـا عندكم ينفـد وما عند الله باق﴾** (النحل: ٩٦).

إن الذي لا يرضى تتوق نفسه دائـماً إلى الزيـادة، لأنه يجـد أن غيره أعـطى أكثر منـه فيسبب له ذلـك ألماً وحسرة، ويحـاول بشتى الوسـائـل أن يصل إلى ما وصل إليه غيره، أن يلحق به في غناه وثروته، وقد يدركه أجله قبل أن يتحقق أمله.

إن عدم الشعور بالغنى شعور بالفقر يدفع صاحبه ليسلك مسالك وعرة فيخضع ويذلّ لغير الله وهذا يحرم نعمة الشكر ونعمة الصبر، ذلك أن الذي ينظر في دنياه إلى من هو فوقه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً.

لا تخضعنَّ لمخلوق على طمع
فإن ذلك وَهْن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه
فأمره الحق بين الكاف والنونِ
إن الذي أنت ترجوه وتأمله
من البرية مسكين بن مسكين

إن أغنى الناس هو الذي لا ينظر لما في أيديهم طمعاً وحسرة، وليست هذه إلا لمن رضي بما قسم الله نسأل الله أن يكرمنا بالرضا وأن يمن علينا بالقناعة.

ولقد ضرب المسلمون الصادقون أروع الأمثلة في هذا الرضا، يدل على ذلك تاريخهم، أفلا نرضى لأنفسنا أن يكون لنا بهم قدوة، وأن يكون لنا بهم أسوة؟

الأمر الثالث: وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً.

إن امر الجار لخطير، ولقد أوصى الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالجار، فقال: **﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب ﴾**]النساء: ٣٦).

(ومن أحاديث النبي ﷺ [لا زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه][1] أياً كان هذا الجار، قريباً أو بعيداً، مسلماً أو غير مسلم.

ولقد كان العرب في الجاهلية يتميزون بالمحافظة على الجار، وحفظ عهده ووده، قال قائلهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

وقال آخر:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل

ولقد حدث التاريخ عن أبي حنيفة - رضي الله عنه - وقد كان له جار يزعجه وكان يردد في ليله

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ومضت ليال ولم يسمع فيها أبو حنيفة جاره فسأل عنه فعرف أنه قد أخذته الشرط فتشفع فيه وقال هل أضعناك يا هذا؟ فحسن ذلك في نفس الرجل وصلح حاله.

ولقد قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه الإمام أحمد، والذي مر معنا في الخماسية السابقة، قسم النبي ﷺ على أن العبد لا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه وهي غشمه وظلمه وفي حديث آخر (المؤمن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب الوصاية بالجار باب ٢٨/ حديث ٥٦٦٨ ج ٥ ص ٢٢٣٩.

من أمن جاره بوائقه) ومن هنا كان الإحسان إلى الجار يجعل صاحبه في زمرة المؤمنين. وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال أني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إليّ جواراً أشدهم لي أذى، فبعث النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً يصيحون على أبواب المساجد [ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه](1) وعن عائشة قالت: قلت يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي، قال: إلى أقربهما منك باباً(2) وقال ﷺ «الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار، والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار»(3).

الأمر الرابع: وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً:

يقول النبي ﷺ [المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده](4) ولا يسلم الناس من يده ولسانه إذا كان يضمر لهم سوءاً ويكره لهم الخير، ولا يعنيه ما حل بهم، ولا يعينهم فيما أصابهم، فإذا أحب لهم ما أحب لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه كان من الذين تجردوا من أنانيتهم، والشعور بالاستعلاء والنظرة لهم بازدراء، فاستحق أن يتصف بأنه مسلم.

---

(1) قال في مجمع الزوائد ١٦٩/٨، كتاب البر والصلة باب ما جاء في أذى بالجار وقال رواه الطبراني وفيه يوسف بن السفر وهو متروك.

(2) رواه البخاري في كتاب الشفعة باب أي الجوار أقرب ٢١٤٠/٣ ج ٢ ص ٧٨٨.

(3) قال في مجمع الزوائد في كتاب البر والصلة باب حق الجار والوصية بالجار ١٦٤/٨ رواه البزار عن شيخه عبدالله بن محمد الحارثي وهو وضاع.

(4) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب أي الإسلام أفضل ١٣/١.

وفي الحديث الصحيح [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه][1] وقد مر معنا في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قول النبي ﷺ [والله لا يسلم أحدكم حتى يسلم قلبه ولسانه].

إن إسلام القلب خلوه من الحقد والغلّ والحسد والكبر وإن إسلام اللسان كفه عن كل ما فيه إيذاء للآخرين وانتقاص لهم وهزئه وسخريته منهم.

الأمر الخامس: لا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب:

معنى الضحك: الضحك انبساط في الوجه ينتج عن سرور وعجب وله مراتب متعددة، فقد يكون تبسماً، وقد يصل إلى درجة القهقهة، وهو أمر طبعي في الإنسان، ولقد ثبت في السنة أن الرسول ﷺ (كان يبتسم حتى تبدو نواجذه، وحدثنا القرآن عن سليمان عليه السلام يوم أن مر على وادي النمل هو وجنده **﴿قالت نملة يا أيها النمل آدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾** (النمل: ١٨) حدثنا القرآن عن سليمان بقوله: **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** (النمل: ١٩) وحدثنا القرآن كذلك عن امرأة إبراهيم عليه السلام حينما بشرته الملائكة **﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾** (هود: ٧١) لذلك قلنا إن الضحك أمر طبعي في الإنسان.

وإنما المحظور في الضحك أمران اثنان:

أولاً: ارتفاع الصوت فيه ليصل إلى درجة القهقهة فإن ذلك لا يتفق مع الوقار والجلال والهيبة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان وكذلك البخاري في كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١٣/٦ ج ١ ص ١٤.

ثانياً: كـثرة الضحك؛ ذلـك لأن كثرة الضحـك، فضلاً عن كـونها خروج عن الوقار والهيبة، فهي عـلامة كـذلك عـلى الغفلة والسهو، وهي دليل اللغو واللهو.

حوادث الحياة جسام، وتقلبات الـدهر، وريب الـزمان تـوجب على العـاقل دوام المـراقبـة، والـذين يكـثرون من الضحك تحـرم قلوبهم لـذة الطمأنينة ونعمة السكينة، ذلك لأن القلب الوقور المتصـل بالله لا يستبـدل الضحك بهذه الهيبة وذلك الوقار.

ولقد حدثنا القرآن في معـرض الذم والتبكيت عن أقـوام أكثروا من الضحك ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيـراً﴾ (التوبـة: ٨٢) وهذا لأنهم كانوا يكثرون من الضحك في معاداتهم للمؤمنين ونسيانهم ما كلفـوا به من واجبات وغفلتهم عن الحق. وقال سبحانه: ﴿إن الـذين أجرمـوا كانـوا من الـذين آمنوا يضحكـون﴾ (المطففـين: ٢٩). ويقـول سبحـانـه عن هؤلاء المجرمين في كيفية معاملتهم لعبـاد الله ﴿فاتخـذتموهم سخـرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليـوم بما صـبروا أنهم هم الفـائــزون﴾(المؤمنون: ١١٠ - ١١١).

لذلك فإن كثرة الضحك تميت القلب: ومن أجل ذلـك كان الـذين أجمـع النـاس عـلى علمهم وزهـدهم يتجنبـون الضحـك والإكثــار منـه،

ونضرب لهؤلاء مثـلاً الحسن البصري رضي الله عنه وعمـر بن عبـد العزيز. فقد قال إبراهيم بن عيسى: ما رأيت أطول حزناً من الحسن، وما رأيتـه قط إلا حسبته حـديث عهد بمصيبـة. وقال غـيره: لـو رأيت الحسن لقلت: قد بث عليه حزن الخلائق، وقال يزيد بن حوشب ما رأيت أخوف من الحسن وعمـر بن عبد العـزيـز كـأن النـار لم تخلق إلا لهـما، وقـال ابن اسباط: مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك، وأربعين سنة لم يمزح.

ومن كلام الحسن: نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال لا أقبل منكم شيئاً، وقال: ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر عورة بادية، وعيناً باكية من يوم القيامة، المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يبلغ الله»[1]

وقال الماوردي: واعتياد الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة، مذهل عن الفكر في النوائب المسلمة، وليس لمن أكثر منه هيبة، ولا وقار، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار. وقال حجة الإسلام: كثرة الضحك والفرح بالدنيا سم قاتل، يسري إلى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال القيامة وهذا هو موت القلب ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ (الرعد: ٢٦)[2]

وقال ابن عطاء الله في حكمه: «من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلت من وجود الزلات»

قال ابن عجيبة في شرح هذه الحكمة: «قلت: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا والغفلة عن ذكر الله وإرسال الجوارح في معاصي الله، وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله، وعلامة موته: ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات»[3]

---

(١) ثلاثيات مسند الإمام أحمد ٣٦٨/١.

(٢) فيض القدير ٧٦/٣.

(٣) إيقاظ الهمم شرح الحكم ٨٣/١.

ومن أجل ذلك أثنى الله سبحانه ورسوله ﷺ على الذين يبكون من خشية الله تبارك وتعالى عند تلاوة كتابه، ويبكون من خشيته، فهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، ومن الذين يظلهم الله(يوم لا ظل إلا ظله رجل ذكر الله في خلوته ففاضت عينه)[1]

ولقد حرم الله على النار عيناً بكت من خشية الله، فأين هؤلاء المقربون، أين هؤلاء من الذين يكثرون الضحك؟ أين هؤلاء الذين شغلهم الواجب المعبود من الذين شغلوا بالمفقود؟.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً
والناس حولك يضحكون سروراً
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

فادخر ضحكتك في يومك إلى غدك، فلعل الله يمنّ عليك وعلينا معك فنكون من أولئك الذين قال الله فيهم ﴿**وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة**﴾ (عبس: ٣٩) ومن الذين قال فيهم: ﴿**فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون**﴾ (المطففين: ٣٤ - ٣٥).

إن كثرة الضحك تميت القلب، لأنه يحجبها عن مواطن التدبر، ويدفعها عن مواطن العزّ، إن حياة القلوب أن تفقه الغاية التي خلقت من

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ـ باب الصدقة باليمين ١٣٥٧/١٥ ـ ج ٢ ص ٥١٧. والحديث (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

أجلها، ذلك أنَّ القلوب التي لا تفقه ستكون وقوداً للنار لأنها قاسية، فهي مع الحجارة **﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾** (البقرة: ٢٤). **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها﴾** (الأعراف: ١٧٩) فإياك أن يعمي قلبك كثرة الضحك وصدق الله **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** (الحج آية: ٤٦).

الخماسية الرابعة عشرة

عن أبي برزة الأسلمي[1] قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه».[2]

أهمية هذه الأمور الخمسة:

إن الناس لم يخلقوا عبثاً في هذه الحياة، ولم يتركوا سُدى **﴿أيَحْسب الإنسان أن يترك سدى﴾** (القيامة: ٣٦) **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾** (المؤمنون: ١١٥)

ونعم الله سبحانه وتعالى كثيرة لا تُحصى، ومن حق هذه النعم أن يشكر عليها المنعم سبحانه، وهذه الخماسية في الحديث الشريف من جوامع كلمه ﷺ، فهذه الخمس هي أمهات النعم، وعليها تقوم الحياة كلها، ولذلك خصها سيدنا رسول الله ﷺ بالذكر.

---

(١) أبو برزة الأسلمي عبدالله بن نضلة وقيل نضلة بن عبدالله أسلم قديماً وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكه. قال محمد بن عمر ولم يزل أبو برزة يغزو مع رسول الله ﷺ إلى أن قبض، فتحول إلى البصره فنزلها حين نزل المسلمون وبنى بها داراً وله بها بقية ثم غزا خراسان فمات بها. وعن الحسن بن حكيم قال: حدثتني أمي أنها كانت لأبي برزة جفنة من ثريد غدوة وجفنة عشية للأرامل واليتامى والمساكين. (طبقات ابن سعد ٤/٣٠٠)

(٢) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص رقم الباب ١ رقم الحديث ٢٥٣٢ وقال حسن صحيح.

وهـذه الخمس هي أساس الخير للدنيا والآخـرة معـاً، وإذا كنـا في عصر يتحـدث فيه النـاس عن الإنتاج ووسـائله ومقدمـاته وأسبـابـه حيث ذكـرت في ذٰلك مؤلفـات وكتبت أبحاث، وألقيت محـاضرات لكن كل مـا كتب وما قيل إنما يدور حول هذه الكلمات القليلة التي قالها الرسول ﷺ وآلـه وسلم. إن هذه الخمس هي وسـائل الإنتـاج في الدنيـا وهي أسباب السعـادة في الآخـرة، ذلـك أن أيَّ إنتـاج وأي عمـل تشـترط فيـه الجـودة والحسن لا بـد أن يتهيأ لـه الوقت والعلم والمـال واليد العـاملة، فإذا فقـد واحد من هذه اختل العمل ففقد قيمته الذاتية والتجارية.

إنني ـ ويعلم الله وأنا أشرف بقراءة هـذا الحديث وتـدبره ـ لأعجب كـل العجب، بـل أتـألم كـل الألم، وأنــا أعيش واقـع أمتنــا التي تـدّعي الانتساب إلى الإسلام، فكيف لا يؤثـر فيها هـذا التوجيـه النبوي فتكـون مثلاً يحتذى في العمل الدائب المثمر صناعة وتجارة وحياة.

إن أمم الدنيا التي ترقت فأفلحت في صناعتها وتجارتها لا تخـرج أسباب رقيِّها وفلاحها عن هذه التوجيهات النبوية.

إن هذه الأمور الخمسة التي وجهنا للمحافظة عليها سيدنا رسول الله ﷺ، فضلاً عن أنها الوسائل الأولى للإنتاج فهي مع ذٰلك أمانة سنحـاسب على التقصير فيها حساباً غير يسير.

الكنز الأول: عمره فيما أفناه

وأول هـذه الخمسة التي بـدأ النبي ﷺ بها قـولـه: «عن عمـره فيـما أفناه» والمقصود بالعمر هنـا الوقت، والـوقت هو أسـاس النعم، ومن أجل تذكير الناس بنعمة الوقت وحثهم على الانتفـاع به نجـد ربنا تبـارك وتعالى يـذكر الخلق دائـماً باختـلاف الليل والنهـار، وتصريف الـريـاح. ﴿إن في

اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ (يونس: ٦).

والآيات في كتاب الله كثيرة، تلك التي تحث على الانتفاع بالوقت، والاتعاظ بالزمن، والاعتبار بالأمم **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾** (الروم: ٤٢) والآيات في كتاب الله كثيرة تلك التي تأمرنا أن نبادر وأن نسارع ونترك التسويف: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾** (آل عمران: ١٣٣) **﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾** (المؤمنون: ٦١) **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾** (الحديد: ٢١) **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾** (المنافقون: ٩ ـ ١١). ذلكم هو توجيه القرآن، ونجد ذلك كثيراً في توجيهات النبي ﷺ، وقد تقدم لنا نفحات من وصاياه «بادروا بالأعمال سبعاً» «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تستطيعون فإن الله لا يملُّ حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»[1]. ويكفي أنه ﷺ ذكر الوقت في مقدمة هذه الأمور الخمسة التي لا تزول قدما عبد حتى يسأل عنها.

ولقد جاء في الأثر أنه ما من يوم تطلع شمسه إلا وفيه مناد يقول يا ابن آدم أنا يوم جديد وأنا على عملك شهيد فبادر فيَّ إلى الخير فلو غربت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة».

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب ما يكره من التشديد في العبادة ١٨/١٩٩.

إن نعمة الوقت ـ أرشدني الله وإياكم ـ من أعظم نعم الله علينا ففي الحديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1] وإن نعمة الوقت تختلف عن غيرها اختلافاً كبيراً، ذلك أن كثيراً من الحقوق التي وجبت علينا ـ إن فرطنا فيها ـ يمكن أن نقضيها في وقت آخر، ولكن الوقت نفسه لا يمكن أن يعوَّض. يقول ابن عطاء الله ـ رضي الله عنه «حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يَرِدُ إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقضِ حق الله فيه»[2] وهذا كلام في غاية السمو، ذلك أنه ما من وقت إلا وله من الأعمال ما يملؤه، فإذا ضيعت هذا الوقت فإنك ستضيع الوقت الذي بعده كذلك، لأن تضييعك للعمل في هذا الوقت إذا أردت استدراكه في الوقت الثاني فمعنى هذا أنك ستشغل الوقت الثاني في عملٍ ليس له، وستضيع العمل المطلوب في هذا الوقت، لأن الوقت لا يتسع لعملين ومن كلام الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ «الواجبات أكثر من الأوقات» وهذا صحيح، لأن من ضيع وقتاً فقد ضيّع قطعة من حياته لا يمكن تعويضها

أمسِ الذي مر على قربِهِ
يعجز أهل الأرض عن رده

لذلك كله كان أسلافنا ـ رحمهم الله ـ يعز عليهم أن تمر لحظة من لحظات حياتهم عبثاً وسدىً، وهملاً وضياعاً، وكانوا يحثون دائماً ويأمرون وينصحون بالإفادة من الوقت.

قال ﷺ «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب ما جاء في الصحة والفراغ ١/٨٤.
(٢) الحكم لابن عطاء الله ٢/٢٨٨.

قبـل سقمك، وغنـاك قبل فقـرك، وحياتـك قبل مـوتك، وفـراغـك قبـل شغلك»[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بقيـة عمر المـرء ما لهـا ثمن يدرك فيها ما فات، ويحيي ما أمات» وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم».

وقال الجنيد رضي الله عنه، الوقت إذا فـات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت وكل جزء يحصل له من العمر غير خـالٍ من ذلك يتـوصل بـه إلى ملك كبير لا يفنى، ولا قيمـة لمـا وصـل إلى ذلـك، لأنـه في غـايـة الشرف والنفـاسة ولأجـل هذا عـظمت مراعـاة السلف الصالـح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعـمارهم في البطالـة والتقصير، ولم يقنعـوا من أنفسهم لمولاهـم إلا بـالجـدّ والتشمير»[2].

قـال النفري الـرندي عنـد شرح حكمـة ابن عـطاء الله [إحـالتـك الأعـمال على وجـود الفراغ من رعـونات النفس]. قـال: [اذا كـان العبـد متلبسا بحال من أحوال دنياه، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصـالحة وأحـال ذلك العمـل على فـراغـه من تلك الأشغـال وقـال: [إذا تفرغت عملتُ] فذلك من رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وحماقتـه من وجوه:

الأول: إيثـاره الـدنيـا عـلى الآخـرة، وليس هـذا من شـأن عقـلاء المؤمنـين، وهو خـلاف ما طلب الله منـه، قال الله تعـالى: ﴿**بل تؤثـرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**﴾ (الأعلى: ١٧)

والثـاني: تسويفـه بالعمـل إلى أوان فراغـه، وقد لا يجـد مهلة، بل

(١) رواه الإمام أحمد قال المناوي: قال العراقي بإسناد حسن ٢/١٦.
(٢) غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية ٢/٩٦،

يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله، لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض كما قيل:

فما قضى أحد منها لُبانَتَه[1] ... ولا انتهى أربٌ[2] إلا إلى أرب

والثالث: أن يفرغ منها إلى الذي لا يرضيه من تبدّل عزمه وضعف نيته، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أي حال كان، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت، وأن يتوكل على الله تعالى في تيسيرها عليه وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه[3]

قال ابن الفارض في تائيته:

وَعُدْ من قريبٍ فاستجب واجتنب غداً ... وشمّر عن الساق اجتهاداً بنهضة

وكن صارماً كالوقت فالمقت في «عسى» ... وإياك «مهلاً» فهي أخطر علّةِ

وسر «زَمِناً» وانهض كسيراً فحظّ ... ـك البطالة ما أخرت عزماً لصحة

وجد بسيف العزم «سوف» فإن تَجُد ... تَجِد نفساً فالنفس إن جُدتَ جَدَّتِ

---

(١) اللبانة (بضم اللام) الحاجة التي يهم الإنسان قضاؤها.

(٢) الأرب: الحاجة والغاية.

(٣) غيث المواهب العلية ١/١٠٤.

ومعنى كلام ابن الفارض أن الإنسان ينبغي أن يترك التسويف، ولا يترك عمل اليوم إلى الغد؛ لأن غداً إن أتى فإن له ما يملؤه من أعمال، وإن الإنسان ينبغي أن يكون صارماً كالوقت، فإن عسى فيها المقت، وإن أخطر العلل إنما هي في قولك مهلاً، وهي تأجيل ما حقه أن يفعل، وإن حظ المرء البطالة إن أخّر عزمه لوقت آخر، وإنك ينبغي أن تترك كلمة سوف وأن تحاربها ما استطعت، والمقصود من هذا كله ترك التسويف وعدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد. يقول شوقي:

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثواني
فاحفظ لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثاني

إن معادلة الوقت معادلة رئيسة أساسية، لا لدنياك فحسب، وإنما لدنياك وآخرتك، فاحرص على ما ينفعك وهي وصية رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام ما أجدرنا أن نحافظ عليها ونعمل بها: **﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾** (إبراهيم: ٣١)

الكنز الثاني: العلم.

أهمية العلم ومنزلته:

إذا كان الوقت هو الحياة فإن العلم هو أول عنصر من عناصر الحياة، لا تتم الحياة إلا به ولا يستقيم لها أمر ما لم تكن تابعة لهذا العلم، ومن هنا ندرك الحكمة الإلهية والسر الرباني، حيث ذكر الله تبارك وتعالى

في آياته المحكمات خلق آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد الخلق أعظم نعمه عليه وهي العلم. قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣١).

هكذا أراد الله للإنسان أن يمتاز بالعلم حتى على الملائكة، وهذا العلم من رحمته سبحانه ﴿**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**﴾ (الرحمن: ١ - ٣) وهو من كرمه سبحانه كذلك ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ (العلق: ٣ - ٤ - ٥)

وإذا كان العلم بهذه المنزلة الرفيعة فإنَّ لمن أكرموا به درجات عالية رفيعة قال تعالى ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ (المجادلة: ١١) والأحاديث في فضل العلم كثيرة ولو لم يكن إلا قوله ﷺ «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[1] لكفى، حيث جعلت مرتبة العلماء بعد مرتبة الأنبياء.

سر ذكره بعد الوقت:

ولخطورة هذا الأمر ذكره النبي ﷺ بعد الوقت، فكل واحد لا بد أن يحاسب عن علمه ماذا عمل به، ولا بد أن ننبه هنا لأمر مهمّ جداً، ونرجو أن نتنبه له جميعاً، وهذا الأمر نعني به قوله ﷺ «لا تزول قدما عبد» ومعنى هذا أن السؤال عن العلم سيكون لكل أحد، صحيح أنَّ العلماء

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة ٣٧/٣١٣ ج ٢ ص ١٤٤٣. والحديث ضعيف، ففي الزوائد في إسناده علاق بن أبي مسلم.

المتخصصين تكون مسؤوليتهم أكثر من غيرهم، ولكن كل إنسان في هذه الحياة سيُسأل عن الأمور التي علمها وهي كثيرة، والسؤال عن العلم لن يكون امتحاناً كشأن امتحانات الدنيا حتى يرقى الإنسان به من رتبة إلى رتبة، وحتى يحصل على شهادة تكون محل اعتزازه وفخره، بل إن السؤال عن العلم سؤال عن التطبيق العملي كما قال ﷺ «وعن علمه فيما فعل».

ومن هنا ندرك أن العلم ليس في كثرة المسائل حفظاً واستنباطاً، فكثير من هٰؤلاء لا يستحقون اسم العلماء عند الله، وهذا هو العلم الذي لا ينفع ولقد جاء في الدعاء «اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع ونفس لا تشبع ودعوة لا يستجاب لها»[1].

إن كل علم لا يُعمل به وبال على صاحبه لا ينتج إلا البوار والفساد والوبال، قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾** (الجاثية: ٢٣) وقال سبحانه: **﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾** (الجمعة: ٥) وقال سبحانه: **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾** (الأعراف: ١٧٥)

إنَّ السؤال عن العلم يشمل تقصير الإنسان في حقِّ نفسه، وتقصيره في حقِّ غيره، كما يشمل سبل الحياة جميعها الشرعي وغير الشرعي. إن العلم يزكو على الإنفاق، ولمنزلة العلم في الإسلام جعل النبي ﷺ فداء بعض الأسرى في بدر تعليم المسلمين ولا فرق في هذا العلم بين الرجل والمرأة، ولقد وردت أحاديث كثيرة فيها تعنيف لأولئك الذين لا يعملون بما

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر ج ٤ ص ٢٠٨٨ رقم الحديث ٧٣.

علموا، فهم معنفون في الدنيا معذبون في الآخرة.

وقضية العلم تشكل أعظم المشكلات، فهي من هذه الجهة كقضية الوقت، فإذا كان الوقت يضيع سدى ويذهب هباءً، يُقضى في غير نفع، بل الأنكى من هذا يُقضى فيما فيه ضرر، وهذا هو شأن العلم كذلك.

لماذا لا يؤدي العلماء رسالتهم؟

العلماء لا يؤدون رسالتهم، إما لإيثارهم الدنيا، وهذا هو الأهمّ، وإما لأنهم لا يُمَكّنون من ذلك فحلال على غيرهم في مجال السياسة والتربية والإعلام والأخلاق، حلال لغيرهم أن يقولوا أي شيء، أما هم فلا ينبغي أن يقولوا شيئاً.

طلب من أحدهم أن يخطب الجمعة في بلد ما، فقال له أحد المسؤولين: ما هو موضوع خطبتك، قال: وماذا ستكون غير ما تتناقله الإذاعات وتكتبه الصحف، عن فظائع اليهود في فلسطين، وترويعهم للمسلمين في القدس، قال المسؤول: دعك من هذا فإنك مبرز في بعض الموضوعات الفقهية فحدث الناس عنها، واستجاب الخطيب ولبّى رغبة هذا المسؤول.

وطلب من أحدهم إبَّان مذابح صبرا وشاتيلا أن يتحدث في موضوع ما، فكان حديثه عن آداب النوم، ونقلت خطبة الجمعة من مسجد له قدسيته عند المسلمين في أثناء الاعتداء على الأقصى، فكان موضوع الخطبة التحذير من الصوفية. هذا من حيث العلماء الذين أمروا أن يقولوا الحق، والذين أُكرموا بحمل رسالة الدين.

أما غيرهم في شتى المعارف الإنسانية فسل عنهم، إنهم يهاجرون من بلادهم ليقوموا بخدمة المجتمعات الأُخرى، سل عنهم أطباء ومهندسين،

وعلماء ذرة، ومتخصصين في الفضاء، سل عنهم رياضيين وكيميائيين، عشرات الألوف دون مبالغة من جميع الأقطار الإسلامية، وأقول عشرات الألوف؛ لأنهم من حيث الإحصاءات يشكلون عدداً ضخماً، ربما كان من بلد واحد ما ينيِّف على الخمسين ألفاً، إنهم في أمريكا وفي البلاد الأوروبية وبلادنا تشكو من النقص وتئن ضعفاً، ويأتيها الخبير - كما يسمونه - وربما لا يصلح طالباً عند أولئك الأفذاذ من بني جنسنا وديننا وقومنا فنوليه كل اهتمام، ونعامله بما يفوق على التمام، فنرفعه قدراً، ونحله صدراً.

كل هذا وغيره يصدق عليه قول سيدنا رسول الله ﷺ «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل».

إنَّ الأمة إنما يرتفع شأنها بالعلماء الصادقين، فإذا هزلت الأمة فذلك لأن القلب العلمي توقف فيها، وأسلمت قيادها إلى الجهل، وحركة الجهل هوجاء.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لذلك لا نعجب أن يذكر سيدنا رسول الله ﷺ بالعلم بعد الوقت، فما أجدر كل واحد منا أن يقف مع هذه الكلمة النبوية مرتعد الفرائص مرتجف القلب مهيأ الفؤاد؛ لأن من طاب فؤاده طاب علمه، ولذلك نعى القرآن على الظالمين الذين وقفوا من العلم والعلماء موقف العداء، فقال سبحانه: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواءٌ﴾** (إبراهيم: ٤٢ - ٤٣).

الكنز الثالث والرابع: المال.

يسمي الناس المال كنزاً، بل الكنز عندهم ليس شيئاً غير المال، والمال من نعم الله التي جعلها للناس ليقيموا بها أمورهم وليصلحوا بها شؤونهم قال سبحانه: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ (سورة النساء: ٥)

لم خص النبي المال بأمرين؟

ولقد تحدثنا عن المال في خماسيات سابقة، ولكن لحديثنا هنا زاوية أخرى،

لقد خص سيدنا رسول الله ﷺ المال بأمرين اثنين من هذه الخصال الخمس وهما «من أين اكتُسب هذا المال» هذه واحدة، ثم «فيم أُنفق هذا المال» وهذه الثانية. وكل منهما تستحق العناية والوقوف والتأمل، وقد جاء في المستدرك للحاكم أن إبليس قال بعد بعثة النبي ﷺ: سأروح وأغدو عليهم بثلاث وهي أخذ المال بغير حقه وإنفاقه في غير حقه، وحرمان أهله منه»، ولذلك كانت فتنة المال من أخطر الفتن.

وإن كثيرين من الذين جمعوا ثروات كبيرة، جمعوها دون تحرٍ للحلال والحرام، ولقد تقدم لنا قول النبي ﷺ «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا وما بوائقه يا نبي الله، قال غشمُهُ وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار لا يمحو السيّء بالسيّء، ولكن يمحو السيّء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

حكمة الجمع بين الكسب والإنفاق:

ولقد كانت هذه الخصلة الثالثة وهي سؤال المرء من أين اكتسب ماله. ثم تأتي بعد ذلك الرابعة وهي «وفيما أنفقه» سبحان الله! تلكم هي دقة النظام المحكم البديع في دين الله، المساواة بين كسب المال وإنفاقه، فإذا كان اكتسابه ينبغي أن يكون حلالاً، فإن إنفاقه يجب أن يكون صحيحاً كذلك، وإذا كان الإنسان، محاسباً ومسؤولاً أمام الله عن اكتسابه للمال، فإنه مسؤول ومحاسب كذلك عن الإنفاق، ذلك لأن كلا من الاكتساب والإنفاق إذا خرج عن حده، وخرج فيه الإنسان عن الجادة الصحيحة كان ظلماً، ولكن كيف ذلك؟ أليس الذي اكتسب المال من غير حق قد أخذه ظلماً واعتداء على أصحابه وذويه؛ وأنه اكتسبه بغير حق، هذا الاكتساب بغير حق ظلم لأولئك الذين أُخذت أموالهم، ثم إن إنفاقه بغير حق هو منع لمستحقيه وهو في الحقيقة ظلم لهم؛ فالذي اكتسب المال بغير حق ظالم لأصحاب هذا المال، والذي أنفق المال بغير حق ظالم كذلك لمن يستحق هذا المال، والله سبحانه وتعالى يقول: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً»[1]. ويقول سبحانه: **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** (هود: ١٨) ويقول سبحانه: **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل،أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾**

(إبراهيم: ٤٤ - ٤٥).

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة ج ٤ ص ١٩٩٤ حديث ٥٥.

المال في عالمنا اليوم:

إن قضية المال في العالم الإسلامي قضية تدعو إلى الحزن والألم بقدر ما تدعو إلى الجرأة واليقظة. إن اكتساب المال من غير حق، وإنفاقه في غير حق، وحرمان أهل الحق منه ظاهرة مرضية بارزة، وأصل البلاء في ذلك انعدام المسؤولية وسيطرة الهلع والجبن وذلك ينشأ عن ضعف خشية الله تبارك وتعالى في النفوس، وإلا فكيف خص قوم بعسل النحل وكثيرون بلسعه.

إن أمر المال خطير؛ ولذا فقد خُصَّ باثنين من جملة هذه الخمسة، وذلك لما له على المجتمع من تأثير إيجابي أو سلبيّ. لقد جعلنا الله مستخلفين في هذا المال لينظر كيف نعمل، فكيف نجمع هذه الأموال يا ترى ثم أين ينفق أثرياؤنا هذه الأموال؟ سلوا الصحافة الأجنبية ووسائل الإعلام تنبئكم الخبر اليقين،

إن الله تبارك وتعالى أثنى على المحسنين الذين في أموالهم حق للسائل والمحروم، وهؤلاء الذين سوف لا يتلجلجون في الإجابة، لأنهم تحروا الحلال في جمعه، وتحروا رضا الله في إنفاقه «﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام: ٨٢) ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ (المعارج: ٣٥) وشتّان بين هؤلاء وبين من قال الله فيه ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ (التوبة: ٣٥)

إنَّ المال فتنة يفتتن به كثير من أصحاب النفوس الضعيفة ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون: ٩٩)، فأعد نفسك للإجابة على هذين السؤالين: من أين

جمعت مالك وفيما أنفقته؟ وتخفف قبل أن يضعفك الثقل عن الحمل، والسفر طويل، والزاد قليل.

وما المال والأهلون إلا ودائع
وَلَا بُدَّ يَوماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

نسأل الله أن يعصمنا من السوء وأن يرد عنا الأذى، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الكنز الخامس: الجسم:

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (النحل: ١٨) **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾** (الانفطار: ٦ - ٧ - ٨).

هذا هو الكنز الخامس من كنوز الحياة التي منَّ الله علينا بها، وإذا كانت الكنوز السابقة أموراً متصلة بنا فإنَّ هذا الكنز هو جوهرنا، إنه الجسم، إنه ذٰلك الكيان البشري الذي ماز الله به الإنسان من غيره **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** (التين: ٤).

لقد منَّ الله على الإنسان بهذا الكيان البشري ليكون عوناً يستعين به على الخير الذي يبلغه الرضوان وتفتح له به أبواب الجنان، ولقد جعل النبي ﷺ هذا الجسم سبباً من أسباب الخير لهذا الإنسان، فإعانتك أخاك على ما لا يقدر عليه إذا كنت قوي الجسم، إعانتك له صدقة، حملك له على دابته صدقة، إعانتك له في الحمل على دابته صدقة، وبذل سمعك للمنقوص له سمعه صدقة، وبذل بصرك للمنقوص له بصره صدقة، كل سلامى من الناس عليه في كل يوم فيه صدقة، والسُلاميات هي تلك

العظام والأجهزة التي يتكون منها الجسم، لذلك كان جسمك أمانة لا يجوز لك ان تتصرف فيه بما يضعفه عن الحق، ويحرمه القدرة على عمل الخير، ويسلبه لذة القيام بالعبادة، ولذا أباح لك الله من الطيبات بقدر ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأنعام: ١٤١) حرَّم الله عليك أن تنفق قوة هذا الجسم في غير ما أباح الله لك، فلا يجوز لك أن تتناول ما فيه ضرر، ولا يحلّ لك أن تكلفه فوق طاقته، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ومن حكمة الله ورحمته أن رخّص لك في كثير من العبادات من أجل المحافظة على جسمك، فمن كان يضره الماء يتيمم ولا يجوز له أن يتوضأ ويغتسل، والمريض الذي يؤذيه الصوم يجب أن يفطر، والمصلي الذي لا يستطيع الوقوف يصلي جالساً أو مضطجعاً والحج على المستطيع، هذا كله في العبادات الواجبة، فكيف بالأشياء المباحة التي يحدث منها ضرر، ثم كيف بالمحرمات التي يتعاطاها كثير من الناس، فتكون نتيجتها الضعف والعلل المزمنة.

أجنب رجل من الصحابة في إحدى الغزوات وكان به جراحة، فسأل فقيل له ينبغي أن تغتسل، فاستعمل الماء البارد فاستشهد فلما أخبر النبي ﷺ قال: ما لهم قتلهم الله ثلاثاً قد جعل الله الصعيد أو التيمم طهوراً[1] لذلك حافظ الإسلام على الجسم محافظة تامة، وفي الفقه الإسلامي تشريعات كثيرة لمن اعتدى على هذه الجوارح، ولقد شدد الإسلام النكير على من قتل نفسه بحديدة أو غيرها. فاحفظ جسمك من كل ما يسبب له ضعفاً أو مرضاً.

لقد شدّد الإسلام النكير على الذين يعذبون أجسام الناس، وعلى الذين يظنون أنّ أجسامهم ملك لهم فيتصرفون فيها بدون حكمة، من

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ١/١٦٥ في كتاب الطهارة قال الذهبي صحيح.

أجل ذلك كله كان السؤال لكل واحد من الناس قبل أن تزول قدماه عن جسمه فيم أبلاه؟

وهكذا سيسأل الله تبارك وتعالى عن جوارحك فيم صرفتها، وفيم استعملتها، فهل أضعفت يدك ورجلك في فعل الحرام والمشي إلى محرم؟ وهل أضعفت عينك وأذنك في النظر إلى ما لا يحل وفي الاستماع إلى ما لا ينبغي؟ وهل استعملت لسانك وفمك فيما لا يجوز لك؟ وهل أضنيت معدتك في اللقمة المحرمة؟ وأتعبت أسنانك في مضغها؟ وهل اهترأ كبدك بسبب ما حرم الله عليك من المشروبات المحرمة والمطعومات المحرمة؟ كل هذا وغيره مندرج في هذا السؤال عن جسمه فيم أبلاه.

وبعد فما أخطر هذه الخماسية وما أدق الالتزام بها، وما أروعها وما أجمعها لأعمال الخير للفرد والجماعة على السواء وصلًّى الله على من خصه بجوامع الكلم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا وجعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

الخماسية الخامسة عشرة

عن الحارث الأشعري[1] أن النبي ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها يُخسف بي أو أعذَّب فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ «المسجد» وتعدّوا على الشُّرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن.

أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إليّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيّكم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإنَّ الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

---

(١) الحارث بن الحارث الأشعري الشامي وهو يكنى أبا مالك وقد تأخرت وفاته حتى سمع منه أبو سلام (الإصابة ١/٢٧٤)

وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن ادّعى دعوى الجاهلية، فإنه جُثى جهنم فقال رجل يا رسول الله وإن صلّى وصام قال وإن صلّى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله[1]

في هذا الحديث الشريف خماسيتان، وهو بحق من جوامع الكلم لما اشتمل عليه من روائع الأخلاق وفضائل العبادات، وأصول الخير لحفظ الفرد والجماعة، وهو حديث عجيب في ترتيبه كذلك،

فالخماسية الأولى جاءت لتهذيب الفرد وإصلاح نفسه وخلقه، وسمو روحه وفكره، والخماسية الثانية جاءت للمحافظة على الجماعة، وتقوية الملة، وهكذا نجد هذا الحديث الشريف يجمع عناصر العزة وأسباب السعادة، ذلكم أن الجماعة لا تنمو ولا تبلغ هدفها الخيِّر، ولا تُمنح العزة والمنعة إلا إذا كان أفرادها قد منحوا القدرة على التغلب على خطرات السوء، ونوازع النفوس، ونوازع الشيطان، واستطاعوا أن يهذبوا أنفسهم بعد ذلك، بالتحلية بعظيم العبادات.

(١) رواه الترمذي في كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٢٨٦٧/٣ وقال حديث حسن صحيح غريب.

اللبنة الأولى (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً):

وإن مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إليَّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

العبادة فعل ما يرضي الله تبارك وتعالى ولها مراتب ودرجات، وقد حدثنا القرآن الكريم عن قوم يعبدون الله على حرف إن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم فعبادتهم ليست على أساس، وهؤلاء الذين خسروا الدنيا والآخرة وذلك الخسران المبين.

ولقد أمر الله المؤمنين أن يتحروا الحلال في مطعمهم ومشربهم، وأن يشكروا الله تبارك وتعالى إن كانوا إياه يعبدون ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن عبادات الناس ليست سواء ولقد جاء في الكتاب الكريم لفظ العبيد ولفظ العباد وشتان بين الوصفين، فعباد الله هم الذين عبدوه حق العبادة فتبرأوا من حولهم وقوتهم ولجأوا إلى حوله وقوته، فكانت عبادتهم مستكملة لعنصرين رئيسين، فعل ما يرضيه سبحانه، والرضى بما فعل فعلوا ما يرضيه فرضي عنهم، ورضي بما فعلوا فرضوا عنه ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ (البينة: ٨)

الجمع بين العبادة وعدم الإشراك في نصوص القرآن:

وقد ورد الأمر بالعبادة في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ (النساء: ٣٦) وقال عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فاستخلفهم ومكن لهم في الأرض وبدلهم بعد خوفهم أمناً قال عنهم وقد استحقوا هذا الكرم الإلهي ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ (النور: ٥٥) وفي الإجابة

على سؤال سيدنا معاذ رضي الله عنه وقد سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: دلني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني عن النار، فقال يا معاذ لقد سألت عن عظيم ولكنه يسير على من يسره الله عليه تعبد الله لا تشرك به شيئاً[1].

فنحن نرى من هذه النصوص الكريمة جميعها الجمع بين الأمر بالعبادة والنهي عن الإشراك وهذا منتهى الإخلاص وغاية التوحيد التي تصل بصاحبها إلى غاية القرب، فالعبادة صدق التوجه إليه سبحانه وعدم الإشراك عزوف عن كل ما سواه.

العبادة اعتصام بالحق،وعدم الإشراك يأس من التعويل على الخلق.

العبادة فعل كل خير وعدم الإشراك تجنب ما فيه ضير.

أنواع الشرك:

ولقد بُيِّنَ في السنة المطهرة أن الشرك ليس سواءً، فهناك الشرك الذي يخرج من الإسلام ـ نعوذ بالله ـ وهو أن يُعبَد غيره معه، وأن يُنسَبَ إليه سبحانه ما هو بريء منه كالصاحبة والولد والنِّدّ، وهناك شرك آخر وهو الرياء في العبادة، قال تعالى: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** (الكهف: ١١٠) والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك.

وعلى كل حال فإن الشرك أخفى من دبيب النمل، ومن شأن هذا أن ينبه المسلم دائماً إلى خطر الشرك ليتجنبه ما دام له هذه الصور الكثيرة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان.

من الخفاء. إن كثيراً من الأعمال الطيبة في ظاهرها تنقلب وبالاً على فاعلها، لأنها لم تؤد خالصة لله وحده.

مثل من أشرك بالله:

والخماسية التي نشرف بالوقوف أمامها امتازت بما فيها من أمثال كاشفة ليكون الكلام في النفس أوقع، وتكون النفس إليه أكثر قبولاً. والمثل الأول في هذه الوصية منتزع من واقع الناس، وهذا من شأنه أن يكون أكثر وقعاً وأن يكونوا له أكثر استجابة وأشدّ سمعاً، وهذا المثل الذي ذكره النبي ﷺ يغرس في نفس المسلم دعائم العبادة الحقة. لقد قلت من قبل إن آيات كثيرة من كتاب الله أمرت المؤمنين بتخير الحلال من المطاعم والمشارب وبشكر الله تبارك وتعالى إن كانوا إياه يعبدون. نقرأ هذا في قوله سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**﴾ (البقرة: ١٧٢) ويقول جل وعز:
﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (النحل: ١١٤) فشكر النعمة إنمايكون بشكر المنعم بها.

وفي هذا المثل تثبيت لدعائم هذا الشكر، ولنتصور أن أحد الناس استأجر أجيراً، وهيأ له كل أسباب الراحة من مسكن ومطعم ومشرب وملبس له ولأهله وعياله، ثم طلب منه أن يتعهد له ماله وأعماله، ولكن هذا لم يلتفت إلى ولي نعمته، بل جعل كل جهده وعمله لشخص آخر.

إن أي واحد منا يتصور مثل هذه الحادثة يجد فيها من الفظاعة، ونكران الجميل، والخروج على المألوف، وانعدام الذوق وغير ذلك من الصفات السيئة، إن أي واحد منا يجد من ذلك ما يصعب وصفه، وإن أي واحد منا يستنكر ذلك كل الاستنكار ويرفضه ويأباه، ذلك لأنه غاية

الجحود ومنتهى الكفران، إن من يسقيك جرعة ماء أو يطعمك لقمة عيش تظل حياتك كلها مديناً له، ولو أنك فعلت له في مقابلها أضعاف أضعافها، هذا هو ما بين الناس.

إن حق الأبوين على الأبناء عظيم لا يستطيع الأبناء الوفاء به مهما كان بِرُّهم لآبائهم، مع أنَّهم ليسوا إلا سبباً في وجودهم في هٰذه الدنيا، فأين ذٰلك كله من حق الله تبارك وتعالى الذي لا تُحصى نعمه ولا تُحصر آلاؤه، ولا تُعدُّ أفضاله، أنعم عليك بنعمة الخلق، وهيأ لك الجوارح، فلو أنك أردت شكر جارحة منها كل حياتك ما وفيتها حقها، ثم تفضل عليك بأنعم كثيرة: العقل والمال والجاه والزوج والولد، ثم هيأ لك من وسائل الحياة على هٰذِهِ الأرض ﴿**ذٰلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**﴾ (غافر: ٦٤) أفيستحق غيره أن يشكر حق الشكر وأن يُعبد حقَّ العبادة؟ فإذا أردت أن تختبر نفسك لتعلم أأنت من الشاكرين والعابدين، فإني أدلك على علامة ذلك:

فكِّر في نفسك، وفي عواطفك وفي مشاعرك، وآعلم أنَّ علامة شكرك لله أن تتهيأ لك عناصر ثلاثة: الحب والخوف والرجاء، فإذا كان حبك الله لا يدانيه حب، وخوفك من الله لا يدانيه خوف، ورجاؤك في الله تبارك وتعالى لا يشبهه رجاء، فتلك علامة الصدق في شكرك، وعلامة القبول في عبادتك إن شاء الله، حب الله لأنه الذي يستحق المحامد جميعاً، ولأنه هو الذي أنعم عليك بالنعم جميعاً رغم جحودك، والخوف من الله لأنه ذو القوة المتين، والرجاء في الله لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات،

يا من إذا قلت يا مولاي لباني

يا واحداً ما له في ملكه ثاني

أعصي وتسترني، أنسى وتذكرني
فكيف أنساك يا من لست تنساني

الحب والخوف والرجاء، إن هذه الثلاثة هي التي تفتح لك أبواب القبول، وتجعلك في سجل الأبرار فاتق الله وابتغ إليه الوسيلة، حتى تكون من الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه «إن عذاب ربك كان محذوراً».

الوصية الثانية: الصلاة:

«وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصُبُ وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»

كانت الوصية الأولى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وذلك هو باب الأنس الذي تدخله، وبعد الدخول يأتي دور الصعود إلى مراقي الفلاح، ودرجات السعادة، والصلاة هي المعراج الذي ترقى فيه لتبلغ أعلى الرتب وأرفع الدرجات، ومن هنا كانت الصلاة أعظم القربات، ولذلك فرضت في السماوات، كيف لا وقد تعددت فيها أنواع الطاعة، فمن ذكر إلى فكر، ومن خضوع إلى خشوع، ومن تلاوة إلى طمأنينة وحلاوة، من تلاوة قرآن إلى حلاوة إيمان، ومن مناجاة إلى مصافاة.

وقد حدثناك عن الصلاة من قبل في خماسيات سابقة، وبيّنا لك الفرق بين الصلاة وإقامة الصلاة ورحم الله ابن عطاء الله ورضي عنه، فاستمع إليه في حكمه:

«لما علم منك وجود الملل لون لك الطاعات، وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات، ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فما كل مصلٍ مقيم».

«الصلاة مطهرة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب»

«الصلاة محل المناجاة، ومعدن المصافاة فيها تتسع ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها»[1]

وماذا يبتغي المحسنون أكثر من أن يقابلهم الله بإحسانه، فإذا وجهوا إليه وجوههم، وجه لهم وجهه ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام: ٧٩). ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ (البقرة: ١١٥) فما أعظمه من جزاء، وما أحسنها من منّة. توجهك إلى الله في الصلاة غاية العبادة، وإقبال الله عليك بوجهه منتهى السعادة، ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ففي عبادتك مقام الافتخار وفي استعانتك مقام الافتقار، فلا تلتفت في صلاتك، واهنأ من الله بعطاياك وصلاتك ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ (طه: ١٤)

وإذا كنت تناجي الله في صلاتك، فإن الله يناجيك ويناديك عبدي أقم الصلاة لذكري لتأمن عقابي ومكري، وتنعم بثوابي وشكري ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ (النساء: ١٤٧).

في وقوفك بين يدي ربك في الصلاة سعادتك وجنتك، وفي قبوله منك رضوانه وجنته، فمن جنة في أدائك للفرض، إلى جنة عرضها السماوات والأرض. ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ (البقرة: ٤٥).

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ج ١ ص ١٧٢.

الوصية الثالثة: الصوم:

«وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك فكلهم يُعجَبُ أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»

إذا كانت الصلاة جَنَّة، فإن الصوم جُنَّة، «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[1] «والصوم لا مثيل له[2] - كما جاء في الحديث الصحيح، كيف لا والصائم يدع شهوته وطعامه وشرابه، ولذلك خصص الصائمون بباب من أبواب الجنة، وإذا كان الصوم إرضاءً للرحمن فإنه قهر للشيطان، ذلك لأن الشيطان إنما يدخل لك من مداخل الشهوات، وفي الصوم منع له من أن يستحوذ عليك ويصل إليك، وخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وفي الصيام تحقيق لدعائم الإسلام جميعها وغايته كلها، وهي ثلاث: تمتين صلتك بالله تعالى، وتمتين معاملتك للناس، وتهذيبك لنفسك.

وهذه كلها يحققها لك الصوم لذلك كله كان مثل الصائم ما سمعت من حديث سيدنا رسول الله ﷺ كمن معه صرة مسك، كل الناس يحب ريحها الطيب، ولما كان الصائم بعيداً عما يؤذي الناس ممسكاً لسانه، غاضاً لبصره إن سبّه أحد أو شتمه فإنه يقول إني صائم إني صائم، قهر شهوته فقهر شيطانه، فأمات الشر في نفسه، خلوفه أطيب من ريح المسك، وكلامه أحلى من الشهد، طاب قلبه وطابت نفسه وطابت سيرته

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم (فتح الباري ١٠٣/٤). ومسلم كذلك في كتاب الصيام رقم الحديث ١٦١، ٨٠٦/٢

(٢) رواه النسائي في كتاب الصوم، باب رقم ٤٣، ج ٤ ص ١٦٥.

وسريرته، فطاب جَوُّه وبيئته، لذلك كان أطيب من ريح المسك فإذا كان خلوفه عند الله أطيب من المسك فكيف به بين الناس؟

إن الصَّائم يترك الطعام والشراب والشهوة فيضيق على الشيطان كل مسرب، فتشرق في قلبه أنوار الحق ويظهر منه عبق ملائكي طهور، لأنه استطاع أن يتجنب النتن، نتن الشيطان ونتن الشهوة، ونتن الشر، لذلك كان هذا المثل الرائع البديع، إنه لن يحدث منه أذى، ولن تجد فيه إلا طيب الشذى؛ لذلك خُصَّ بإجابة دعوته، ورفع درجته «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» هكذا يقول النبي عليه وآله الصلاة والسلام. فهنيئاً لمن كان صومه صوناً لنفسه، جعلنا الله من هٰؤلاء، وصلَّى الله على سيدنا محمد معلمنا الخير وعلى آله وصحبه وسلم.

الوصية الرابعة: الصدقة:

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم».

أوجب الله على المسلمين أن يتعاونوا فيما بينهم حتى لا تتباعد بينهم قلوبهم، وكلٌّ يبذل من وسعه ولما كان الحرص على المال طبيعة في الإنسان أوجب الله تبارك وتعالى على المسلم أن يكابد نفسه، وأن يغلب حرصه **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** (الحشر: ٩)؛ لذلك كان البخل أدوى من كل داء، وأفتك من كل مرض، وهل داء أدوى من البخل - كما رُوي في الحديث الشريف - لا نعجب إذن أن يكون لبذل المال بعامة وللصدقة بخاصة منزلة في شرع الله تبارك وتعالى **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل**

واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى، إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى﴾ (الليل: ٥ - ١٥).

لذلك كانت الصدقة دليلاً على صدق صاحبها، ولهذا المعنى يقول سيدنا رسول الله ﷺ «والصدقة برهان»[1] وإذا كانت الصدقة تقي صاحبها سعف النّار، والفزع الأكبر؛ فإن من رحمة الله تعالى ومن حسن حظ المتصدق أن جعل لهذه الصدقة ثمرة أخرى، وجزاء قريباً، ذلك الذي يكون له في الدنيا، فإن اللقم ترد النقم، ولقد جاء في الأثر «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

تلكم هي الصدقة، إنها من ضمن الأعمال التي يعجل لصاحبها ثواب الدنيا كبرِّ الوالدين وصلة الرحم، لقد تغلب المتصدق على نفسه وحرصها وشحها، فكان له في ذلك أجر، ولقد سدّ المتصدق حاجة ونفّس كربة عن محتاج ومكروب، وجبر عثاراً، وكسا دثاراً، وأطعم جائعاً، فكان له في ذلك كله أجر آخر، التغلب على شحه ـ إذن ـ له فيه أجر، وإدخال السرور على غيره كذلك له فيه أجر، لذلك كان للمتصدق أجران ثواب في الدنيا وأجر في الآخرة ولأجر الآخرة أكبر. ثم إن أجر الدنيا تتعدد جهاته وتتنوع غاياته، فقد يكون توسعة من الله على المتصدق في الدنيا، وقد يكون وقاية له من سوء، وقد يكون إلباسه ثوب العافية وسربال الصحة، وقد يكون شفاء من مرض «حصّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء»[2]

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الطهارة حديث رقم ١، ج ١ ص٢٠٣.

(٢) قال في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٦٣. رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه موسى بن عمير الكوفي وهو متروك.

ومن أجل ذلك كان هذا المثل الطيب للمتصدق، إن الذي يقع في الأسر لا يرحمه عدوه، ولكن المتصدق نفعه رصيده من الخير، لقد فدى نفسه بما قدّم، وهكذا الجزاء من جنس العمل، قهر نفسه بالبذل والعطاء فكان له عطاؤه نعم الغطاء، يمنع عنه الأذى، ويزيل منه الدرون والقذى، فهنيئا له بما شرى به نفسه، وقد قرن الله بين شراء الأنفس والأموال، فلا عجب أن تكون حال المتصدق من أحسن الأحوال، يجزي الله الباذل خيراً، وإن كان بذله فرضا، فكيف به إذا أقرض الله قرضا؟!

واعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن بذل المال علامة القبول، هاجر سيدنا صهيب ـ رضي الله عنه ـ فكان له في طريقه ما كان حين اعترضه بعض أهل مكة فدلهم على ماله ليخلوا بينه وبين مقصده، فلما وصل ورآه النبي عليه وآله الصلاة والسلام قال: «ربح البيع أبايحيى ربح البيع أبا يحيى»[1] ونزل في ذلك قرآن يتلى ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد**﴾ (البقرة: ٢٠٧).

إن الله تبارك وتعالى بين لنا بياناً شافياً بأن الصدقة هي التي يضاعف فيها الأجر أضعافاً كثيرة تربو على السبعمائة ضعف، ولا يعلم مقدار ذلك إلا الله، فما أجمل العطاء، وما أعظم درجة السخاء ﴿**إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم، ولهم أجر كريم**﴾ (الحديد: ١٨) فالسعيد السعيد من أدرك وفقه قول الله سبحانه ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ (الحديد: ٧) من قبل أن يكون ندم لا ينفع صاحبه وحزن لا يفيد ناحباً،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك /كتاب معرفة الصحابة ٣٩٨/٣. وقال على شرط مسلم ولم يخرجاه.

كان الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ يسير ومعه أحد الناس فمرت بهم جنازة، فسأل الحسنُ صاحبَه: ترى لو خـيِّر هذا أن يـرجع إلى الـدنيا فيتصدق بربع ماله أو ثلثه أيفعل؟ قال له صاحبه: يا أبا سعيد إنه يتصدق بـأكثر من ذلـك إذا ضمن الرجـوع، قـال الحسن ـ رضي الله عنـه ـ ولكن ترى أيرجع؟ قال الرجل: لا، قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ استُحمل مثل ما حُمل؟ قال نعم، قال الحسن ـ رضي الله عنه ما دمت واثقاً من ذلك كله فتصدق اليوم قبل أن تحمل فتتمنى أن ترجع لتتصدق بمالك كله.

ولقد ضرب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أروع الأمثلة فيما قدموه من صدقات، ومن بعدهم من التابعين، والتابعين لهم بإحسان، وهذا هـو شـأن المسلم في كل زمـان ومكان، فـما دام هو مستخلفـاً في مالـه، فلم لا يرضي الله الذي استخلفـه في هذا المـال، ﴿ومالكم ألا تنفقـوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض﴾ (الحديد: ١٠).

أنواع الصدقة:

ثم اعلموا ـ أرشدكم الله وإياي ـ أن الصدقة تصدق أول ما تصدق على العطاء والبذل والنفقة، ولكن هنـاك أنواع أُخـر من الصدقـات، ومن أنواع الصدقة أن تبذل المعروف، وتفعل الإحسان، وتقدم ما تستطيـع من أنواع المعونة، فإرشادك الضال صدقة، وبذلك المعـروف صدقـة، قال ﷺ «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كـل يوم تـطلع عليه الشمس، تعـدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجـل على دابتـه وتحمله عليها أو تـرفع عليهـا متاعه صـدقة، والكلمـة الطيبـة صدقـة، وكل خـطوة تخطوهـا إلى الصلاة صدقة، ودل الطريق صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٨٩١ (فتح الباري ٦/٨٥).

وعن أبي ذر قال: يا رسول الله ذهب بالأجور أصحاب الدثور نصلي ويصلون، ونصوم ويصومون ولهم فضول أموال يتصدقون بها وليس لنا ما نتصدق، فقال رسول الله ﷺ يا أبا ذر ألا أعلمك كلمات تقولهن تلحق من سبقك ولا يدركك إلا من أخذ بعملك؟ قال بلى يا رسول الله قال: تكبّر دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتحمد ثلاثا وثلاثين وتختم بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فأخبر الآخرون بذلك فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنهم قد قالوا مثل ما قلنا، فقال رسول الله ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وعلى كل نفس في كل يوم صدقة، فضل بصرك للمنقوص بصره صدقة، وفضل سمعك للمنقوص سمعه صدقة، وفضل شدّة ذراعيك للضعيف لك صدقة، وفضل شدة ساقيك للملهوف صدقة، وإرشادك الضال صدقة، وإرشادك سائلاً أين فلان فأرشدته صدقة، ورفعُك العظام والحجر عن طريق المسلمين لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة، ومباضعتك أهلك لك صدقة»[1].

وهذه رحمة من الله تبارك وتعالى لأولئك الذين لا يجدون ما يتصدقون به من مال ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ (الطلاق: ٧).

وهناك نوع آخر من الصدقة غير النوعين السابقين، وهو العفو عمن أساء إليك، أن تتصدق على الناس بأخطائهم، فلقد جاء في الخبر أن أحد الصحابة الذين لم يستطيعوا أن يجاهدوا مع النبي ﷺ، لأنهم لا يجدون ما ينفقون، ولم يجد النبي ﷺ ما يحملهم عليه ﴿تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾ (التوبة: ٩٢)«لم يستطع عُلبة

(١) قال في كنز العمال رواه البخاري في تاريخه والطبراني في الأوسط وسنده حسن.

بن زيد الجهاد مع رسول الله ﷺ فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ثم بكى وقال، اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق، فليقم، فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ: أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة»[1]

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

من نال مني أو علقت بذمته ... أبرأته لله راجي منته

كي لا أعوّق مؤمناً يوم الجزا ... أو لا أسوء محمداً في أمته

يقول الإمام رحمه الله: إن الذي أساء إليّ وعلقت بذمته، أي شغلت ذمته بي، إني أبرئه لله تبارك وتعالى راجياً منة الله تعالى، أفعل هذا أعفو عمن أساء إليّ وأتصدق بعرضي عليه، كي لا أعوق المؤمنين يوم الحساب والجزاء، ولكي لا أسوء النبي ﷺ في أمته، فيقال هٰذا من أمتك فعل كذا وكذا، ما أرق هذا الفؤاد وما أرهف هذا الإحساس، وما ألين ذٰلك القلب، وما أروع تلك المشاعر.

(١) البداية والنهاية ٥/٥، قال في الإصابة ٢/٥٠٠ ذكر ابن إسحاق الحديث بغير إسناد وفي كنز العمال ٧/٨٠ رواه ابن منده عن أبي عيسى بن جبر قال كان عُلبة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه رجلاً من أصحاب النبي ﷺ: فلما حض على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وما عنده، فقال علبة بن زيد: إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك، فأمر رسول الله ﷺ منادياً، فنادى: أين المتصدق بعرضه البارحة؟ فقال علبة فقال: قد قبلت صدقتك». وروى البزار عن علبة بن زيد رضي الله عنه عن نفسه قال: حث رسول الله ﷺ على الصدقة فذكر الحديث. قال البزار: علبة هذا رجل مشهور من الأنصار ولا نعلم له غير هذا الحديث.

تلكم بعض أنواع الصدقات:

أولها: بذل المال.

ثانيها: بذل المعروف لمن لم يجد مالاً.

وثالثها: كظم الغيظ والعفو عن المسيء.

فما أوسع فضل الله، وما أعظم كرمه، فعليك بما تستطيع من الصدقة، فإن من صدق الله صدقه.

الوصية الخامسة: الذكر.

«وأمركم أن تذكروا الله فإن ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلاّ بذكر الله»

ذكر الله تبارك وتعالى استحضار عظمته، كما يكون باللسان يكون بالجوارح، وأصله القلب، فإذا ذكر العبد الله في قلبه فاضت أنوار الذكر إلى لسانه وجوارحه، فذكر القلب دوام مراقبته، وذكر اللسان تسبيحه وتوحيده وحمده والتكبير والتعظيم وما يشبه ذلك من أنواع التمجيد، وذكر الجوارح طاعتها لله، ومهما بلغ الذاكرون تحميداً وتمجيداً، وتسبيحاً وتوحيداً، فلن يبلغوا من الثناء على الله تبارك وتعالى إلا اليسير اليسير، كيف لا وسيدنا رسول الله ﷺ يقول: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]. وقد تحدثنا في خماسية سابقة عن الذكر، ووعدناك زيادة نرجو أن يعيننا الله على الوفاء.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ٢٢٢/٤٢ وأوله «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

الفرق بين الذكر والعبادة:

اعلموا ـ أرشدكم الله وإياي ـ أن الذكر من أعظم العبادات التي تقربنا من خالقنا وسيدنا، إلا أن هناك فروقاً نذكر بعضها

فالعبادة لها وقت مخصوص كما تعلمون، نجد ذلك ظاهراً في الصلاة والصيام والزكاة والحج، ولكن الذكر ليس له وقت خاص به، لأن المسلم من حقه أن يكون دائماً مع الله ولأن الله تبارك وتعالى لا يتخلى عن عبده، ومن هذه الفروق أن العبادات محدودة لا يجوز أن تزيد على أربع ركعات في الظهر، وسبعة أشواط في السعي، ولكن الذكر ليس له حدٌّ، بل كلما أكثرت منه كلما ارتفعت وسموت، وكلما أكثرت منه كلما انتفعت ونجوت. الذكر ـ إذن ـ ليس له وقت خاص، وليس له حد خاص.

ولعلك تتوق نفسك إلى فرق ثالث، فاعلم ينفعني الله وإياك بذكره ووفقنا بطاعته وشكره أن كل عبادة لها جزاء خاص بها معلومة الأجر. جزاؤها لذة دنيوية أو أخروية، فقد تكون درجة في الآخرة، أو غرفة من غرفات الجنة، أو تكفير خطيئة، ولكن للذكر جزاء آخر، أتعرفون ما هو؟ إنه أكبر من ذلك كله وخير منه ـ وكل ما عند الله خير ـ إن جزاء الذكر جزاء عظيم، إنه بحق لا يعدله شيء، ولا يدانيه جزاء، أتعرفون ما هو إنه ليس حوراً ولا قصوراً، ولا سندساً ولا حريراً، ولا جنات لا ترون فيها شمساً ولا زمهريراً إنه والله أعظم النعم، وأجلُّ ما يسطره قلم، إنه إكرام من الله، إنه ذكر الله لك، وأي سعادة أعظم، وأي درجة أرفع، وأي فرحة أتم، وأي خير أعم من أن يذكرك خالقك وسيدك قال سبحانه ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (البقرة: ١٥٢).

معنى ذكر الله:

قال ابن عطاء الله السكندري « ومعنى ذكر الله سبحانه لعبده أنَّ من

ذكره بالتوحيد ذكره بالجنّة والمزيد. قال الله تعالى: : «فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار» ومن ذكره باسمه المفرد أعنى (الله) ودعاه بإخلاص أجابه. قال الله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ الاية. ومن ذكره بالشكر ذكره بالمزيد. قال الله تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وما من عبدٍ ذكره بذكرٍ إلا ذكره بما يقابله عوضاً له. فإن ذكره العارف بمعرفته ذكره بكشف الحجاب لمشاهدته. وإن ذكره المؤمن بإيمانه ذكره برحمته ورضوانه وإن ذكره التائب بتوبته ذكره بقبولها ومغفرته. وإن ذكره العاصي باعتراف زلته ذكره بستره وأناته. وإن ذكره الفاجر بفجوره وغفلته، ذكره بعذابه ولعنته وإن ذكره الكافر بكفره وجرأته. ذكره بعذابه وعقوبته. ومن هلّله أجَلَّهُ ومن سبّحه أصلحه. ومن حمده أيده ومن آستغفره غفر له ومن رجع إليه أقبل عليه. فإن أحوال العبد كلها أربعة أحوال منها أن يكون في طاعةٍ فيذكره بروية المنة في توفيقه لها، ومنها أن يكون في معصيته فيذكره بالستر والتوبة ومنها أن يكون في نعمة فيذكره بالشكر ومنها أن يكون في شدة فيذكره بالصبر».[1]

تلكم هي بعض الفروق بين الذكر وغيره، ولمنزلة الذكر كان بعض الصحابة يرون أنه أفضل من كل عمل، من الصدقة وغيرها، ويستدلون لذلك بأحاديث ذكرنا بعضها من قبل، وسنذكر بعضها.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل»[2].

(١) الله القصد المجرد لابن عطاء الله ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الأدب باب فضل الذكر ٣٧٩٠/٥٣ ج ٢ ص ١٢٤٥ والموطأ في القرآن ج ١ ص ٢١١.

وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال: الذاكرون الله كثيراً، قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة(١)

وخرج الطبراني من حديث أبي الوازع عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: لو أن رجلاً في حِجره دراهم يقسمها، وآخر يذكر الله كان الذاكر أفضل»(٢)

وعن أبي الدرداء لأن أقول الله أكبر مائة مرة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة دينار، وروي ذلك كذلك عن سلمان الفارسي.

والمثال الذي جاء للذاكر في الحديث الشريف يدل على ما للذكر من شأن ـ كما قلت من قبل ـ إنه حصن يمنع أحداً أن يصل إليك برمية سهم، وإنما كان الذاكر كذلك لأن التحصن بالله تبارك وتعالى خير ما يصل إليه العبد، اللهم إنا نتحصن بك ونعتصم بك ونلوذ بك ونلجأ إليك ونعتمد عليك ونعوذ بك من شرار خلقك فاكفنا اللهم شر أعدائك وأعدائنا.

إن الذي يذكر الله ويذكره الله يأوي إلى ركن شديد، يعتصم بحبل رشيد. كان الذكر إذن منجياً للذاكر ـ كما جاء في هذا الحديث ـ كان حرزاً له من الشيطان، وهو شرُّ الأعداء.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب أي العباد أفضل عندالله وقال حديث غريب ٥/٣٣٧٣ حديث ٤٢.

(٢) قال في مجمع الزوائد ١٠/٧٤ رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا.

فوائد الذكر:

وللذكر فوائد كثيرة من أهمها كما ذكر ابن عطاء الله رحمه الله خمسٌ وهي رضى الله ورقة القلب وزيادة الخير، وحرز من الشيطان، ومنع من المعاصي.

وهذه الخمس التي ذكرها ابن عطاء الله فيها جماع الخير كله والنجاة من الشر كله، ففي الذكر أعظم الرضى، فأنت حينما تذكر الله تستجيب لأمره، تذكره بإنعامه وجلاله، وفضله وقدرته وجميع أسمائه الحسنى فتنال الرضى كل الرضى، ثم إنَّ ذكرك لله تعالى يجنبك قسوة القلب فيرق قلبك ويلين ويطمئن ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ (الرعد: ٢٨)

وأما زيادة الخير فلأنك كلما ذكرت الله تبارك وتعالى ذكرك الله، وهل هناك خير أعظم من هذا الخير، ثم إن الذكر اعتصام بالله تعالى وفي هذا أعظم حرز من الشيطان كما جاء في الوصية التي نتحدث عنها، ونتيجة ذلك كله منعك من المعاصي، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الآية الكريمة لكفى، قال تعالى ﴿**أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر**﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقد قيل في معنى الآية الكريمة خمسة أوجه:

أحدها: إن ذكر الله تعالى لنفسه، وتوحيده وتعظيمه وتمجيده أكبر وأعظم من ذكر خلقه الضعفاء الفقراء وتوحيدهم له، لأنه هو الغني الحميد.

الثاني: إن ذكر هذا الاسم أعظم من ذكر غيره من أسمائه.

الثالث: إن ذكر الله تعالى لعبده في الأزل قبل كونه أعظم وأكبر إذا ذكره العبد في الحال، وأسبق وأقدم وأتم وأسنى، وأرفع وأشرف وأكرم. قال الله تعالى «ولذكر الله أكبر».

الرابع: ان ذكر الله تعالى في الصلاة أفضل وأكبر من ذكره في غير الصلاة، ومشاهدة المذكور في الصلاة أعظم وأكمل وأكبر من الصلاة.

الخامس: إن ذكر الله لكم بهذه النعم العظيمة، والمنن الجسيمة، وندبه إليكم بدعوته إياكم لطاعته أكبر من ذكركم له بالذكر عليها إذ تطيقون شكر نعمته»[1]

قال إبن عطاء الله في حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز»[2]

وقال: «أكرمك كرامات ثلاثاً، جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكوراً عنده فتمم نعمته عليك»[3]. .

وهذه أقوال تتلألأ فيها الأنوار، فهي بحق تصقل القلب، ففي الحكمة الأولى من هاتين الحكمتين حث لك على أن تديم الذكر، ولا تخدعنك نفسك، ولا يُيْئِسْك الشيطان، فتترك ذكر الله تبارك وتعالى؛ لأنك لا تلمس له أثراً في نفسك، ولا تجد له حلاوة في قلبك، فدم على ذكر الله، وكن من الذين يذكرون الله كثيراً، فإن لله نفحات فعرِّض نفسك لها، فإنك لا تدري أي الأوقات فيه البركة.

(١) الله ـ القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد /لابن عطاء الله السكندري ص ٧٣.
(٢) إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله لابن عجيبة ص ٧٩.
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٣.

وفي الحكمة الثانية يبين لك ما أكرمك الله به من كرامات بهذا الذكر، فذكرك له كرامة وذكره لك كرامة، ذكرك له وأنت تدخل في زمرة عباده ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ (الزمر: ٥٣) ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس: ٦٢) فما أشرف هذه النسبة التي أكرمك الله بها وقد جعلك من عباده وأحبابه وأوليائه وأصفيائه. والكرامة الثالثة ذكرك عنده، وهذا ما أشار إليه حديث النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه، أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1]

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً، هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾ (الأحزاب ٤١ ـ ٤٤).

والذكر أعظم باب أنت داخله
لله فاجعل له الأنفاس حرّاساً

تلكم هي الوصايا الخمس تنير القلب وتهذب النفس، وتزكي الروح وترهف الحس: التوحيد والصلاة، والصيام، والصدقة، والذكر. وآن لنا أن نشرف بالخماسية الثانية في هذا الحديث وهي قوله ﷺ (وأنا

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى «ويحذركم الله نفسه» ١٦/٦٩٧٠ ج ٦ ص ٢٦٩٤.

آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعـة والجهاد والهجـرة والجماعـة فإنه من فـارق الجماعـة قيد شـبر فقد خلع ربقـة الإسلام من عنقـه إلا أن يراجع. ومن ادعى دعـوى الجاهليـة، فإنـه من جثى جهنم فقال رجـل يا رسول الله: وإن صلى وصـام؟ فقال وإن صـلى وصام فـادعوا بـدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله).

الخماسية السادسة عشرة

قوله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهنّ: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام؟ فقال وإن صلى وصام. فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله».

مقارنة بين الخماسيتين:

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه الخماسية يجب أن نقف وقفة تأمل، راجين أن تفجر لنا من هذه الخماسيات العظيمة عين سلسبيل، وأن نهتدي بها إلى أقوم سبيل،

الخماسية الأولى في الحديث الشريف كانت تهذيباً للنفس ـ كما قلنا من قبل ـ وهي ما أخبرنا به سيدنا رسول الله ﷺ عن يحيى بن زكريا وما كان بينه وبين عيسى عليهم سلام الله جميعاً، والخماسية الثانية خص بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته، وفي المقارنة بين الخماسيتين روعة وسمو.

تفكروا ـ أرشدكم الله ـ وأنعموا النظر: الخماسية الأولى كانت أخلاقاً تسمو بالنفس وتطهرها وهي ذات صبغة فردية فكل من العبادة والصلاة والصيام والصدقة والذكر تسمو بصاحبها لتحلّه أعلى الدرجات،

ولكن الخماسية الثانية التي اختصت بها هٰذه الأمة يغلب عليها الطابع الجماعي، وفي ذلك تذكرة للمسلمين ليدركوا أن طبيعة هذا الدين الذي أراده الله تبارك وتعالى مكملاً لغيره من الديانات والشرائع طبيعة شاملة عامة، فإذا كانت الديانة السابقة ذات عناية بشؤون الفرد، فإن الإسلام جاء لرعاية مصالح الفرد والجماعة على السواء، وما ذلك إلا لأن رسالة هذا الدين باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تسمو بالفرد وتهذبه، ولكنها مع ذلك ترعى حقوق الجماعة، فإذا كانت الصلاة والصيام وغيرها من العبادات تبوىء المسلم مقعد صدق عند مليك مقتدر، فإن السمع والطاعة والهجرة والجهاد والجماعة ترشد المسلم إلى أنه لا يعيش لنفسه، وإن هناك تكاليف هي من حق الجماعة وما يعانيه المسلمون في أيامنا هذه من مشكلات ومصائب، وفتن ومعضلات ناتجة عن إهمال هذا الجانب الجماعي.

إن ما يهدف إليه أعداء الدين وأدعياؤه كذٰلك تجريد هذا الدين من الصبغة الجماعية ليبقى كل مسلم في إطار فردي، فهم يحاولون دائماً أن يصوروا الدين بأنه صلة فردية بين الإنسان وخالقه وتفريغ الدين من محتوياته الجماعية جحود وجناية وجريمة وجور وجفاف روح وجنف عن الحق.

وما نسمعه في هذه الأيام من عبارات (تسييس الدين، وتديين السياسة، والتعصب، والتزمت والتشنج) ليس إلا محاولة للقضاء على هذا الدين وتمزيقه وتقزيمه ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره.

إذا كانت مصادر الإسلام الأولى القرآن والسنة، والفقه الإسلامي فيها أحكام الطهارة والصلاة والصيام والحج، فإن هناك أحكاماً كذلك للجهاد والجنايات والحدود، والعلاقات الدوليّة، والمحافظة على أواصر

الجماعة وأحكام الحرب والسلم، والصلح والهدنة، إن دين الله لم يترك ثغرة من ثغرات الحياة، ولا جانباً من جوانبها، إلا ولله ولرسوله في كل ذلك حكم، فما بال السياسة حلال لكل فئة من فئات المجتمع، حرام على دين الله وحملة شريعته، ولكن

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما

إن وصية سيدنا رسول الله ﷺ ترشد المسلمين إلى أنهم لا يجوز لهم المهادنة على دين الله وتبين لهم أن أي قضية من قضايا الحياة حربا أو سلماً، سياسة وفكراً، أسرة وآقتصاداً، تربية وجهاداً تنمية وإعداداً يجب أن تنظر فيها إلى حكم الله أولاً وقبل كل شيء.

وأشد ما يعجب منه المرء ويتفطر له القلب، ويألم له الضمير أن نجد أن عدوّنا هو الذي يخطط لنا لننفذ رغباته وأوامره، إنني على يقين من أن سيدنا رسول الله ﷺ ما ذكر هذه الوصايا الخمس بعد الخمس الأولى إلا ليبينّ للمسلمين ما يجب عليهم أن يبذلوه لهذا الدين فإنهم إنما يبذلون ذلك لأنفسهم.

إن نظرة عجلى إلى الأحداث تجعلنا ندرك دون عناء أن الدم الذي يراق في العالم، أربعة أخماسه دم مسلم، ولو أن المسلمين تدبروا وصية النبي في هذه الخمس التي أمر بها ما كلفهم ذلك معشار هذه المصائب التي تلحق بهم، ﴿**أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون**﴾ (التوبة: ١٢٦) ولنبدأ ببيان الوصايا الخمس التي أمرنا بها النبي ﷺ: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة.

الوصية الأولى: السمع:

والسمع أول مراتب العلم والعمل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا﴾ وقال سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ (ق: ٢٧) وقال سبحانه: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ (الزمر: ١٨)

آداب الاستماع:

«ومن أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى [وهو] أن يكفّ العبد جوارحه أن يشغلها (بشيء) فيشتغل بقلبه (به) عما يستمع، ويغض طرفه لئلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضر عقله فلا يحدّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم أن يفهم فيعمل بما يفهم»

قال بعض الحكماء: «تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلم والوعي في أن يفهموا عنه فيعملوا له بما يفهمون عنه».

وضرب بعض الحكماء مثلاً لذلك كله فقال: إن الباذر خرج ببذره فملأ منه كفّه فبذر، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط الطير عليه فاختطفه، ووقع منه شيء على صفا - يعني حجراً أملس - عليه تراب يسير، وندى قليل، فنبت، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم يجد مساغاً ينفذ فيه فيبس، ووقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك نابت، فنبت البذر، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به، ووقع منه شيء

على أرض طيبة ليس على ظهر طريق، ولا على صفا، ولا فيها شوك، فنبت ونما وصلح.

فمثل الباذر: مثل الحكيم. ومثل البذر: مثل صواب الكلام يتكلم به الحكيم. ومثل ما وقع على ظهر الطريق: مثل الرجل يستمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فلا يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه ومثل الذي وقع على الصفا: مثل الرجل يستمع الكلام فيستمعه ويستحسنه، ثم يفضي إلى قلب ليس فيه عزم على العمل، فينفسخ من قلبه. ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك: مثل الرجل يستمع الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوات عند مواقع الأعمال خنقته، فأفسدته، فترك استعمال ما نوى أن يعمل به، ومثل الذي وقع في أرض طيبة ليس على ظهر طريق، ولا فيها شوك ولا على صفا: مثل الرجل يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فيفهمه، ثم يصبر على العمل به عند مواقع الأعمال ويجانب الشهوات.

قال أبو عبدالله: فلقد ضرب هذا المثل، فما غادر ما يحب الله تعالى، أن يدلّ عليه، مما أدّب به عباده، لأنه أدبهم بالاستماع والإنصات والنية على الطاعة، والصبر عليها، عند مواقع الأعمال ومجانبة الشهوات، والأهواء المزيلة عن الطاعة والمفسدة لها، وإن أدوها بجوارحهم[1]»

السمع لولاة الأمور:

وهذه آداب السمع بصفة عامة، ولكن يظهر أن السمع الذي يقصده سيدنا رسول الله ﷺ هو السمع لولاة الأمور حيث جاء مقترناً

---

(1) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي ٣٣ - ٣٥.

بالطاعة، وقد وردت أحاديث كثيرة يأمر النبي ﷺ المسلمين بالسمع والطاعة، وإن وُلِّي عليهم عبد حبشي[1]، وذكر العبد الحبشي لا يدل على استصغاره أو الانتقاص منه، أو التقليل من شأنه فذلك أمر لا يتصور من أكرم الخلق، وأقربهم من الحق سيدنا رسول الله، لكن ذكر العبد الحبشي كان تعليماً للعرب الذين كانوا لا يسلمون قيادهم لأحد حتى لو كان من جنسهم، فكانت كل قبيلة أو شعب له أميره أو رئيسه الذي يأتمر بأمره، لذلك قال النبي ﷺ ولو كان عبداً حبشياً.

الوصية الثانية: الطاعة.

واعلموا - أرشدني الله وإياكم - أن السمع والطاعة أمر الله بهما تبارك وتعالى، ونعى على الذين لا يلتزمون بهما. قال سبحانه: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾** (التغابن: ١٦). **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** وقال سبحانه ثناء على المؤمنين **﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** (البقرة: ٢٨٥) ونعى على الذين هادوا **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾** (النساء: ٤٦) وقال سبحانه **﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** (النساء: ٤٦).

وقد وردت آيات كثيرة تأمر المسلمين بطاعة الله ورسوله: **﴿قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾** (آل

---

(١) البخاري: ج ٦ ص ٢٦١٢. كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

عمران: ٣٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تـولوا عنـه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالـذين قالـوا سمعنا وهم لا يسمعـون﴾ (الأنفـال: ٢٠) ﴿إن شر الـدواب عنـد الله الصم البكم الـذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولـوا وهو معـرضون﴾ (الأنفـال: ٢٣). وهذه الآيـات الكريمـة تبين لنـا أنّ السماع المأمور به ليس ما تنقله الأذن وتفهمه فحسب، وإنما السماع المأمور به سماع استجـابة ﴿ولا تكـونـوا كـالـذين قـالـوا سمعنـا وهم لا يسمعـون﴾ (الأنفال: ٢١) فالسماع المقبول هو الذي تنتج عنه الطاعة ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ [النور: ٥٢]

أما الطاعة فلا بـد من أن تكون طـاعة منبثقـة من القلب. أما تلك الطاعة التي يتظاهر بهـا اللسان فـلا يعبأ بهـا الله تبارك وتعـالى؛ ذلك لأنها طاعة لم يتدبر القرآن مدّعوها، ولقد بيّن القـرآن الكريم أن الـطاعة الحقّـة هي التي يستجيب فيهـا الطائعـون للنبي ﷺ، ونعى على أقـوام، وبكّتهم وعنفهم، ذلـك لأنهم ادعـوا الـطاعـة بـألسنتهم، ولم يـطيعـوا في قلوبهم، أطـاعوا حـالة حضـورهم، وعصوا في غيبتهم. قـال سبحانـه ﴿من يـطع الـرسـول فقـد أطـاع الله، ومن تـولى فـما أرسلنـاك عليهم حفيـظاً ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل عـلى الله وكفى بالله وكيـلاً أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عنـد غير الله لـوجدوا فيـه اختلافـاً كثيراً﴾ (النساء ٨٠، ٨١) هذه الطاعـة التي آدعاهـا أولئك طـاعة كـاذبة يُظهر أصحابها غير ما يبطنون، ذلك لأنهم لا يتدبرون القرآن ولـو تدبـروه لأثر في نفوسهم ولخشعت قلوبهم، فأولى لهم طاعة وقول معروف. وفي آية أخـرى ينكر القـرآن على أولئـك الذين يـدعون الـطاعة فيقـول سبحـانـه

وتعالى: ﴿ويقولون آمنا بالله بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم آرتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾ (النور: ٤٧ ـ ٥٠) ثم تبين الآيات الطاعة الصحيحة المقبولة ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ (النور: ٥١ ـ ٥٢). هذه هي الطاعة الحقة تلك التي امتزجت مع الخشية فكان في ذلك صلاح الباطن، ومع التقوى فكان في ذلك صلاح الباطن والظاهر كليهما.

تلكم هي الطاعة الحقَّة امتزجت مع عبادتين عظيمتين خشية وتقوى، فكان جزاؤها مكافأتين عظيمتين كما بُيِّن في الآيتين الكريمتين وهما الفلاح والفوز، فهنيئاً لمن أطاع الله ورسوله حق الطاعة فأكرمه الله بخير بضاعة.

الطاعة الواجبة على الإنسان:

ثم اعلموا بعد ذلك أن الطاعة لأولي الأمر ـ وأولو الأمر هم الأمراء والعلماء واجبة ما دامت في مصالح المسلمين، وما دامت بعيدة عن المعصية، ولذلك قال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩) فتدبروا الآية أرشدكم الله حيث ذكرت الطاعة بجانب الله وجانب الرسول ﷺ «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ولم تذكر الطاعة بجانب أولي الأمر، وذكر بدلها كلمة (منكم)، وكل ذلك في الآية الكريمة ليبين الله سبحانه أن طاعة أولي الأمر ليست

مستقلة، وإنما هي تبع لطاعة الله ورسوله ﷺ، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن أولي الأمر الذين ذكروا في الآية لا بد أن يكونوا من جماعة المؤمنين، من الذين يعتزون بإيمانهم، ويحرصون على تنفيذ شعائر الله وإقامة حدوده، ولا يقدمون بين يدي الله ورسوله أمراً، ولا يهتكون لشرع الله ستراً، أولئك هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم الذين لم يعادوا الله ورسوله، ولم يوالوا غير الله ورسوله والمؤمنين. ثم ان هذه الطاعة لا يجوز أن تكون في معصية الله تبارك وتعالى فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولقد جاء في السنة عن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمَّر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم، وقال: أليس قدأمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: قد عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً، فأوقدوا فلما همّوا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذُكر للنبي ﷺ. فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وهكذا كل طاعة يمكن أن تجر صاحبها إلى فعل حرام أو ترك فرض، أو انتهاك عرض، أو التفريط في أرض، طاعة آثمة، ثم إن المسلم - كما يحرم عليه أن يطيع في معصية، فإنه يحرم عليه أن يطيع العصاة. قال تعالى: **﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين﴾** (القلم: ١٠ - ١٤) فيحرم عليك أن تطيع من هذه صفاته وإن كان ذا منصب

(١) البخاري - ج ٦. كتاب الأحكام ص ٢٦١٣ - باب السمع والطاعة للإمام. عن علي رضي الله عنه.

ومـال وسلطة. وقال سبحـانه: ﴿ولا تـطع من أغفلنا قلبـه عن ذكـرنـا واتبع هواه وكان أمره فـرطاً﴾ (الكهف: ٢٨) وقـال ﴿وإن تطع أكـثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ (الأنعام: ١١٦)

وكما تحرم عليه طاعة العصاة، فـإنها تحرم عليـه وعلى المؤمنـين جميعاً طاعة الأعـداء الذين لا يـرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، والـذين لا يألـون المؤمنـين خبـالا، والـذين لا يحبـون لنـا الخـير، أيـاً كـان مـذهب أولئـك الكـافرين، سـواء كـانـوا يـدينـون بـدين كـالكتـابيـين، أم ليس لهم دين كالشيوعيين. قال تعـالى: ﴿يا أيهـا الذين آمنـوا أن تطيعـوا فريقـاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (آل عمران: ١٠٠) وقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنـوا إن تطيعـوا الذين كفـروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم. وهو خـير الناصرين﴾ (آل عمران: ١٤٩).

ثم اعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن الطاعة الحقـة هي التي تهذب النفس وترهف الحسّ، وتطهر القلب، وتجلو اللب وتسمو بها الروح، وتضمد بها الجروح، تلكم التي يشعر فاعلها بـالافتقار إلى الله، أمـا الطاعـة التي تملأ النفس غروراً وتحدث عند صاحبهـا تيهاً وفخـراً، فتلك طاعـةٌ ربما كـانت بعض المعاصي خيراً منهـا، ورحم الله ابن عطاء الله حيث يقـول: «معصية أورثت ذلاً وافتقـاراً خير من طـاعة أورثت عـزّاً واستكباراً».

نسأل الله أن يوفقنـا للطاعة الحقـة، وأن يعيننا لنجتـاز كل مشقـة، اللهم آنقلنـا من ذل المعصية إلى عـز الـطاعـة، وأكـرمنـا اللهم من نبيـك ومصـطفاك بـورود الحوض ونيـل الشفاعـة، ولا تروعنـا اللهم يوم الفـزع الأكبر وصل اللهـم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الوصية الثالثة: الجهاد:

سبب ذكره بعد السمع والطاعة:

وذكر الجهاد بعد السمع والطاعة له دلالات كثيرة، من هذه الدلالات أن المسلمين في سمعهم وطاعتهم يبتغون أول ما يبتغون وجه الله وإقامة شعائر الدين، والذب عن المحرمات.

ومن هذه الدلالات أن أمراء المسلمين لا همّ لهم في إمارتهم، ولا أحب لهم من أن تكون هٰذه الإمارة لإرضاء الله، وليس أرضى له ممن يوجه المسلمين للجهاد في سبيله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

والجهاد في سبيل الله من أعظم القربات، وأرفع الطاعات، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الجهاد وتثني على المجاهدين، وتنعي وتعنف، بل تذمّ وتتوعد المتقاعسين عنه، وفي السنة المطهرة تفصيلات تامة لقضايا الجهاد المتعددة، وبيان وافٍ لما يلحق المتقاعسين عن الجهاد من ذل ومصائب وفتن.

ميادين الجهاد:

والجهاد في سبيل الله يتسع مفهومه وميادينه ليشمل الحرب، والإعداد النفسي، والمادي، والفكري، والروحي وليشمل جهاد النفس والجهاد باللسان. قال سبحانه: **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾** (التوبة: ٧٣) ومعلوم أن جهاد المنافقين باللسان. وقال سبحانه: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾** (العنكبوت: ٦٩) ويقول النبي ﷺ «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1]

(١) رواه الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ١٣/٢١٧٥ وقال حسن غريب من هذا الوجه.

أنواع الإعداد للجهاد:

والإعداد للجهاد مرحلة لا بد منها، فإن الجهاد بدون إعداد دخول للجبهة بدون سلاح وعتاد، وهذا الإعداد أنواع:

١ - الإعداد المادي:

فالإعداد المادي أحد أنواعه وليس كل شيء كما يتوهم بعض الناس. قال الله سبحانه: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾** (الأنفال: ٦٠) وكلمة قوة جاءت منكرة في كتاب الله لتشمل كل قوة، ورباط الخيل إشارة ورمز إلى كل ما عرف فيها بعد من طائرات وصواريخ، وكل ما يحتاج إلى عنايةٍ وتعلم، وكل ما لا بد من أن يكون مهيأً عند المسلمين.

٢ - الإعداد النفسي:

والإعداد النفسي إعداد الأمّة حتى لا تصل إلى اليأس الذي يريد عدوها أن تصل إليه، وحتى لا تبتعد ويشتط بها الطريق فيملأ الغرور عليها كل شيء.

إن الإعداد النفسي هو أن تجنب الأمّة اليأس والغرور، فإن كل ما يبتغيه عدونا أنْ يهيمن اليأس علينا، أو يسيطر علينا الغرور دون أن نأخذ بأسبابه، لقد عشنا هٰذين المرضين، أعني الغرور واليأس.

عشنا صرعة الغرور يوماً، فكنا نظن أن أمر العدو أيسر من أنْ نفكر

فيه، وكنا نظن أننا حينما نهزم العدو بكلمة، فإننا قادرون على أن نهزمه في معركة.

عشنا صرعة الغرور يوم أردنا أن نتجاوز شرع الله، بل أردنا أن نتجاوز الله ورسوله، في طلب النصر على العدو، فكنا نفاخر بتمثال وراية ونغم، وحددنا لدحر العدو أياماً قليلة، وغرقنا في مستنقعات الشهوات، وسكبنا القداح لنحيا نشوة الليل، في صراع مع أشباحه وأرواحنا، وبينما القوم كذلك استغل العدوّ نشوة النّواسيين وهم سكارى نغم اللعوب الطروب (أنت عمري). استغل العدو ذلك كله فضرب ضربته القاضية، فتبدد كل أمل، وانطفأت كل جذوة، كان ذلك سنة سبع وستين وتسعمائة وألف.

وها نحن اليوم نعيش العلة الأخرى والمرض الآخر مرض اليأس، وكاتب هذه السطور الذي تفيض نفسه ألماً وقلبه حزناً وعينه دمعاً، يتفطر أن لا يجد الطريق إلى الجهاد، فكاد الجهاد يصبح كلمة محرمة يعاقب قائلها أكثر من عقاب تجار المخدرات، لقد بلغ العدو ما أراد، وكان الذي يريده أن ينقلب الغرور إلى يأس، حيث تموت النفس، ولكننا ما دمنا نجد في المصحف وفي صدورنا سورة ﴿والفجر وليال عشر﴾ (الفجر: ٢) فلن نمكّن اليأس من نفوسنا، وها هو صوت المؤذن وأنا أكتب هذه السطور يقول «الله أكبر الله أكبر». نعم إننا ما دمنا نقرأ سورة (والفجر) وما دام يجلجل مرتفعاً «الله أكبر، الله أكبر» فخسىء العدو، ومن يسير في ركابه أن يبلغوا غايتهم، ولن تثبت رايتهم، فلا بد لهذه لراية من سقوط، ولا بد لتدبيرهم من حبوط.

إن الإعداد النفسي أن يشعر كل فرد مسلم أنه يعيش فترة التأهب للجهاد، وأنه يقول كما قال آباؤه وأجداده من قبل حينما قال لهم الناس إن

الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فاستوعبوا قول الله وتدبروه ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ (آل عمران: ١٧٥).

٣ ـ الإعداد الفكري:

وهناك نوع آخر من الإعداد وهو الإعداد الفكري، وهو أن تكون شخصية المسلم قوية جادة، يحارب كل إشاعة ويتجنب كل اذاعة يُراد بها أن تشغله عن أهم قضايا الساعة وأن تسلب منه قوته ودفاعه.

الإعداد الفكري كذلك أن لا يكون المسلم إمعة.

الإعداد الفكري أن لا نتبع كل ناعق ونميل مع كل ريح،

الإعداد الفكري أن لا نمكن عدونا أن يهزمنا في ميدان الثقافة.

الإعداد الفكري أن لا نتنكر لتراثنا.

الإعداد الفكري أن نعرف ماذا يدور حولنا،

الإعداد الفكري أن نهضم النتاج العالمي كله فنفيد مما يتفق مع أوضاعنا وأحوالنا، نأخذ زبدته وخلاصته، ونطرح نخالته وزبالته،

الإعداد الفكري أن لا نمكّن عدونا ان يفرض علينا ما يشاء مهما كان في ذلك من أذى.

وما أحرانا أن نأخذ دروساً من أعدائنا الجاثمين على أرضنا، القريبين منا:

واعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن هذه الأنواع الثلاثة من الإعداد أعني المادي والنفسي والفكري، يشترك فيها المسلمون وغيرهم. وهناك إعداد رابع خاص بالمسلمين لا يشاركهم فيه غيرهم، ونعني به الإعداد الروحي.

قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾ (آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠) ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾ (النساء: ١٠٤) وقال سبحانه: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ (محمد: ٣٥) وقال: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: ١٦٠) وقال: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٦٦) وقال النبي ﷺ «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[١]

٤ ـ الإعداد الروحي:

الإعداد الروحي أن يحكم المسلم صلته بخالقه وأن يحسن الاعتماد عليه، وأن يوقن أن النصر والعزة إنما هي فضل منه وحده لا يملكها أحد من الناس.

الإعداد الروحي أن ينمي المسلمون أنفسهم ليكونوا رهبان ليل فرسان نهار، يتسابقون إلى طلب الشهادة، لا تثنيهم عن ذلك دنيا يصيبونها.

(١) رواه البخاري في كتاب التيمم رقم الباب ١ رقم الحديث ٣٢٨

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

الإعداد الروحي أن تسري في عروق المسلم أنوار الآية الكريمة ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصافات: ١٧٣) فإذا تهيأ هذا الإعداد مع غيره من الإعدادات التي هي في حدود إمكانات المسلمين، كان نصر الله الذي هو حق على المؤمنين.

مراتب الجهاد:

ثم اعلموا أن من أول مراتب الجهاد، جهاد النفس، فجهاد النفس قبل الجهاد بالنفس، فإذا جاهدت نفسك، وحملتها محمل الجدّ، وأكسبتها السؤدد والمجد استطعت أن تجاهد بها.

وجهاد النفس ليس منعها الطيبات، ولا تحريم المباحات، إنما جهاد النفس أن تعلم ما لا بُد من علمه،وأن تعمل ما لا بد من عمله، وأن تحب الخير للناس فتدعوهم إليه وتصبر على ذلك.

ومعذرة، فالحديث عن الجهاد لا يتسع له مجلد، هذا إذا أردنا أن نذكر فيه ما ورد في الكتاب والسنّة دون تعليق فإذا أردنا أن نورد أقوال العلماء ونعلق على ذلك بما يحتاج إلى شرح وتعليق، أو بما تكنه صدورنا وما أكثره، فإن الحديث عن الجهاد يحتاج إلى مجلدات، ولكن ماذا تجدي المجلدات والأسفار لمن فقد الجلد، وليس همه إلا أن تحسب ثروته بالأسفار، ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (الصف: ١٠ - ١١)

ويقول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قال: بلى يا رسول الله. قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»[1] فأكرمنا اللهم ومُنَّ علينا برفع راية الجهاد ابتغاء مرضاتك وفي سبيلك.

الوصية الرابعة: الهجرة.

صارت الهجرة علماً على الالتحاق بالرسول ﷺ بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وبعد أن أكرم الله بالفتح الأعظم فتح مكة، وجاء نصر الله والفتح قال النبي ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية.[2]

مدلولات الهجرة:

ولكن بقي للهجرة مدلولاتها في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وهذه المدلولات واضحة في مراميها وأهدافها فإذا لم تكن الهجرة واجبة بعد الفتح إلى المدينة، فقد تكون أمراً لا بد منه إن خشي المسلم أن يفتتن في دينه، أو إذا كان من شأنها أن تقوي شوكة الدولة المسلمة، أو إذا كان من شأنها أن تنشر دين الله في بعض البقاع والأمكنة، إذا خاف المسلم أن يفتتن في دينه - إذن - أو كان في هجرته، تقوية لشوكة دولة مسلمة، أو كان من شأن هذه الهجرة أن يدخل بعض الناس في دين الله، فإن الهجرة أمر لا بد منه.

---

(١) البخاري - كتاب الجهاد - باب فضل الجهاد - والسير ج ٣ ص ١٠٢٦. عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) الترمذي ج ٥ ص ٣٧٢ - كتاب الجهاد - باب ما جاء في أي الأعمال أفضل عن أبي هريرة.

وهناك مدلـول آخر للهجـرة وهي الابتعاد عن الآثـام والمحرمـات، ففي الحـديث الصحيح عن الـرسول ﷺ: المهـاجر من هجـر مـا نهى الله عنه»[1] وقد أخرج الإمام أحمد وغيره واللفظ له «عن عبدالله بن عمـرو بن العـاص قال سمعت رسـول الله ﷺ يقول: الـظلم ظلمات يوم القيـامـة، وإيـاكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإيـاكم والشـح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بـالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا قـال فقام رجـل فقال يـا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: أن يسلم المسلمون من لسـانك ويـدك فقام ذاك أو آخر فقال: يا رسول الله أي الهجرة أفضل، قال أن تهجر مـا كره ربـك، والهجرة هجرتان هجرة الحـاضر والبادي فهجـرة البادي أن يجيب إذا دعى ويطيع إذا أمر، والحاضر أعظمها بلية وأفضلها أجراً»[2]

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الهجرة كـما تفسر بترك الـوطن، فإنها كذلك تفسر بترك المعاصي، وإن ترك المعاصي هي أفضل هاتين الهجرتين، ثم بين الرسول ﷺ أن الإنسان إنما يؤجر بقدر تحمله، ولذلك قال الرسول عليـه وآله الصـلاة والسلام «هجـرة البادي أن يجيب إذا دُعي ويـطيـع إذا أمر» والبادي هو ساكن البادية، فليس له بناء ألزم نفسه الإقامة فيه، فكل ما يجب عليه أن يجاهد إذا دعي للجهاد. ولكن هجرة الحاضر وهو سـاكن المدينة أعظمها بليّة وأكثرها أجراً، لأنـه ألزم نفسـه ببناء يمكث فيـه، ولأن أسباب الفتن أكثر وأنواع المغريـات أشدّ، وكلما كـثرت الفتن والمغريـات، كانت الحاجة إلى الصبر والمقاومة أكثر كذلك؛ لذلك كان الثبات على الـدين

---

(1) البخاري - الإيمان - باب المسلم من سلم المسلمون من لسـانه ويـده ج ١ ص ١٣ رواه عبدالله بن عمرو.

(2) المسند ج ٢ ص ١٥٩.

والبذل، ومقاومة الرذائل، والتغلب على الشهوات في الأمكنة التي يكثر فيها اللهو، ويزداد فيها الفجور، ويتصدر أهل النفاق والمعاصي، أقول كان الثبات على الدين في مثل هذه الأمكنة أدل على الفضل، وأكثر ثواباً، وأعظم درجة فبقدر ما تقاوم الفتن، تستحق أجراً.

ثم أن الهجرة سبب من أسباب رجاء رحمته سبحانه قال سبحانه: **﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ (البقرة: ٢١٨) قال تعالى: ﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾** (الذاريات: ٥٠) فهاجر إلى الله باتباع ما افترض عليك، وترك ما نهاك عنه، وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالاقتداء بسنته وطرح ما أوجب عليك طرحه، فإذا كنت من أصحاب الهجرتين صرت من أصحاب السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة وما ذلك على الله بعزيز.

الوصية الخامسة: الجماعة.

الجماعة رحمة، والفرقة عذاب (عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[1] ذلكم هو هدي سيدنا رسول الله ﷺ.

حرص الإسلام على مبدأ الجماعة.

والانضواء تحت لواء الجماعة، والبقاء تحت رايتها من الواجبات التي لا يعذر فيها أحد ألا ترى أن الإنسان قد يعذر في ترك بعض العبادات، ولكن ترك الجماعة قد يصل بهذا التارك إلى أن يراق دمه.

---

(١) رواه أحمد بن حنبل - ج ٦ ص ٤٤٦ - عن أبي الدرداء.

ومن الـذين أبـاح الإسـلام دمهم: (المرتـد عن دينـه المفـارق للجماعة)[1] ولقد كان سيدنا رسـول الله ﷺ حريصـاً كل الحرص على أن تظل الجماعة المسلمة حصناً منيعاً لا يقدر أحد من الأعداء أن يخترقـه، وأن يكون صفهم مرصوصاً وبقاؤهم متيناً لا يدعون ثغرة لشيطان من شيـاطين الإنس أو الجن، لقد كان النبي عليـه وآله الصـلاة والسلام لا يعجبـه ولا يـرضيه أن يـرى أيَّ تفرق بـين المسلمين، فعن ثعلبـة الخشني قـال: كـان النـاس إذا نزل رسـول الله ﷺ منزلاً تفـرقوا في الشعـاب والأودية، فقـال رسـول الله ﷺ [إن تفـرقكم في هـذه الشعـاب والأوديـة إنمـا ذلكم من الشيطان، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال لو بسط عليهم ثوب لعمهم)[2]

فـانظروا كيف كـره النبي ﷺ لأمته وللمسلمـين هذا التفـرق، حتى هـذا التفرق الـذي لا يصل إلى شغـاف القلوب، فما بـالكم إذا كان هـذا التفرق تتصدع به القلوب ويتساقط بـه البنيان، وتختلف بـه الآراء، وتكثر فيه الأهواء ويشتد به العداء.

إن لزوم الجماعة فرض ليس لمسلم أن يكون له فيـه خيرة من أمـره، ولقد حرص القرآن الكريم على أن تظل للمسلمين جماعتهم وأن يـدب بينهم داء التفرق، فهو يحذرهم مما حل بالأمم من قبلهم **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقـوا واذكروا نعمـة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فـألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾** (آل عمـران: ١٠٣) وقال سبحـانه:

---

(١) أخـرجه البخـاري في كتاب الـديـات بـاب قـول الله تعـالى أن النفس بـالنفس والعـين بالعين.. الخ الآية ٤٥ من سورة المائـدة ٦٤٨٤/٥ والحديث لا يحـل دم امرىء مسلم يشهـد أن لا إله إلا الله وأني رسـول الله إلا بإحـدى ثـلاث: النفس بـالنفس، والثيب الزاني والمفارق لدينه التارك للجماعة.

(٢) سنن أبي داود ـ كتـاب الجهاد ـ بـاب ما يؤمـر من انضـمام العسكـر ـ حـديث ٢٦٢٨ ـ ٩٤/٣.

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ (آل عمران: ١٠٥) وقد امتن الله على النبي ﷺ وعلى المؤمنين بأنه ألف بين قلوبهم وألزمهم كلمة التقوى، وحذرهم من أنّ عدوهم يريد لهم التفرق، ليميلوا ميلاً عظيماً ﴿لا يألونكم خبالاً، ودوا ماعنتم﴾ (آل عمران: ١١٨) ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ (آل عمران: ١١٩)

النتائج السلبية لمفارقة الجماعة:

وفي هذه الخصلة الخامسة لزوم الجماعة يرشدنا سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام إلى النتائج الخطيرة والأمور السلبية لمخالفة الجماعة ومفارقتها.

وأول هذه النتائج السلبية الخطيرة أن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، يعني أن من فارق الجماعة ولو مفارقة يسيرة فقد برىء من ذمة الله ونبذ عهده، والربقة عروة توضع في طرف الحبل توضع في عنق البعير، وقد أضيفت للإسلام فكأن الإسلام حبل وهذه العروة تصل المسلم بهذا الإسلام، فمن فارق الجماعة فقد خلع هذه العروة من عنقه أي قطع جميع العلاقات والروابط التي تربطه بهذا الدين[1] وهذا وايم الله خطير. إن مفارقة الجماعة تشمل أكثر من مجال، فمفارقة الجماعة في الشؤون السياسية كأن يصالح عدواً يوجب الإسلام عداوته أو يبرم عهداً بينه وبينه، فهذه صورة من صور مفارقة الجماعة.

---

(١) وهذه استعارة مكنية تخيلية كما يقول علماء البيان فقد شبه الإسلام بحبل ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهي الربقة، فهي استعارة مكنية تخيلية.

ومن صور مفارقة الجماعة أن يبيح محرماً أجمع المسلمون على تحريمه.
وإن من مفارقة الجماعة أن يبطل فرضاً أوجبه الإسلام.
وإن من مفارقة الجماعة أن يوالي غير المؤمنين ويتخذهم بطانة.
وإن من مفارقة الجماعة أن يختار الرجل أو المرأة أخلاّء وأوفياء من غير المسلمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

إن هذه الحالات كلها من زاولها يكون قد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وهناك صورة من صور مفارقة الجماعة بيّنها الرسول عليه وآله الصلاة والسلام بقوله: «ومن آدعى دعوى الجاهلية» وهذا انحراف فكري آخر ينتج عن مفارقة الجماعة، وهي دعوى الجاهلية، فهناك فسطاطان، فسطاط إيمان وفسطاط كفر، وهناك مبدآن الإسلام والجاهلية، وللجاهلية صور كثيرة متعددة، وسبل معوجة متشعبة **﴿وأن هٰذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** (الأنعام: ١٥٣) فسبيل الحق واحد، وسبل الباطل متعددة، وكلها من الجاهلية **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يؤمنون﴾** (المائدة: ٥١) فمن ترك الجماعة المسلمة من حيث الفكر والمبدأ فإنه قد دعا بدعوى الجاهلية، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم، أي من زمرها وجماعاتها، ودعوات الجاهلية كثيرة: منها دعوات جنسية عرقية، ومنها دعوات فكرية، وكل هذه الدعوات المستوردة، التي شاعت في العالم الإسلامي اليوم سواء تلك التي تقوم على العصبيات الجنسية والقومية، أم تلك التي ترتبط بالأفكار الشيوعية أو الرأسمالية، كل هذه من دعوات الجاهلية، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ حينما سأله حذيفة رضي الله عنه «يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال:

نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

فانظروا إلى هذا الحديث العظيم الجامع الذي يصور أحوال المسلمين خير تصوير، وتدبروا - أرشدكم الله - قول الرسول ﷺ «دعاة على أبواب جهنم» ولم يقل دعاة على باب جهنم، وإنما على أبواب، ومعنى هذا أنهم أصحاب نحل متعددة، ومبادىء مختلفة ودعوات كثيرة، وما أكثرها في عصرنا هذا.

فواجب المسلم - إذن - إذا أراد أن يظل وفياً لدينه أن لا يخلع ربقة الإسلام من عنقه، وعلى المسلم إذا لم يرد أن يكون من جثى جهنم أي من جماعاتها وزمرها أن لا يدعو بدعوى الجاهلية.

قوله ﷺ وإن صلَّى وصام:

والرائع في الحديث الشريف وكله رائع أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام يقول: «وإن صلَّى وصام» ومعنى هذا أنك تجد بعض الناس يقومون بأداء العبادات ظاهراً كالصلاة والصيام ولكن ولاءهم يكون لغير الإسلام ولغير جماعة المسلمين، يصلون ويصومون ولكنك تجدهم أعضاء في بعض النوادي المشبوهة، أو في بعض الأحزاب التي تقوم في جوهرها

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

على ما يناقض الدين، أو يتبنون أفكاراً بعيدة عن تشريعات الإسلام ومبادئه. إن صلاة أولئك وصيامهم لا يغني عنهم شيئاً، هكذا يقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام.

وأخطر ما في هذا قوله عليه وآله الصلاة والسلام في آخر هذا الحديث فإياكم ودعوى الجاهلية فقد سماكم الله المسلمين المؤمنين عباد الله، وهذا قرع لكل القلوب، ووعيد شديد لكل أولئك الذين يستحيون أن ينتسبوا إلى ما أراده الله، إن الله سمانا المسلمين المؤمنين، وإن أي تغيير لهذه التسمية بأي تسمية أخرى إنما هو تمسك بدعوى الجاهلية، وأكثر المسلمين اليوم وغالبيتهم تستحي من هذه النسبة وتترك هذه التسمية إلى تسميات تقوم على العنصرية أو الأفكار البعيدة عن دين الله، ونظرة إلى الأطلس العربي تجد مصداقية ذلك، إنها كلها تنذر المسلمين بمقت الله وتتوعدهم بعقوبته، وتحذرهم من فتن كقطع الليل، وإن صلوا وصاموا وبنوا المساجد، وإياكم ودعوى الجاهلية، فإن من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله.

فهل يسترشد المسلمون بهذا النداء والدعاء، فيغيروا هذه التسميات التي اخترعت لهم، ليستجيبوا إلى نداء الرسول ﷺ الذي أمرهم أن يدعوا بدعوى الله، وأن يبرزوا التسمية التي سماهم الله بها، لقد سماهم المسلمين المؤمنين، فلم تغيب هذه التسمية يا ترى عن إعلامنا وعناوين دولنا ومؤسساتنا وشعوبنا؟ **﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون. عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾** [النور: ٦٣]

ذلكم هـو الحديث العـظيم الذي اشتمـل على خمـاسيتين عـظيمتين إحـداهما تصلح الفـرد وتهذب نفسـه، وهي التـوحيـد والصـلاة والصيـام والصدقة والذكر، والثانية ترتفع بالجماعة لتكون قوية الشوكة شديدة المنعـة مـرتفعة البنيـان، شديـدة الأركان وهي السمـع والطاعـة والجهاد والهجـرة والجماعة فصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه والتـابعين لهم بإحسان وجزى الله سيدنا محمداً خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه وجعلنا من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه.

الخماسية السابعة عشرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، وآستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1].

عناية الإسلام بتكوين شخصية الفرد:

هذه الخماسية اشتملت على ما ينفع المسلم في المحافظة على شخصيته حتى لا تنحرف به السبل، ولا تنجرف به الأهواء، ذلكم أن الله تبارك وتعالى يحب لعبده المسلم أن يكون نسيجَ وحده يمتاز عن غيره من الناس في كل مظهر من مظاهر الحياة، وكذلك الرسول ﷺ لم يترك صفة من الصفات الطيبة إلا وحث المسلمين عليها وأمرهم بها، وعلى العكس من ذلك، فليست هناك صفة لا تُحمد إلا وحذر ﷺ المسلمين منها، وذلك كله من أجل أن تكون للمسلم شخصيته القوية الكريمة.

والذي يتدبر الكتاب الكريم ويتأمل السُّنة المطهرة يستطيع بكل يُسْرٍ وسهولة أن يجمع مئات الآيات ومئات الأحاديث التي من شأنها أن تعمل على تكوين شخصية المسلم. شخصية تكون قوية على المقاومة في كل

(١) رواه مسلم في كتاب القدر /باب في الأمر بالقوة/ ج ٤ ص ٢١٥٢ عن أبي هريرة.

ميادينها، مقاومة الشيطان، ومقاومة العدو، ومقاومة الشهوة، ومقاومة الأهواء. هذه الصفات الكثيرة مبثوثة في القرآن كله، في أحكامه وقصصه. في أمثاله وتشريعاته. فهو يحب من عباده الأقوياء، قال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائم**﴾ (المائدة: ٥٤). وقال: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً**﴾ (الصف: ٤). وكافأ الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله بأن: ﴿**كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه**﴾ (المجادلة: ٢٢)، وأمر عباده أن يأكلوا من الطيبات وأن لا يحرموا ما أحل الله لهم، وأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وحدثنا عن الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى، والذين ربط الله على قلوبهم ليثبتهم على الحق، حدثنا عنهم بقوله: ﴿**فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيها أزكى طعاماً، فليأتكم برزق منه وليتلطف، ولا يشعرنّ بكم أحداً**﴾ (الكهف: ١٩). فهم مع إيمانهم وورعهم يتصفون بأجلّ الصفات. يتخيّرون الطعام الأزكى، ويتصفون بالحذر واليقظة والوعي. وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿**وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحداً**﴾. أليس في ذلك كله تعليم لهذه الأمة كي تكون يقظة حذرة، لا تترك آخرتها لدنياها، ولكنها مع ذلك لا تترك دنياها لأعدائها.

ولقد حدثنا الله تبارك وتعالى في معرض الثناء على عباده الذين لم تغرهم شهوة، هؤلاء الذين صرف عنهم السوء والفحشاء، ومنّ عليهم بالإخلاص.

والرسول عليه الصلاة والسلام كانت سنته الطاهرة كلها توجيهات

للمسلم ليكون ذا شخصية كريمة، ففي مجال المظهر العام لا يرضى من ذلك الذي جاء ثائر الرأس، ويشبهه برأس شيطان[١]، ويأمر المسلمين بأن يصلحوا أنفسهم ورحالهم وهم يقبلون على إخوانهم، حتى يكونوا كأنهم الشامة في حسنها وجمالها[٢]، ويتوعد أولئك الذين لا يعنون بنظافة أجسامهم وأيديهم[٣]، ويأمر المسلمين بإصلاح بيوتهم وأفنيتهم ولا يتشبهوا بيهود[٤]، وينهى أن يجعل المسلم من نفسه أضحوكة أو أن يفعل شيئاً يجعل الناس يلوكونه بألسنتهم، فينهى أن ينتعل أحدهم نعلاً في إحدى رجليه ويترك الأخرى.[٥] كما ينهى ﷺ أن يكون المسلم سبباً فيما يؤلم

---

(١) روى مالك في الموطأ في كتاب الجامع، باب إصلاح الشعر عن عطاء بن يسار قال؛ كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده آخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ (أليس هذا خيرٌ من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان). شرح الزرقاني /ج٥ ص ٣٧١.

(٢) روى أبو داود في سننه في كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار ٢٧/ ٤٠٧١، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنكم قادمون عل إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش).

(٣) روى أبو داود في سننه في كتاب الأطعمة، باب في غسل اليد من الطعام، ٥٥/ ٣٨٣٤ عن رسول الله ﷺ قال: (من نام وفي يده غَمَرٌ ولم يغسله، فأصابه شيء فلا يلومنّ إلا نفسه).

(٤) روى الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، ٤١/ ٢٨٠٠ عن سعيد بن المسيب: إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أراه قال: أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود) وقال: هذا حديث غريب، وخالد بن الياس يُضَعَّف.

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، ليُنعِلْهُمَا جميعاً أو ليُحْفِهِمَا جميعاً). الترمذي /كتاب اللباس/ باب ما جاء في كراهية المشي في النعل الواحدة. ج ٦ ص ٨٣.

غيره، فلا ينبغي لأحدٍ أن يظهر بمظهر يؤلم الفقراء، ولا يجوز لاثنين أن يتناجيا ومعهما ثالث.(١)

وبالجملة فإنه عليه وآله الصلاة والسلام بيّن في سنته الطاهرة ما يقي المسلم شر الانزلاق حتى يكون حصناً حصيناً، وقلعة منيعة يتهيّبه كل عدوٍّ حاقدٍ، وخصمٍ ألدّ، وجبار عنيد. ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ (الحشر: ١٣).

الصفة الأولى: المؤمن القوي.

وإن أجمع صفة لما يحقق ذلك هي القوة، وهذه هي الصفة الأولى في هذا الحديث: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

معنى القوة:

قال الإمام النووي رحمه الله: (والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس، والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها ومحافظة عليها ونحو ذلك. وأما قوله ﷺ: (وفي كل خير) فمعناه: في كلٍّ من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات)(٢).

---

(١) عن عبدالله رضي الله عنه قال النبي ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجل أن يحزنه) البخاري /كتاب الاستئذان/ باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة. ج ٥ ص ٢٣١٩.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦. ص ٣١٥.

ومن هنا نعلم أن القوة تمنح صاحبها شعاباً كثيرة من شعاب الخير، وتفتح له أبواب السعادة في الدنيا والآخرة، وليس القوي إذن هو الذي يكون صلفاً أو جلفاً. إن المؤمن القوي هو الذي يسرّك حاله في كل شيء. ففي عبادته تودّ أن تستطيع اللحاق به، وكذلك في معاملته وقوله الحق، لا تحمله قوته على النيل من الضعفاء. هذا الطراز من الأقوياء الذين أحبهم الله تبارك وتعالى نجد أمثلة لهم كثيرة في كتاب الله. قال سبحانه: ﴿**قالت إحداهما يا أَبَتِ استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ (القصص: ٢٦) وقال سبحانه: ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ (يوسف: ٥٥). وقال جلّ من قائل: ﴿**فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض**﴾ (هود: ١١٦).

واعلموا أرشدكم الله أن القوة قد تكون سبباً من أسباب الطغيان ـ كما قلنا من قبل ـ. وذلك حينما تحدثنا عن أسباب الطغيان في خماسية الاستقامة، ذلك لأنها قوة منفصلة عن الإيمان، والحديث الذي معنا: (المؤمن القوي).

أنواع القوة:

ونتيجة القول إن القوة في كتاب الله وسنة رسوله ذكرت تارة في معرض الذم، وذلك لأولئك الذين تجردوا عن الإيمان، وبغوا وطغوا في الأرض، وغرّتهم نفوسهم. ومن هذا الطراز حديث القرآن عن عاد قوم هود حينما استكبروا في الأرض بغير الحق: ﴿**وقالوا مَنْ أَشد منّا قوة**﴾ (فصلت: : ١٥). تلكم قوةٌ خيرٌ منها الضعف، لأنها لم تنتج لأصحابها إلا البوار والدمار.

وهناك نوع آخر من القوة قريب من هذا النوع، ونعني بها تلك القوة التي لا تعتمد على فكرٍ سويّ، ولا منطق مستقيم قوي، بل هي قوة تنبعث من شعور يهيمن على النفس، مبعثه قوة العضلات أو كثرة العدد. وتمثل لهذا الطراز بملأ ملكة سبأ، هؤلاء الملأ الذين جمعتهم هذه المرأة لتفيد من آرائهم، ويشيروا عليها بصائب أفكارهم، وليفتوها في أمرها كما قالت، ولكن القوم كانوا خُلْواً من ذلك كله، ليسوا من أصحاب الرأي ولا ذوي المشورة، ولنستمع إلى الآيات الكريمة **﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ آفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾** (النمل: ٢٩ - ٣٤) صحيح أن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على الشجاعة والجرأة، ولكن المرأة لم تجيء بهم لهذا وإنما جمعتهم ليفتوها في أمرها، ولكن ماذا كان منهم؟ لم يزيدوا على أن رجعوا الأمر إليها فما عليها هي إلا أن تفكر وتأمر وتنظر، تلك قوة لا تغني كبير غَناءٍ عن أصحابها.

وإذا نحن قرأنا التاريخ أدركنا الفرق بين أولئك الملأ، وبين الذين تربوا على مائدة القرآن وعلى مأدبة النبوة: الذين علمهم الله ورسوله ﷺ أن ينافحوا عن الحق، وأنْ يفقهوا كل ما يدور حولهم، والسيرة المطهرة فيها كثير من الشواهد على ما كان يتمتع به المسلمون من حصافة في العقل، وسداد في الفكر مع تهذيب نفس وشدة بأس. أنشد يوماً أمام االنبي ﷺ النابغة الجعدي رضي الله عنه:

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خـيـر في جـهـل إذا لم يـكـن لـه
حـلـيـم إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

فقال ﷺ لا يفضض الله فاك، قال الراوي: فنظرت إليه فكأنّ فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلّت ترف غروبه»[1].

وهناك معرض آخر ذكرت فيه القوة وهـو معرض المـدح، والله يحب من عباده القـوي الأمـين الـذين قـوي صـبرهم وتحملهم هٰؤلاء الـذين يستمدون من قوة الله تعالى ما يرتفع بكيانهم، هٰؤلاء الذين يرتفع بهم علم الـدين، وتنـير بهم الحيـاة، وتخمـد بهم الفتنـة، ويخنس الشيـطان، هٰؤلاء الذين سما بهم إيمانهم، ففقهوا قول الله سبحانـه: ﴿**ولا تهنوا ولا تحـزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنـين**﴾ (آل عمـران: ١٣٩) هٰؤلاء الـذين أكرمهم الله بقوة الإيمان، فانعكست هذه القوة على حياتهم في كل مضمار، هٰؤلاء الـذين هم أحبُّ إلى الله «المؤمن القـويّ خَـيْرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

كيف يكون في الضعيف خير والضعف لا يليق بالمسلم؟

وقد تتساءلون هنا: كيف نفهم الحديث الشريف وهو قـول الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ؟ إن الحديث يبين أن المؤمن القوي والضعيف كلاهمـا فيـه خير وكـلاهما يحبـه الله، إلا أن المؤمن القوي يحبـه الله أكثر من المؤمن الضعيف، ونحن نعلم أن الضعف لا يليق بـالمسلم؟ وهـو تسـاؤل حقيق بالتقدير، حري بالبحث، جدير بالتأمل.

---

(١) انفلّت: أي ولا انثلمت له سن. (ترف غروبه) تبرق ثناياه وغروب الأسنان هي مناقع ريقها وأطرافها وحدتها وماؤها وصفاؤها، والبرد المنهل: المتساقط.
قال في المجمع ج ٨ ص ١٢٦ رواه البزار وفيه يعلى بن الأشدق وهو ضعيف.

أقسام الضعف:

فاعلموا ـ علمنا الله جميعاً ـ أن الضعف قد يكون ضعفاً جبلياً ليس للمرء فيه دخل وشأن وقد يكون ضعفاً ناشئاً عن خور في الهمة، أو مرض في الإرادة، فالضعف الأول ونعني به الذي ليس للإنسان فيه دخل ولا إرادة ولا سبب لا يؤاخذ فيه المسلم، وذلك كأن يكون ضعف في العقل أو في الجسم نتيجة مرض أو عاهة أو آفة، هذا ضعف لا يُلام صاحبه. أما الضعف الآخر وهو الذي يكون نتيجة فتور في الهمة وخور في الإرادة فذلك ضعف يلام صاحبه.

الفرق بين الضعف والاستضعاف:

إذا عرفتم هذا فينبغي أن نفرق بين الضعف والاستضعاف، فالضعف ما لم يكن لصاحبه فيه سبب، والاستضعاف هو الذي يكون نتيجة جبن أو شح، أو خوف أو طمع،

إن كثيرين يضعفون لأنهم يخشون على مركز أو منصب أو على نقص ثروة أو التعرض إلى بلوى، هؤلاء المستضعفون الذين وجّه لهم القرآن اللوم والذمّ **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾** (النساء: ٩٧ - ٩٩) وهؤلاء المستثنون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة هم الذين لا يؤاخذهم الله تبارك وتعالى.

خلاصة القول ـ إذن ـ إن الضعف إذا لم يكن للإنسان فيه دخل وكان إن أصاب من أولئك الذين لا يستطيعون حيلاً ولا يقدرون على تصرفٍ ما، فهم الذين يحبهم الله تبارك وتعالى وهم الذين فيهم خير، أما

أولئك الضعفاء الذين اختاروا هم الضعف من أجل لعاعات الدنيا فآثروا العاجلة على الآجلة، وأعطوا الذلة من أنفسهم، فهؤلاء ليسوا ممن يحبهم الله تبارك وتعالى. ألم تروا أن الله جعل الناس أصنافاً، وبيّن درجة كل صنف منهم، وذلك في قوله سبحانه قبل الآية التي تلوناها من قبل من سورة النساء ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ (النساء: ٩٥ ـ ٩٦) فالذي أفهمه من الآية الكريمة أنها ذكرت أصنافاً ثلاثة من الناس.

الصنف الأول: المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء أفضل الأصناف.

الصنف الثاني: القاعدون من أولي الضرر الذين أقعدهم عن الجهاد أعذارهم، ولقد فضل الله المجاهدين على هذا الصنف درجة واحدة، وكلا وعد الله درجة الحسنى، ألا ترون ـ رحمكم الله ـ أن هذا قريب بل شبيه من الحديث الذي معنا «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» فكلا الصنفين يحبها الله وكلا الصنفين فيه خير إلا أن أحدهما أحب إلى الله من الآخر، وكذلك الآية الكريمة بينت أن الله فضل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة وكلا وعد الله الحسنى.

أما الصنف الثالث في الآية الكريمة؛ فهم القاعدون بلا عذر أي من غير أولى الضرر وهٰؤلاء فضل الله المجاهدين عليهم ليس درجة واحدة كما

هو شأن الصنف الثاني، ولكن ما أكثر ما فضل الله به المؤمنين على هٰؤلاء ولنتدبر «وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة».

إذن هذه أمور أربعة فضل بها المؤمنون على الصنف الثالث القاعدين من غير ضرر:

أولاً: أجراً عظيماً: ومعنى هذا أن القاعدين حرموا من هذا الأجر.

ثانياً: درجات لا يعلمعددها إلا الله، وما أبعد الفرق بين الدرجة والدرجة.

ثالثاً ورابعاً: مغفرة ورحمة: ومعنى هذا أن هٰؤلاء القاعدين عن الجهاد لا تنالهم المغفرة، ولا تغشاهم الرحمة ونرجو أن تكونوا قد أدركتم الآن الضعف الذي عناه النبي ﷺ في الحديث الشريف، إنه الضعف الذي لا يلام صاحبه عليه؛ لأنه ليس سبباً فيه، أما الضعف، الآخر الذي يكون نتيجة جشع، وحرص على الحياة، فلا يندرج في الحديث الشريف الذي معنا وسيأتي لذلك مزيد تفصيل إن شاء الله في خماسية أخرى عند بيان النبي ﷺ لصفات أهل النار «الضعيف الذي لا زَبْر له»(1)

الصفة الثانية: احرص على ما ينفعك:

سببذكر الحرص بعد القوة.

لما كان الحرص على الحياة من أهم الأسباب التي تضعف القوة أو

(1) مسلم ـ كتاب الجنة ـ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ـ ج ٤ ص ٢١٩٨ عن عياض المجاشعي

تذهب بها ذكر النبي صلَّ الله عليه وآله وسلّم الحرص بعد بيان شأن القوة التي يحبها الله، والحرص من الأمور التي لا تكاد تفارق أحداً من الناس، ولذلك يقول النبي ﷺ «يهرمُ ابنُ آدم وتشب فيه اثنتان: الحرص على المال، والحرصُ على العمر»[1]. ومن صفات المؤمنين التي ذكرها أحد قادتهم - رضي الله عنه - أنهم يحرصون على الموت كما يحرص عدوهم على الحياة، ومن أوصاف اليهود في القرآن ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة**﴾ [البقرة: ٩٦]، لذلك لا نعجب إن كان الحرص من المثبطات والمعوّقات التي تحول بين الإنسان وبين معارج الرقي ومصاعد الفلاح.

تهذيب الإسلام لغريزة الحرص.

ومن روعة الإسلام وعظمته أنه لم يحارب الأمور الفطرية في الإنسان، بل هَذَّبَها لتكون فيما ينفع ولا يضر، وهذا يظهر في كل شأن من شؤون الحياة، ومن هذه الأمور الحرص، فإذا كان من شأن الإنسان أن يكون حريصاً فينبغي أن يكون حريصاً على ما ينفع، والنفع والضرر لا يخضعان لشهوة الإنسان ورغباته بل لما بيّنه الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان.

إن ما ينفع الإنسان صلاحه وتقواه وعمل الخير الذي يظهر أثره في الإنسان وفيما حوله، فقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «احرص على ما ينفعك» توجيه للحرص في طريقه الصحيح ومساره المستقيم، فالعمل الطيب الذي يقصد به وجه الله تبارك وتعالى سواء كان أثر ذلك العمل يعود على الإنسان في الدنيا أم يُدخر له في الآخرة، ومن الدعاء الذي كان النبي ﷺ حريصاً عليه بعد كل صلاة، ووجه المسلمين كذلك

---

(١) مسلم - كتاب الزكاة باب كراهة الحرص على الدنيا - ج ٢ ص ٧٢٤ - عن أنس.

ليحرصوا عليه» اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[1] والجد هو الحظ والجاه والغنى لا ينفعه شيء من ذلك كله إذا لم يوفقه الله سبحانه ليوجّه ذلك كله في مرضاة الله، أي لا ينفع صاحب الغنى منك يا رب غناه، ولا ينفع صاحب الجاه منك جاهه، وإنما ينفعه ذلك إذا كنت غايته، لذلك كان المؤمن حريصاً على ما يرضي ربّه، فالمال الذي وهبه الله تبارك وتعالى ينبغي أن يكون صاحبه حريصاً عليه، فلا يسرف في نفقته ولا يبذره، إنما ينفقه فيما يحب الله ورسوله؛ لذلك كان الإنفاق على الفقراء خيراً يبتغي المسلم فيه النفع والأجر، وكان الإنفاق على النفس والأهل كذلك، والأولاد الذين منّ الله بهم على الوالدين ينبغي أن يكونا حريصين على تربيتهم تربية صحيحة وتنشئتهم تنشئة فاضلة، وقل مثل ذلك في العلم والجاه والرأي والجسم، وغير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليك. وأعظم النعم نعمة الإيمان والإسلام لذلك كان الحرص عليها ينبغي أن يكون أكثر من الحرص على غيرها، فعلامة المسلم الصادق حرصه على دينه حتى لا تلعب به الأهواء ولا تتفرق به السبل.

الكليات الخمس والأمر بالحرص عليها:

إن هناك كليات خمساً أمر الإسلام بالحرص عليها وحفظها، ونهى عن التفريط فيها، وهذه الكليات هي الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال؛ فلقد حرم الإسلام الاعتداء على النفس سواء كانت نفسك أم نفس غيرك، كما حرم كل ما يذهب العقل ويزيله من المسكرات والمفترات، وحرم الزنا ومقدماته لأن في ذلك إضاعة للأنساب، وحرم

(١) البخاري: الدعوات ـ باب الدعاء بعد الصلاة ـ ج ٥ ص ٢٣٣٢ عن المغيرة.

إضاعة المال بدون حقّ، وكان الدين أرفع هذه الأمور منزلة، لأنه كالأصل لها فمن حافظ على دينه كان محافظاً على عقله ونفسه وماله ونسبه، هذه الكليات الخمس يوجهنا الإسلام توجيهاً صحيحاً للمحافظة عليها، وإذا كان لا بد من الحرص فينبغي أن يكون هذا الحرص على هذه الأمور الخمسة «فاحرص على ما ينفعك، ولا تفرط في شيء منه» حافظ على نفسك من كل ما يضعفها عن العبادة وعن عمل الخير، واحرص على مالك من كل ما يعرضك لسخط الله تبارك وتعالى في إنفاقك، واحرص على عقلك حتى لا تكون عضواً أشل في هذه الحياة، واحرص على نسبك وأنساب الناس حتى يظل المجتمع نظيفاً خيِّراً صالحاً، واجعل ذٰلك كله في خدمة هذا الدين وعلو شأنه ورفع رايته، فإن أشد المصائب المصيبة في الدين.

احرص على ما ينفعك، ودع الحرص على مالا نفع فيه **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾** [النحل: ٩٦]

الصفة الثالثة: واستعن بالله:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

إن إمدادك بالقوة، وتوجيهك للحرص على ذٰلك لا يتم لك إلا بعونٍ من الله تبارك وتعالى، ألا ترى إلى قوله سبحانه في أفضل سورة من كتابه وهي السورة التي لم ينزل مثلها في كتبه جميعاً سورة الفاتحة، ألا ترى إلى قوله سبحانه في واسطة عقد هذه السورة: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** (الفاتحة: ٤) وهذه الآية الكريمة هي غاية ما يتطلبه المؤمنون أن يوفقهم الله تبارك وتعالى لعبادته وللاستعانة به، يقول النبي ﷺ لابن

عباس رضي الله عنهما: «يا غلام، إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فآستعن بالله، وآعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1]

الاستعانة لا تكون إلا بالله:

وكل من الآية الكريمة والحديث الشريف يدلّ على أن المؤمن لا ينبغي أن يستعين إلاَّ بالله تبارك وتعالى، ولقد تظاهرت أقوال الأئمة وتواترت على أن من علامة المسلم الصادق أن يتوجه فيما يعنيه إلى الله تبارك وتعالى، لأن من استعان بغير الله وكله الله إليه، والخلق يعجزون عن أن يمدوا أنفسهم بالعون، وأن يحققوا لأنفسهم أهدافها وغايتها، فكيف تطلب عونك من عاجز عن عون نفسه؟ إن المستعين بالله تبارك وتعالى يجد في هٰذه الاستعانة راحته، ويجد فيها ضالته؛ لأنه تبرأ من حوله وقوته، وأدرك عجز الخلق عن تلبية رغبته؛ ولذلك كله كان المستعين بالله محققاً ومتحققاً بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ولا تعجبوا يرحمكم الله إن كانت «لا حول ولا قوة إلا بالله» كنزاً من كنوز الجنة، فكنوز الدنيا يستريح لها أصحابها ويشعر أحدهم حينما يجد كنزاً بالغِنى والرضى، ولكن «لا حول ولا قوة إلا بالله» أعظم من هذه الكنوز جميعاً، فإن العبد يجد فيها غِناه، ويحقق فيها رضاه، ولكنه الغنى بالله والرضى عن الله، ومن الله وبالله.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ٢٥١٨/٦٠ وقال هذا حديث حسن صحيح ج ٧ ص ٢٠٤.

معنى لا حول ولا قوة إلا بالله:

إن معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» كما جاء ذلك في الأثر أي لا حول عن معصيتك يا رب إلا بعصمتك ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك، فلا حول عن معصية الله أي لا تحول للإنسان من منزلة إلى منزلة ولا يستطيع أن ينتقل من حال إلى حال هو خير منه، كما أنَّه لا يقوى على أيِّ عمل ما، إنَّما ذلك كله بالله تبارك وتعالى، فسبحان من له الحول والطول، اللهم لا حول لنا عن معصيتك إلا بعصمتك فآعصمنا اللهم بعصمتك لنتحول عن معصيتك ووفقنا اللهم لنقوى على طاعتك.

وآعلموا أن الاستعانة تكون في الأمور كلها، وفي مقدمتها العون على العبادة، ومن الأدعية عقب الصلاة «اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1]، فإذا أعاننا الله على عبادته فتلك علامة الرضى وجميل القضا.

لا تنافي بين الاستعانة والتعاون:

واعلموا أن الاستعانة بالله تبارك وتعالى لا تنافي التعاون الذي أوجبه الله بين المسلمين، قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ (المائدة: ٢). وقال سيدنا رسول الله ﷺ «والله في عون المرء ما كان في عون أخيه»[2]؛ فهذا التعاون مأمور به من قبل الشرع، فعون المؤمن لأخيه لا يخرج عن دائرة الاستعانة بالله تبارك وتعالى؛ ذلك أن الاستعانة بالله كما تشمل طلب العون من الله، فإنها تشمل كذلك الأخذ بالأسباب التي أمرك بها الله وأباحها لك، ثم إن

(١) النسائي ـ كتاب السهو ـ باب نوع آخر من الدعاء ج ٣ ص ٥٣. عن معاذ بن جبل.
(٢) أحمد بن حنبل ـ ج ٢ ـ ص ٢٧٤ ـ عن أبي هريرة.

أسباب عون الله لعباده عونَ بعضهم لبعض، وهـذا ما دل عليه الحديث الذي شرفنا بذكره آنفاً «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» فما دمت في عون أخيك، فاعلم أنَّ الله يمدك بمعونته، فإذا أردت أن تكون معاناً من الله فكن معيناً لأخيك كما أمرك الله، والمؤمنون أمة متعاونة على الخير، وما غاية التعارف في قوله سبحانه: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: ١٣) فإذا أهمل المسلمون هذا التعاون فيما بينهم، فإنهم سيحرمون فضل الله وعونه لهم، بل إن ربنا تبارك وتعالى جعل ما تقدمه من خير جعله لنفسك هو وهذا مما يوجب على المسلمين التعاون فيما بينهم، فلقد جاء في الحديث «مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، فيقال كيف تمرض يا رب وكيف تجوع؟ فيقول مرض عبدي فلان ولم تعده وجاع عبدي فلان فلم تطعمه»[1].

وتعاون المسلمين على الخير، ورد العدوان أمران لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا لنعين على خير، حتى تكرمنا بعونك الذي لا سعادة لنا إلا به، ولا حياة لنا إلا به.

الصفة الرابعة: ولا تعجز:

ترتيب الأمور الخمسة في الحديث:

لقد صدق الله في وصف نبيِّه ﷺ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربُّ

---

(١) أحمد بن حنبل ج ٢ ـ ص ٤٠٤ عن أبي هريرة.

العرش العظيم﴾ (التوبة: ١٢٨ - ١٢٩) وإن من حرص النبي ﷺ على هذه الأمة، وعلى كل فردٍ من أفرادها، أن حَدَّد له صفات الخير ومصاعده، وبيّن له منزلقات الشر ومنعطفاته، وانظر إلى هذه الوصية الكريمة فبعد الترغيب في القوة ليكون المؤمن أحب إلى الله بقدر ما هو قويّ، وبعد الأمر بالحرص على كل ما ينفع، وبعد الأمر بالاستعانة بالله، وهذه كلها صفات إيجابية، بعد هذا يحرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام وجزاه عنا خير ما يجزي نبياً عن أمته وآله وصحبه، يحرص على أنْ نتجنب الأمور السلبية التي تنعكس على نفوسنا بما يُذهب صفاءها، ويزيل رونقها وبهاءها، ويكدرها ويعكرها، فذكر ﷺ صفتين اثنتين وهما الصفة الرابعة والخامسة في هذه الخماسية الكريمة، إحداهما قوله عليه وآله الصلاة والسلام «ولا تعجز».

معنى العجز:

والعجز ضد القدرة، وهو ضعف الهمة وتقاعسها فالعجز مرض يتصل بالهمة التي تحفز النفس، والعجز الذي نهى النبي عنه هو ذٰلكم العجز الذي يقعد عن الخير، ويسلب صاحبه القدرة على التصرف، فيحول بينه وبين أن يصعد ليسعد، ولما في العجز من خطورة وضرر، ولما للعجز من نتائج سيئة رأينا سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام يحذرنا منه فيستعيذ بالله تبارك وتعالى منه صباح مساء ففي الحديث «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل»[1]، وكان دائم التحذير لأصحابه من أن يتسرب العجز إلى نفوسهم ويهيمن عليهم إن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضيُّ عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم

(١) البخاري: باب من غزا بصبي للخدمة ج ٣ ص ١٠٥٩ ـ كتاب الجهاد ـ عن أنس بن مالك.

الـوكيـل. فقـال النبي ﷺ: إنَّ الله تعـالى يلوم عـلى العجـز ولكن عليـك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل»[1].

وهـذا الحـديث الشريف يحمــل دلالات كثـيرة خــيِّرة، وأول هـذه الدلالات أنَّ العجز من الأمور الممقوتـة التي يلحق صاحبهـا عليها اللوم، وممن هذا اللوم؟ إنه من الله تبارك وتعالى، وكذلك من الرسول عليـه وآله الصلاة والسلام.

والدلالة الثـانية في الحـديث الشريف أن ذكر الله تبـارك وتعالى إنَّمـا يؤدي ثماره الطيبة إذا كان من قلب واثق بـالله تبارك وتعـالى، وأن الالتجاء إلى الله سبحـانه ينبغي أن يكـون معه الحـزم في الأمور، والقـوة في الـرأي ولهذا قال الـرسول الكـريم للمقضيّ عليه: إنَّ الله يلوم عـلى العجز ولكن عليك بالكيس» وهو الحزم في الأمر وأخذ الحيطة في العمل.

الدلالة الثالثة: إن ذكر الله تبارك وتعـالى لا ينبغي أنْ يكون عـلامة للخـور ولا دليلاً عـلى الضعف والهزيمـة، فإذا غلبـك أمر فقـل حسبي الله ونعم الـوكيل، ومعنى هـذا أن المسلم ينبغي أن يبذل كـل مـا في وسعـه، ويعمـل كل مـا في طاقتـه، ويتخطى جميـع العقبات، ويحـاول تذليـل كل صعوبة، فإذا استنفذ الأسباب كلها، فلا عليه بعد ذلك، ويقـال إن سبب هذا الحديث أن الـرسول ﷺ قضى عـلى أحد هـذين الرجلين بـدين ادّعي عليه، ولكنّ المقضي عليه قصرٌ في الاحتياط لنفسه عنـد سداد الـدين فولّى وهـو يقـول حسبي الله ونعم الـوكيـل فقـال لـه النّبي عليـه وآلـه الصـلاة والسلام ما قال، ومعنى هذا كما يقول المناوي ـ رحمه الله في فيض القـدير: «لا تكن عاجزاً وتقـول حسبي الله ولكن كن يقظاً حـازماً فـإذا غلبك أمر

(١) رواه أبو داود في كتاب الأقضية باب الرجل يحلف على حقه ٢٩/٣٦١٠.

فقل ذلك، إذ ليس من التوكل ترك الأسباب وإغفال الحزم في الأمور، بل على العاقل أن يتكيس في الأمور بأن يتيقظ فيها ويطلب ما يعن له بالتوجه إلى أسباب جرت عادة الله على ارتباط تلك المطالب بها ويدخل عليها من أبوابها، ثم إن غلبه أمر وعسر عليه مطلوب ولم يتيسر له طريق كان معذوراً فليقل حسبي الله ونعم الوكيل فإن الله تعالى يأخذ بثأرك وينصرك على خصمك»[1]

ذٰلكم هو التوجيه النبوي، لكي يعيش المسلمون دائماً أقوياء في الحقّ، يفهمون دين الله تبارك وتعالى كما بينه الله ورسوله، ولكي يكون الدين مبعث قوتهم، وأساس نهضتهم؛ ولذلك كان علو الهمة من الإيمان، وعلو الهمة تتنافى مع العجز.

أسباب تبديد القوة:

العجز ـ إذن ـ مبدد للقوة مثبِّطٌ للعَزْم، ولكن هل هناك أسباب أُخر تثبط القوة كذلك؟ نعم إنهما سببان اثنان:

أحدهما: ما يضعف الهمة عن الحركة، ويحول بين الإنسان وبين أن يبني مستقبله بقوة، ويجابه الحياة بصرامة وكَيْس.

والسبب الثاني: هو الأسى والحزن على ما فات الإنسان في ماضيه، وهٰذِهِ هي الصفة الخامسة.

الصفة الخامسة: ولا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا:

إذا كان العجز ضعف الهمة كما قلت من قبل، فإن هذه الصفة ترجع إلى ضعف الإرادة، وكل من ضعف الإرادة وضعف الهمة يسلب

(١) فيض القدير ٢/٣٠٦.

الإنسان قوته، لأنَّ الندم على ما فـات في الماضي إذا لم يحـزم المرء في قطعه ومنعه والتغلب عليه، فإنَّ من شأنه أنْ يقض مضاجع المرء فيصيب صاحبه بالأرق والقلق، وربما يصل به إلى دركـات تضعف فيها العقيـدة؛ ذلك أن الذي يقول لو أني فعلت كذا كان كذا ضعف إيمانه بقـدر الله فهو سـاخط غير راض، والسخط ضد الرضى، ولذلك قال الـرسول: «ولكن قـل قدّر الله وما شاء فعل» وهو توجيه للمسلم إلى أن كـل ما أصـابه قـد جرى بـه القلم، فلا معنى إذن للسخط والألم.

ثم بين الرسول ﷺ أن (لو) تفتح عمل الشيطان، وإنما كـانت تفتح عمل الشيطان، لأنها تفتح الطريق لوساوسه وهمزاتـه، ونفثه ونفخـه، فإذا تمكّن الشيطان من النفس، فإن ذلك انتزاع لأسبـاب القوة، وإمـاتة لـروح العبادة، فإن العبادة لا بد لهـا من عنصرين: فعل مـا يرضي الله، والـرضا بفعـل الله، والذي يقـول: لو أني فعلت كـذا كان كـذا وكذا ليس راضٍ بفعله سبحانه، ومن سخط عـلى الله سخط الله عليه. يقـول الله سبحانـه **﴿مـا أصـاب من مصيبـة في الأرض ولا في أنفسـكم إلا في كتـاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾** (الحديد: ٢٢ - ٢٣).

إن من أوليّات اليقين عند المسلم أنه لا يصيبه إلا ما قُدِّر عليه، ولن يكون له إلا ما قُسِم له، وإن خيرة الله لعبده خـير من خيرة العبـد لنفسه، فإذا فاتك شيء من أشياء الدنيا فينبغي أن تركز يقينك على أن الله قدّر لك خيراً. فتدبر قول الله سبحانه **﴿وعسى أنْ تكرهوا شيئـاً وهو خـير لكم وعسى أن تحبـوا شيئـاً وهـو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمـون﴾** (البقرة: ٢١٦) ينبغي أن نتدبر هذه الآية تدبراً يحول بيننا وبين كلمـة (لو) وقد قيل «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقـع»، فكلمة (لو) لا ينبغي أن

تكـون إلا فيها فـاتك من خـير لتصلح بهـا عملك، وتهـذِّب بهـا نفسـك، وتتدارك بها ما فاتك ، أمَّا ما فقد منك من أُمور الدنيا، فلن يفيدك حزنـك عليه، بل سيجلب لك ضرراً وسوء حال، ويحول بينك وبين خـير العاقبـة والمآل، ويشل قدرتك وفكـرك، ويفرق شملك وأمـرك، إنه سيجلب لـك شتات الأمر وضيق الصدر، فاهجـر هذه الكلمـة وباعـد بينها وبـين قلبك ولسانك، لتحافظ على قوتك وإيمانك.

تلكم هي خماسية القـوة التي تمنـح المسلم العـزة والسؤدد والفتـوة، فلنجعل منها لقلوبنا زاداً، ولنتزود بسببها حكمة ورشـاداً وسداداً، لنكـون بحقٍّ لله جنداً وعباداً، وليكن هتافنا: لسنا نرضى غير ما تـرضى لنا، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا إبالي، قالها رسـول الله ﷺ، فما أجمـل أن نقولهـا متأسّين، نقولها برضى وقناعة، فهي والله خير بضاعة **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** (التوبة: ٥١).

معنى (لو) تفتح عمل الشيطان:

قال النووي رحمه الله تعالى «قال القاضي عيـاض، قال بعض العلماء هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وإنـه لو فعـل ذلك لم تصبـه قطعاً، فأمّا من ردّ ذلك إلى مشيئة الله تعـالى بأنـه لن يصيبه إلا مـاشاء الله فليس من هذا، واستدل بقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الغار «لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا» قال القاضي وهذا لا حجة فيه، لأنه إنما أخـبر عن مستقبل وليس فيه دعوى لرد ما قدر بعد وقوعـه، قال وكـذا جميع مـا ذكره البخاري في باب ما يجوز من اللو كحديث «لولا حدثـان عهد قـومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم» «ولو كنت راجماً بغير بينة لرجمت هـذه»، «ولولا أن أشق عـلى أمتي لأمرتهم بـالسـواك» وشبـه ذلـك، فكله

مستقبل لا اعتراض فيه على قدر فلا كراهة فيه؛ لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته فأما ما ذهب فليس في قدرته، قاله القاضي، فالذي عندي في معنى الحديث أن النهي على ظاهره وعمومه، ولكنه نهي تنزيه ويدل عليه قوله ﷺ «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أي يلقي في القلب معارضة القدر ويوسوس به الشيطان. هذا كلام القاضي، قلت وقد جاء من استعمال لو في الماضي قوله ﷺ «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي. وغير ذلك فالظاهر أن النهي إنما هو عن إطلاق ذلك فيما لا فائدة فيه فيكون نهي تنزيه لا تحريم فأما من قاله تأسفاً على ما فات من طاعة الله تعالى، أو ما هو متعذر عليه من ذلك ونحو هذا فلا بأس به، وعليه يحمل أكثر الاستعمال الموجود في الأحاديث والله أعلم»[1].

ومما تقدم ندرك أن كلمة (لو) لا بأس أن تقال فيما يتعلق بقضايا الدين ماضياً أو مستقبلاً، كما رأينا في الأحاديث السابقة التي نقلها القاضي عياض والإمام النووي، ولا بأس من أن تقال تعليماً وتعنيفاً لمقصر، ولا بأس أن تقال ندماً على معصية كذلك، لكن المحذور أن نقولها تأسفاً وحزناً على أمر فاتنا من أمور الدنيا، فإنها بحق تفتح عمل الشيطان، لأنها باب من أبواب السخط على قدر الله، وعدم الرضا بقضائه، إنها باب من أبواب عمل الشيطان، فحري بنا أن لا نمكن الشيطان من العمل فإن عمله انحراف بنا عن الجادة، يميت القلب، فيغضب الرب.

إن (لو) تفتح عمل الشيطان بما يلقيه من وساوس في النفس، وهمزات ونفثات ﴿رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦/٢١٦.

أن يحضرون﴾ (المؤمنون: ٩٧).

إن (لو) تفتح عمل الشيطان، لأنها حنين إلى الماضي بما لا يجدي، وحزن عليه بما لا يفيد، فيضعف الإيمان، وتنطفىء جذوته في القلب، وتذبل شجرته الباسقة فما أعظم هذا التوجيه النبوي، وما أحرى المسلم أن يكون قوياً في مجابهته للصعاب، وتعامله مع الأحداث، فلا يقعده ماض فات عن العمل لمستقبل آت، وليكن سلاحه العزم والثبات.

الخماسية الثامنة عشرة

عن عياض بن حمار[1] المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أنْ أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وابتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرّق قريشاً فقلت ربِّ إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك، وانفق فسننفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة، ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ،وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش»[2]

---

(١) عياض بن حمار المجاشعي صحابي من أهل الصفة (الحلية: ٢/١٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٨).

هـذه الخطبـة الشريفة رغم إيجـازها وقلة كلماتهـا إلا أنها بحقٍ، فيها علم كثـير وتشتمل عـلى فـوائـد جمّـة، وهي بحق من جـوامـع الكلم التي أعطيها النبي ﷺ، ونسأل الله أن يكرمنا بالوقوف مع هذه الخطبة الشريفـة المنيفة لنزداد علماً وعملاً، كذلـك باتبـاع ما فيها من أمور الخـير وتجنب ما حذرنا منه النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وفي هذه الخطبة أكثر من خماسية يمكن أن نقف معها.

الخماسية الثامنة عشرة

الصفة الأولى:

«إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبداً حلال».

بعث الله نبيه ﷺ مُعلماً، وقد أمر الله نبيه أن يعلمنا، وفي هذا دليل على منزلة العلم في حياة المسلمين **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** (الزمر: ٥١) لقد أمر الله النبي أن يعلم المسلمين ما جهلوه، فقال «كل مالٍ نحلته عبداً فهو حلال»

إن كل ما في الحياة من نعم الله، فيجب على المسلم أن يشكر لله نعمته، والله تبارك وتعالى هو الذي يرجع إليه أمر التحليل والتحريم، ولقد كان الناس في جاهليتهم يحرمون ما شاءوا، ويحلون ما شاءوا فبعث الله نبيه عليه الصلاة والسلام، ليتلو على الناس ما حُرم عليهم، وأنزل عليه **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾** (المائدة: ٨٧). وقوله سبحانه: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾** (الأعراف: ٣٢) فأمر الحِلّ والحرمة لا شأن لأحد فيه من الناس.

أمر الحل والحرمة لا شأن للناس فيه:

وإن مما يحز في النفس ألماً أن نجد كثيراً من الناس يصدرون في الحرمة والحل عن هوىً في أنفسهم، أو يكون ذلك نتيجة ظن والظن لا يغني من الحق شيئاً، إن هناك أموراً أجمع المسلمون على حِلها أو تحريمها، وذلك نتيجة نص صريح من كتاب أو سنّة، ولكن هناك أموراً أخرى اختلف فيها إما لعدم وجود نص صريح في شأنها، وإما لأنها أمور مستحدثة، وإما نتيجة هوىً يتحكم في النفس، وإما نتيجة قولٍ ضعيف وقد يكون ذلك نتيجة جهل.

ولقد ابتلي المسلمون اليوم بكثير من أولئك، ولا يقتصر ذلك على أمر الطعام والشراب، بل قد يصل إلى قضايا العقائد وغيرها من أمور العبادات.

قبل ساعات جاءني بعض الأخوة بكتاب اسمه: القول المفيد في وجوب التجويد، يقرر فيه الكاتب مع كل أسف هذا الحكم: وهو أنه إذا قال أحد الناس لمن يقرأ القرآن، وكان هذا القارىء غير متقن للقراءة، أو يقرؤها باللحن، إذا قال له أحدهم أحسنت فقد كفر، ينقل الكاتب هذا عن بعضهم ثم يعقِّب عليه بقوله: وأقول وكنت أظن أنه سيقول غير هذا - ولكنه أكد بقوله «كفر من قال للقارىء أحسنت» وسبحان الله! هل نستطيع نحن أن نكفر القارىء لمجرد تغنيه في القرآن أو خطئه؟ وهل قضية الكفر قضية سهلة على كل لسان، وإذا كنا لا نستطيع تكفير القارىء لأن ذلك حرام قطعاً، فكيف نكفر من قال له أحسنت؟! ثم ألا يخشى هذا القائل أن يأتي متطرف مثله أو جاهل مثله فيقول له أنت كفرت لأنك كفرت المسلمين، ومن كفر مسلماً فقد كفر؟! ويبدأ التراشق على صفحات الصحف، أو في أشرطة تسجيل أو على المنابر في خطب الجمعة؟

حدثني من أثق به أنه صَلَّى الجمعة في أحد المساجد قبل أيام فكانت الخطبة كلها تدور حول شخص الخطيب ومن يتكلمون عنه.

إن أمر الحل والحرمة أمر خطير فما بالكم بأمر التكفير، ولماذا لا يسع المسلمون بعضهم بعضاً في الأمور الخلافية؟ إن هناك قضايا كثيرة على الساحة الإسلامية أُرِيدَ للمسلمين أن ينشغلوا بها عن واقعهم، سنعرض لها إن شاء الله في كتابنا مجالس التراويح؛ لأن هدف هذا الكتاب هو محاولة تهذيب النفوس.

الصفة الثانية: وإني خلقت عبادي كلهم حنفاء:

من نعم الله أنه خلق الإنسان، ولم يدعه مرتعاً للشياطين ونهباً للأهواء الفاسدة، وإنما منّ عليه بنعمة الخلق ونعمة الهداية كذلك، فمنذ أن خلقه بيَّن له سبل الحقّ، وفي ذلك أبلغ ردٍّ على الذين يزعمون أن أمر التوحيد إنَّما وصل إليه الإنسان بعد مراحل متعددة، وأزمنة كثيرة متعاقبة، وإن أول عهد الإنسان كان عهد خرافة،

إن الله خلق آدم عليه السلام، وأودع فيه الاستعداد الفطري، وعلمه ما يجب أن يعرفه من مبادىء الحقّ وأمور التشريع، وهكذا كان بنوه من بعده، ولكن الإنسان انحرف فيما بعد، وهذا معنى قول رسول الله فيما يرويه عن ربه بأنه خلق عباده جميعاً حنفاء ولكن الشياطين اجتالتهم عن الحق وذلك حينما استخفوهم فأزالوهم عن المبادىء القويمة، وعن الدين الخالص.

إن الله خلق عباده حنفاء، وخلقهم على الفطرة، فكل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه[1]، **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾** (الروم٢: ٣٠)

(١) مسلم - كتاب القدر - باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، ج ٤ ص ٢٤٩ - عن أبي هريرة.

خلق الله عباده حنفاء أي مستقيمين على الحق مائلين عن الباطل، وذٰلك هو مبدأ التوحيد، ومبدأ الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض وصدق الله تبارك وتعالى ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (الحجر: ٨٥).

ولكن شياطين الجن والإنس ساءها أن تظل مسيرة الحق في طريقها، وجادّتها المستقيمة، لأن ذلك يمنعهم من أن يحققوا مآربهم في آتباع الشهوات، فأوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً، ووجدوا من أصحاب النفوس الضعيفة من يزيّن لهم سوء أعمالهم فحرموا على الناس ما أحل الله لهم، وأمروهم أن يشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا.

إن موكب التوحيد يشرق نوره منذ أنْ خلق الله هٰذِهِ الحياة، وسيظل كذٰلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإن كانت هناك فترات من الزمن يحاول الباطل أن ترتفع له راية، لكنه لن يبلغ ما أراد من غاية، وتلك سنة الله، ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (فاطر: ٤٣) فالحذر الحذر من اجتيال الشياطين، ولنظل مخلصين لله الدين حنفاء، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ [البينة: ٥]

الصفة الثالثة:

«وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»

سبب مقت الله للناس:

في هذا القول الكريم، يبين الرسول الكريم أنَّ الله تبارك وتعالى لا

يـرضى لعباده الكفـر والضلال والـظلم، وأن مقته سبحـانـه، إنمـا يكـون لأولئك الذين خرجوا عن الحق، والذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجـارتهم وما كـانوا مهتدين، وإنما مقت أهـل الأرض عربـاً وعجماً؛ لأنهم بـدلوا شرع الله. وهكـذا فإن الله يمقت كـل من بدل شرعـه، فليس هذا المقت خاصاً بوقت معـين، فكلما خرج النـاس عن شرع الله فسيحل بهم مقته، ويحيط بهم غضبه **﴿إن الذين كفـروا ينادون لمقت الله أكـبر من مقتكم أنفسكم إذْ تُدعون إلى الإيمـان فتكفرون﴾** (غـافر: ١٠).

ومقت الله سبحـانه لا يقتصر عـلى العـذاب في الآخـرة، فمقتـه في الدنيا سبحانه لمن أعرض عن ذكره، فتن مظلمة، ومصـائب مؤلمة، وشـدة ويل، وفتن كقطع الليل، وما يعانيه النـاس اليوم من بـلاءٍ ووباء ليس إلا نتيجة للإعراض عن الحق.

إنَّ انفصامَ شخصية الأمّة، ومرارة الازدواجية فيها من أكـبر أسْباب مقت الله سبحـانه، هـذه الازدواجية التي نجـدها في الفـرد والجماعـة عـلى السواء، وتتمثل هذه الازدواجية في مناحٍ كثيرة متعددة، فشخصية الإنسان في المسجـد تختلف كليـة عن شخصيتـه في الشـارع والبيت والـدائـرة، شخصيتـه متكلماً تختلف عن شخصيتـه عـالمـاً، هــذه الازدواجيـة وذلكم الاختلاف من أعظم أسباب مقت الله تعالى، ويكفي أن نقرأ في ذلك قول الله**﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولونْ ما لا تفعلون، كبر مقتـاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾** (الصف: ٢ - ٣)

آثار المقت الإلهي:

وآثار المقت الإلهي تعجل لنـا في دنيانـا، وما الضعف والهـوان وقلة الـبركة، وتسلط الأعـداء، والبأس الشـديد بـين أفراد الأمـة وجماعـاتهـا،

والحقد والكراهية، والتخلف في جميع ميادين الحياة، ونزع المهابة من قلوب الأعداء، وتسلط القوي والحاكم، والجبن والخور، والتمزق الفكري وإجهاض كل حركة رشيدة وعمل بنّاء، ما كل هذه العلل والأمراض وغيرها أكثر منها، إلا نتيجة حتمية لهذا المقت الإلهي ﴿**كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ (الصف: ٣).

وإذا كان المقت شدة البغض لمن يفعل فعلاً قبيحاً غير مليح، فإن الحب العظيم الذي يقابل المقت لا يكون إلا لمن فعل الخير وعمل الصالحات، فإذا كان مقت الله يشتد على الذين يقولون ما لا يفعلون فإن حب الله ينعم به الصادقون، التائبون، المتطهرون، المتحابون في الله، المتقنون لأعمالهم، المتراصة صفوفهم المقاتلون في سبيل الله.

وبهذه الصفات جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾ (البقرة: ٢٢٢) ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾ [الصف: ٤) ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ (آل عمران: ٣١) أحبك الله الذي أحببتني من أجله» «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1] إلى غير ذلك مما يشهد به الكتاب والسنّة.

الصفة الرابعة: وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»

الابتلاء من سنن الله:

هذه قضية من أبرز القضايا التي ينبغي أنْ يوجّه لها المسلم الصادق نظره وفكره، ذلكم أنّ كثيراً من الناس يظن أن قضية المبادىء قضية متعة

(١) رواه البيهقي في السنن عن عائشة وقال السيوطي في الجامع الصغير ضعيف، وقال المناوي فيه بشر بن السرى تكلم فيه من قبل تجهمه ج ٢ ص ٢٨٦.

عقلية وترف فكري، ويحسب أنَّ هذا الإسلام هدفه أن تسرح الروح في هذا الملكوت الواسع، وغايته أن يتجرد الإنسان من كل ما له صلة بهذه الحياة، ويحسب الكثيرون أن هذا الإسلام ليس إلاَّ مزاولة الشعائر بعيداً عن تحمل أيّ مسؤولية.

وهٰؤلاء وأولئك خاطئون أو مخطئون، ولا أدري كيف غفلوا عن قوله سبحانه: ﴿بسم لله الرحمٰن الرحيم ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعْلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ (العنكبوت: ١ - ٣) وقوله سبحانه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ (محمد - ٣١) وقال سبحانه: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران: ١٤٠-١٤٢) وقال: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (آل عمران: ١٥٤).

والآيات في ذٰلك أكثر من أن تحصى، تلك التي بينت أن الابتلاء سنة من سنن الله تبارك وتعالى، وهذا الابتلاء لا يكون بالشر وحده، ولا بالسيئة فحسب، وإنما قد يكون بالخير وبالحسنة كذلك، قال سبحانه: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ (الأعراف: ١٦٨) وقال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (الأنبياء: ٣٥)

وهذا الابتلاء قد لا يكون عقوبة، وإنما يكون تمحيصاً ليتبين الصادق في إيمانه، وهذه القضية الخطيرة التي غفل عنها كثير من الناس يبين لنا الحديث الذي نحن بصدده أن رسالة النبي ﷺ وبعثته إلى الناس،

الابتلاء سبب رئيس فيها، هكذا يقول الله لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام «إنما بعثتك»، بهذا التعبير الذي يوحي بالقصر والحصر، كأنه يقول ما «بعثتك إلا لهذا».

وعلى هذا ينبغي على كل مسلم ويجب عليه أن يوطن نفسه، على هذه القضية، الخطيرة، وهي أن هذا الإسلام لا يجوز أن يظن المسلم أنه ليس إلا رحلة صيد أو إجازة صيف، وإنما الإسلام مجاهدة ومصابرة، وبذل ومثابرة، ويقظة وتأهب، واستعداد وترقب، ليس مجرد مناظرة أو سماع محاضرة، بل هو توطين النفس وإقناع العقل والحسّ على حقيقة ثابتة وهي أن هٰذا الإنسان المسلم لا يكون شعوره بالسعادة إلا إذا حقق في هٰذا الكون السيادة، ولن يحققها إذا كان ضعيفاً يأسره الوهم، ويخيفه السهم، ويشله الهمّ، بل لا بدّ أن يقارع كل خطب، ويتخطى كل صعب، وذٰلك حينما يصقله الابتلاء، ولا يشغله الامتلاء، وقال: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

الرسول ﷺ أول من ابتلاه الله

إن أول من ابتلاه الله بهذا الدين هو سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، ولقد ثبت أمام الابتلاء وصبر وتحمّل وجاهد في الله حق جهاده. قال ﷺ: «لقد أُخفت في الله وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواري إبط بلال»[1]

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب بعض ما لاقاه ﷺ في أول أمره ٢٤٧٤/٣٥، ج ٧ ص ١٧٤ وقال حسن صحيح غريب. ومعنى هذا الحديث حين خرج النبي ﷺ من مكة ومعه بلال، إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمله تحت إبطه.

التزام الحكمة في الدعوة إلى الله.

وإذا كان النبي ﷺ هو أول المبتلَيْن بهذا الدّين فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة، إن من الرأي الفطير، والفهم الخطير، والفكر القصير، ما يظنه بعض الناس وبخاصة المحسوبين على هذا الدين بأنهم ولاته ودعاته، ما يظنه هٰؤلاء من أنهم يستطيعون أن يبلغوا رسالة الله، وتكون لهم الحرية في الدعوة إلى الله دون أن يعرضوا أنفسهم لخطر أو مسؤولية. إن ذٰلك أمر عسير التحقق، ولا يقوم إلاَّ على المداهنة والتملق.

معنى الحكمة:

صحيح أن التزام جانب الحكمة في الدعوة إلى الله أمر لا بد منه، امتثالاً لقوله سبحانه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل: ١٢٥] ولكن من الخطأ أنْ نفسر الحكمة دائماً بأنها خضوع وتراجع، وتنازل وضعف، إن الحكمة هي الإصابة في القول والعمل، والإعداد لكل حالةٍ بما يناسبها.

هدف الهجمات الشرسة على الدين.

إنَّ هناك هجمة شرسة على منهج الله ودينه من الطغمة المستكبرة في هذه الأرض، فهم إن أرادوا له البقاء، فإنما يريدونه مخدراً مخذلاً، مخدراً للمستضعفين، مخذلاً عن المستكبرين،

مخدراً للعامة مخذلاً عن الخاصة.
مخدراً للمحكوم، مخذلاً عن الحاكم.
مخدراً لمن يتضور جوعاً، ويذرف دموعاً، مخذلاً عمن يسترق جموعاً.

وعلى هذا فالأمة المسلمة لا يجوز لها أنْ تظل في دبر القافلة، لاهية

غافلة، لا يجوز لها أن تظل نجمة آفلة، وزهرة ذابلة ذاوية، ألا تخشى قول الله ﴿هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ (الغاشية: ١-٥).

من أجل ذٰلك كله قال سيدنا رسول الله ﷺ في هذه الخطبة الرائعة الهادفة، الهادئة حيناً والهادرة آخر، «وإنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

لا بد للمسلمين من تغيير واقعهم الممزق

إن محاولة بعض المسلمين التوفيق بين الحق والباطل، وإضفاء صبغة شرعية إسلامية على هذا التوفيق... إن قبول الواقع المقزم الذي يجمع بين تشييد المساجد للركوع والسجود، وبين تعطيل الحدود وموالاة اليهود... بين بناء الجوامع، وتعطيل أحكام الشارع، وتمكين العدو من المطامع... إن الرضا من الغنيمة بالإياب، والاكتفاء بالترنيم لهذا الكتاب.. إنَّ التوفيق بين عبادة الله في بعض أوامره من صلاة وصيام وحجّ، وبين ما يُفرض على الأمّة في مناحي حياتها في كل مجال ونهج، أقول إن ذٰلك كله يتنافى مع جوهر هذا الدين وروحه، كيف لا والله تبارك وتعالى يعنّف أقواماً بقوله ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ (البقرة: ٨٥ - ٨٦). إن ذٰلك خيانة في الحقيقة لهذا الدين والله يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ (الأنفال: ٢٧ - ٢٨)

وقال: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك» لأبتليك في تبليغ الرسالة، والصدع بما أُمرت به، وما تلاقي في سبيل ذٰلك مما تكرهه أو يشق عليك ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾... لأبتليك لتصبر على تحمل الأذى، وإماطة القذى، وأبتلي بك من رسخت غوايتهم، وضعفت هدايتهم، لتحولهم إلى أشرف المنازل، أو تقودهم إلى الجنة بالسلاسل، إنها لكلمة جدير بنا أن نجعلها في مقدمة كل قول وعمل، لأنها تذكرنا بأعبائنا، وتطلعنا على أعظم أنبائنا، وقال «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

أفبعد هذا القول الفصل، يرضى المسلم لنفسه أن يعيش حياة الهزل؟! أفبعد هذا القول القاطع والإنذار البتار، يرضى المسلم لنفسه أنْ يعيش حياة الدعة والاسترخاء والاستهتار؟! أبعد هذه الكلمة الإلٰهيَّة النبوية الموجهة الصريحة، الصارخة الفصيحة نرضى أن نأخذ من الدين بعضه، مهملين ما يتصل بجوانب الحياة في كل أمر عظيم؟» سبحانك هذا بهتان عظيم.

الصفة الخامسة: وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء:

من حكم الله سبحانه وتعالى ورحمته ما منّ الله به على هذه الأمة المسلمة من هذا الخير العظيم، فإذا كان الله قد بعث النبي ﷺ ليبتليه ويبتلي به، فلقد منّ عليها بما يتناسب مع هذا الابتلاء، وهو هذا القرآن العظيم، فإذا تذكر المسلم ابتلاء الله له، وتذكر هذا القرآن العظيم، فإنه يسهل عليه كل ابتلاء، والغنم بالغرم كما يقولون، فنعمة الله بهذا القرآن يمكن أن يستسهل المسلم أمامها كل شيء، كيف وهو الروح والنور والذكر والفرقان، المهيمن على كل ما قبله مما أنزل الله، الذي أحيا الله به هذه الأمة من رقدة العدم، ورفعها به فوق كل السُّدُم، فهو مبعث نهضتها، وأساس انتفاضتها، في تلاوته تفتح أبواب الخيرات، ففي كل حرف منه

عشر حسنات، هنيئاً لمن جعله أمامه، واتخذه مرشده وإمامه، فإنه سيصيّره ذا نفس قوية مطمئنة، وأما يوم القيامة فيقوده إلى الجنة، ويا ثبور من جعله خلفه، فستكون دنياه دار بوار، وسيسوقه يوم القيامة إلى النار،

هذا الكتاب الذي فيه نبأ من قبلكم، وحكم ما بينكم، من قال به صدق، ومن حكم به رشد ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم، تقطّع المسلمون حينما قطّعوه إرباً، قطّعوه أحكاماً، وآداباً، وهم إن لم يقطّعوه ورقاً، لكنهم جعلوا أحكامه فِرقاً، وايم الله إنها لجريمة لا تقل عن تمزيق ورقه!!

ولقد ذكر النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه الذي تفضل عليه بإنزال القرآن صفتين عظيمتين لهذا القرآن:

أولاهما: قوله «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء»

والثانية قوله: «تقرؤه نائماً ويقظان».

أولاً: قوله لا يغسله الماء:

أما قوله سبحانه لا يغسله الماء فيظهر - والله أعلم - أنَّ هذه كناية عن حفظ هذا القرآن، حفظاً يقوى على كل تبديل وتغيير، وتلك لعمر الحق معجزة من أعظم المعجزات، إذْ أن هٰذا القرآن لا يعتمد في حفظه على السطور، وإنما هو محفوظ في القلوب والسطور، فمنذ أن نزل القرآن الكريم في كل عصر، وفي كل جيل هناك جماعات تحفظ هذا القرآن، وكثير منهم أو أكثرهم ممن ليسوا عرباً. وعلى هٰذا فليس القرآن كغيره من كتب الدنيا كلها يعتمد فيما يعتمد على الكتابة التي قد تتعرض لأكثر من خطر، إنه حقاً لا يغسله الماء.

ولذا سيظل الوثيقة الوحيدة الخالدة من وثائق السماء، ﴿إنّا نحن

نَـزَّلنا الـذكر، وإنـا له لحـافظون﴾(الحجـر: ٩) فهو محفـوظ بحفظ الله سبحـانه، ففيـه ماء الهـداية، وإذا كـان المـاء ينـزل من السـماء لتحيـا بـه الأرض، فلقد كان القرآن هو الذي نزل لتحيا به القلوب، وكـما يحيي الله الأرض بعد موتها بهذا المـاء، فإنـه يحيي القلوب بهذا القـرآن، وهذا معنى قـوله تعـالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعـد مـوتهـا قـد بيّنـا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ [الحديد: ١٧] ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: ١٧] وهذا مثـل ضربه الله للقلوب، فـإذا كانت الأرض يأخذ كـل منها بقـدر من ماء السـماء، فإنّ القلوب يـأخذ كـل منها بقدر من هذه الهداية الربانية، فإذا كـان القرآن والمـاء كلٌّ نـزل من السماء ليكون سبب الحياة، فـإنَّ هٰذا المـاء لن يؤثر في هـذا القرآن ليغسله، كيف وإنما يستمطر ماء السماء بهذا القرآن؟ حينما يحبسه الله فيكـون القرآن سببـاً من أسباب إنزاله، فكيف تكون إزالـة هذا القـرآن بسبب الماء، «وأنـزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء»؟!

ثانياً: قوله تقرؤه نائماً ويقظان.

أما قوله: «تقرؤه نائماً ويقظان» فهي كناية ثانية عن يسر هذا الكتاب وسهـولته، وصـدق الله: ﴿ولقد يسّرنـا القرآن للذكـر﴾ (القمـر: ١٧) وهاتان نعمتان على هذه الأمة متصلتـان بهذا القـرآن، إحداهمـا حفظه مـا دامت الحيـاة، والثانيـة سهولتـه ويسره «ولا يظنن أحـد أن هـذا اليسر من حيث الحفظ فحسب، وإنمـا هـو والله يسر في كـــل شيء، يسر في الحفظ، ويسر في الأحـكـــام، ويسر في الآداب، ويسر في التـكـــاليـف، ويسر في التـطبيق، ويسر في بلوغ الهدف والغـاية، نعم إنها بـركةُ هـذا القـرآن أن جعله الله يسراً كله في جميع مناحيه، ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ (ص: ٢٩) ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبـارك

مصدق الذي بين يديه﴾ (الأنعام: ٩٢) **﴿وهـذا كتاب أنـزلناه مبـارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمـون﴾** (الأنعام: ١٥٥) **﴿تبـارك الذي نـزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾** (الفرقان: ١) فليس في عقائد القرآن ما يصعب على العقل تصوره وإدراكه، وليس في تكاليف القرآن ما يشق على الجوارح القيام به، وليس في آداب القرآن ما يستغلق على الفؤاد والقلب، فهو ربيع القلوب وشفاء الصدور، لمن أقبل عليه وحنّ إليه.

تلكم الخماسية الأولى في هذه الخطبة النبويـة الرائعـة، وبقي في هذا الحديث علم جم، وخير كثير، وأدب غزيـر. نرجـو الله أن يوفقنـا لنبينها لكم.

الخماسية التاسعة عشرة

قوله ﷺ: «وإن الله أمرني أن أحرّق قريشاً، فقلت ربّ إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك، وانفق فسننفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك».

هذه الخماسية في الخطبة الشريفة مكملة للخماسية السابقة، فإذا كان الله قد خلق العباد حنفاء على الفطرة، واجتالتهم الشياطين عن الحق، وحرّمت عليهم ما أحل الله لهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وإذا كان الله قد بعث سيدنا محمداً ﷺ ليبتليه ويبتلي به وأنزل عليه كتاباً لا يغسله الماء، إذا كان ذلك كله وهو ما تضمنته الخماسية السابقة، فلا بد أن تدحر الشياطين، ويسود القرآن في هذه الحياة، ولن يكون ذٰلك إلا إذا تحمّل المسلمون مسؤوليتهم، وباعوا لله أنفسهم وبذلوا في سبيل ذٰلك أموالهم، فإنهم سيجدون عند ذلك عون الله وتأييده، وتوفيقه وتسديده، وهذا ما تقوم عليه هذه الخماسية التي نتحدث عنها.

معنى تحريق قريش:

يقول سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام «إن الله أمرني أن أحرّق قريشاً». ويظهر أن هذا التحريق ليس على حقيقته اللغوية، فلم يقصد التحريق بالنار، لأن النبي عليه وآله الصلاة والسلام لم يفعل ذلك،

بل إنه نهى عنه كذلك، وإنما هو من الكلام البليغ، بل من أبلغ الكـلام، فهـو كناية عـما يغيـظهم من الحق فتحـريق قـريش أن يسمعهم النبي ﷺ كلمـة الحق، وأن يبصرهم بالبـاطل الـذي هم عليه من تسفيـه أحـلامهم وبـطلان عباداتهم، وتعنيفهم عـلى كثير من عـاداتهم، وأن يدعـو إلى الحق حتى يجد له أنصاراً، فإن من شأن ذلك كله أن يكـون ناراً تحـرق قلوبهم، أكثر من النار التي تكوى بها جنوبهم.

إن تحريق قريش إنمـا يكون بنشر كلمـة الحق في كل مكـان لتختلب الآذان وتجتلب الأذهان، إن تحريق قريش إنما يكـون باتسـاع رقعة الأرض التي ترتفع فيها كلمة الحق فإن في ذلك إغاظتهم.

ما يستفاد من أمر الله بتحريق قريش:

وهذا درس جدير بالمسلم أن يعرفه ويدركه، إن كلمـة الحق لا يجوز أن تخنق. إن كثيـراً من كلمات الباطـل في أيامنـا ينطلق بهـا أصحابهـا على صفحات الصحف وغيرها من وسائل الإعلام والمنتديات، وربما يصمّ كثير من المسلمين عنها آذانهم ويغمضون عيونهم، منتحلين لذلك حججاً، والله يعلم أنهم يتبعون لججاً، صحيـح أن إغاظـة الباطـل سوف تثـير في نفوس أصحابه العصبية لينتقموا من الحق وأهله، وهـذه هي سنّة الله في الحياة في هـذا الصراع بـين الحق والبـاطـل، ﴿**وجعلنـا بعضكم لبعض فتنـة، أتصبرون؟ وكان ربك بصيراً**﴾ (الفرقان: ٢٠) ﴿**وكذلك جعلنـا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربـك هاديـاً ونصيراً**﴾ (الفـرقان: ٣١) وهذا ما أرشد إليه النبي الكريم عليه أفضـل الصلاة وأتم التسليم فقـال: «رب إذاً يثلغـوا رأسي فيـدعـوه خبـزة، أي يشـدخـوه كـما يشـدخ الخبـز ويفتت، ومعنى هذا أن أصحاب الباطـل يستعملون أقصى ما عنـدهم من العنف حينما يغيظهم من الحق، وهذا ما يشهد به الـواقع والتـاريخ معـاً، ولكنّ الله تبـارك وتعالى الـذي يثبت المؤمنين بـالحق بـيّن للنبي عليـه وآلـه

الصلاة والسلام أننا لا ينبغي أن نمكّن الباطل مما أراد، فإن حال بيننا وبين كلمة الحق، فعلينا أن نجابه هذا الباطل بكل ما منحنا الله، وهذا ما ترشد إليه هذه الخماسية.

الأمر الأول: آستخرجهم كما استخرجوك:

ومعنى هذا أننا لا ينبغي أن نتنازل للباطل وأهله عن أي حق من حقوقنا، لأن أي تنازل عن أي حق مهما كان ضئيلاً من شأنه أنْ ينزع كل مهابة لنا من صدور هٰؤلاء، مع أننا ينبغي أن نكون أكثر رهبة في صدورهم، ويعلم الله أن هذه صرخة مدويّة لا بد أن يستمع لها المسلمون، وبخاصة في أخطر قضية من قضاياهم ونعني بها الأرض المقدسة فلسطيننا، وغيْرها كذلك. «آستخرجهم كما آستخرجوك» إنه أمر صريح بأن لا نمكّن الباطل أن يتجرأ على الحق، «آستخرجهم كما آستخرجوك» هذا في شأن مكة التي أُخرج النبي منها، وبقي فيها أهلها، فما بالنا بالأرض التي أُخرج منها أهلها، وحل مكانهم آخرون بعيدون عنها.

إن قول الله لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام «آستخرجهم كما آستخرجوك» رد على أولئك الذين يريدون أن يمكنوا اليهود بصفة شرعية وبصيغة قانونية من أن تكون لهم الأرض التي آغتصبوها بقوة السلاح والاستعانة بالباطل، وبسبب التفريط الذي كان من ذوي القربى.

إن هٰذه الكلمة الربانية «آستخرجهم كما آستخرجوك» حجة دامغة على أولئك الذين يظنون أن السلام يمكن أن يكون بتمكين الباطل مما يريد، تلكم هي القضية الأولى في خماسيتنا هذه، لا تحتمل تأويلاً، ولا تقبل أي تنازل يُسلب به المسلمون شبراً من أرضهم.

والخماسية بعد أرشدكم الله تبيّن لنا، كيف نسير في هذا الطريق،

طريق القوة، وكيف نستخرج أعداءنـا كما استخـرجونـا، فيقول الله لنبيـه «آغزهم نغزك» ذلكم هو الأمر الثاني في هذه الخماسية، وهي والله خماسية حرية أن يقف كل مسلم أمامها، ليكشف لثامهـا، ويفتق أكمامهـا. فكيف يستخرجهم النبي عليه وآله الصلاة والسلام كما استخرجوه؟ أيكـون ذلك بـالمفاوضـات والمؤتمرات؟ فـما أنتجت المفاوضـات إلا فوضى، ومـا ولـدت المؤتمرات إلا مؤامرات.

أيكون ذلك بالتباكي والتشاكي؟ فما أجدى البكاء ولا الشكوى يومـاً ما! ولا زلنا نذكر تلك الكلمة التي قيلت لأحد ملوك الأندلس.

ابـكِ مـثـل الـنـسـاء مـلـكـاً مُـضـاعـاً
لم تحـافظ عـلـيـه مـثـل الـرجـالِ.

كيف يستخرجهم النبي؟ يبين الله له الطريق الـذي لا يوجـد غيره، ولا يصح أن يُسلك غيره، وهـو بيان للمسلمـين جميعاً في جميـع أعصارهم وأمصارهم. «اغزهم نغزك»

الأمر الثاني: اغزهم نغزك:

إن الاستخـراج ـ إذن ـ لا بد لـه من الجهاد، ولكن إنـك لن تكون وحدك في الميدان، بل إن الله سبحانه سيمدكم بـالعون «اغزهم نغزك» لا تمكنهم من التـمادي في باطلهم، فـإذا اندفعت في حـربهم وغزوهم فسـوف نغزك، أي نمدك بما يعينك.

مـا أجمع هـذه الكلمة عـلى قلة حروفهـا، ومـا أحـوج المسلمـين أن يتدبروها «اغزهم نغزك». إن كل ما يريده عدونـا اليوم، أن يـرهبنا بقـوته ليمـلأ قلوبنا رعبـاً، ومع ذلـك فهو متكـالب مع حليفتـه الظالمـة عـلى مـا

يسمونه سلاماً، وما ذلك كله إلا لإضفاء الشرعية على ذلكم الباطل الذي أراد كثيرون منا أن يعينوه عليه.

«اغزهم نغزك» لا بد أن يظهر عبقها، وينتشر أوارها، وتظهر أنوارها في كل بقعة من بقاع الأرض المسلمة، وفي كل قلب من قلوب العصابة المؤمنة، فبغير هذا لن يرجع حق، ولن يكون سلام، ولن يُنعم بأمن، ولن ترتفع عدالة، ولا تكون بركة، ولا تبقى هيبة.

«اغزهم نغزك» درس ينبغي أنْ يتعلمه المسلمون كما يتعلمون أبجديات حياتهم كلها، لأنه بدونها لا يستقيم لهم أمر، ولا يبارك لهم في عمر، إنه أمر من الله ويا خيبة من عصى الله في مخالفة أمر!!

الأمر الثالث: وأنفق فسننفق عليك.

الأمر الثالث في هذه الخماسية متصل بسابقيه، ذلكم أن الجهاد الحق لا بد له من بذل النفس والمال، فإذا كان الغزو تهيئة للجهاد، فلا بد أن يُعد المسلمون أنفسهم له، بالإنفاق أولاً، ولهذا نجد القرآن في أكثر آياته يقدم المال على النفس في أمر الجهاد، **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** (الصف: ١٠ - ١١) **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾** (التوبة: ٤١) **﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾** (التوبة: ٢٠).

ولقد تكفل الله لنبيه وللمسلمين إن أنفقوا في الجهاد أن يغنيهم الله، وهذا معنى قوله: «وأنفق فسننفق عليك».

إن الله يخلف النفقة حين تكون في وجه من وجوه الخير، فكيف إذا كانت في دحر عدو، وإرغام باطل، ورفع راية حق. ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾ (سبأ - ٣٩) ولكن ما بالك في أمة تنفق على كمالياتها في معصية الله، ما يكفي معشاره لإقامة صرح الحق، وإزالة زبد الباطل،

«وأنفق فسننفق عليك» كلمة يستخرج بها الشح والبخل من النفوس، وتضع المسلمين عند مسؤولياتهم، ﴿**ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ (محمد: ٣٨).

الأمر الرابع: وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله:

وهذا متصل بما قبله كذلك، فإذا هُيء أمر الجيش من حيث النفقات، فلا بد أن يكون الجيش على أهبة الاستعداد، وفي هذا الأمر الرابع من هذه الخماسية يعد الله نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، بأنهم لن يكونوا في المعركة وحدهم، وإنما سيكون معهم في ميدان الحرب أضعافهم، وهذا حث للمسلمين على أن لا يتخلف منهم أحد، فبقدر ما يكون عددهم يكون مددهم، فالله سيكرمهم بخمسة أضعاف، فإذا كانوا ألفاً أمدهم الله بخمسة آلاف وإذا كانوا عشرين ألفاً أمدهم الله بمائة ألف، وإذا كانوا مائتي ألف أمدهم الله بألف ألف.

يا ويح المسلمين!! أبعد هذا الوعد الرباني الذي تحقق في التاريخ مرات ومرات، أبعد هذا الوعد الرباني المجرب يبخلون ويجبنون ويدارون؟ يدارون عدوهم بالمجاملة والمداراة الباطلة، ويدارون من قبل

عدوهم بحركة إصبع، فيا تعس من يداري العدو مداراة ينصر بها باطلاً!! ويا خيبة من يديره العدو لأيّ جهة ولا يزال لاهياً غافلاً!!

الأمر الخامس: وقاتل بمن أطاعك من عصاك:

هٰذا هو الأمر الخامس وهو غاية هذه الخماسية كلها، القتال الفعْلي «قاتل بمن أطاعك من عصاك» فإن الله قد منّ عليك بأن أيدك بنصره وبالمؤمنين، هٰؤلاء الذين أيدك الله بهم قاتل بهم أنصار الباطل، ولقد كان ذٰلك كله، فلقد أعد النبي المسلمين إعداداً كاملاً، وأنفق المسلمون أموالهم، وجادوا بنفوسهم، وقاتلوا مع النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وقاتل النبي بهم أعداء الإسلام، فكان النصر.. وكانت الغلبة ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم**﴾ (آل عمران: ١٠١) ومن ينصر الله ينصره الله،ومن يستعن بالله يُعِنْهُ الله، ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾ (آل عمران: ١٦٠) ومن صدق الله صدقه، ومن خادع الله خُدع، ومن عاند قُمع، ﴿**وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران: ١٢٦] ومن خاف أدلج.

فما أعظمها من خماسية، لم تدع لمعتذر حجة، وبينت للسابقين خير محجة، ولم تترك ثغرة لمتسلل، ولا علة لمتعلل، وما أحوجها وأحراها بالتفكير والتدبر، ولن يعيها إلا من يصبر ويشكر، فاجعلنا اللهم من الصابرين الشاكرين.

الخماسيتان العشرون والحادية والعشرون

قال ﷺ «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال، قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دقّ إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش»

هاتان هما الخماسيتان الأخيرتان في هذه الخطبة الرائعة الجامعة، وقد تحدثت الخماسيتان عن صفات أهل الجنة وأهل النار، وما ذلك إلا ليفتش المسلم في أجواء نفسه، وليبحث في مداخلها ومسالكها ليرى من أي الفريقين هو، فيزداد من الخير ويتجنب الشر،

وأهل الجنة ثلاثة - كما قال ﷺ - والصنف الأول منهم يضم صفات ثلاثاً هي:

الصفة الأولى: سلطان مقسط:

أولهم: من أكرمه الله بسلطان ومسؤولية، سواء كان صاحب هذا السلطان حاكماً، أم والياً، أم مدير مصنع، أم ربّ أسرة، أم صاحب مزرعة، أم رجل أعمال، أيا كانت هذه المسؤولية، فإن هناك صفات لا بد أن تجتمع له، وأول هذه الصفات أن يكون مقسطاً، أي عادلاً فيما وُلّي،

فالحاكم ينبغي أن يعدل بين رعيته، حتى لا يعرض نفسه لمقت الله، والوالدان لا بد أن يعدلا بين أولادهما، حتى لا يكونا من الجائرين، فلقد أخرج الإمام مسلم أنَّ النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ حدّث: أن أمه بنت رواحة سألت أباه بعض الموهوبة[1] من ماله لابنها، فالتوى بها سنة[2] ثم بدا له[3]، فقالت: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ على ما وهبْتَ لابني، فأخذ أبي بيدي، وأنا يومئذ غلام، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أم هذا بنت رواحة أعجبها أن أشهدك الذي وهبتُ لابنها، فقال رسول الله ﷺ «يا بشير ألك ولد سوى هٰذا؟» قال: نعم، فقال: أكُلُّهم وهبت له مثل هذا!؟» قال: لا. قال فلا تشهدني إذاً. فإني لا أشهد على جور[4]» وفي رواية زاد اتقوا الله واعدلوا في أولادكم.

وإن كان مديراً أو رئيساً فلا بد أن يعدل مع موظفيه ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ (المائدة: ٤٢).

الصفة الثانية: متصدق.

أما الصفة الثانية فأن يكون متصدقاً ليشكر الله على ما ولاه، وعلى ما استخلفه فيه، ولقد تكلمنا في خماسية سابقة عن الصدقة وفضلها وأنواعها، حديثاً نرجو أن تكون فيه الفائدة، وأن يبعث على العمل.

الصفة الثالثة: موفق.

الصفة الثالثة أن يكون موفَّقاً، أي يلتزم الحكمة في كل ما يفعل،

---

(١) الموهوبة: أي الموهبة.

(٢) التوى بها سنة: مطلها.

(٣) بدا له: أي ظهر له في أمرها ما لم يظهر أولاً.

(٤) رواه مسلم في كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد على بعض باب ٣ حديث ١٦٢٣ ج ٣ ص ١٢٤٢.

وكل ما يدع ويذر، وبهذا يتجنب الخلل والخطل، ﴿ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩).

الصفة الرابعة: رحيم رقيق القلب:

أما الصنف الثاني من أهل الجنة فقوله عليه الصلاة والسلام: «رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم» والرحمة من أبرز الصفات التي أحب الله أن يتصف بها المسلم، فإذا كانت قسوة القلب يكرهها الله ويبغض أصحابها، فلا ريب أن الرحمة مما يحبه الله، ولذا كثيراً ما وصف نفسه بهذه الرحمة في كتابه.

ومما لا ريب فيه أن رقة القلب تنتج عن هذه الرحمة، فهي أثر من آثارها، والقلب الرقيق هو الذي يتأثر بالموعظة، فهو قلب لينّ أُكرم بالحنان، وبإزالة الران، فهو قلب متصل بنور الحق، فأين هذا من القلب القاسي؟ ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ (الزمر: ٢٢) ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين: ١٤ - ١٥).

أنواع القلوب:

روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافرين. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق. فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل

القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلب على الأخرى غلب عليه[1]».

قال ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : «فقوله «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق. «وفيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان. وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى، حاكياً عن اليهود: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ (البقرة: ٨٨). وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على ردّ الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكنة على القلوب ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ (الاسراء: ٤٥ ـ ٤٦) فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد، وتجريد المتابعة، ولّى أصحابها على أدبارهم نفوراً.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق كما قال تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ (النساء: ٨٨). أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله والله المستعان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٣ ص ١٧.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع»[1].

الصفة الخامسة: عفيف متعفف ذو عيال:

لقد أراد الإسلام أن يصون كرامة المسلم دائماً، ومن أعظم ما تصان به الكرامات العفة. والعفة هي الكف عن الحرام والسؤال من الناس، فإن من طلب العفة وتكلّفها أعطاه الله إياها، وقيل الاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشيء[2]، وفي الحث على التعفف وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ.

١ ـ فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنىً، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله[3].

٢ ـ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، إن المسكين المتعفف، اقرأوا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافاً»[4] وقال ﷺ «ليس المسكين بهذا الطّوّاف

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٩.

(٢) النهاية لابن الأثير ٣/٢٦٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب الزكاة باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى باب ١٧ حديث ١٣٦١ ج ٢ ص ٥١٨.

(٤) رواه مسلم في كتاب الزكاة باب المسكين الذي لا يجد غنى ١٠٣٩/٣٤ ج ٢ ص ٧١٩.

الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين قال الـذي لا يجد غنىً يغنيـه ولا يُفْطن لـه فيتصدق عليـه ولا يقوم فيسأل الناس»[1].

٤ ـ وعن عوف بن مالـك الأشجعي قال: كنـا عند رسـول الله ﷺ تسعـةً أو ثمانيـة أو سبعة، فقـال: «ألا تبايعـون رسول الله؟» وكنـا حديثي عهد ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بـايعناك يـا رسول الله، ثم قـال «ألا تبايعـون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «عـلى أن تعبدوا الله ولا تشركـوا به شيئاً، والصلوات الخمس وتـطيعـوا. (وأسر كلمة خفية) ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفـر يسقط سوط أحدهم. فما يسأل أحداً يناوله إياه»[2].

٥ ـ وقـال ﷺ: لا تزال المسـألة بـأحدكم حتى يلقى الله، وليس في وجهـه مزعـة لحم»[3] هؤلاء هم أهـل الجنـة، وتلك هي صفـاتهم، وهي صفـات لا ترهقنـا شـططاً، ولا تكلفنـا كثيـراً، فليس فيهـا مـا يشق عـلى النفس.

---

(١) رواه النسائي في كتاب الزكاة باب تفسير المسكين باب ٧٦، ج ٥ ص ٨٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس ١٠٤٢/٣٥ ج ٢ ص ٧٢١.

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس ١٠٤٠/٣٥ ج ٢ ص ٧٢٠.

(مزعة لحم) أي قطعة، قال القاضي: قيل معناه يأتي يوم القيامة ذليلاً، لا وجه لـه عند الله. وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم فيه، عقوبة له وعلامة بذنبه حين طلب وسأل بوجهه.

الخماسية الحادية والعشرون

إذا كان النبي ﷺ قد بيّن صفات أهل الجنة ليتصف بها المسلم، فإنه عليه وآله الصلاة والسلام قد بيّن صفات أهل النار ليتجنبها المسلمون.

ولكن الذي يأسر اللب، ويملك مجامع القلب، هذا الترتيب الذي نجده في الحديث النبوي الشريف، فمن هم الصنف الأول من أهل النار في هذه الخماسية؟ إنهم ليسوا تاركي الصلاة ولا الصوم، وليسوا الكذابين ولا السارقين، وليسوا المتكبرين ولا المستهترين كذلك، ويعلم الله أنّها لطيفة من لطائف الحق بينها لنا سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، فمن هم هؤلاء؟

الصنف الأول: الضعيف الذي لا زبر له:

وإذا تساءلنا لماذا ذكر هذا الصنف في مقدمة أهل النار؟ فإننا ندرك أن ذلك ليس عبثاً ـ معاذ الله ـ فالنبي الكريم لا ينطق عن الهوى، وهو يعلمنا الكتاب والحكمة.

إننا حينما نستعرض أمراض الأمة وأعراضها، فإننا سنجد أنَّ بعض هذه الأمراض يمكن أنْ نجد لها علاجاً، فهي أمراض فردية في ضررها، يصيب شرها أصحابها، ولكن هناك أمراضاً تصيب قلب الأمة، ويهترىء منها كبدها، إنها أمراض تدمغ فتزهق، وفي مقدمة هذه الأمراض، بل

أهمها وأخطرها، أقول أكثر هذه الأمراض هماً وخطورة، هو مرض الاستضعاف والتبعية.

ولقد تكلمنا عن الضعف والاستضعاف في خماسية سابقة، عند قول الرسول الكريم عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ووعدناكم هناك بأن نزيد هذه القضية شرحاً وتفصيلاً وبياناً.

الضعف والاستضعاف:

وأول ما نأخذه من التوجيهات النبوية أن الاستضعاف والتبعية إذا كانا لا يتفقان مع الدين القويم فهما لا يتفقان كذلك مع العقل السليم، بيان ذلك قول النبي الكريم: «الضعيف الذي لا زبر له»، أي لا عقل له يزبره ويردعه عما هو فيه من ضلال، «الذين هم فيكم تبعاً»، إننا ونحن نتلو كتاب الله تبارك وتعالى، فإننا نجد أن ربنا تبارك وتعالى لم يشدد النكير في قضية ما، كما نراه في هٰذه القضية التي نتحدث عنها.

عناية القرآن بقضية الاستضعاف والنص عليها في أكثر من موضع:

لقد تحدث القرآن عن كثير من مظاهر الشر التي ينبغي أن يتجنبها المسلمون، وعن مظاهر الخير التي ينبغي أن يتبعوها، ولكنه كان حديثاً في موضع أو موضعين، وإن شئتم فتدبروا ـ أرشدكم الله ـ كتاب الله في حديثه عن السخرية والغيبة، والتجسس وسوء الظن، والربا والخمر، وعن الصيام والحج، وستجدون أن هذه جميعاً اكتفى القرآن بذكرها في موضع واحد أو موضعين اثنين، ولكننا حينما ننظر في قضيتنا التي نتحدث عنها، قضية الاستضعاف والتبعية، فإننا نجد أن القرآن الكريم ركز عليها، وذكرها في مواضع متعددة.

ومن عناية القرآن بهذه القضية الخطيرة، أنه لم يذكرها في القرآن المدني فحسب حينما كان المجتمع المسلم فتياً قوياً، بل نجد أن ربنا تبارك وتعالى. بينها لنا كثيراً في القرآن المكيّ كذلك، حينما لم يكن للمسلمين دولة، وكانوا قلة يذيقهم المستكبرون سوء العذاب، ومع ذلك كله يؤكد القرآن كثيراً على هذه القضية الخطيرة.

وسبب ذلك ظاهر لا يحتاج إلى كبير تفكير، ولا عناء في الاستنتاج، فالتبعية والاستضعاف مرض فتّاك يحول بين الأمة وبين رقيها وتقدمها ويخرس فيها صوت الحق، لتشمخ نعرة الباطل، فتنقض عرى الخير، وينتشر الهلع، ويستبد الخوف، ويصبح الجبن والبخل والتملق أسساً في حياة النّاس، فيصير المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، فَتُزين الشهوة لصاحبها، ويحارب الحق وأنصاره، وتتجرد الأمة من مسؤولياتها، فتُستباح الحرمات، وتُحرّم الكلمات المضيئة، وتعاقب الأنفس البريئة، ويشتد بين أفراد الأمة البأس، ويغيب الأمن وينتشر اليأس. ولا يظنن أحد أن في هذا مبالغة أو زيادة، بل الأمر أكثر من ذلك، إنه والله يحبط العبادة، ويحول بين الأمة وبين الريادة والسيادة، ويُذهب من الأمة إتقان العمل، ويسدّ في وجهها كل أمل؛ ذلك هو داء الاستضعاف والتبعية. فكيف عالج القرآن هذه القضية الخطيرة؟

لقد ركز القرآن على هذه القضية المكي والمدني على السواء، لينفر الأمة من هذا الداء، ولنتدبر الآيات البينات تدبراً نرجو أن يحدث في أنفسنا تغييراً، ففي القرآن المكي يقول ربنا تبارك وتعالى:

أولاً: في السور المكية:

١ - في سورة الأعراف قال: ﴿آدخلوا في أمم قد خلت من

قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أُمَّة لعنت أختها حتى إذا آدّاركوا فيها جميعاً، قالت أخراهم لأولاهم ربنا هٰؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ (الآيات ٣٨ - ٣٩).

ومعنى الآية الكريمة أنَّ الفئة المستضعفة قالت من أجل الفئة المستكبرة، أي قالت أخراهم في شأن أولاهم، قالوا ربنا هٰؤلاء أضلونا، ويطلبون من الله أن يضاعف لهم العذاب، لأنهم ضلوا وأضلوا، فيستحقون عذاباً بسبب ضلالهم، ويستحقون عذاباً بسبب إضلالهم، ولكن الله سبحانه يرد مقالتهم، ويقول «لكل ضعف ولكن لا تعلمون» ليسوا هم وحدهم الذين يضاعف لهم العذاب، بل أنتم أيها المستضعفون ينبغي أن يضاعف لكم العذاب فإذا كانوا هم قد ضلوا وأضلوا، فأنتم قد ضللتم ورضيتم بالاستضعاف.

٢ - في سورة سبأ يقول الله سبحانه: ﴿ولو ترى إذِ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول، يقول الذين آستضعفوا للذين آستكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ (سبأ: ٣١ - ٣٣).

فانظر إلى هذه المحاورة الدقيقة التي يسجلها القرآن يقول

المستضعفون للمستكبرين أنتم سبب غوايتنا وأساس إضلالنا، فلولا أنتم لأمنّا، فيرد المستكبرون عليهم لا، لسنا نحن الذين صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم فلقد سمعتموه كما سمعناه، وعرفتموه كما عرفناه، ولكنكم أنتم مجرمون، فيقول لهم المستضعفون لا يا أولئك، ولكنه مكركم في الليل والنهار، كنتم تأمروننا دائماً، بأن نحارب الحقّ، ونتبع الهوى، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، ولكن لا ينفع الندم فلات حين مندم.

٣ ـ في سورة إبراهيم عليه السلام نقرأ هذا المشهد المصوِّر الرائع: **﴿وبرزوا لله جميعاً، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾** (إبراهيم: ٢١).

ونجد في هذه السورة الكريمة زيادة على ما مر معنا في السورتين السابقتين، أن الضعفاء يقولون للمستكبرين إنا كنا لكم تبعاً، فهل تدفعون اليوم عنا عذاب الله؟ وإن لم تدفعوه كله، فهل تدفعون عنا بعضه، ويجيبهم سادتهم في الدنيا: «لو هدانا الله لهديناكم» وهي إجابة فيها مكر وخداع، وبينوا لهم أن الصبر والجزع سواء، فليس هناك من عذاب الله مهرب.

٤ ـ أما سورة غافر فهي تنقل لنا هذا الحوار بين الفريقين، وما يؤدي إليه من نتائج، يقول الله سبحانه **﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار، قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها، إن الله قد حكم بين العباد﴾** (غافر: ٤٧ - ٤٨).

والضعفاء في هذه الآيات جميعها ليسوا هم الذين جاءوا في قول النبي ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»، وإنما هم الذين رضوا بالضعف كما بيناه لكم هناك، وإنما الضعف هنا الرضا بالضعف، وهو ما يسميه القرآن، استضعافاً، ونستأنس لذلك بأن الله تبارك وتعالى ذكره في مقابل الاستكبار، «فيقول الضعفاء للذين استكبروا» والاستكبار إنما يقابله الاستضعاف.

٥ - وفي سورة فصلت نقرأ قول الله سبحانه: **﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلاّنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾** (فصلت: ٢٩).

٦ - وفي سورة الفرقان: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** (الفرقان: ٢٦ - ٢٩).

إلى غير ذلك من مشاهد كثيرة يصورها كتاب الله، كما جاء في سورة الزخرف عن فرعون **﴿فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** ولكننا نكتفي بما ذكرناه من نماذج، هذا كله في القرآن المكي.

ثانياً في القرآن المدني:

أما في القرآن المدني، فنكتفي بذكر موضعين اثنين:

٧ - في سورة البقرة نقرأ قوله سبحانه: **﴿إذْ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم**

حسراتٍ عليهم، وما هم بخارجين من النار﴾ (البقرة ١٦٦ - ١٦٧).

هل يفقه المسلمون هذه الآيات الكريمة وما ترشد إليه؟ الأقوياء والرؤساء، وذوو السلطان والقوة والسطوة هٰؤلاء المتبعون ـ بفتح الباء ـ هٰؤلاء جميعاً يتبرأون من أتْباعهم حينما يرون عذاب الله، فلقد جاء قبل هٰذه الآية الكريمة **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله، والذين آمنوا أشدّ حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا. . .** الخ الآية﴾ (١٦٥ - ١٦٧).

يتبرأ هٰؤلاء جميعاً من أتباعهم حينما يدركون أنَّ القوة لله وحده، لقد كانوا يسخرون من أتباعهم في الدنيا، ولكنهم يوجهونهم كما يريدون، أما اليوم فإنهم يتبرأون منهم؛ لأنهم لا يريدون أن يحملوا أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، وهنا يحدثنا القرآن أن الحمية تثور في نفوس هٰؤلاء الأتباع، فيقولون: «لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا».

وتلوح لي لطيفة دقيقة طيبة في الآية الكريمة، لم تلح لي من قبل، وإنما عند كتابة هذه السطور خلاصتها، أن الضعف مرض يصعب علاجه، من تعوده استمرأه، فلم يقوَ على التحول عنه، ولم يستطع تركه، إنه من هذه الناحية أكثر من المخدرات، فهٰؤلاء الضعفاء الذين استمرأوا الضعف في الدنيا ظلت أشباحه تلازمهم في الآخرة، رغم هول الموقف، وهذا ما لاح لي ـ ولله الحمد والمنة ـ من قوله سبحانه: **﴿وقال الذين آتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا﴾** انظروا ـ أرشدكم الله ـ إلى هذا الأسلوب الرائع، وإلى هذا النظم البديع، فلم يقل القرآن (لو أن لنا كرة فنتبرأ منكم كما تبرأتم منا) لأنهم لم يستطيعوا مجابهتهم ومخاطبتهم،

وإنما يكلم بعضهم بعضاً فيقول بعض الضعفاء والأتباع لبعض «لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم»، انظروا كيف ظل شبح الضعف مخيماً على هؤلاء، وبقي أثره في قلوبهم، فلم يقووا على مخاطبة سادتهم، لم يقولوا لهم لو أن لنا كرة فنتبرأ منكم.

هكذا يصور القرآن الكريم لنا الضعف والتبعية، من أجل أن يتجنبه المسلمون حتى يدركوا نتائجه السلبية وآثاره السيئة، ويقول الله في نهاية هذا المشهد **﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار﴾** كأنما تصور هذه الأعمال أمام أصحابها ليرى المستكبر فتكه وبطشه، وليرى المستضعف خسته وطيشه،

٨ ـ في سورة الأحزاب نقرأ قوله سبحانه **﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا، وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾** (الأحزاب: ٦٦ - ٦٨).

أرأيتم أيها المسلمون عناية القرآن ـ كما قلت لكم من قبل ـ بهذه القضية الخطيرة، وهل رأيتم قضية ما حذّر القرآن منها ونفر عنها، كقضيتنا هذه، كل ذلك لحكمة لا بد أن تدركوها، وتحذيراً لكم من مسالك وعرة يحرم عليكم أن تسلكوها، من أجل ذلك كله ذكر سيدنا رسول الله ﷺ الصنف الأول من أهل النار، هؤلاء الضعفاء «وأهل النار خمسة، الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً».

إن كثيراً من الضعفاء والأتباع يهيمن عليهم الهلع، ويروعهم الجبن، حتى إنهم يضيعون كل شيء من مال وولد في سبيل إرضاء سادتهم، ما أعظم كلمة النبي ﷺ، لقد أدركها المسلمون الأولون في

مجتمع كان يسوده النظام الطبقي والعنصري، ولكن هذه الكلمات المنيرة المضيئة، حولت هذا المجتمع إلى مجتمع أكفاء وسادة. . . . فإذا الأرقاء أئمة. . . صار الأرقاء سادة، لأن السادة أصبحوا عباداً، وهكذا يتساوى الأرقاء والسادة في السيادة، ويتساوى السادة والأرقاء في العبودية، ولكنها عبودية لله.

فما بال هذه الكلمات لا تفعل اليوم ما فعلته بالأمس مع أنه لا رق ولا أرقاء، إننا لا نعدو الحقيقة، ولا نغالي بالقول إذا قررنا بأن ما يعانيه المسلمون اليوم من ضيق وألم، وتمزق ومحن، وضعف وتسلط عدو، إنه في معظمه ناشىء عن مرض الضعف والتبعية، والمسلمون يسمعون كل يوم «الله أكبر».

ولقد جعل الله في الصلاة بين كل حركة وحركة «الله أكبر»، يقولها المصلي حينما يدخل في الصلاة. . . كما يقولها في ركوعه وسجوده ورفعه، كل ذلك من أجل أن تثبت هذه الحقيقة في نفوسهم، وهي أن الكبرياء لله وحده، وأن الناس جميعاً سواء.

ولا ننسى أن السنة المطهرة حرص فيها سيدنا رسول الله ﷺ أن يحذر من هذه التبعية، «من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا»[1].

وإذن فالكتاب والسنة متظافران على تقرير هذه الحقيقة ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون واتقوا فتنة لا تصيبن**

(١) قال في مجمع الزوائد ١٠/٢٤٨ رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعه الرجي وهو متروك.

الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ (الأنفال: ٢٤ - ٢٥).

الصنف الثاني: «والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق الا خانه»

إذا أردنا أن نعرف فظاعة الخيانة، فإن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فمن عرف منزلة الأمانة ورفعتها، أدرك فظاعة الخيانة وخستها، لقد عظم الإسلام أمر الأمانة تعظيماً لا مثيل له، **﴿إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾**.[الاحزاب: ٧٢]

والآيات والأحاديث التي تعظم شأن الأمانة كثيرة، ولو لم يكن فيها إلا هذه الآية، وحديث حذيفة رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المَجْل[2]، كجمرٍ دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً[3] وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلانٍ رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه

---

(١) الوكت: أثر النار ونحوها.

(٢) المجل: التنفط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه، أو من مس النار، وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم.

(٣) منتبراً: مرتفعاً.

مثقال حبة من خردل من إيمان. ولقد أتى عليَّ زمان، ولا أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً رده عليّ الإسلام، وإن كان نصرانياً ردّه عليَّ ساعيه وأما اليوم: فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً»[1].

والخيانة من صفة المنافقين، فإن المنافق هو الذي إذا اؤتمن خان، بل من صفة الذين يعرضون عن الحق أيا كانوا، يقول الله في شأن اليهود: ﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم**﴾ (المائدة: ١٣) وإذا كانت الأمانة عامة تشمل المسؤوليات جميعاً، فيمكن أن تكون الخيانة كذلك، فليست الخيانة أكل أموال الناس، وإخفاء ودائعهم فحسب، إنما الخيانة ترك الواجب، وعدم الاكتراث بالحق، وإضاعة ما كلف به المرء، ودليل ذلك قول الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ (الأنفال: ٢٧) فالخيانة في هذه الآية الكريمة تشمل كل ما كان تفريطاً في حق من حقوق الله، وإضاعة لتكاليف القرآن، وتشمل كذلك ما كان تضيعاً للسنة المطهرة، وتشمل ثالثاً ماكان تضييعاً للمسؤولية التي حُمّلها الإنسان أيا كانت. كما أن الآية تبين لنا أن الحامل على هذه الخيانة في كثير من الأحيان المال والولد.

ولفظاعة الخيانة رأينا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام يستعيذ بالله من الخيانة، ويجمع بينها وبين الجوع، ذلكم لأن الجوع هو المرض المادي الذي لا يقوى الإنسان على تحمله، ولذلك كثيراً ما يعاقب الله به العصاة، والقساة ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف**﴾ (النحل: ١١٢) وإذا كان الجوع كذلك، فإن الخيانة هي العلة الروحية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن - باب إذا بقي في حثالة من الناس ٦٦٧٥/١٣ - ج ٦ ص ٢٥٩٦.

الجـوع هو الذي يفتك بالأجسام.. والخيانة هي التي تفتك بالروح والفكر، ففي الدعاء المأثـور عن النبي عليه وآلـه الصلاة والسـلام «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنـه بئس الضجيع، وأعـوذ بك من الخيـانة فـأنها بئست البطانة»[1].

إن المسلم هو الذي ينصر الله ورسوله.. إن الفاسق هو الذي يخون الله ورسوله. والخيانة علامة من علامة ساعة الأمة، أي علامة من علامـة موتها الروحي والمعنوي، «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعـة[2]» والساعـة يمكن أن تكون يوم القيامة، ويمكن أن تكون ساعة الأمة التي ضيعت فيهـا الأمانة.. اي إذا انتشرت الخيانة في أمة، فلتنتظر ساعتها ونهايتها... هناك تتداعى عليها الأمم من كل جانب، كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

وإذا كانت الأمانة مسؤولية في كل شيء.. وإذا كان الوضوء أمانة، والصلاة أمانة، والزكاة أمانة كما روي عن أبي هـريرة رضي الله عنـه، فإن انتفـاء هذه جميعهـا من الخيانـات.. إن التفريط في الأرض خيـانة.. وإن التواطؤ مع العدو خيانة.. وإن عدم تمكين شرع الله من الحكم خيانـة.. وإن تزوير الحقائق خيانة.. وإن إنكار الحقوق خيانة.

وما أبشع هذه الكلمة!! وما أثقل ظلها وأشد حملها! ما أثقـل ظلها في الدنيا! وأشد حملها في الآخرة.

---

(١) رواه ابن ماجه ـ في كتـاب الأطعمـة ـ بـاب التعـوذ من الجـوع ٥٣/٣٣٥٤ ـ ج ٢ ص ١١١٣ وقال في مجمع الزوائد: في إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم ـ باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فـأتم الحديث ثم أجاب السـائل ـ ٥٩/٢.

معنى كلمة يخفى:

الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ذلكم هو الصنف الثاني من أصناف أهل النار الخمسة، وكلمة يخفى من الأضداد، تطلق على الخفاء والظهور، مثل كلمة أسَرَّ، ويمكن أن نحملها على المعنيين في الحديث الشريف فالخائن الذي لا يظهر له طمع في أي شيء، وإن دق وقل إلا خانه وتجاوز الحد فيه، فقد تحدثه نفسه بإخفاء درهمين ليس له فيهما حق، فتجده يخون في هٰذين الدرهمين، وقد تحدثه نفسه بخيانة شريكه، فيما بينهما. . وهكذا لا يظهر له طمع، في شيء يطمع، إلا تجرأ على هذا الشيء، ولبى رغبة نفسه ـ والنفس أمارة بالسوء ـ ، واستجاب لداعي الشر فوقع في الخيانة. هذا إذا فسرنا كلمة يخفى بمعنى يظهر.

أما إذا أبقيناها على حقيقتها فيكون المعنى عند ذلك ـ والله أعلم ـ أن الخائن لا يتحرى الحلال، فإذا خفي عليه أمر، فإنه لا يتورع عن أن يقع في الخيانة.

كثير من الناس تشكل عليهم بعض الأمور وتخفى عليهم بعض القضايا في المعاملات المالية وغيرها، فمن أنار الله قلبه تحرى الحقيقة، حتى يكون على بيّنة من أمره، وحتى يكون على بصيرة فيما يعمل، وبعضهم لا يبالي فتجده يبيح لنفسه ما لم يتبين له أمره، وكأنه وقع في الأمور المشتبهات التي حذرنا النبي ﷺ منها في قوله: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشتبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملكٍ حمىً، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد

الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

ذلكم هو الصنف الثاني من أصناف أهل النار، اللهم إنا نسألك من كل خير سألك منه عبدك ونبيك سيدنا محمد ﷺ ونعوذ بك من كل شر استعاذك منه عبدك ونبيك سيدنا محمد ﷺ «اللهم إنا نعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ونعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة»[2]

لقد ذم الله هٰؤلاء الخائنين، ونهى نبيه ﷺ أن يدافع عنهم ويخاصم ويجادل، فقال سبحانه ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً وآستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيِّتون ما لا يرضى من القول، وكان الله بما يعملون محيطاً، ها أنتم هٰؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ النساء: ١٠٥ - ١٠٩)

الصنف الثالث: ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك:

الخداع أن يبدي الواحد للآخر خلاف ما يخفيه، لغرض خبيث، ولهذا قالوا أخدع من ضب، والطريق الخادع هو الذي يخدع سالكه، وقد وصف الله المنافقين بالخداع، ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (البقرة: ٩).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ٥٢/٣٧ ـ ج ١ ص ٢٨.
سبق تخريجه قبل قليل ص ٣٩٤

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الأطعمة باب التعوذ من الجوع ٣٣٥٤/٥٣ ج ٢ ص ١١١٣ وقال في مجمع الزوائد: في إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

والخداع من الصفات التي لا يليق بالمؤمن أن يتصف بها، لأنه تزوير ينشأ عن طمع، وكثيراً ما يكون سببه الضعف، وقد يعتاد المرء الخداع حتى يصبح خلقاً من أخلاقه السيئة، وهذا ما عناه النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم «رجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك».

وآفة الخداع تنتج أكثر ما تنتج عن سذاجة في المخدوع، وعدم تبصر، وقلة حيلة، فلقد جاء في السنة أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع دائماً في البيع. فقال له رسول الله ﷺ: إذا بايعت فقل لا خلابة فكان الرجل إذا بايع يقول لا خلابة»[1].

وربما كانت عن حسن نية وسلامة فطرة فلقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله: «من خدعنا في الله آنخدعنا له» فكثير من المسلمين يخدعهم السفهاء، ولقد أخبر الله عن المنافقين بأنهم يخدعون الذين آمنوا، وهذه قضية تختلف باختلاف الأزمنة، فإذا كان الزمان أكثر فساداً، وجب على المسلم أن يحتاط للأمر، وأن يكون نظره بعيداً، وحكمه على الناس متأنياً.

إن كثيراً مما أصاب المسلمين يرجع إلى هذا الخداع، ولهذا الخداع صور متعددة، قد يأخذ المخادع مكانه في الصف الأول في الصلاة وقد يكون ممن يحسنون الكلام، فيتكلم بما يرضى به غيره، وقد يهيء مالاً لينفق منه، كل ذلك من أجل أن يصل إلى مبتغاه، لذلك أمر المسلم بأن

---

(١) رواه أبو داود في كتاب التجارات باب في الرجل يقول عند البيع لا خلابة ٣٤٨٣/٣٣ ـ ج ٩ ص ٣٥٥، ورواه البخاري في كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيع ٢٠١١/٤٨ ـ ج ٢ ض ٧٤٥.

يكون يقظاً حذراً، وإن لدغ من جحر مرة، فلا يجوز له أن يلدغ من جحر مرتين، «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[1].

إن المجتمع المسلم يعاني كثيراً من هذا الخداع ولا زلنا نسمع كل يوم صرخات مؤلمة عن هذا الخداع، فهذا واحد خُدع في ماله، وتلك فتاة خدعت أو خُدع أبوها ووليها في خطبتها، وآخر خدع في أمر من أمور المسلمين، ورابع خدعه متباكٍ يندب حظاً أو يزيّن لفظاً،

والمسلم لا ينبغي أن يكون غرّاً، وبخاصة إذا قلّت الأمانة، وفرغت القلوب من الخير، وحكم الناس هوى مطاع وشح متبع، وأعجب كل ذي رأي برأيه، وتغيرت الأوضاع وانقلبت الموازين، حينئذ يجب على المسلم أن يتيقظ ويتنبه، وأن يكون لسان حاله «لست بالغر ولا الغر يخدعني».

إن مآسي الخداع كثيرة، فنسأل الله أن يصرف عنّا سوء المخادعين، وخداع السيئين، والمؤمن كيِّس فطن[2].. فبعض من تظهر لهم المودة لا يتورعون عن خداعك. يقول أحد هؤلاء:

أذود عن نفسه، ويخدعني
يا قوم من عاذري من الخُدَعَهْ

إنه يدافع عنه، ويبذل ما استطاع في حمايته، ومع ذلك فإنه لا يأبه لذلك كله، ولا يرعوي، بل يكافئه بالخداع والمكر، وهذا بيت من أبيات جيدة استحسنها الزبيدي في تاج العروس، فكان ذا ذوق في استحسانها، وأنا أستحسنها كذلك فأنقلها بتمامها

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٥/٢٢٧١.
(٢) رواه الشهاب القضاعي عن أنس وقال السيوطي ضعيف، وقال المناوي فيه أبو داود النخعي كذاب.

لكلّ همٍّ من الهموم سَعَهْ
والْمُسْيُ والصُّبحُ لا فلاحَ مَعَهْ
أكرِمَنَّ الضعيفَ عَلَّكَ أنْ ترْ[1]
كَعَ يوماً والدُّهْرُ قد رَفَعَهْ
وَصِلْ وِصَالَ البعيد إنْ وَصَل الحَبْ
لَ، وأقصِ القريبَ إنْ قَطَعَهْ
واقبَلْ من الدهْرِ ما أتاكَ به
من قرَّ عيناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ
قد يَجْمَعُ الْمالَ غيرُ آكِلِه
وَيَأكُلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
ما بالُ مَنْ غَيُّهُ مصيبُكَ لا تَمْ
لِكُ شيئاً مِنْ أمْرِهِ وَزَعَهْ
حَتَّى إذا ما انجَلَتْ عَمَايَتُهُ
أقْبَلَ يَلْحَى وغيُّهُ فَجَعَهْ
أذُودُ عن نفسه، وَيَخْدَعُني
يا قَوْمُ، مَنْ عاذري من الخُدَعَهْ[2]

هذا هو الصنف الثالث من أهل النار، فانظر إلى هذا الترتيب البديع، الصنف الأول هم أولئك الأتباع المستضعفون، والصنف الثاني هم أولئك الخائنون المفرطون، والصنف الثالث أولئك الماكرون الخادعون. . . قل لي بربك هل تجد هذه الترتيب في إحكامه، وهذه

(١) وفي رواية أخرى لا تهين الفقير علك أن تركع.
(٢) تاج العروس ج ٢٠ ص ٤٨٦.

الحكم في ترتيبها، إلا عند من أكرمه الله بجوامع الكلم؟

لو أن علماء الاجتماع، والأخلاق، والقانون، والنفس، لو أن هؤلاء اجتمعوا على أن يرتبوا أمراض الأمة، وأدواءها، وأعراضها، وعللها ما كانوا والله ليأتوا بخير من هذا الترتيب، بل ما كانوا ليصلوا إليه كذلك.

التبعية والخيانة والخداع هي الأمراض الأساسية الرئيسة التي ترجع إلى الباطن، فبالتبعية يرتفع صوت الباطل ويعلو. . وبالخيانة تضيع الحقوق. . . وبالخداع تنعدم الثقة، وماذا يبقى للأمة إذا أصيبت بهذه المقاتل جميعاً؟!

الصنف الرابع: البخل أو الكذب:

شك فيها الراوي فقال: «البخل أو الكذب» وهذا الشك يظهر أنه ممن روى عن الصحابي رضي الله عنه، ومعنى هذا أن الصنف الرابع من أهل النار إما أن يكونوا من اتصفوا بصفة البخل، أو من اتصفوا بصفة الكذب وكلاهما يمكن أن يكون له توجيه.

وقد تحدثنا عن البخل من قبل، أما الكذب فيكفي أن نذكر فيه قول الرسول ﷺ «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1]، وقد سئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جباناً فقال: نعم فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا[2].

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب قبح الكذب وحسن الصدق ٢٦٠٧/١٠٣.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجامع باب ما جاء في الصدق والكذب (شرح الزرقاني ٤٧٧/٥).

وكون المؤمن جباناً بخيلاً معناه أنه المؤمن الذي نقص إيمانـه، ولكنه لا يكـون كذابـاً، وذلك لأمـرين اثنين: لفـظاعة الكـذب من جهة، ولأن معنى كذاب أي تعود الكذب، والمؤمن لا يكون كذلك فهو إن كذب مـرة ندم واستغفر.

ويكفي في ذم الكذب وعقوبته ما روي في صحيح البخاري ـ رحمه الله عن سمـرة بن جنـدب عن النبي ﷺ في حـديث طـويـل قـال: رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجـل جـالس، ورجل قـائم بيده كلُوب من حـديد، (قـال بعض أصحابنـا عن موسى) إنه يدخل ذلك الكلّوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقـه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا، فيعـود فيصنع مثله، قلت: مـا هذا، قالا انطلق فانطلقنا. . قلت: طوفتماني الليلة، فأخـبراني عما رأيت. قـالا: نعم، أما الذي رأيته يُشَق شِدْقُهُ فكذّاب، يحدّث بالكـذبة، فتُحمـل عنه حتى تبلغ الأفاق، ويصنع به إلى يوم القيامة. .[1]»

عن عبدالله بن عامر أنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت ها (هاه) تعال أعطيك فقال لهـا رسول الله ﷺ، ومـا أردت أن تعطيه؟ قالت أعطيـه [قالت أردت أن أعـطيه تمـراً فقال لهـا رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة»[2]

وعن أسماء بنت يزيد قالت: يـا رسول الله إن قـالت إحدانـا لشيء

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنـائز بـاب ما قيـل في أولاد المشركين ٩١/١٣٢٠ ـ ج ١ ص ٤٦٥.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب باب التشديد في الكذب ٤٩٦٨/٨٩ ـ ج ١٣ ص ٣٣٣. قال المنذري: مولى عبدالله مجهول.

تشتهيه لا أشتهيه، يُعدّ ذلك كذباً؟ قال: وإن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكذيبة كُذيبة[1].

الصنف الخامس: الشنظير الفحاش.

وإذا جاز لنا أن نرجح الصنف الرابع هل هم أصحاب البخل أو الكذب، فقد نرجح الكذب، فتتفق الصفات، لأن كلاً من الكذب والفحش من آفات اللسان، وهكذا يشتمل الحديث على صفات متنوعة متعددة منها أمور قلبية باطنية ومنها أمور ظاهرة لسانية.

والشنظير كما فسره الرسول الكريم ﷺ هو الفحاش، والفحش والفاحشة كل ما يشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة، من الأقوال والأفعال، قال ﷺ «إن الله يبغض الفاحش المتفحش[2]» والفاحش، والفحش في كلامه وأفعاله، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمده[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في ذم الفحش:

١ ـ فعن عائشة قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: آئذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم ألنت له الكلام؟ قال: أي

---

(١) رواه أحمد ج ٦ ص ٤٣٨ قال في المجمع ١/١٤٢ ورواه الطبراني في الكبير في حديث طويل وفي إسناده أبو شداد عن مجاهد، قال في الميزان لم يروِ عنه سوى جريج، قلت قد روى عنه يونس بن يزيد الأيلي في هذا الحديث في المسند فارتفعت الجهالة.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده الجزء الثاني ص ١٦٢.

(٣) النهاية لابن الأثير ج ٣ ص ٤١٥.

عائشة إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه)[1]

٢ ـ وعنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم فقالت عائشة عليكم ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش»[2]

٣ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: لم يكن النبي ﷺ سباباً، ولا فحاشاً ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة (ماله ترب جبينه)[3].

٤ ـ وعن ثابت بن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه)[4]

٥ ـ وعن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء)[5]

٦ ـ وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء)[6]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد /٥٧٠٧/٤٨ ـ ج ٥ ص ٢٢٥٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ٥٦٨٣/٣٨ ـ ج ٥ ص ٢٢٤٣.

(٣) ترب جبينه: أصابه التراب ولصق به وهي كلمة تقولها العرب ولا تقصد معناها، وقيل: معناها الدعاء له بالطاعة والصلاة، والحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ـ ٥٦٨٤/٣٨.

(٤) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في الفحش والتفحش ١٩٧٥/٤٧ ـ ج ٦ ص ١٩٨. وقال: حديث حسن غريب.

(٥) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في اللعنة ـ ١٩٧٨/٤٨ ـ ج ٦ ص ١٩٩ وقال: حديث حسن غريب.

(٦) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في حسن الخلق ـ ٢٠٠٣/٦٢ ـ ج ٦ ص ٢٠٣ وقال: حسن صحيح.

الخماسية الثانية والعشرون

عن أبي ذر[1] قال: «أوصاني حبي بخمس، أرحم

(١) أبوذر الغفاري، اختلف في اسمه والمشهور أنه جندب بن جنادة، وقصة إسلامه في الصحيحين، عن ابن عباس قال: لما بلغ أباذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ياتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني فانطلق الأخ حتى قدم وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاما ما هو بالشعر فقال: ما شفيتني مما أردت فتزود وحمل شنة فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل فاضطجع فرآه عليّ فعرف انه غريب فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى فعاد إلى مضجعه فمر به علي فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله، فأقامه فذهب به معه لا يسأل أحدهما صاحبه عن شيء حتى كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه فقال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك قال: إن اعطيتني عهداً وميثاقا أن ترشدني فعلت، ففعل فأخبره فقال: انه حق وإنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئا أخافه عليك قمت كأني أريق الماء فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه وسمع من قوله فأسلم مكانه فقال له النبي ﷺ ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك امري. فقال والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا عليه فأكب العباس عليه [صحيح البخاري، كتاب المناقب]

وعن ابن مسعود قال: كان لا يزال الرجل يتخلف في تبوك فيقولون يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه. فتلوم أبوذر على بعيره فأبطأ عليه فأخذ متاعه على ظهره ثم خرج ماشيا فنظر ناظر من المسلمين فقال: ان هذا الرجل يمشي على الطريق فقال رسول الله ـ

المساكين وأجالسهم وانظر إلى من هو تحتي ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أصل الرحم وإن أدبرت، وأن أقول بالحق وإن كان مرّاً، وأن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله، يقول مولى غُفرة لا أعلم بقي فينا من الخمس إلا هذه، قولنا لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

أكْرِم بهذا الحديث مزكياً للنفس، مترفعاً بها عما يشينها ويُدسّيها، مطهراً للفؤاد، مهذباً للضمائر، كذلك أقوال النبي عليه وآله الصلاة والسلام في معالجتها للنفوس، وفي دوائها لأمراضها، فكلمات النبوة تشفي النفوس من سقامها، وتزيل عنها كل ركامها، وما أحوجنا في هذا المجتمع المادي الذي طغت فيه الأنانية، وسيطر عليه الهوى، واستبد به الحقد، وغلبت عليه النزعة الفردية، وأُعجب كلٌ برأيه، وذاق فيه كل واحد طعم نفسه، أقول ما أحوجنا في هذا المجتمع إلى الكلمات النبوية في هذا الحديث نتنسم فيه ريح الطهر، ونَشَمُّ منه عبيق الزهر، ونجد فيه صفاء الدهر، الذي يذهب عنا كدورة الحياة فما أحوج نفوسنا إلى هذا الصفاء.

وإذا نظرنا إلى هذه الخصال الخمس، وجدنا فيها الحكمة الجامعة، فهي تحكم علاج النفس من كل جانب، وإليكم البيان:

= ﷺ: كن أبا ذر»فلما تأملت القوم قال قالوا يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال: يرحم الله أبا ذر يعيش وحده، ويموت وحده، ويحشر وحده، مات سنة إحدى وثلاثين [الاصابة ٤/٦٥]

(١) أنظر الفتح الرباني ج ١٩ ص ١٩٦ وقال في تخريجه «أورده المنذري مختصراً وقال: رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه. قلت: في إسناده عمر مولى غفرة بضم المعجمة ضعيف.

الوصية الأولى: أرحم المساكين وأجالسهم:

الوصية الأولى يرحمكم الله من الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، لأبي ذر رضي الله عنه، أن يرحم المساكين ويجالسهم، والإنسان مطبوع على الترفع عمن هو دونه، تسوّل له نفسه، ويوسوس له شيطانه بأن ما أعطيه من حظ في هذه الدنيا يمنحه التفوق، ويكسبه الفضل، هكذا يظن كثير من الناس، يظنون أنهم خير من غيرهم، لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً،

وصدق الله وهو يصور لنا نفسية هذا الإنسان ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا**﴾ (الفجر: ١٥ ـ ١٧). هكذا يرد الله على هٰؤلاء بهذا الردع القوي، كثرة المال لا تدل على الفضل، ولكنها نعمة من نعم الله يجب أن تشكر حتى تدوم، فبالشكر تدوم النعم.

والنبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، وهو الحريص علينا كما وصفه ربه يبيّن لنا كيف نعالج أمراض النفس حتى تذهب أدرانها، وكيف نتغلب على هوى الشيطان ووساوسه.

ومن أنجع طرق العلاج، من أنجعها وأجمعها للخير، وأسرعها في الشفاء، وأنفعها في مقاومة الهوى، الرحمة بالمساكين ومجالستهم، ذلكم ما أوصى به النبي ﷺ؛ فالرحمة رقة في القلب تحمل صاحبها على الإحسان.

سر الجمع بين رحمة المساكين ومجالستهم:

وإن خير علاج للنفس أن نحملها على ما تكره، وأن نعودها على ما يشق عليها ويصعب. وإن من حكمة النبي الكريم جزاه الله عنا خير ما يجزي نبياً عن أمته، أن أحكم لنا كل شيء وعلمنا الخير من جميع جوانبه

فهذه الوصية كما نرى اشتملت على جانبين اثنين، كل منهما يكمل الآخر: رحمة المساكين ومجالستهم، فالرحمة من صفات القلب، ولكن المجالسة أمر خارجي، ولكن لم جمع النبي بينهما؟ إن ذلك من أجل أن يتم تطهير النفس، ويزول منها كل أثر لكبر، والكبر مرض خطير.

قد نجد بعض الطيبين تتجلى صفة الرحمة في قلوبهم، ولكنهم مع ذلك تؤثر عليهم عوامل خارجية، تحول بينهم وبين أن يخالطوا المساكين ويجالسوهم. . ، تتجلى فيه صفة الرحمة فيتألم أو يحن أو يتصدق، ولكنه مع ذلك يجد في نفسه شعوراً آخر، وهو شعور الترفع عمن هم دونه، هذه الرحمة التي يسمونها اليوم شعوراً إنسانياً، فلا بأس أن يكون لهذه الرحمة في نفسك أثر، ولكن ليس من شأن هذه الرحمة أن تنزلك من برجك العاجي، وأن تفتح عليك بابك الساجي، هذا ما يراه كثير من الناس في عصرنا.

ولكن الإسلام لا يكتفي بذلك، لأنه لا يكتفي بأنصاف الحلول، ولأنه كل لا يتجزأ، ولأنه يزيل الشر بإزالة أسبابه، ويعالج المرض بمنع مقدماته، والوقاية خير من العلاج، بل درهم وقاية خير من قنطار علاج.

لعلكم - أرشدكم الله - أدركتم الحكمة التي أوصى النبي ﷺ لأجلها برحمة المساكين ومجالستهم. إن الرحمة تنبع من سلامة الفطرة، وصحيح الفكرة، ولكن هذا لا يكفي، بل لا بد من أن نجد ذلك في مسلكنا كذلك، ومن هنا كانت المجالسة أمراً لا بد منه إلى جانب الرحمة، فمجالسة المساكين تطبيق عملي وتنفيذ واقعي ومظهر من مظاهر هذه الرحمة، وهكذا نتغلب على قلوبنا ونفوسنا، وعلى كل العوامل التي من شأنها أن تعمق الهوة بيننا وبين أولئك الضعفاء،

وهناك حكمة ثانية لا تقل عن هذه للجمع بين الرحمة والمجالسة، ذلكم أن الرحمة شعور باطني لا يشعر به المسكين والضعيف، إنه شعور يتفاعل في نفسك. أما المجالسة فهي التي تملأ نفس هؤلاء الضعفاء سروراً وغبطة، وحبوراً وفرحاً، وتشعرهم بهذه العوامل المشتركة بينك وبينهم، إنها جانب ميداني، ودرس عملي يأمرنا النبي الكريم أن نتعلمه، وإنه ليملأ نفس المسكين غبطة حقاً، أن تبادله مشاعر الإخاء والحبّ.

إن كل كلمة من كلمات النبوة تعني هدفاً ما أحرى المسلمين أن يستنتجوه ويبحثوا عنه.

رحمة المساكين ومجالستهم تطهير لجانبي الظاهر والباطن في هذا الإنسان، فالرحمة تطهير لباطنه، والمجالسة تطهير لظاهره.

رحمة المساكين ومجالستهم تغلب على هواجس النفس ووساوس الشيطان.

الرحمة بالمساكين ومجالستهم تغلب على صفتي القسوة والكبر، وهما من أجمع الصفات للشرور.

الرحمة بالمساكين ومجالستهم تخلية للنفس من الشر، وتحلية لها بصفات الخير.

وهناك حكمة ثالثة من أجلها جمع النبي عليه وآله الصلاة والسلام بين الرحمة والمجالسة، ذلك أن الرحمة تشعر بها أنت وحدك، ولكن بمجالستك للمساكين تعطي غيرك دروساً، فتصلح بذلك نفوساً، وهكذا تكون سبباً في حملك غيرك على الخير فتكون ممن قيل فيهم «طوبى لمن هم

مفاتيح خير مغاليق شر»، و«من سن في الإسلام سنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها»[1].

والحكم كثيرة التي يمكن أن ندركها من الجمع بين المجالسة والرحمة غير ما ذكرته لكم، فبالرحمة تسمو نفسك، وبالمجالسة يرهف حسك، ويدوم أنسك.

بالرحمة يحبك الله وبالمجالسة يرفعك الله، فإن من تواضع لله رفعه، صلَّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى آلك وصحبك وسلم تسليماً كثيرا.

اللهم اجعلنا ممن يرحمون المساكين، وهيىء اللهم لنا مجالسة المساكين.

الوصية الثانية: النظر إلى من هو تحته

الصفة الثانية في هذه الخماسية الرقيقة المطهّرة، اليانعة المزدهرة، التي نرجو الله أن تكون في نفوسنا نافعة مثمرة «أن أنظر إلى من هو تحتي ولا أنظر إلى من هو فوقي»

لقد أكدت السنة المطهرة على هذه الصفة في مواضع كثيرة، وهو أن لا ننظر إلى من هو فوقنا، وإنما ننظر إلى من هو دوننا، ذلك لأن النبي عليه وآله الصلاةوالسلام،يريد أن يعالج النفوس بالوقاية من المرض، قبل أن يكون مرض، وهذه الصفة في الحقيقة من الصفات التي تقي الإنسان كثيراً من الشرور، وتحول بينه وبين كثير من المنزلقات، ومن الحكمة أن نعالج الشر قبل أن يستفحل، لا بل قبل أن يقع.

(١) رواه مسلم في كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ١٥/٦ ـ حديث ١٠١٧.

لقد أكّد النبي عليه وآله الصلاة والسلام. على هذه الصفة ـ كما قلت ـ فجعلها علامة من علامة المسلم الصادق، الشاكر الصابر، فقد أخرج الترمذي «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضّله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً»[١]. وقال ﷺ «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من (هو) فوقكم فإنه اجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[٢].

وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله، وعليك بتلاوة القرآن وذكر الله تعالى فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض، عليك بطول الصمت إلا في خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك، وإياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه، عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي، أُحِبَّ المساكين وجالسهم، وانظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك، صل قرابتك وإن قاطعوك، قل الحق وإن كان مراً لا تخف في الله لومة لائم، ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك، ولا تَجِدْ عليهم فيما تأتي، وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال أن يعرف من الناس ما يجهل من نفسه، ويستحيي لهم مما هو فيه،

(١) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب النظر في الدين لمن هو أعلى ٢٥١٤/٥٩ ج ٧ ص ٢٠٠ وقال حديث حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب النظر في الدين لمن هو أعلى ٢٥١٥/٥٩ وقال حديث صحيح.

ويؤذي جليسه، يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحُسن الخُلق»[1].

ومن هذه الأحاديث الشريفة، والآثار الطيبة المنيفة ندرك الحكمة من هذا التوجيه النبوي، فنظرة الإنسان إلى من فوقه، تجلب له العناء والأرق فتمنعه الراحة، ويكثر حزنه وهمه، وربما يصل به هذا إلى السخط على الله ـ نعوذ بالله.

إن نظر الإنسان إلى من فوقه يدخله مداخل ضيقة، فما أجدرنا أن ينظر أحدنا إلى من هو دونه في دنياه وإلى من هو فوقه في أمور دينه، فيكون هادىء النفس، راضياً بحكم الله، مستعداً للإكثار من الطاعة، ينظر في دنياه إلى من هو دونه، فيشكر الله سبحانه، وينظر في أمور دينه إلى من هو فوقه، فيصبر على العبادة حتى يلحق بصاحبه، وهكذا يكتبه الله شاكراً صابراً، فعالجوا أنفسكم ـ منّ الله علينا وعليكم بالعافية ـ بهذا العلاج النبوي النافع.

الوصية الثالثة: وأن أصل الرحم وإن أدبرت

حرص النبي ﷺ على كل ما فيه خير للجماعة المسلمة، حتى تكون متآلفة متحابة، يصل بعضها بعضاً، تنتشر فيهم الرحمة، ويمتازون بالمودة بين الناس، لذلك لا نعجب إن كانت عناية الإسلام بصلة الرحم عظيمة، وأن يشدد النكير على من يقطع الرحم ويهجرها، نجد ذلك مبثوثاً في الكتاب والسنة على السواء، يقول الله سبحانه: ﴿يا أيها الناس اتقوا

---

(١) قال المناوي رواه الطبراني عن أبي ذر ورواه الديلمي في مسند الفردوس وقال السيوطي حديث حسن (فيض القدير ٣/٧٧) وقال في مجمع الزوائد رواه الطبراني في الصغير والكبير وزاد وأن لا أسأل الناس شيئاً ورجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة ورواه البزار.

ربكم الـذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها وبثّ منهـما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلـون به والأرحـام﴾ (النساء: ١) وفي الآية قراءتان سبعيتان متواترتان: الأولى بنصب الأرحـام والثانيـة بجرها، وعلى كلتا القـراءتين فـإن في الآية تعـظيماً لشـأن الرحم.

أما على القراءة الأولى فالمعنى واتقوا الأرحام فلا تقطعوها، وحافظوا عـلى وصلها فـلا تهجروهـا. وأما قـراءة الجر، فمعنـاها واتقـوا الله الـذي تساءلون به وبالأرحـام، حيث كان يسـأل بعضهم بحق الرحم، كـما كان من عبدالله بن جعفر مـع سيدنـا علي، رضي الله عنهم جميعـاً، كأن يسـأله بحق جعفر. وهكذا تبين لنا الآية الكريمة حرمة الرحم، وعظيم منزلتها.

وهناك آية أخرى من كتاب الله ولكنهـا تحدثنـا حديثـاً آخر، تحـدثنا عن جـريمة أولئـك القاطعـين لأرحامهم وعـما ذكر لهم من صفـات. يقول سبحـانه: **﴿فهـل عسيتم إن توليتم أن تفسـدوا في الأرض وتقـطعـوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾** (محمد: ٢٢ - ٢٣).

وفي السنة أحاديث كثيرة تبين صلة الرحم سنشرف بذكـر بعضها إن شاء الله، إلا أننا ينبغي أن ننبه هنا إلى مسألتين اثنتين:

أقسام الرحم:

أولاهما: هي أن العقيدة رحم بين المؤمنين، والعلم رحم بين أهله، وعلى هذا فالرحم قسمان: رحم عامة ورحم خاصة أما الرحم العامـة فهي بين المؤمنين جميعاً، وعلى هذا فلا بد أن يصل المؤمنون بعضهم بعضاً، وما أكثر التوجيهات النبوية في هذا الأمـر، أن تزور أخـاك في الله، وتصله لله، وتحبه في الله.

ما يشمله الرحم:

المسألة الثانية: صحيح أن الرحم تشمل أول من تشمل النساء، ولكن هناك رجال بينك وبينهم رحم ينبغي أن لا تقطع، فخالك وآبن أختك بينك وبينهم رحم، والرحم من النساء قد تكون محرمة عليك، كأختك وخالتك وعمتك، وقد تكون غير محرمة، والصلة تختلف باختلاف مراتب هؤلاء، فالرحم من المحارم تكون صلتها بزيارتها والجلوس معها، وإدخال السرور إلى قلبها، أما الرحم من غير المحارم فينبغي أن تصلهن كذلك، ولكن بما لا يتنافى مع الشرع، يمكن أن تزورها مع أهلك مثلاً، أو أن تصلها بأي نوع من أنواع البر متجنباً الإثم في هذه الصلة.

ثم أن صلة الرحم ينبغي أن تكون صلة خالصة لوجه الله، لأن كثيراً من الناس تتوقف صلتهم للرحم على معاملة الأرحام لهم، فهو يصل الرحم إن كان هناك صلة وداعٍ يدعو إلى هذه الصلة، فمعاملته للأرحام لا تختلف عن معاملته لغيرهم، وهذا غير صحيح، وهذا ما يرشد إليه سيدنا رسول الله ﷺ «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[1] وترشد إليه هذه الوصية التي نتحدث عنها «وأن أصل الرحم وإن أدبرت»

إن كثيراً من الناس يقاطعون أخواتهم أو خالاتهم أو بناتهم لأدنى سبب من الأسباب، وقد يكون تافهاً هزيلاً، فالسعيد من تغلب على نفسه، وأحكم منافذها حتى لا يدخلها الشيطان، ووصل الرحم وإن أدبرت.

(١) أي الذي يصل غيره مكافأة له على ما قدم من صلة، مقابلة له بمثل ما فعل، ليس بواصل حقيقة، لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة والحديث رواه البخاري في كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكافىء ١٥/٥٦٤٥ ج ٥ ص ٢٢٣٣.

وإليكم ما جاء في السنة المطهرة.

١ - قـال ﷺ: إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب قال فهو لك، قال رسول الله ﷺ فاقرأوا إن شئتم «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»[١]

٢ - وقال ﷺ. من أحب أن يُبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه[٢].

٣ - وقال ﷺ «لا يدخل الجنة قاطع»[٣]

٤ - عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ «إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»[٤]

٥ - عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة؟ قال: نعم صلي أمك»[٥].

٦ - وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب من وصل وصله الله ١٣/٥٦٤١ ج ٥ ص ٢٢٣٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ١٢/٥٦٣٩ ج ٥ ص ٢٢٣٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب باب إثم المقاطع ١١/٥٦٣٨ - (٥/٢٢٣١)

(٤) رواه البخاري في كتاب الأدب باب من وصل وصله الله ١٣/٥٦٤٢ ج ٥ ص ٢٢٣٢.
(شجنه) يجوز في الشين الضم والكسر والفتح وهي في الأصل عروق الشجر المشتبكة (من الرحمن) اشتق اسمها من هذا الاسم الذي هو صفة من صفات الله والمعنى: أن الرحم أثر من آثار رحمته تعالى مشتبكة بها، فمن قطعها كان منقطعاً من رحمة الله ومن وصلها وصلته رحمة الله.

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب باب صلة المرأة أمها ولها زوج ٨/٥٦٣٤.

رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ماله؟ ماله؟ فقال رسول الله ﷺ (أرَبُ مالَهُ) فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم»[1]

٧ - وعن حكيم بن حزام أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل، قال على ذي الرحم الكاشح»[2].

الوصية الرابعة: وأن أقول بالحق وإن كان مراً:

ما أعجب هذه الوصية النبوية، وما أعظمها في معالجة النفس الإنسانية، انظر إلى كل صفة من هذه الصفات تدرك أنها بحاجة إلى أن تتغلب على هوى نفسك، وأن تجاهدها، يظهر هذا في مجالسة المساكين وهي الصفة الأولى وفي نظرك إلى من هم دونك وهي الصفة الثانية، وفي صلتك الرحم وإن أدبرت وهي الصفة الثالثة، ويتجلى ذلك واضحاً في هذه الوصية الرابعة.

إن هناك عوامل كثيرة تحدد معاملة الإنسان وتعامله مع غيره، وهذه العوامل كثيراً ما تؤثر على مسلكياته بين الناس، بل ربما تؤثر على أفكاره كذلك، فقد يتغاضى في كثير من الأحيان عن كلمة ينبغي أن تقال، ويجب أن لا تخنق، ولكنه قد يتغاضى عنها لسبب ما يحول بينه وبين هذه الكلمة.

إن حياة الإنسان محفوفة بالعوائق والصعوبات، ومن هنا حفت الجنة بالمكارة؛ ولذا فقد يتحكم في هذا الإنسان لقمة عيش، أو علاقة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب فضل صلة الرحم ٥٦٣٧/١٠.

(٢) رواه أحمد بن حنبل ٤٠٢/٣ ورواه الدارمي في كتاب الزكاة - باب الصدقة على القرابة حديث ١٦٨٦ - ج١ ص ٣٣٤. والكاشح: العدو الذي يضمر عداوته ويطوي عليها كشحه اي باطنه والكشح الخصر، أو الذي يطوي عنك كشجه ولا يألفك. [النهاية في غريب الحديث لابن الاثير (١٧٥/٤)].

شخصيـة، ومصلحة خـاصـة. ولكن المسلم يجب عليـه أن يتخـطى هـذه العقبات جميعاً، وأن يجتاز تلك العوائق، وأن يخترق أسوار هذه المصاعب، رغم مـا قد يجـد من حرج وضيق ومـرارة، ولكن لماذا ذلـك كله يا تـرى؟ ذلـك لأن للمسلم رسالـة، ولأن المسلم يوقن أن مـا في هذه الـدنيا كله لا يعدل لحظة من لحظات رضوان الله، وأن الدنيا كلها لا تعدل شبراً مما أعد الله لهـذا المسلم في الجنـة «لمـوضـع سـوط في الجنـة خـير من الـدنيـا ومـا فيها»[1].

قد يذهب المسلم لصندوق الاقتراع ليختار بين مرشحين أو ثلاثة، وقـد تحتم عليه عـوامل القـرابة أو الصـداقة، ووسـائل الإغـراء وعـوامـل التهديد، قد يحتم عليه ذلك كله وغير ذلـك من عوامـل متعددة أن يقـول كلمته في انتخاب شخص مـا، ولكن هذا الشخص لا يستحق أن يُعـطى هـذه الكلمة، لأنّ هنـاك خيراً منـه وأولى منـه

هنا يمتحن المسلم، ولكنه يبرهن بعد كـل عوامـل المشادة بينـه وبين نفسه، أنه لن يفرط في غايته الكبرى وهي رضـوان الله. فيتغلب على كـل وسـائـل الإغـراء، وعـوامـل الـوعيـد، وعـلى كـل الأصـوات المختلطة، والأصوات المشرعة، فيقول الحق ولو كـان مرّاً، هكـذا أوصاه النبي عليـه وآله الصلاة والسلام.

ولقـد ركز القـرآن الكريم كثيـراً على قـول كلمة الحق، مهـما كانت قسـوة المجتمع، وسـطوة الباطـل، وهيمنـة الحـاجـة، ولا بـد للمسلم أن يتجاوز عنق الزجاجة: أقول شدد القرآن الكريم مكيُّه ومدنيُّـه. يقول الله سبحانه: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ (الأنعـام: ١٥٢) فالله تبارك وتعالى يقول الحق، ويحب لعباده أن يقولوا الحق كذلك، لأن قـوتهم من قـوة الله، ويقول الله سبحـانه ﴿**يـا أيها الـذين آمنوا كـونوا قـوامـين**

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق. وقد سبق تخريجه.

بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (النساء: ١٣٥).

فكلمة الحق أمانة، كما جاء في كثير من الأحاديث الشريفة، فمن كتمها كتم الأمانة، وكتم شهادة الحق، **﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾**

وليست الفضيلة أن تقال كلمة الحق في حال اليسر، وسعة الأمر. . . . . أن تقال كلمة الحق في حال الطمأنينة والأمن. . . أن تقال كلمة الحق لمن لا تخشى سطوته، وترهب سلطته. أقول ليس من الفضيلة، فضيلة الدين، أن تقال كلمة الحق في هذه المواطن، وتختفي في غيرها، ثم إن كلمة الحق من مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي تحدثنا عنه من قبل.

وإن كثيراً من الهزات العنيفة، والنكسات الخطيرة، التي لحقت بالمجتمع الإسلامي فزلزلت بنيانه، وصدّعت أركانه ليست سوى نتيجة حتمية لهذه الصفة الخطيرة، أعني ترك كلمة الحق، وقولة الحق.

إن علو الدرجة، ورفعة المنزلة، وروعة الحق، وصدق الإيمان، وعظمة الأجر، أن تقول كلمة الحق، تحفك المخاطر في قولها، أن تقوله ولو كان مُراً، أما إذا كان الحق حلو المذاق، سهل المساغ، فلن يمتنع أحد عن قوله،

أليس مما يقضّ المضاجع، ويدمي القلوب، ويبعث الألم أن نجد هذه الصفة (قول الحق) عند كثير من الأمم غير المسلمة أمراً طبعياً ولكن المسلمين وحدهم هم الذين ضعفت فيهم هذه الصفة وتلاشت؟! حتى أولئك الذين يملكون أزمّة التوجيه، تلكم والله سُبّة الدهر، وقاصمة الظهر، فلماذا يجبن المسلمون عن قول الحق وهم يعلمون أن رزقهم وأجلهم بيد الله وحده؟! فلنتق الله في أنفسنا، ولنتدبر قوله سبحانه: **﴿ما**

يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾(ق: ١٨) ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ (التوبة: ١٣).

فإذا تصورت خوفك من الناس، فلا تنس عظمة الله تبارك وتعالى.

وإذا وجدت حرجاً من قول الحق، إذا وجدت حرجاً في نفسك، فلتذكر ساعة قبرك ورمْسك، ولتفكر حينذاك في وحشتك أو أُنسك، فلا تمنعنك حاجتك في الأرض عن تذكر الحساب والعَرض.

واعلم أن كلمة الحق في كثير من الأحيان ربما لا تكون نفلاً، بل هي عين الفرض، واعلم أن الجبن رذيلة، استعاذ منها سيدنا رسول الله ﷺ، وعلمنا أن نستعيذ منها صباح مساء، اللهم امنحنا القدرة على الحق قولاً وعملاً. وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الوصية الخامسة: لا حول ولا قوة إلا بالله:

لا حول ولا قوة إلا بالله، مفتاح من مفاتيح الجنة، بل هي كنز من كنوزها، وقد تحدثنا من قبل عن بعض ما لهذه الكلمة من فضل ومنزلة.

وقد ورد في تفسيرها اللهم لا حول عن معصيتك إلا بعصمتك، ولا قوة على طاعتك إلا بمعونتك وهذا مجمع الخير كله، فإن غاية التوفيق، وأعظم السعادة أن يلطف الله بالإنسان ويمنّ عليه فيعصمه عصمة تحول بينه وبين المعصية، وأن يوفقه فيقويه على طاعته، وبهذه المنة يفوز بالرضا وجميل القضا، وهل هناك خير من أن نتجنب المعاصي، ونقوى على

الطاعات، هناك تكون السعادة والفوز ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ [آل عمران: ١٨٥] لذلك كان فضل هذه الكلمة عظيماً «لا حول ولا قوة إلا بالله»

وقد كان النبي عليه وآله الصلاة والسلام يعلمها أصحابه الذين يسألون عن كلمات يقولونها، كما جاء في صحيح الإمام مسلم، فعن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر: فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ: أيها الناس: أربعوا أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم، قال: وأنا خلفه، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال: يا عبدالله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى يا رسول الله قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني كلاماً أقوله، قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: قل اللهم اغفر لي وارحمني، واهدني وارزقني فإن هٰؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك»[2].

وعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه قال: فمر بي النبي ﷺ وقد صليت فضربني وقال: ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ قلت: بلى، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)[3]

حكم ترتيب هذه الأمور في الحديث:

ولكن الذي ينبغي أن نقف عنده ـ أرشدكم الله ـ هو هذا الترتيب في هذه الخماسية الرائعة العظيمة الفضل، الكثيرة الفائدة، المتعددة جوانبها

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر ـ باب استحباب خفض الصوت بالذكر ١٣/٢٧٠٤ ـ ج ٤ ص ٢٠٧٦، والبخاري في كتاب الدعوات: باب الدعاء إذا علا عقبة.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء ـ باب فضل التهليل والتكبير والدعاء ـ رقم ٢٦٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم ٣٥٧٦ ـ باب في فضل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهو حديث حسن.

الخـيِّرة، أنْ نقف عنـدهـا في هـذا الـترتيب المحكم، فكيف بدأت بـرحمـة المساكين ومجالستهم، والنظر إلى من هو دونك، وصلة رحمك، وقولـة الحق أياً كانت مرارته وختمت بهذه الكلمة الطيبة لا حول ولا قوة إلا بالله».

ذٰلكم لأن هذه الكلمة الـطيبة تـطرد شبح الضعف، وتـزيل سلطان الخوف، وتمحو من النفس ركام اليأس، فهي تمد المسلم بكل قـوة، وتمنعه من أن ينزلق في أيّة هوة، ذٰلكم أن المسلم حينما يقول لا حول ولا قـوة إلا بالله، مطمئناً بها قلبه، صادقـاً بها لسـانه، يقـولها من قلب شـاكر ولسـان ذاكر.. يقولها من قلب سليم ولسان صادق، فإنـه بقولتـه يتخفف من كل أثقاله ويرمي بجميع أعبائه وأحماله، لأنه يتبرأ من حـوله وقـوته، ويعـترف بضعفه وذلته، فلا حول له ولا طول، ولا قوة ولا صول، إلا بـالله العزيـز الحكيم، العليّ العظيم، فهو يصول بالله ويحول بالله، فتزكـو جميع أقـواله، وتصلح جميع أعماله.

إن قول هذه الكلمة الطيبة قولاً ليس في ظاهر اللسان، بل يتفـاعل معه القلب، يطهر المسلم من الكبر، ويبرِّئه من القسوة، ويحارب في نفسـه أسباب الطغيان، فيرحم المساكين ويجالسهم، ويرضى بما قسم الله له، فـلا ينظر في دنياه إلى من هو فوقه، ويصـل رحمـه، لا صلة مكافىء، وإنمـا صلة ممتثل لأوامر ربـه ونبيه ﷺ، ولا يبـالي بقولـة الحق، لا يطمعـه وعد، ولا يرهبه وعيد، كل هـذه الصفات الخـيِّرة، والسمات المضيئـة النيِّرة، تنميهـا وتثبتها... تلكم الكلمة الطيبة، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولعلنـا تذوقنـا هذه الحـلاوة، حـلاوة هـذا السر الـرائـع والـترتيب البديع،حيث كانت آخر صفة في هذه الوصية. .لا حول ولا قوة إلا بالله.

فصلَّى الله على من منحه الله جوامع الكلم، وروائع الحكم، سيـدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً».

الخماسية الثالثة والعشرون

عن عبدالله بن عمر[1] قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، (ألا جعل الله بأسهم بينهم»[2]

وفي رواية أخرى عن ابن عباس[3] قال قال رسول الله ﷺ: (خمس

---

(١) عبدالله بن عمر: سبقت ترجمته.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب العقوبات - ٤٠١٩/٢٢ ج ٢ ص ١٣٣٣، قال في مجمع الزوائد هذا حديث صالح للعمل به وقد اختلفوا في آبن أبي مالك وروايته.

(٣) عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، يكنى أبا العباس، ولد في الشعب وبنو هاشم

بخمس:

ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم،
وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر،
ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت،
ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين،
ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر)[1]

بين يدي هذه الخماسية:

اعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن هذه الخماسية فيها جوانب كثيرة من جوانب الخير والمعرفة والإعجاز، كما تشتمل على جوانب كثيرة كذلك من جوانب الخوف والوعظ والتذكير، إنها مليئة بالعبر، والعظات، ما يجعلها حرية أن تسكب لها العبرات،

ثم أنها مع ذلك كله تنبه المسلمين إلى واقعهم، وإلى هذا الخطر الذي يحدق بهم، تنبههم إلى ما يحيق بهم من غضب الله وعقوبته، كي

محصورون قبل خروجهم منه بيسير وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين توفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان حبر الأمة، ويسمى بحراً لغزارة علمه، كان عمر وعثمان رضي الله عنهما يدعوانه فيشير عليهما، وكان يفتي في عهدهما إلى أن مات، وقد دعا له النبي ﷺ بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وقال له عمر بن الخطاب: «والله إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم عقلاً، وأفقههم في كتاب الله عز وجل، وعن ابن عباس قال: ما بلغني عن أخ مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به. هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرض الله واسعة. وقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة. توفي ابن عباس بالطائف سنة ثمان وستين، ولما بلغ جابر بن عبدالله وفاة ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق «صفة الصفوة ١/٧٤٦»

(١) رواه الطبراني، وقال السيوطي صحيح، انظر: فيض القدير ٣/٤٥٢.

يراجعوا أنفسهم، وينفضوا عن أنفسهم وأرواحهم زبد الباطل، ونخالة التقليد، وأبخرة المعصية، ويتخلصوا من أشباح الجبن والتبعية

إنها كلمات صمت كل أذن لم تصغ لها بتدبر، وتبت كل نفس لم تمنحها كل عناية، وبوركت كل عين سكبت من أجلها العبرات، إنها بحق تصور بصدق، ودقة، وموضوعية، هذا الواقع الذي يحياه المسلمون في هذه السنين العجاف، وإنها بحق تصور حرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام على هذه الأمة تصويراً مؤثراً، وإنها بحق كذلك تبين لنا روعة الحكمة، في هدى الرسول ﷺ،

إنها أرشدكم الله حكم مروعة' تطلعكم على الداء والدواء، وتبين أسباب المرض وأسباب الشفاء، فلنعدّ أنفسنا، ولنهيّء أسماعنا للوقوف مع هذه الخماسية، ونرجو ـ أرشدكم الله ـ أن لا نقف معها وقفة غفلة

إنها منتزعة من واقعنا، تسمع فيها أنين الضعفاء وصيحة المكلومين، وتأوّه الحيارى، وتنظر فيها هُزال المستكبرين، وقزومة المتعملقين، وصغار المستعلين، وضآلة المنتفخين المنتفشين

إنها تفجر لك كل ما في الواقع من أحداث مرة، ومرارة مستمرة، ثم إنها تشخص لك العلاج الناجع، والدواء النافع في وقت كثر فيه الوصّافون الذين لا يأتون بدواء إلا كان أفظع من الداء، فصلّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله وسلم تسليماً كثيراً ورحم الله أمير الشعراء.

داويت متئداً وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء

إن خطورة هذه الوصية ورفعة شأنها، أنها تشخص تشخيصاً تاماً المرض العُضال، وهي مع ذلك تبينّ بإحكام عناصر البُرْء والشفاء من هذا الداء.

ما أكثر المعالجين في أيامنا، وما أكثر الذين يتصدرون لإزالة الألم، ما أكثر المؤتمرات والمنتديات وما أكثر التوصيات والقرارات. . . ولكن قولوا لي - أرشدكم الله - ماذا أجدت، وهل رفعت أو أردت؟! إنها أردت وتردي.

إن العلاج كامن في هذه الكلمات لمن أراد تذكراً أو أراد شكوراً، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لمن يتحسس آلام الأمة، ويتوجس خيفة من مستقبلها، لمن جفاه مرقده، ورباه مسجده

«يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن»

بهذه البداية المرهبة المروعة، بدأ النبي الكريم هذه القرارات الربانية، التي لن تُخلف أبداً، لأن وعد الله ووعيده لا يخلفان ولا يتخلفان. . . كأنَّ النبي الكريم يقول «إذا ابتليتم بهن أحاطت بكم الذلة، وابتليتم بشر مرض وعلة، إذا ابتليتم بهنّ فلا ينفعكم البكاء والعويل، إذا ابتليتم بهنّ أحاط بكم غضب ربكم، حتى تخلّصوا منهنّ أنفسكم. . وأعوذ بالله أن تدركوهن والرسول عليه وآله الصلاة والسلام يدرك أنَّ المهاجرين لم يدركوا هذه الخمسة، ولكنه تحذير لمن بعدهم، تحذير لنا، معشر هذه الأمة.

ومن هذه الكلمات الطيبة الزاجرة، ندرك أن مخالفة شرع الله ليست نتيجتها العقوبة في الآخرة وحدها، وإنما هناك عقوبة عاجلة في هذه الدنيا، كما أن تنفيذ شرع الله ليس جزاؤه أخروياً، فليست الجنة وحدها الجزاء وإنما هناك مثوبة وجزاء دنيوي معجل، وصدق الله ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧) وصدق الله ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه

يسلكه عذاباً صعداً﴾ (الجن : ١٦-١٧) وصدق الله ﴿ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف: ٩٦) وصدق الله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ (محمد: ٢) وفي مقابل هذا ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ (طه: ١٢٤).

فما هي تلكم الأعمال والجرائم والمخالفات التي تنشأ عنها هذه الأمراض الخطيرة؟ لنستمع للذي لا ينطق عن الهوى سيدنا محمد ﷺ.

النكبة الأولى: ظهور الفاحشة:

«لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»

يا للإعجاز المحكم، والإحكام المعجز!! الفاحشة ما عظم من الذنوب، وأكثر ما تطلق على الجرائم الجنسية من زنا ولواط، قال سبحانه: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢) وقال ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ (النساء ١٥) وقال سبحانه: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ (٥٤: النمل)

دلالات كلمة النبي ﷺ:

ولا بد أن نقف أولاً مع كلمات النبي كي نتصور معناها تصوراً تاماً، فهي تدل أولاً على ظهور الفاحشة وشيوعها وانتشارها. وتدل ثانياً

على أن هذه الفاحشة أصبحت أمراً معلناً لا يستخفي منه فاعلوه ولا يتسترون، وهي تدل ثالثاً على أن هذه الفاحشة سوف تكون سبباً في أمراض وعلل، وتدل رابعاً على أن هذه الأمراض في خطورتها واستئصالها، وسوء نتائجها بحيث يصعب علاجها، لأنها لم تكن معروفة من قبل.

وإذا أدركنا هذه الحقائق جميعاً، وأدركنا ما تعانيه المجتمعات اليوم، إذا أدركنا ذٰلك كله، أدركنا سر الإعجاز النبوي.

نتائج ظهور الفاحشة:

إن المتتبع لصيحات العلماء، علماء الطب والنفس والاجتماع من تهديد ذٰلكم الشبح القاتل (مرض الإيدز) يتبين خطورة الأمر، هذا المرض الذي أصبح يزداد وصارت ضحاياه بالألوف. ولقد استمعت إلى تقرير قبل أيام من بعض الإذاعات الأجنبية يبين بالأرقام والإحصاءات المروّعة انتشار هذا المرض الناتج عن هذه الفواحش، وأولئك الأقوام الذين ظهرت فيهم هذه الأمراض، فشت فيهم الفاحشة، وأعلنوها فيما بينهم، حتى أنها في بعض الدول أخذت صفة قانونية، وها هم اليوم يطلقون الصرخات، ولكن هيهات هيهات!

وهذا المرض تتضاعف ضحاياه ـ كما قلنا ـ فبينما كانوا عام ١٩٨١ (٢٥٢) مريضاً في الولايات المتحدة تضاعف هذا الرقم إلى أكثر من عشرة أضعاف عام ١٩٨٣م. إذ بلغ عددهم عشرة آلاف مريض ثم تجاوز عددهم في نهاية العام نفسه خمسة عشر ألف مريض في الولايات المتحدة وحدها، وقد أعلن في نيويورك أن عدد الموتى من الأيدز قد فاق عدد الموتى بحوادث السيارات عدة مرات، إذ زاد عدد الإصابات فيها وحدها عن

خمسة آلاف حالة، حيث يكتشف ويشخص فيها الآن أكثر من مائتي حالة شهرياً.

وفي إحصائية نشرت في تشرين الثاني ١٩٨٥م تقول: «إنه من أصل: (١٤٧٣٩) حالة أيدز، كان (١٠٦٥٢) منهم من الشاذين جنسياً (اللوطيين والمخنثين) و(٢٤٩٤) منهم من المدمنين على المخدرات بوساطة الحقن الوريدية، وأما العدد الباقي فموزع بين زوجات المصابين وأبنائهم وبين الذين نقل لهم دم ملوث بفيروس هذا المرض، أو أعطوا من مشتقات ذلك الدم الملوث به»[1].

مما سبق ندرك عظمة هذه الكلمات النبوية، وخطورة مخالفتها، إنها نذير شؤم لأولئك الذين لا يعبأون بقيم الأمة، ويسخرون من صرخات المصلحين ويصمون آذانهم عن دعوات الحق، ويأبون إلا أن يطبعوا الأمة على كل ما للغرب من عادات سيئة وأمراض خطيرة فتاكة.. وها هي الإعلانات المفتوحة في وسائل إعلام هذه الأمة، للسهر والسمر وقضاء الليالي الحمراء والسوداء، في مواخيره، سموها بأسماء متعددة، تطغى على كل شيء... وإذا نحن عقدنا مقارنة بين هذه الأمة العريقة في قيمها، العظيمة في تراثها، وبين الأمة الصينية أصابنا الذعر وغشيتنا الدهشة، فحكام الصين يحاربون بكل قوة، ويرفضون بكل صرامة، ويأبون بكل عنف أن ينتقل الترهل الغربي والفحش الغربي إلى مجتمعهم، ونحن نأبى إلا أن نفتح جميع الأبواب على مصاريعها حتى نسبقهم، بل لنبدأ بما انتهوا إليه.

لقد ضاق كثير من حكام الغرب ومصلحيه بهذه الجرائم البشعة، والرذائل الخلقية، ولقد قرأت قبل أيام أن رئيس الولايات المتحدة يصمم

---

(١) الأبدز حصاد الشذوذ د. عبد الحميد القضاة ص ١١-١٤

أن يجعل عقوبة الإعدام حتى لأولئك الذين يتعاطون المخدرات إذا لم يؤثر فيهم الردع، مع أن عقوبة الإعدام لا يقرها أولئك الناس في مجتمعاتهم.. فإلى متى يظل المسلمون في هذه الغواية والضلالة؟ وإلى متى تظل هذه الأمة تسير ولا هوّية لها؟

إن كثيراً من الأنظمة تأبى على الفرد أن يسير بدون هوية، فما بال الأمة كلها ترضى أن تعيش بدون هوّية... إن الحديث يجر بعضه بعضاً، وقد يكون من الصعب أن نجد له نهاية، ولكننا مضطرون أن نكتفي بالحديث لنفسح المجال للتحدث عن النكبة الثانية في هذه الخماسية.

النكبة الثانية: نقص المكيال

«ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم»

حث القرآن على توفية الكيل وعدم بخسه

ورد في كتاب الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة الأمر بتوفية الكيل والميزان، والنهي عن النقص والبخس والتطفيف، وفي السنة المطهرة كذلك، بل حدثنا القرآن الكريم أن قوماً أخذتهم الصيحة، وعوقبوا بعذاب يوم الظلة واستئصلوا، وأصبحوا في ديارهم جاثمين بسبب هذه الجريمة، وهي تطفيف الكيل والميزان - أولئك هم قوم شعيب عليه السلام، أصحاب مدين والأيكة، قال لهم نبيهم، ﴿**فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ (الأعراف: ٨٥)، ﴿**أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ (الشعراء: ٨٧) ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ (هود - ٨٥) فردوا عليه مستهزئين ﴿**أصلاتك تأمرك أن نترك**

ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد﴾. (هود: ٨٧) وهكذا كذبوه **﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها﴾** (هود ٩٤-٩٥).

لذا رأينا في كتاب الله كثيراً من الآيات تحذر المسلمين من تطفيف الكيل، وبخس الميزان، تتوعدهم بالويل وتذكرهم بيوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. قال سبحانه: **﴿ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** (المطففين: ١ - ٦) ويقول الله سبحانه في سورة الرحمن بعد أن بيّن منته على الإنسان، بأنه علم القرآن، وخلق الإنسان، وعلمه البيان، وبعد أن بيّن دقة الحساب في الشمس والقمر، وسجود النجم والشجر، حدثنا عن الميزان الذي ينبغي أن نحكمه ونقيمه ولا نبخسه **﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾** (الرحمن: ١ - ٩).

ويظهر أن الميزان في الآيات الكريمة، أعم من ذلك الذي يزن به الناس أشياءهم وسلعهم وما يبيعون ويشترون، إنما هو ميزان عام، يشمل فيما يشمل كذلك أعمال المسلم وأقواله، فلا بد أن يزن المسلم كل ما يفعل وما يدع كما يزن ما يأخذه لحاجته اليومية، بل الأول أولى في الوزن.

ألا ترون أن الله تبارك وتعالى يضع الموازين القسط ليوم القيامة، كما قال سبحانه **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**

(الأنبياء: ٤٧) حتى لقد جاء في السنة عن عائشة أن رجلاً قال «يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم، فقال له رسول الله ﷺ بحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك عقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لالك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل فجعل الرجل يبكي ويهتف فقال رسول الله ﷺ أما تقرأ كتاب الله ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار[1].

فيجب على المسلم أن يزن تصرفاته جميعها، ولكن أن تكون بميزان الإسلام، وذلك بأن تكون أحكام الشريعة وآدابها الفيصل في تصرفات هذا الإنسان.

عقوبات بخس الكيل:

وإذا أنعمنا النظر في الحديث الشريف، فإنه يلفتنا إلى قضية ذات شأن وخطر، وهو أن بخس الكيل وتطفيف الميزان يترتب عليه أكثر من عقوبة، وكل عقوبة أشد من أختها وصاحبتها، وهذه العقوبات تصيب الأمة جميعها.

١ ـ الأخذ بالسنين:

وأول هذه العقوبات الأخذ بالسنين: ومعنى الأخذ بالسنين أن

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير سورة الأنبياء حديث رقم ٣١٦٣ ج ٨ ص ٣٠٠ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان.

تصاب الأمة بالشدة والقحط، وأن تفقد منها البركة، ولقد كان الأخذ بالسنين عقاباً شديداً، لآل فرعون، قال سبحانه: **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾** (الأعراف: ١٣٠).

إن الأخذ بالسنين منع لبركات الأرض، وحبس لبركات السماء... لقد دعا النبي ﷺ يوم أن كذبته قريش أن تصيبهم سنون كسنين يوسف[1]، وكان ذلك عذاباً ذكره الله تبارك وتعالى بقوله: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾** (١٠ - ١١)... تلكم هي العقوبة الأولى من عقوبة بخس الكيل وتطفيف الميزان.

إن الأخذ بالسنين عقوبة إلٰهية تفقد الأمة بها بركات الزمان والمكان، فتكون السنون عجافاً، فتعيش الأمة حياة الضنك، تفقد بركة الزرع والضرع،

٢ ـ شدّة المؤونة:

أما العقوبة الثانية فهي متصلة بالعقوبة الأولى، وهي شدّة المؤونة، وشدة المئونة يوم أن يضيق على الناس في أرزاقهم، فيجد كل واحد صعوبة في تحصيل قوته، وقضاء حاجته، وذٰلكم هو الجوع الذي يذوقه أولئك الذين كفروا بأنعم الله، وحينما تشتد مؤونة الناس ينتشر بينهم

---

(١) روى مسلم في كتاب المنافقين باب الدخان ٧/٤٠ أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف وفي رواية البخاري في كتاب التفسير /سورة الدخان/ باب «أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين» ٤٥٤٦/٣١٢ (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف).

الذعر، وتشيع الفوضى، وتتعدد المصائب، وتنتشر الرذيلة، ويراق ماء الوجوه، وتُستباح المحرمات، ولا يبالي الناس بالقيم والأخلاق، يبذلون كل ذلك من أجل الحصول على لقمة العيش.. ولقد قيل «يكاد الفقر يكون كفراً» ويمكننا أن نتصور وضع أي أمة انتشرت فيها المجاعة، كيف تنقلب فيها موازين الأشياء، وكيف تتبدل فيها القيم، ولقد منّ الله تبارك وتعالى على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. ولقد كان الرسول عليه وآله الصلاة والسلام يستعيذ بالله من الجوع كما عرفنا من قبل.

٣ ـ جور السلطان:

أما العقوبة الثالثة لتطفيف الكيل وبخس الميزان، فهي جور السلطان، وتلكم عقوبة أشد من العقوبتين السابقتين، وجور السلطان لا يقتصر على مجال واحد من مجالات الحياة، بل يشملها جميعها، فهو جور لا يقتصر على الضرائب والتكاليف فحسب... لا يقتصر على الجانب الاقتصادي وحده، بل يشمل مع الجانب الماليّ الجوانب الاجتماعية والفكرية كذلك.

ومن مظاهر هذا الجور تكليفهم ما لا يطيقون، ومراقبتهم فيما يتكلمون، وتقييدهم فيما يفكرون وما يعملون، فتسلب شخصيتهم المعنوية، ويضيّق عليهم في أمورهم الماديّة، فتفقد الأمة مقوماتها وتهيم في كل واد من أودية الضلال، وتصاب بكل سهم من سهام الوبال، فتضل وتشقى فلا تقدر على المقاومة، فينفرط عقدها

هذه العقوبات الثلاث تذهب برونق الحياة، فيدب في الأمة دبيب الموت.

ليس من مات فاستراح بميْت
إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً
كاسف باله قليل الرجاء

لماذا كانت هذه العقوبات نتيجة لنقص الكيل؟

وإذا تساءلنا لماذا كانت هذه العقوبات الثلاث نتيجة لبخس الكيل وتطفيف الميزان فلن نجد صعوبة في الإجابة على هذا التساؤل، ولكن قبل هذه الأجابة ينبغي أن نفصل ما أجملناه من قبل، وهو أن تطفيف الكيل ونقص الميزان، لا ينتظم أمور البيع والشراء فحسب،

فمن الجور في الميزان أن لا يجد المظلوم نصيراً.

ومن الجور في الميزان أن يخنق الحق.

ومن الجور في الميزان أن ينتشر الجهل، وتحارب الفضائل، وتزيَّن المعصية، وتضيّع الأمانة، وتنقطع أواصر المودة بين الناس، ويتجرأ صاحب الباطل في باطله، وتنفق الأموال في غير طريقها الصحيح، وغير ذلك كثير كثير،

ومن أشد مظاهر الجور في الميزان أن تُعطّل حدود الله، وتُنتهك محارمه، **﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾** [الطلاق: ١]، **﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** [البقرة: ٢٢٩].. ولنرجع الآن إلى الأجابة على السؤال الذي طرحناه من قبل، لماذا كانت هذه العقوبات نتيجة لهذه المعصية،

ذلكم لأن تطفيف الكيل والجور في الميزان له جوانب ثلاثة.

١ ـ فهو أولاً اعتداء على حقوق غيره، وخيانة له.

٢ ـ وهو ثانياً: ناشىء عن طمع ومصلحة خاصة، وإن الذي طفف الكيل وجار في الميزان، يكون عمله نابعاً من مصلحته الخاصة، وأثرته وجشعه، وحبه لنفسه.

٣ ـ وهو ثالثاً ـ وتلك أشد من سابقتيها ـ مخالفة لله رب العالمين؛ وهي ناشئة عن ضعف سلطان الله وهيبته في القلوب والنفوس.

تلكم جوانب ثلاثة ينشأ عنها تطفيف الكيل والبخس في الميزان، لذلك كان له تلك العقوبات الثلاث، فضعف سلطان الله في النفوس، وعدم مراقبته سبحانه ينشأ عنه جور السلطان؛ لأن الذي لا يرهب الله ولا يهابه، يسلط الله عليه من لا يرحمه، وظلم الآخرين ينشأ عنه الأخذ بالسنين... والطمع تنشأ عنه قلة المؤونة..

أرأيت إلى هذا الإحكام، وتلك الحكم في كلمات المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام... أرأيتم إلى ذلكم الهدي الذي أراد النبي الكريم منه أن يجنب الأمة عثرات الحياة، ومروعات الزمن، ومنغصات العيش، فهل نحن مستجيبون؟، وهل أنتم منتهون؟ ذلك ما كنا نبغ.

النكبة الثالثة: منع الزكاة

«ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، ولولا البهائم لم يمطروا»

الزكاة أحد أركان الإسلام، وإحدى دعائمه، ولعلها أعظم الدعائم

وأقساها، وأكثرها مشقة على النفس؛ ذلكم لأنها هي العبادة المالية، وتعلق النفس بالمال أمر جبليّ طبع عليه الإنسان، والزكاة حق الله سبحانه في المال، ولقد ذكرت كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى، تارة أمراً يجب على المسلمين أن يمتثلوه، وتارة مدحاً لمن أداها قال سبحانه: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ (المؤمنون: ١ - ٤). ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ (المزمل: ٢٠)

عقوبة مانع الزكاة الأخروية:

وقد وردت أحاديث كثيرة تثني على الذين يؤدون زكاة أموالهم، وتبين عذاب أولئك الذين يمتنعون عن أداء الزكاة فقد قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيام شجاعاً أقرع، لهزبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَيْهِ يعني شدقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿**لا يحسبن الذين يبخلون**﴾[1] (آل عمران: ١٨٠).

وعن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، فقال أعرابي أخبرني عن قول الله ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ (التوبة: ٣٤) قال آبن عمر رضي

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة ١٣٣٨/٣ ـ ج ٢ ص ٥٠٨ (شجاعاً) الحية الذكر أو الثعبان (أقرع) لا شعر على رأسه لكثرة سمه وطول مره (زبيبتان) نابان يخرجان من فمه، أو نقطتان سوداوان فوق عينيه وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه (يطوقه) يجعله في عنقه كالطوق. (شدقيه) جانبي الفم.

الله عنهما: من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال﴾[1].

تلكم عقوبات في الدار الآخرة لمن ترك الزكاة، ولكن لا تقف عقوبة الزكاة عند هذه العقوبة الأخروية، وهذا شأن كل صفة من هذه الخماسية، فقد تبين معنا أنها تبين العقوبات السريعة الدنيوية، التي تلحق المفرطين في حدود الله سبحانه والمتعدين على حدوده، والمتمردين على شرعه.

عقوبة مانع الزكاة الدنيوية:

والعقوبة الدنيوية العاجلة هي التي بينها النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام بقوله: «وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء» وذلك جزاء عادل، ذٰلكم لأن الزكاة حق الله كما قلنا من قبل، ولا بد أن تؤدى لأصحابها ومستحقيها، وهذه الزكاة إنما تجب على الأغنياء الذين ملكوا نصابها،

والأصناف التي تجب فيها الزكاة ترجع في أكثرها ـ إن لم تكن كلها ـ إلى نزول الغيث من السماء، فبهذا الغيث تنبت الأرض، وتحيا الأنعام، فتتسع موارد العيش، وتنمو مصادر التجارة، فالزكاة تجب في المواشي والزروع والثمار، وتلكم أصناف لا بد لها من الغيث، بقيت النقود وعروض التجارة، وهٰذان الصنفان الغيث عامل أساسيٌّ في تنميتهما

ومانع الزكاة منع حق الله سبحانه وضعفت عوامل الرحمة في قلبه، فكان لا بد من أن يجازى من جنس عمله، ويعاقب بنوع معصيته، فمن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة باب ما أدى زكاته فليس بكنز ٤/١٣٣٩ ج ٢ ص ٥٠٩.

منع الزكاة، وانعدمت رحمة الناس في قلبه، فإنه لا يستحق رحمة الله تبارك وتعالى، وصدق الله ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ (الأعراف: ٥٦) ولا شك أن مانع الزكاة لا يستحق شرف هذا الوصف، فهو مسيء غير محسن.

إن مانع الزكاة ماتت عوامل الخير في نفسه، فكان حرّياً أن يمنع الغيث الذي هو سبب في هذه الحياة، قال سبحانه ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً، لنُحيي به بلدةً ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيراً﴾ (الفرقان: ٤٨ - ٤٩).

إن الغيث رحمة كما بينت الآية الكريمة، ومن لا يرحم لا يُرحم، لذلك كانت هذه العقوبة العادلة متفقة متسقة، ملائمة، متمشية مع جريمة منع الزكاة. . . ولكن بقي قوله عليه وآله الصلاة والسلام «ولولا البهائم لم يمطروا»، وهذه لفتة حكيمة لا بد أن نقف معها مستوحين ما ترشد إليه من حكم، وما أكثرها.

إن الله تبارك وتعالى منزه عن الظلم، فهو ينزل المطر سبحانه؛ لأن هناك بهائم غير عاقلة، لم تقترف ذنباً، ولم تفعل سوءًا، ولم ترتكب معصية، فالله ينزل المطر رحمة بهذه البهائم، وفي هذا من التوجيه للإنسان الكثير الكثير.

إن النبي ﷺ يبين لنا رحمة الله بهذه البهائم، وهو تقريع وتوبيخ لهذا الإنسان، فالله ينزل الغيث من أجل هذه البهائم رحمة بها، فما بال هذا الإنسان لا يرحم أخاه. . . ما بال هذا الإنسان تنتزع الرحمة من قلبه فقول النبي عليه وآله الصلاة والسلام «ولولا البهائم لم يمطروا» حث للإنسان

وحض له، كي تظل آثار الرحمة في قلبه، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مهلاً فإن الله تبارك وتعالى شديد العقاب فلولا صبيان رضع ورجال ركع، وبهائم رتع صب عليكم أو أنزل عليكم العذاب»[1].

إن كرامة الإنسان عند الله عظيمة، وكرامة المسلم أعظم، وقد رحم الله هذه البهائم بإنزال الغيث، فكيف بك لا ترحم أخاك.

إن الزكاة مطهرة للنفس، محببة للقلب، جالبة للخير، فإذا منعت هذه الزكاة، فقد أقفرت النفوس، وماتت فيها كل نبتة خير، وهل جزاء هذا إلا أن تقفر الأرض كذلك؟ فيكون ذلك جزاء ما قدمت أيدي أولئك المانعين ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ (الشورى: ٣٠).

وإذا كانت هذه عقوبة الزكاة في الدنيا، فإنها في الآخرة والله أشد وأشق، ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فما أحكم هذا الإرشاد، وما أعظم ذلك التوجيه، وما أصح ذلك المنطق، وما أعدل هذا الجزاء.

النكبة الرابعة: نقض عهد الله:

«ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم».

كل كلمة في هذه الخماسية دليل صدق، وشاهد حق وعدل على نبوة النبي ﷺ، بل هي علم من أعلام النبوة. والعهد ما يكون بين آثنين سواء كانوا فردين أم جماعتين. أم فرداً وجماعة، وقد يكون هذا العهد في أمور

---

(١) قال في مجمع الزوائد ١٠/٢٢٧ رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن خيثم ضعيف.

مالية أو حربية، وقد يكون في غير ذلك مما تدعو له حاجات الناس وأمور الحياة.

وقد كثر ذكر العهد في كتاب الله وسنة رسوله عليه وآله الصلاة والسلام. ولقد كان حرص الإسلام على العهد حرصاً عظيماً، فالحديث عنه نجده في القرآن الكريم مكيّه ومدنيّه على السواء، وهذه الآيات الكريمة، بعضها ثناء ومدح على الذين يوفون بعهودهم، وبعضها ذم لأولئك الذين ينقضون العهد، أما القسم الثالث فهي حث للمسلمين على أن يكونوا من الموفين لعهودهم.

ثناء القرآن على الموفين بالعهد.

فمن القسم الأول قوله سبحانه **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة، والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وآبن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم﴾** (البقرة: ١٧٧).

وهذه الآية في كبرى الزهراوين سورة البقرة وهي مدنية كما نعلم. ويقول سبحانه **﴿أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾** (الرعد: ١٩). وهذه في سورة الرعد وهي مكية على الأرجح.

ذم القرآن للذين ينقصون العهد:

ومن القسم الثاني نقرأ قوله سبحانه في سورة البقرة **﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر**

الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ (البقرة: ٢٧) فانظروا أرشدكم الله وعصمني وإياكم من السوء والزلة كيف كان النكير على من ينقض العهد حيث وصف هؤلاء بأنهم فاسقون، قاطعون لما أمر الله به أن يوصل، وهم مفسدون في الأرض، وهم بعد ذلك كله خاسرون. ونقرأ في سورة الرعد: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة، ولهم سوء الدار﴾ (الرعد: ٢٥).

حث المسلمين على الوفاء بالعهد:

أما القسم الثالث وهو الحث على الوفاء بالعهود فيكفي أن نقرأ فيه قوله سبحانه في سورة النحل وهي مكية **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾** (النحل: ٩١، ٩٢) فالآية الكريمة تأمر بوفاء العهد وعدم نقض الإيمان، لأن الله هو الكفيل على المتعاهدين، وتنهاهم الآية الثانية عن أن يكونوا مثل التي تنقض غزلها بعد أن تحكمه وتكمل غزله، ويقال إنها امرأة كانت في الجاهلية، كانت سفيهة العقل، وقد تكون الآية مثلاً وتشبيهاً، فالذي ينقض العهد بعد أن يحكمه ويبرمه كتلك التي تنقض الغزل بعد إحكامه وإبرامه، وإنما يفعلون ذلك من أجل لعاعات دنيوية وطمع مادي، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة **﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾**، أي ينقضون العهد ليكون بعضهم أربى أي زائداً على غيره في الأمر الذي كان

فيه العهد، أي ينقض العهد لأنه يرى أن له مصلحة في نقض هذا العهد أياً كانت هذه المصلحة.

ويقول سبحانه في سورة المائدة المدنية بل هي من آخر القرآن نزولاً: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ (المائدة: ١) والعقود هي العهود الموثقة، ولقد كانت هذه العقود والعهود مما يفتخر الناس بالمحافظة عليه حتى في جاهليتهم، فلقد أنشد الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم
شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا[1]

ونكتفي بما ذكرناه من آيات كريمة محكمة والآيات كثيرة يمكن أن يتدبرها من أراد أن يشرف بكتاب الله تعالى:

أنواع العهود:

١ ـ ثم إن هذا العهد قد يكون عهداً عاماً كتلك المواثيق التي أخذها الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يوحدوه، ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ (الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣).

٢ ـ وقد يكون عهداً خاصاً بأمة كالعهود التي أخذت على بني إسرائيل، وكالميثاق الذي أخذه الله على العلماء ﴿**لتبيننه للناس ولا**

---

(١) العناج: خيط أو سير يشد في أسفل الدلو ثم يشد في عروتها أو عرقوتها، قال وربما شد في إحدى آذانها، وقيل عناج الدلو عروة في أسفل الغرب من باطن تشد بوثاق إلى أعلى الكرب، وقد مدح الشاعر قوماً عقدوا لجارهم عهداً فوفوا به ولم يخفروه (لسان العرب ٢/ ٣٣٠).

تكتمونه﴾ (آل عمران: ١٨٧) وكالعهود التي أخذت على هذه الأمة من أجل الجهاد في سبيل الله، ونشر كلمة الإسلام، ورفع لواء الحق، ونصرة المظلوم، وردع الظالم، وإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف - إلى غير ذلك من أمور كثيرة أمر المسلمون بها وأخذت عليهم المواثيق لكي يقوموا بما افترض عليهم وطلب منهم.

٣ - وقد يكون عهداً بين شخصين أو قبيلتين في أمور معينة وقضايا خاصة، وهذه الأقسام الثلاثة جميعها يجب الوفاء بها ولا يحل نقضها، ولقد كانوا يقولون إن نقض العهد أشد من الحنث في سبعين يميناً، ذلكم هو العهد في كتاب الله تبارك وتعالى.

عقوبة نقض العهد الدنيوية:

أما في سنة النبي عليه وآله الصلاة والسلام فمع كثرة الآثار الشريفة والأحاديث النبوية، إلا أن هذه الصفة التي نتحدث عنها فيها ما يكفي لأولي الألباب، فمع الجزاء الأخروي القاسي لمن ينقضون العهد، كما عرفنا من قبل من كتاب الله تعالى في قوله: **﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾** (الرعد: ٢٥) إلا أن هناك عقوبة دنيوية عاجلة تصيب الأمة كلها. ويعلم الله أنها من أشد العقوبات التي يصاب بها الأفراد والجماعات على السواء، **هذه العقوبة هي التي بينها النبي عليه وآله الصلاة والسلام بقوله:** **«وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم**

تلكم هي العقوبة الربانية الحازمة الحاسمة، الرادعة الزاجرة، ولكن لمن يرعوون أو يتذكرون،لأولي الألباب»

إن نقض عهد الله ونقض عهد رسوله عليه وآله الصلاة والسلام جزاؤه أن يسلط على الأمة عدو بعيد عنها، فينتهك حرمتها، ويكسر

لأمتها، ويفل بيضتها، ويذبل روضتها، ويذلها ويزلها، فيغتصب أرضهـا، ويعتسف عرضها وينقص أطرافها، ويـذلّ أشرافها، ويُعمـل فيها سلاحه وسيفـه، ويشيع بينها رعبه وخـوفه، ويتبّر ما بنت، ويغتصب مـا جنت، فتدمر مدينتها دماراً، ولا تجد منها إلا هواناً وصغاراً.

قولوا لي بربكم ـ هدانا الله جميعاً ـ أليس هـذا حال الأمـة، أو حال المسلمـين اليوم مـع أعدائهم؟! وهـا نحن نجد من عـدونا كـل يوم شـدة البطش والضرب، ولا يجد منّا إلا الخوف والرعب.

لقد شغلت قضية فلسطين كثيراً من الفئات، أو تظاهـر هٰؤلاء بأنّهم كذلك مشغولون، كلٌّ يريد أن يجد لها حلاً، السيـاسيون والأدبـاء، وعلماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع، والأجهزة العسكريـة، بل علماء التـاريخ وعلماء النفس، بل ذوو الفنون كذلك كل أولئك وغيرهـم عكفوا عـلى إيجاد حـلٍّ لهذه القضية، فرادى أو مشتركين، ولكن ماذا كانت نتيجة ذٰلـك كله، إنها نتيجة لا يجهلها أحد.

يثبت العـدو أركانـه كل يـوم أكثر من ذي قبـل، بل أصبحنـا نحن الـذين نثبت أركانـه وبنيـانـه، ونشـد عضـده، والحـل النـاجـع نتجـاهله جميعـاً. . . إنها كلمات الذي لا ينـطق عن الهـوى ﴿**أفي الله شـك فـاطـر السماوات والأرض**﴾ (إبراهيم: ١٠) والله هو الذي يقول عن نبيه ﴿**ومـا آتـاكم الرسـول فخذوه ومـا نهاكم عنه فـانتهُوا**﴾ (الحشر: ٧). أيبقى هنـاك شـك في كلمات النبـوة، وفي تـوجيهـات النبي عليـه وآلــه الصـلاة والسلام؟!

إن من ينقض عهـد الله ورسولـه يسلط الله عليه عـدواً بعيداً عنـه، فيأخذ بعض ما عنده، ويستولي على أرضه،

ونقض عهد الله وعهد رسوله معناه مخالفة الكتاب والسّنة، فإذا أردنا أن نرجع الأرض، وندحر العدو، ونزيل العار، ونتنسم عبق الحرية، فهذا هو العلاج والدواء والسلاح الذي لا يفيد غيره، كما شهد لذلك الواقع القريب، أقول السلاح الفتاك هو ما نفهمه من هذا الحديث النبوي، وهو أن نحافظ على عهد الله وعهد رسوله ﷺ، وهذا ما شهدت به الآيات والأحاديث، وما شهد به الواقع المجرب كذلك، فإذا كنا مسلمين عباداً لله نصرنا الله، وهيأ لنا هذا الكون كله حتى الحجر والشجر، ينادينا ليقول هذا يهودي تعال فاقتله.

وأرجو أن لا تمتروا في هذا القول ولا ترتابوا، فلا تجوز المرية والارتياب، وقد فصلنا هذا في كتابنا المنهاج نفحات من الإسراء والمعراج.

تلكم هي القضية الرابعة في هذا الحديث الشريف، بقي هنا أن نتساءل لماذا كانت عقوبة نقض عهد الله وعهد رسوله تسلط الأعداء، ليغتصبوا الحقوق؟، ذلك لأنّ نقض عهد الله وعهد رسوله عليه وآله الصلاة والسلام ليس إلا تعدياً للحدود، ومن تعدى حدود الله تبارك وتعالى متهاوناً بهذه الحدود فمن الحق والعدل، ومن الجزاء الأوفى أن يسلط الله عليه من يتعدى حدوده، وهذا الذي كان، تعدينا حدود الله فسلط الله علينا من تعدى حدودنا، بل لم تظل لنا حدود نستطيع الدفاع عنها، فهذه الحدود أصبحت تحت رحمة العدو، يتجاوزها ويتعداها حينما يريد، جواً وبراً وبحراً، لقد وصل إلى تونس وإلى أوغندا وإلى العراق، فكم هي الحدود التي مر بها وتعداها، إنها حدود كثيرة!!.

إن الذي يستهين بحدود الله سوف يسلط الله عليه من يستهين بحدوده، تلكم هي الحكمة، وذلكم هو الجزاء فما أحكم النبي عليه وآله الصلاة والسلام في هديه .

النكبة الخامسة: عدم الحكم بكتاب الله:

«وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»

تلكم هي القضية الأخيرة في هذا الحديث الشريف، وهي تتحدث عن قضية جوهرية، تتصل بواقع الأمة اتصالاً وثيقاً، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها أكثر ما يشغل الأمة ويصيبها بالسوء، هذه القضية جاءت في الحديث الشريف بأسلوب يختلف بعض الشيء عما سبق في الأحاديث من أساليب، ففي الخصال السابقة، كان الحديث عن الأمة كلها كما رأينا: لم تظهر فيهم الفاحشة، ولم يمنعوا الزكاة، لم ينقضوا العهد،

ولكن هذه القضية الأخيرة جاء فيها «ولم تحكم أئمتهم» وفي هذا حكمة عظيمة أيها المسلمون، فالقضايا الأربعة الأولى تشترك فيها الأمة جميعها، فمنع الزكاة لا يخص واحداً بعينه، وكذلك نقض العهد، وكذلك فشو الفاحشة، وتطفيف الكيل، ولكن الحكم بما أنزل الله، من القضايا التي يمكن أن ينفذها الحكام والمسؤولون، صحيح الأمة لا ينبغي أن تسكت عن تعطيل شرع الله سبحانه، ولكن الذين يتولون هذه القضية مباشرة، ويقوم عليهم واجب التنفيذ، إنما هم من تولوا شأن هذه الأمة، إنهم ولاة الأمور، ولكن ربما يظن أن دور الأمة دور سلبي وأن الأمة ليس عليها مسؤولية ولا يلحقها إثم ولا تحل بها عقوبة، ولا تصيبها فتنة، إن لم يحكم هؤلاء المسؤولون بشرع الله، لا ليس ذلك صحيحاً.

وإذا تدبرنا الحديث الشريف وأنعمنا النظر فيه، أدركنا ما يمكن أن يلحق الأمة مما لا تحمد عقباه نتيجة لتعطيل شرع الله سبحانه، فالنتيجة السريعة، والعقوبة العاجلة لمن يتولون عن الحق، ويعرضون عن أحكام

الله سبحانه أن يجعل الله بأس هـذه الأمة بينها شديـداً، تصيبهم الفتن، وتحيط بهم المحن، وتستحكم بينهم العـداوة ويذوق بعضهم بـأس بعض، والنـاظر للمسلمـين اليوم يجـد هذه الحقـائق المرة والأوضـاع المزريـة، بين المسلمـين دولاً وأفراداً، وجمـاعات وفئـات، وهيئات ومؤسسـات، حتى قد تصل بينهم إلى التقاتل والحراب، وكأنهم المعنيون بهذه الآية الكريمة ﴿**قـل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابـاً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**﴾ (الأنعام: ٦٥) فهل يفقهون؟

وقوله سبحانه: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعـاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخـالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ (النور: ٦٣).

وهـل هناك فتن أعـظم من أن تصاب الأمـة بنار البغضـاء، وشـدة الحقد، حتى يستعين بعضها على بعضهـا الآخر بـأعداء الله؟ وكم دولـة أو جماعات تعرضت لهجمات شرسة من أعداء الله!.. فكنـا لا نجد من دول هذه الأمة إلا الصمت في الظاهر، ولكنه التأييد في الباطن.. هذا ما تنطق به الآيات الكريمة، وما يشهد به هذا الحديث الشريف الذي نقف معه.

لقـد أمرت آيـات كثيرة المسلمـين أن يحكموا بمـا أنـزل الله، ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فـأولئك هم الكـافرون ﴿**ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فـأولئك هم الـظالمون**﴾ (المـائـدة: ٤٥) ﴿**ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ (المائدة: ٤٧) ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾ (المـائدة: ٤٨) ﴿**وأن احكم بينهم بمـا أنزل الله ولا تتبـع أهواءهم واحـذرهم أن يفتنـوك عن بعض مـا**

أنـزل الله إليك، فـإن تولـوا فاعلم أنمـا يـريـدُ الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهليـة يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ (المائدة: ٤٩ - ٥٠).

وقد بينت الآيات الكريمة أن عقوبة الحكم بغير ما أنـزل الله، كبت وخزي في الدنيا، واستغراق في الذل والمهانة، نقرأ ذلك في قوله سبحانـه: **﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتـوا كما كبت الـذين من قبلهم وقد أنـزلنا آيـات بينات وللكـافرين عـذاب مهـين يـوم يبعثهم الله جميعـاً فينبئهم بمـا عملوا أحصـاه الله ونسـوه، والله عـلى كـل شيء شهيـد﴾** المجادلة: (٥ - ٦) **﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئـك في الأذلين﴾** (المجادلة: ٢٠) فمن حكم بغير ما أنزل الله أذله الله.

ولقد أخذت هذه القضية حيزاً، شغل به كثير من المسلمـين، ولكن العوائق والشبهات التي يلقيها أعداء الإسـلام أو أدعياؤه، يـريدون لهـا أن تلبس ثوب الحقيقة، فمنهم من يذهب إلى أن هذه الأحكـام لا تجب علينا اليـوم، لأن الآيات التي نـزلت في ذلك، إنمـا نزلت في شـأن اليهـود لا في شـأننا، وفـريق يرى أنّ تلك قضيـة ترجـع إلى أولي الأمر، وفـريق ثـالث يصرح بأن هذه الأحكام لا تتناسب مع القرن العشرين وما بعده، ورابـع أراد أن يتستر وراء شيء في ظاهر الأمر بتنفيذ بعض الأحكام، وهناك فريق خامس وسادس وسابع، وهؤلاء وإن اختلفوا فيما بينهم في ظاهر الأمر، إلاّ أنهم لا يريدون للقرآن والسنة أن تسود في هذه الأرض.

والمسلمـون الذين ينـادون بتطبيق أحكـام الشريعة، يسـامون سـوء العذاب، ويُقصون حتى لا يمكنوا من أن يكونوا أصحاب قرار في أي شيء معين، بل يصل الأمر إلى أكثر من هذا، فيحـال بينهم وبين مـا يتقنون من

عمل وتضيق عليهم السبل، بل ربما يعـذبون وينكّـل بهم ويمنعون من حقّ المـواطنة الـذي لا يجوز أن يسلبـه أحد، وهـذا يذكـرنا بمـا كـان من قـوم شعيب، حينـما قالـوا لنبيهم عليه وعـلى نبينا وأنبيـاء الله جميعاً صلوات الله وسـلامه ﴿لنخـرجنك يـا شعيب والـذين آمنـوا معـك من قـريتنـا أو لتعودُنَّ في ملتنا﴾ (الأعراف: ٨٨).

إن الحكم بما أنزل الله واجب يلحق الأمة بتركه عقوبتان دنيوية وهو هـذا التمزق والتفـرق والضعف، وأخرويـة ﴿ولعذاب الآخـرة أخزى﴾ (فصلت: ١٦).

هـذه هي الخماسيـة في بيانها الشـافي، وزجرهـا الرهيب، أرأيتم إلى هـذه العقوبـات التي تحدثت عنهـا، ما أشـدها ومـا أكثرهـا فتكـاً، ظهـور الأمـراض، وقلة البركـة، وقلة المؤونـة، وجـور السلطان، ومنـع الغيث، وتسلط العدو، مغتصباً حقوق المسلمين وأرضهم ومقـدساتهم، وإذكـاء نار البغضاء فيما بينهم.

هـذه هي العقوبـات التي تحدث عنهـا ذلكم الحديث الشريف، مـا أجدرها بالبحث والفكر هنا وما أجدرنا بـدراستها دراسـة جيدة تقـوم على أسس ثـابتة سليمـة... إنها بحق من شر ما يصيب الأمـة من آفات ومن أفـظع ما يلحق بهـا من نكبـات وفـظائـع.. نسـأل الله أن يهـدينـا سـواء السبيل، وأن يوفق المسلمين للعمل بهدي رسوله محمد ﷺ حتى تزول هذه الآفات والأمراض من مجتمعنا.. إنها آفات متعددة الجوانب.. إنها آفـات جسمية وفكرية وروحية.. فأنعم النظر فيها أخي المسلم. تجد مصـداق ما أقوله لك والله يقول الحق.. والله يتولانا جميعاً ويهدينا سواء السبيل.

الخماسية الرابعة والعشرون

عن أبي أمامة[1] قال: قال رسول الله ﷺ: (آضمنواست خصال أضمن لكم الجنة قالوا: وما هن يا رسول الله؟، قال: لا تظلموا عند قسمة مواريثكم وأنصفوا الناس من أنفسكم، ولا تجبنوا عند قتال عدوكم، ولا تغلوا غنائمكم، وامنعوا ظالمكم عن مظلومكم)[2]

في هذا الحديث الشريف آداب وأحكام تستقيم بها أمر الجماعة المسلمة، وإذا نظرنا لهذه الآداب والأحكام، وجدناها جميعها مما يحتاج إلى جهاد وكبير مقاومة يجد الإنسان مشقة حتى يلتزم بها... إنها آداب اجتماعية، وأحكام تهذب بها النفس، ويكمل بها الرشد، فإن الرشد -

---

(١) أبو أمامة الباهلي واسمه (صُدَي) بن عجلان بن الحارث، وهو مشهور بكنيته، عن أبي امامة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى قوم فانتهيت إليهم وانا طاو وهم ياكلون الدم، قالوا: هلم، قلت: إنما جئت انهاكم عن هذا، فنمت وانا مغلوب فاتاني آت بإناء فيه شراب فاخذته وشربته فكظني بطني فشبعت ورويت ثم قال لهم رجل منهم: أتاكم رجل من سراة قومكم: لا حاجة لي به واريتهم بطني فاسلموا عن آخرهم رواه ابو يعلي والبيهقي في الدلائل وقال: انشا رسول الله ﷺ غزوا فقلت: ادع الله لي بالشهادة، فقال: اللهم سلمهم وغنمهم». وعن مولاة لابي امامة قالت: كان ابو امامة رجلاً يحب الصدقة ويجمع لها من بين الدينار والدرهم والفلوس، وما ياكل حتى البصلة ونحوها ولا يقف به سائل إلا اعطاه ما تهيا له، حتى يضع في يد احدهم البصلة. مات رحمه الله سنة ست وثمانين، وكان له مائة وست سنين» الإصابة ٢ / ١٧٥، صفة ١ / ٧٣٣».

(٢) قال في مجمع الزوائد ٤ / ١٣٩: قلت سقطت السادسة. رواه الطبراني في الكبير وفيه العلاء بن سليمان الرقي وهو ضعيف.

أرشدني الله وإياكم - استقامة المسلك وصحة العمل، وتقابله الغواية، فمن اعوج مسلكه فقد غوى، ومن استقام مسلكه وعمله فقد رشد، قال سبحانه ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ (الجن: ١٤) وقال تعالى: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ (الحجرات: ٨) والخصال التي ذكرت في هذا الحديث جميعها من هذا القبيل.

الخصلة الأولى: لا تظلموا عند قسمة مواريثكم:

إن شرع الله تبارك وتعالى محكم وهو حكيم كذلك، محكم حتى لا يكون هناك ثغرة ولا خلل فيما يتعامل به الناس، وحكيم ليس فيه ظلم ولا إجحاف، وهو تشريع بعد ذلك شامل لم يترك جانباً من جوانب الحياة على اختلافها وتعددها،

ومن هذه الجوانب أحكام الميراث. ولقد امتاز تشريع الميراث في الإسلام كغيره، فهو تشريع يجمع بين الرحمة والحكمة، فيه الدقة والاستيعاب، وإن نظرة عجلى للمقارنة بين هذا التشريع وبين تشريعات المواريث في كثير من القوانين والديانات. أقول إن نظرة عجلى - تطلعنا على سمو هذا التشريع وروعته، وتوخي العدالة فيه.

ومن مظاهر الحكمة والرحمة في هذا التشريع أن جمع بين أصول الميت وفروعه، ومن توخي الدقة والعدالة فيه أن جعل نصيب الفروع أكثر من نصيب الأصول، ونعني بالأصول من ولدوا الميت، ونعني بالفروع من ولدهم الميت، وهذه ميزة امتاز بها هذا التشريع ذلك لأن الفروع يستقبلون الحياة، على حين يستدبرها الأصول.

ومن حكمة هذا التشريع كذلك ودقته وتوخي العدالة فيه، أن جعل

للذكر مثل حظ الأنثيين، ذلك لأن الذكر أكثر حاجة من كثرة ما عليه من أعباء، وليست الأنثى كذلك، لأن لها من يكفلها، ومع ظهور هذه الحكمة إلا أن بعض المغرضين والحاقدين على هذا التشريع حاولوا أن يثيروا بعض الشبهات، ولكن هيهات أن يتم لهم ذلك.

ومن روعة هذا التشريع أن ظهر أول ما ظهر في مجتمع كان يحرم فيه كثير من أصحاب الحقوق نصيبهم من الأرض فكان العرب لا يورثون المرأة، ولا الصغير من الأولاد ولكن جاءت الآيات الكريمة مخالفة لرغباتهم وأهوائهم وعاداتهم فنزل أول ما نزل قوله سبحانه: ﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كَثُر نصيباً مفروضاً**﴾ (النساء: ٧) ثم جاء التفصيل بعد ذلك ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ (النساء: ١١).

ولقد كان سبب نزول الآية الأولى كما تذكر الروايات أن استشهد سعد بن الربيع في معركة من معارك الحق مع الباطل ـ معركة أحد ـ وكان له ابنتان وزوج، وكان له أخ أراد أن يستولي على تركته وماله، كما كانت تقضي العادات والأعراف في ذلك الوقت فجاءت امرأته إلى الرسول ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال فقال: يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال اعط ابنتي سعد الثلثين وأمها الثمن وما بقي فهو لك[1].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الفرائض باب ما جاء في ميراث البنات ٢٠٩٣/٣ وقال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل.

ولقد حرص الرسول عليه وآله الصلاة والسلام على أن ينفذ هذا التشريع تنفيذاً تاماً، وهكذا فعل صحابته من بعده، حتى لقد روى التاريخ أن أحدهم أراد أن يطلق بعض أزواجه في مرض موته ليمنعهن من الميراث، فقال له عمر رضي الله عنه إن فعلت ذلك فسأعطيهن حقوقهن، وسآمر برجمك كما رجم أبو رغال ـ وأبو رغال هذا هو أول خائن في العرب، فهو الذي سار مع أبرهة الحبشي إلى الكعبة حينما أراد هدمها،

وبعد أن ضعف وازع الدين في النفوس، وغربت الشمس عن دولة الإسلام، صار بعض الناس يتلاعبون في أمر الميراث تلاعباً ينشأ عن الهوى، ليحرموا بعض أصحاب الحقوق مما أعطاهم الله سبحانه، فرأينا الكثيرين في هذه الأزمنة يمنعون بناتهم ونساءهم وبعض أصحاب الحقوق من نصيبهم الذي شرعه الله لهم، وهؤلاء ماتت ضمائرهم وقلوبهم قبل موت أجسامهم، وهو ظلم ما بعده ظلم، وأي ظلم أعظم من أن نميت فريضة من فرائض الله، ونضيع وصية من وصايا الله.

إن منع أصحاب الحقوق من حقوقهم ضلال ـ كما يشهد لذلك كتاب الله تعالى ـ ولنتدبر ما ختمت به آيات الميراث الثلاث في سورة النساء: في الآية الأولى يقول الله سبحانه: ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقربُ لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ (النساء: ١١) وفي خاتمة الآية الثانية يقول الله سبحانه ﴿**من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصيةً من الله، والله عليم حليم**﴾ (النساء: ١٢) فهو أمر للمسلم أن لا يضار أحد في أمر الميراث فيحرمه من حقوقه، وهاتان الآيتان في أول سورة النساء.. أما الآية الثالثة وهي آخر آية في هذه السورة الكريمة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم**﴾ (النساء: ١٧٦)

المفاسد المترتبة على منع الحقوق

ثم إن منع أصحاب الحقوق من حقوقهم تترتب عليه مفاسد كثيرة، ربما تستمر أجيالاً متعاقبة.. ولقد شاهدنا وسمعنا كثيراً من العداوات المتأصلة، والحقد والكراهية التي دامت عشرات السنين، نتيجة لمحاباة وظلم.. وهكذا فإن عدم العدل في قسمة المواريث تنتج عنه مفاسد دنيوية، وعقوبات أخروية، وإنها لتعاسة وضلال أن يفرط من يقبل على الموت في جانب الله تبارك وتعالى، ولو أنه كان ذا عقل يحجره عن السفاهة، لما سلك ذلك الطريق المظلم المعوج، فما دام سيرحل عن هذه الحياة، فما باله يحمل أوزار نفسه وأوزار غيره، وماذا سيدفع عنه أولئك الذين أعطاهم حقوق غيرهم... إنهم لن يدفعوا عنه ضغطة القبر وشدته وظلمته، ولن يدفع عنه مقت الله، فما باله يبيع دينه بدنياهم، ويشقى من أجل ما يتوهم به سعادتهم.. ومن يدري فلعلهم لا يسعدون... ولعلهم لن يبارك لهم في شيء مما خصهم به بدون حق.. فيشقون جميعاً.

أذكر قبل سنين أنه كان لنا جار له ولد ذكر، وبضع بنات، فأراد أن يحرمهن من حقوقهن فسجل تركته كلها لابنه الذكر.. وبعد أشهر انتقل الابن إلى الدار الآخرة، وكان متزوجاً.. ولكنه لم ينجب، وكان من الطبعي أن تأخذ هذه المرأة حقها وهو الربع لعدم وجود الأولاد، فأكل نفسه ندماً، وامتلأ قلبه ألماً كيف حرم بناته من حقوقهن لتأخذ هذه الحقوق امرأة أجنبية.

ما أحرى العاقل أن يتدبر هذه الحوادث، لذا كانت هذه الوصية النبوية حتى لا يضل المسلمون كما قال سبحانه: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾ (النساء: ١٧٦) لا تظلموا عند قسمة مواريثكم، نعم إن الظلم

ظلمات يوم القيامة، وقد تقدم لنا الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

الخصلة الثانية: وأنصفوا الناس من أنفسكم:

هذا جانب آخر من جوانب الخير، متعلقاً بما قبله، فكلتا الصفتين هدفها منع الظلم، وغايتها توخي العدل حتى لا تكون فتنة فإذا كانت الخصلة الأولى نهياً عن الظلم، فإن هذه الخصلة كذلك، إلا أن الخصلة الأولى كان الظلم فيها محاباة لبعض الناس على حساب بعضهم الآخر، لأن فيها إعطاء بعض الناس حقوق الآخرين، أما هذه، فإنها نهي عن الظلم ولكنه ظلم من أجل رغبات النفس وشهواتها ونزواتها..

هكذا يحرم الإسلام الظلم، سواء كان هذا الظلم يحقق مصلحة للشخص نفسه أم لغيره، إنه يشق على الإنسان أن يعترف بخطئه، وأن ينصف الناس من نفسه، ومن أجل هذا بدأ القرآن أول ما بدأ بهذه النفس، فقال سبحانه ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم**﴾ (النساء: ١٣٥) لذلك كان الإنصاف من النفس فضيلة، من أعظم الفضائل، وطاعة من أعظم الطاعات، لأنها تدل على قوة ومغالبة، وجهاد،

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فلقد امتلأت السيرة الطيبة العطرة بالأخبار والحوادث التي بينت لنا كيف كان الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ينصف الناس من نفسه، فقد روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدْح[1] يعدّل به القوم فمر بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار وهو مستنتل[2] من الصف

(١) القَدْح: السهم.

(٢) مستنتل: متقدم.

فطعن في بطنه في القدح، وقال استوِ يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقِدْني[1]، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير[2].

وها هو ﷺ يجمع الأنصار يوم حنين ويقول لهم: يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟؟ قالوا: بلى؟ قال رسول الله: ألا تجيبون يا معشر الأنصار قالوا: وماذا نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ورسوله قال: والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك.. فقالوا الحق لله ورسوله فقال: أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. اللهم آرحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا بالله رباً ورسوله قسماً، ثم انصرف وتفرقوا»[3]

---

(١) أقدني: اقتص لي من نفسك.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٢٦.

(٣) رواه أحمد في المسند ٣/٧٦ - ٧٧، وابن هشام ٢/٣١٠ - ٣١١، وابن جرير ٢/٣٦٠ - ٣٦١ كلهم عن إسحاق بسنده الصحيح عن أبي سعيد الخدري. وذكره ابن

هذه المواقف الرائعة جديرة بنا أن نأخذ منها دروساً عملية إذا كان لنا في رسول الله أسوة حسنة. وإذا كنا ندعي أننا نحب رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، وإنه والله لموقف رائع ومؤثر، تذرف له الدموع وتخشع له الأفئدة، إنه يدل على الصدق والعظمة، صدق القائل وعظمة النبي،صلى الله عليه وآله وسلم.

وها هو عليه وآله الصلاة والسلام في مرضه الذي انتقل به إلى الرفيق الأعلى يخطب بالمسلمين آخر خطبة، فيقول يا معشر المسلمين من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليستقد منه..

إن عظماء الناس هم الذين ينصفون من أنفسهم، ويعترفون بما لهم وما عليهم، فلا يتيهون كبراً، ولا يتبخترون اختيالاً، وإن شرار الناس هم الذين تأخذهم العزة بالإثم فيحيطون أنفسهم بهالات مزيفة، ويصنعون لأنفسهم أسيجة مزيفة.

إن الإنصاف من النفس خلق عظيم ينشأ عن الإيمان والتواضع ورقة القلب، وإن التمادي في الباطل، والترفع عن الحق ينشآن عن الغرور والقسوة،.. ولقد حدثنا التاريخ كثيراً، وهو يشرف بهذه الأحاديث عن أصحاب النبي ﷺ، ومن بعده من الفئات المؤمنة، كيف كانوا ينصفون الناس من أنفسهم، كيف لا وقد رأوا إمامهم وقائدهم وسيدهم سيدنا محمداً ﷺ ينصف من نفسه، فعن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ اعرابي يتقاضاه فاغلظ له، فهم به أصحابه فقال النبي ﷺ :

كثير في البداية ٤/٣٥٨ – ٣٥٩ من رواية يونس بكير إسحاق، والسياق له، ثم قال ابن كثير: وهو صحيح. والقصة في البخاري بنحوها مختصرا.

دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»[1].

لقد أنصف علي من نفسه حينما كان يتقاضى مع يهودي فلم يرض أن يقال له يا أبا الحسن وأن يقال لليهودي يا يهودي. . . ولقد أنصف المسلمون من أنفسهم يوم أن دخلوا سمرقند، فشكا أهلها أنهم فتحوها بغير حق، فأجيبوا لما طلبوا، وقالت العدالة الإسلامية يومذاك كلمتها، مما حمل أهل سمرقند أن يعلنوا الإسلام،

هذا الذي تفوح عطر العدالة منه، وما أكثر ما حدث التاريخ عن هذه المواقف العظيمة والمشاهد الخيرة، حيث كان الخلفاء والعلماء والأمراء ينصفون الناس من أنفسهم. . وما أعدل كلمة عمر رضي الله عنه حينما رأى بعض أهل الكتاب يتسول، وقد كبر سنه، فقال ما أنصفنا هذا، فما أجدرنا ـ أرشدكم الله ـ أن نعي هذه الوصية، وأن لا تحملنا نزوة النفس وطغيان الشيطان فنذوق طعم أنفسنا، فيعجبنا صنيعنا، ويصدنا ذلك كله عن الحق،

فلتنصف أخي المسلم من نفسك أياً كان خصمك، وأيّاً كان هذا الأمر الذي يحتاج إلى إنصاف، فلا تتبعوا الهوى أن تعْدلوا وإنْ تلووا أو تعرضوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيراً.

الخصلة الثالثة: ولا تجبنوا عند قتال عدوكم:

الجبن مرض نفسي واجتماعي يفتك بالفرد والجماعة؛ لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ بالله تبارك وتعالى من الجبن صباح مساء، وكان يحذرنا دائماً، فإن شرّ ما يخافه علينا الجبن والبخل،

والجبن في حقيقته صفة من صفات المنافقين، الذين ضعف الإيمان

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاستقراض باب لصاحب الحق مقال ١٣/٢٢٧١ ج ٢ ص ٨٤٥.

في قلوبهم، ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن أولئك، أحاديث كثيرة تدل على جبنهم وهلعهم، فهم يحسبون كل صيحة عليهم، وهم إذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً، كانوا عاهدوا الله أن لا يولوا الأدبار، ولكنهم نقضوا عهد الله، قالوا لإخوانهم من الذين كفروا ﴿ **لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم ، والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ (الحشر: ١١ - ١٢).

مساوىء الجبن:

والجبن مرض اجتماعي ونفسي، يصدع الفرد والأمة على السواء، وإذا كان مظهر الجبن يكون أكثر ما يكون في الحرب وأمام الأعداء، فإن له مظاهر سيئة كذلك، فهو آفة في السلم والحرب على السواء، فإذا كان الجبن ضعفاً أمام العدو، فإنه يكون كذلك أمام الرئيس والمسؤول، ولطالما كان الجبن سبباً في انتشار باطل، وانتصار ظالم، وانتحار ضعيف، لم يستطع أن يجابه الحياة وصعوباتها.

والمؤمن الحق لا يستقر الجبن في نفسه، أقول لا يستقر الجبن في نفسه؛ لأن طبيعة الحياة ربما تزيِّن لكثير من الناس حتى المؤمنين، ولكن المؤمن سرعان ما تتبدد من نفسه أشباح الجبن، وعلامات الخوف، فلا يستقر الجبن في نفسه، ولا يتخذ منها سكناً وموطناً.

وإذا كان الجبن رذيلة يحذر منها النبي، وينفر منها الشرع، فلا شك أن الشجاعة فضيلة، ولكن الشجاعة ليست جرأة فحسب، وإنما هي جرأة مع حكمة، ذلكم لأن الجرأة بدون حكمة تهور لا شجاعة.

وتنفير الإسلام من الجبن، لأنَّه يتنافى مع صدقِ التوكل على الله، ومع الإيمان بالقدر، **﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فآدرءُوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** (آل عمران: ١٦٨) فلكل أجل **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** (الأعراف: ٣٤) وما أجمل قولة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه:

أي يوميَّ من الموت أفر يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا يرجى الحذر

والأجل لا يفرق بين من كان في المعارك، وبين من هو على الأرائك، كما لا يفرق بين من جابه الباطل بقوله وعمله، وبين من أراق ماء وجهه من أجل تحقيق رغبته وأمله.

ولو ان الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

ولكنها لا تبقى فكان الضالون هم الجبناء.

تنفير الرسول ﷺ من الجبن في جميع الأحوال:

والرسول عليه وآله الصلاة والسلام لم ينفر المسلمين من الجبن عند لقاء الأعداء فحسب، ولكنه نفّر من الجبن أياً كان هذا الجبن، وأياً كان

سببه، صحيح أن الجبن عند لقاء الأعداء، من شَرّ أنواع الجبن، لأنه يمكّن العدو من اختراق صفوف المسلمين، وكسر شوكتهم، وفي هذا إضعاف لدولة الدين وشوكة الأمة؛ ولذا كان من أعظم الموبقات والجرائم تولية الأدبار، ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دُبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ (الأنفال: ١٥ ـ ١٦) ويقول الرسول ﷺ: «اجتنبوا الموبقات السبع، قالوا وما هن يا رسول الله: قال: الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١].

لقد قرن الفرار يوم الزحف بالشرك؛ ذلك لأن الفرار يوم الزحف تمكين للشرك، لا من أرض المسلمين فحسب، وإنما من نفوسهم وأفكارهم كذلك؛ لذا جاء في هذه الوصية «ولا تجبنوا عند لقاء عدوكم، وليس معنى هذا ـ كما قلت ـ أن الجبن في غير لقاء العدو غير منهي عنه، بل إن الرسول ﷺ كان يتعوذ من الجبن صباح مساء في اليوم «اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن والجبن والبخل. . .» وقال «شر ما في رجل شحّ هالع وجبن خالع»[٢] فلا ينبغي أن نمكّن الجبن من أنفسنا.

ومن أخطر الأمراض الفتاكة التي تنخر جسم هذه الأمة اليوم مرض الجبن، وما الذي مكّن للباطل أن يستبد، وما الذي منع صاحب الحق أن

(١) رواه البخاري في كتاب الوصايا باب قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ٢٣/٢٦١٥.

(٢) رواه أبو داود في باب الجرأة والجبن ٢٢/٢٤٩٤ في كتاب الجهاد. قال المنذري: قال محمد طاهر وهو إسناد متصل ١٨٧/٧.

يستعد، . . . إنه الجبن،

ومن الذي حقق للظالم أمره، وأطال للباطل أمره. . إنه الجبن. .

فمن يخشى الله لا يجبن **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم، إنما ذلكم الشيطان يُخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** (آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥).

الخصلة الرابعة: ولا تغلوا غنائمكم:

تحدثنا في الصفة الثالثة عن الجبن أمام الأعداء، وهذه الصفة الرابعة متصلة بها، ذلك لأن الذي لا يجبن أمام عدوه، ينصره الله عليه، ويمكّنه الله من الغنائم، لذلك كانت هذه الوصية «لا تغلوا غنائمكم»

وغل الغنائم أن يأخذ المقاتل بعض الغنائم دون أن يعلم قائد المعركة، أن يأخذها خلسة، وأن يستخفي بها. . . صحيح أن من قتل قتيلاً فله سلبه، ولكن يبقى أمر الغلول أمراً مستنكراً، **﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** (آل عمران: ١٦١).

ولقد شدد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام على قضية الغلول في الغنائم، فلقد روي أن الصحابة أثنوا على أحد المقاتلين الذين استشهدوا في إحدى المعارك وقال الصحابة عنه فلان شهيد، فقال النبي ﷺ قوله: «كلا إني رأيته في النار في بردة غلّها أو عباءة»[١].

وتحريم الغلول في الإسلام ناشيء عن مبدأ عام، وهو احترام الحق وتحريم الاعتداء، والذي يغل إنما أخذ غير حقه، ونرجو أن يمنّ الله على

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب غلظ تحريم الغلول ١٨٢/٤٨ ج ١ ص ١٠٧.

هـذه الأمـة ويهيء لهـا طـريق النصر. . . . وهنـاك يمكن أن نتحـدث عن الغلول، حديثاً مستفيضاً نحذر المسلمين من أن يغلوا في غنائمهم، ولكننا اليوم يغلنا عدونا غلاً قاسياً أثيماً، وتمتـلىء قلوبه علينـا غلا أليـماً. . ونحن نعينه على ذلك بما نحمل في قلوبنا من غـل على إخـواننا، ولقـد علمنا الله تبـارك وتعالى أن نـطرح هذا الغـل ﴿ربنا آغفـر لنا ولإخـواننـا الـذين سبقـونا بالإيمـان ولا تجعل في قلوبنـا غِلا للذين آمنـوا﴾ (الحشر: ١٠).

الخصلة الخامسة: وامنعوا ظالمكم عن مظلومكم

المتدبر للكتاب العزيز والسنة المطهرة لا يجد صفة ذكرت قُرِّع عليها أصحابها وجوزوا بها سوءًا، وتنوعت عقوباتها الدنيوية والأخـروية، أقـول لا يجد صفة ذكر لها ذلك كله، وذكرت هي أكثر من غيرها كصفة الـظلم،

والناس إما ظالم وإما مظلوم، والمظلوم بالطبع إنما ظلم لضعفـه، أما الظالم فقد يكون ظلمه لبـطشه وقـوته وجـاهه ومنصبـه ومالـه، وقد يكـون ظلمه كذلك لأنه لم يجـد أحداً ينكـر عليه هـذا الظلم، لـذلك كـان هناك صنف ثـالث غير الـظالم والمظلوم، أولئـك الذين يشـاهدون الـظالم ويرون ظلمـه، ويغمضون أعينهم عن المـظلوم، وبعضهم قـد يـترنم عـلى أنينـه، ويمتّع نظره بما يلاقيه من شدة وعناء.

هـذا الصنف الثالث في الأمـة لم يجعله الشرع في منـأى وبعـد عن الصنفين السابقين، بل حمله الإسلام مسؤولية الظالم والمظلوم على السواء، أما مسؤولية المظلوم فهو أن يرفع الظلم عنه، وأمـا مسؤولية الـظالم فهو أن يردعه عن ظلمه.

لذلك كانت هذه الوصية الأخيرة في هذه الخـماسية «وامنعـوا ظالمكم

عن مظلومكم» وقد وردت أحاديث كثيرة بيّن النبي عليه وآله الصلاة والسلام فيها أن الأمة التي لا تنصف مظلومها، ولا ترفع عنه الظلم لا ينظر الله لها نظرة رحمة، ولا يقدسها الله تبارك وتعالى «إن الله لا يقدس أمة لا يعطون الضعيف منهم حقه»[1]

«إن الله لا يقدس أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه، وهو غير متعتع»[2] فالضعيف لا بد أن يأخذ حقه من القوي وتعينه الأمة على ذلك دون أن يتحمل أذى أو مشقة أو صعوبة، أو يتعرض لحملة سوء. . وإلا فإن أمة مثل هذه تسكت عن الظلم لا يقدسها الله تبارك وتعالى، ولا يعبأ الله بها، وهل يعبأ الله بهم لولا إيمانهم، وإن أول درجات الإيمان، ومن أبرز قضاياه أن يرفع الظلم عن المظلوم وأن يؤخذ على يد الظالم.

ولقد تحدثنا في خماسيات سابقة عن هذا الموضوع حديثاً يرجع إليه من أراد، فقد ذكرنا هناك أحاديث كثيرة لمعالجة هذه القضية الخطيرة، قضية السكوت عن الظلم، التي لا تحصد الأمة بها إلا مرارة العلقم، وسوء المغرم، ولات حين مندم.

هذه هي الصفات الخمس التي آخترناها مع الخماسيات، مع أن عنوانها «اضمنوا لي ستاً» ويقال إن السادسة قد سقطت من بعض الرواة، ولا ندري الأمر كذلك، أم أنها في أصلها خماسية غيرها بعض الرواة نسياناً وسهواً؟!. على كل حال نقول هذا لأنه ورد في حديث آخر «آضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة، آصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا إيديكم»[3].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٩٧/٤)

(٢) قال في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ١٩٧/٤.

(٣) قال في مجمع الزوائد ١٤٥/٤ رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة.

ولعل هذه الرواية شوبه‌بينها وبين التي معنا،

ومهما يكن من أمر، فإن الصفات التي تحدثنا عنها في هذا الحديث الشريف كانت كما قلنا من قبل معالجة لأمراض إجتماعية ونفسية، نرجو الله أن يكتب لنا منها الشفاء والعافية، وأن يمنّ علينا بسلوك طريق الحق، إنه سميع قريب، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخماسية الخامسة والعشرون

عن جابر بن عبدالله[1] أن النبي ﷺ قال: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[2]

في الحديث العظيم، إظهار شرف النبي ﷺ، وإظهار فضله، ورفعة منزلته، وعلو شأنه عند خالقه تبارك وتعالى.. ولا شك أن أمة النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ينالها من ذلك الشرف، وتشرف بهذه الخصال كذلك، فرفعة الأمة من رفعة نبيها، ولذلك جعلها الله تبارك وتعالى خير أمة.

---

(١) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن غنم بن كعب الانصاري، يكني أبا عبد الله، احد المكثرين عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة وفي الصحيح انه كان مع من شهد العقبة، وعنه قال: كنت امنح اصحابي الماء يوم بدر، وقال: غزا النبي ﷺ احدى وعشرين غزوة بنفسه شهدت منها تسع عشرة غزوة، وروى مسلم عن جابر قال غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، لم أشهد بدراً ولا أحداً منعني أبي، فلما قتل لم أتخلف، وكان لجابر حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، كان آخر الصحابه موتا في المدينة، قيل سنة ثمان وسبعين وقيل سنة اربع وسبعين [الاصابة ١/٢١٥].

(٢) رواه البخاري في كتاب التيمم رقم الباب ١ رقم الحديث ٣٢٨.

وهذه رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه، وقد وردت روايات أخرى بينت غير هذه الخمس، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

الخصلة الأولى: نصرت بالرعب مسيرة شهر.

وأول خصلة في هذه الرواية قوله عليه وآله الصلاة والسلام «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر» وتلكم دلالة قوية على طبيعة هذا الدين، فإن الله سبحانه إنما أراد أن يظهره على الدين كله، وذلك لا يكون إلا بإزالة الكفر والطغيان، والفساد والجور، وكل هذا يتطلب إلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وقد بيّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة محكمة من كتابه أنه هو الذي يتكفل بإلقاء الرعب في قلوب أعداء هذا الدين وأعداء هذا النبي، قال سبحانه **﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾** (الأنفال: ١٢) وقال في آية أخرى: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾** (آل عمران: ١٥١) وفي آية ثالثة **﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾** (الرعد: ٢٦).. فالرعب آختص الله به سبحانه وهو بحق من أعظم الأسلحة التي تكسر شوكة الكفر، وتهزم جيشه وتفرق صفّه.

وقد عاقب الله هذه الأمة بإذاقتها مرارة الرعب، حين أعرضت عن هديه، وتنكبت طريق الحقّ، حيث أُلقي في قلوبها الوهن،

وفي مقابل هذه الحالة الباهتة التي أصابت هذه الأمة، كان الأمر على العكس من ذلك، حيث أكرم الله نبيه ﷺ فألقى الرعب في قلوب أعدائه مسيرة شهر. وقد ذكرت بعض الروايات أن الرعب ألقاه الله في قلوب أعداء نبيه مهما بعدت المسافة، وهذا أمر ليس بمستغرب، ذلك أن الرعب حالة انقطاع وهلع، تصيب الإنسان حين يمتلىء خوفاً، والله تبارك وتعالى يصيب بهذا الخوف والهلع من شاء مهما طالت المسافات، وبعدت الشُقة.

وإذا صلح حال الأمة فإن الله تبارك وتعالى يلقي في قلوب أعدائها الرعب كذلك، وهذا ما يشهد به التاريخ، فلقد كانت الأرض ترتجف تحت أقدام أولئك، الذين ناصبوا المسلمين العداء قبل أن يصلهم المسلمون، فكانت نتيجة ذلك تلك الفتوح الشاسعة الواسعة، وذلكم النصر المؤزر الذي ظهرت آثاره في مشارق الأرض ومغاربها، ولما أعرض المسلمون عن هدي الله، واتخذوا كتابه ظهرياً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وركنوا إلى الدنيا نزع من صدور أعدائهم مهابتهم، وملأ قلوبهم وهناً ورعباً، وذلاً وخوفاً وهذا ما أرشد إليه وبينه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة نذكر منها قوله عليه وآله الصلاة والسلام «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعهُ حتى ترجعوا إلى دينكم»[1]

والتبايع بالعينة نوع من أنواع الربا، وهو من الحيل المحرمة وصورته أن تشتري سلعة بمائة دينار مثلاً نسيئة - أي مؤجلة - ثم بعد ذلك تبيعها للبائع الذي اشتريت منه بتسعين معجلة، فتأخذ التسعين، ويكون له عليك مائة، والأخذ بأذناب البقر والرضا بالزرع كناية عن الانشغال بالدنيا، وليس المقصود منه أن يترك المسلمون الدنيا لأعدائهم، ويدل على هذا قوله ﷺ «وتركتم الجهاد» فمن الخير أن يشتغل المسلمون بدنياهم وجهاد أعدائهم، فيكون عملهم في الدنيا عوناً لهم على الجهاد، وهكذا يجمعون بين الدنيا والآخرة.

وهذا الذل والرعب لا ينزعه الله من قلوب هذه الأمة حتى يرجعوا إلى دينهم، ذلكم هو قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام الذي لا يرتاب

(١) رواه أبو داود في كتاب الإجارات باب النهي عن العينة ٢١/٣٤٤٥، وقال المنذري في إسناده إسحاق بن أسيد أبو عبد الرحمن الخراساني نزيل مصر، لا يحتج بحديثه، وفيه أيضاً عطاء الخراساني وفيه مقال.

فيه إلا جاحد نعوذ بالله أن نكون من الجاحدين.

الخصلة الثانية: وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً:

وهذه رحمة تستوجب شكر الله تبارك وتعالى، وهذه الخصلة متفقة مع طبيعة هذا الدين، فالمسلمون شهداء على الناس، وهم مدعوون لهدايتهم ورفع الظلم عنهم، والأرض كلها لله، لذلك جعلت الأرض كلها مسجداً للمسلم، يؤدي فيها شعائر الله، وهذه قضية تستحق التأمل»

إن عبادات غير المسلمين إنما جعلت في معابدهم، ولا تكون خارج هذه المعابد، ولكن عبادة المسلم في الأرض كلها، فإذا كانت عبادة غير المسلم منحصرة بين جدران أربعة، فإن عبادة المسلم جعلت بين جهات الدنيا الأربع، فما أعظمه من فضل، وما أكرمها من منّة.. ففي أي مكان أدركتك الصلاة، فلتؤد هذه الصلاة، ولتناج ربك فإنَّ صلاتك لله وحده، وإن الأرض لله وحده.

ولقد جعل الله الأرض ذلولاً لنمشي في مناكبها، وينبغي أن يكون لنا في موضع كل خطوة سجدة شكر لله، فالله الذي سخر لنا الأرض نعمة منه، يجب أن نشكره على هذه النعمة، وفي هذه منّة أخرى، وهي أن الله جعل هذه الأرض طهوراً كذلك، وقد فهم بعض العلماء من هذا مشروعية التيمم بتربة الأرض حينما نفقد الماء أو نعجز عن استعماله لضرر يصيبنا أو لحاجة إليه، وهذه كلها بركات أكرم الله بها نبيه الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم،

ولقد فهم المسلمون هذه المنة فساروا في أرجاء الأرض فاتحين، ليطهروها مما لحق بها من دنس، ويزيلوا ما عليها من رجس، حتى تكون صالحة لعبادتهم وطهرهم.. ولكنهم بدأوا يتراجعون ويتقهقرون، ويأخذ عدوهم مما في أيديهم، ولكن... إن كانت جولة الباطل ساعة، فإن دولة الحق إلى قيام الساعة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الخصلة الثالثة: وأحلت لي المغانم

ولم تحل لأحد قبلي، وهذه متصلة بسابقتيها، نعمة من نعم الله، . . . لقد كانت الغنائم محرمة قبل نبينا ﷺ، حيث كان بعض الأنبياء لم يؤمروا بالجهاد، ومن أمر منهم بقتال لم تحل له الغنائم، ولكن الله الذي نصر نبيه بالرعب، وجعل الأرض كلها مسجداً وطهوراً له، أراد أن يمكنه من عدوه، وأراد أن يهيء له أسباب الغلبة والعزة، فأحل له الغنائم التي يغنمها من أعدائه، لتكون مصدر قوة، ومبعث عزة، وعوناً على أن تظل مسيرة الجهاد دائمة لا تنقطع، مرفوعة لا يستطيع أحد أن يخفضها، لكن. . . لا يظنن أحد صحة ما أرجف به أعداء الإسلام من أن الباعث لهم على الجهاد كان كسب الغنائم، فإن من يدخل في دين الله دون قتال، لا يحل شيء من ماله، ومن أعطى الجزية كذلك لا يحل شيء من ماله. . . لم تكن غاية الجهاد يوماً عند المسلمين غاية مادية، ولم يكن خروج المسلمين للجهاد من أجل غارات يُغيرونها، وإنما من أجل نفوس يغيّرونها. . . لم تكن من أجل مغانم يكسبونها، وأموال يسلبونها، وحقوق يغصبونها، وإنما من أجل كلمات حق يسطرونها ويكتبونها، فأحل الله لنبيه هذه الغنائم.

وإن مقارنة بين تشريعات الإسلام، وفعل المسلمين وبين ما فعله الاستعمار في بلاد المسلمين تطلعنا على البون الشاسع بين الحق والباطل، فكم سرقوا من خيرات، وكم اغتصبوا من حقوق، حتى لقد قال أحد مفكريهم الذي منّ الله عليه بالإسلام فيما بعد: إن الدم الذي يسري في عروقنا نحن الغربيين، وإن الشعر الذي ينبت على أجسامنا، إنما هو سحت، لأنه من تلك الخيرات التي سرقناها من غيرنا.

تلكم قضية الغنائم التي أحلها الله لنبيه، ولم تحل لأحد قبله،

الخصلة الرابعة: وأعطيت الشفاعة:

إذا كانت الأمور السابقة تتحقق في هذه الدنيا، فإنَّ هٰذِهِ الخصوصية من خصوصياته ﷺ تتحقق في الآخرة، والشفاعة التي أعطيها النبي عليه وآله الصلاة والسلام، قد تكون الشفاعة التي تكون لعصاة المسلمين من أجل إخراجهم من النار، حيث وردت أحاديث تدل على ذلك، حتى يخرج من ثبتت كلمة التوحيد في قلبه، وقد تكون الشفاعة العظمى التي تكون يوم المحشر قبل أن يحاسب الناس، قال ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك، فيقول ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، ائتوا النبي ﷺ فيأتوني فأسجد تحت العرش فيقال: يا محمد آرفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه»[1]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء قول الله ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ ٣١٦٢/٥ ج ٣ ص ١٢١٦.

هذه هي الشفاعة التي أعطيها النبي ﷺ، ولا ينافي هذا أن هناك شفاعة خاصة لبعض الناس، كما جاء في الحديث: «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[1] وقد يشفع الأب الصالح لأبنائه، وقد يشفع الجار لجيرانه، وقد يشفع الإنسان لأهل بيته وذلك إذا كانوا مؤمنين.

واعلموا أن هذه الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تبارك وتعالى، ولا تكون إلا لمن آرتضى، قال سبحانه ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقال ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن**﴾ (طه: ١٠٩) وقال سبحانه: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ (٢٨: الأنبياء)

اللهم أكرمنا بشفاعة نبيك سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم.

الخصلة الخامسة: بعثه إلى الناس عامة:

«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

مما أكرم به نبينا ﷺ أنَّ الله تبارك وتعالى جعل رسالته للناس جميعاً، بل للثقلين الأنس والجن، ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ (سبأ: ٢٨) ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ (الأعراف: ١٥٨) ﴿**وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾ (الأنعام: ١٩).

ومع ما في هذه المنّة من فضل، وتكريم للأمّة بقدر ما فيها من مسؤولية، وثقل أمانة، فإذا كانت رسالة النبي للناس جميعاً على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، فواجب المسلمين أن لا يقعدوا عن دعوة الناس إلى الحق، فهم إن فعلوا ذلك واستقرت بهم الدعة والاسترخاء، عرضوا

---

(١) سبق تخريج الحديث.

أنفسهم لمسؤولية جسيمة يصيبهم فيها سخط الله وغضبه، وإذا كـان النبي أرسـل للناس جميعـاً، فلا بـد أنْ تكون رسـالتـه صـالحـة مصلحـة لهؤلاء الناس، وهي كذلك، فرسالة الإسلام في كتابه وسنته اقتضت طبيعتهـا أن تكون ذات هداية تامة، شاملة، ميسرة، دائمة، تـامة لا تهمـل جانبـاً من جـوانب الحياة، شـاملة ليست لأحد دون أحـد، وإنما هي للنـاس جميعاً، دائمة لا تصلح لزمن دون زمن، ميسرة لا تـرهق العقول بعقـائدهـا، ولا تـرهق النفوس بتكـاليفها، وهكـذا كانت هـذه الهدايـة الإسلاميـة هدايـة القرآن والسنة، لكل الناس، ولكل زمان، ولكل مكان، سهلة ليس فيهـا مـا يثقل عـلى الإنسان تنفيـذه، ولا يصعب عليه إدراكـه، ﴿**ولقد يسرنـا القـرآن للذكر فهـل من مدّكـر**﴾ (القمر: ١٧) قـال ﷺ «وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونارها سواء»[١].

هل أرسل نوح للناس جميعا كذلك؟

وقد استشكل بعض الناس هذه الخصوصية للنبي ﷺ، وذلك لأنهم ظنوا أن نوحاً عليه السلام أرسل للناس جميعاً كذلك، بـدليل قـوله ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديـاراً**﴾ (نوح: ٢٥) وأجـاب بعضهم أن رسالة نوح كانت لقومه خاصة، وهذا ما أرشـدت إليه الآيـات الكثيرة مثل ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومـه**﴾ (نوح ١) ولكن لما كان عهـد نوح قـريباً من عهـد آدم عليه السـلام، كان النـاس قلة، فلم يكن هناك سـوى قومه، فهو لم يرسل إلى الناس جميعاً، وإنما أرسل إلى قومـه، ولكن لم يكن سواهم على هذه الأرض.

وأجاب غير هؤلاء بجواب آخر، وهو أن نوحاً أرسل لقومه، ولكنـه

---

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة رقم الحديث ١٥١ وهو مما انفرد به.

دعا على المشركين من غير قومه كذلك، فأجاب الله دعوته، ولا مانع عندي من جواب ثالث أن تكون دعوة نوح عليه السلام إنما قصد بها قومه، فتكون الأرض التي قصدها نوح عليه السلام أرض قومه والله أعلم.

وهذه قضية لا يظهر لنا في بحثها كثير فائدة، فهي لا تتعارض مع ما قاله النبي عليه وآله السلام، فإن النبي وحده عليه الصلاة والسلام هو الذي أرسل للخلق جميعاً، وكانت رسالته عامة مكاناً وزماناً وخلقاً.

إكرام النبي ﷺ بكرامات غير هذه الخمس

واعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن الله كرم نبيه عليه وآله الصلاة والسلام بكرامات كثيرة وقد ورد أن النبي ﷺ أعطاه الله غير هذه الخمس، فذهب بعض العلماء إلى أن العدد لا مفهوم له، وإنما المقصود التكثير، وقال بعضهم إنه كان يخبر عما يطلعه الله عليه. قال الحافظ رحمه الله في الفتح:

«قوله (لم يعطهن أحد قبلي) زاد في الصلاة عن محمد بن سنان «من الأنبياء» وفي حديث ابن عباس «لا أقولهن فخراً» ومفهومه أنه لم يختصّ بغير الخمس المذكورة، لكن روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً» فضلت على الأنبياء بست» فذكر أربعاً من هذه الخمس، وزاد ثنتين كما سيأتي بعد، وطريق الجمع أن يقال: لعله اطلع أولاً على بعض ما اختص به، ثم اطلع على الباقي. ومن لا يرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الإشكال من أصله».

ثم قال«(تكميل) أول حديث أبي هريرة هذا «فضلت على الأنبياء بست» فذكر الخمس المذكورة في حديث جابر إلا الشفاعة، وزاد خصلتين وهما «وأعطيت جوامع الكلم، وختم بي النبيون» فتحصل منه ومن حديث

جابر سبع خصال، ولمسلم أيضاً من حديث حذيفة «فضلنا على الناس بثلاث خصال، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» وذكر خصلة الأرض كما تقدم، قال: وذكر خصلة أخرى، وهذه الخصلة المبهمة بينها ابن خزيمة والنسائي وهي «وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش» يشير إلى ما حطه الله عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به، ورفع الخطأ والنسيان، فصارت الخصال تسعاً، ولأحمد من حديث عليّ «أعطيت أربعاً لم يعطهنّ أحد من أنبياء الله، أعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعلت أمتي خير الأمم» وذكر خصلة التراب فصارت الخصال ثنتي عشرة خصلة وعند البزار من وجه آخر، عن أبي هريرة رفعه «فضلت على الأنبياء بست: غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وجعلت أمتي خير الأمم، وأعطيت الكوثر، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه» وذكر ثنتين مما تقدم. وله من حديث ابن عباس رفعه «فضلت على الأنبياء بخصلتين، كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم» قال: ونسيت الأخرى.

قلت: فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع. وقد تقدم طريق الجمع بين هذه الروايات وأنه لا تعارض فيها. وقد ذكر أبو سعد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي اختص به نبينا ﷺ على الأنبياء ستون خصلة.

وفي حديث الباب من الفوائد غير ما تقدم: مشروعية تعديد نعم الله، وإلقاء العلم قبل السؤال، وأن الأصل في الأرض الطهارة، وأن صحة الصلاة لا تختص بالمسجد المبني لذلك. وأما حديث «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، فضعيف، أخرجه الدارقطني من حديث جابر،

واستدل به صاحب المبسوط من الحنفية على إظهار كرامة الآدمي. وقال لأن الآدمي خلق من ماء وتراب، وقد ثبت أن كلاً منهما طهور. ففي ذلك بيان كرامته، والله تعالى أعلم بالصواب»[١].

(١) فتح الباري ج١ ص ٤٥٣ - ٤٥٦.

الخماسية السادسة والعشرون

عن أبي هريرة قال قال ﷺ «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، وآتباع الجنائز وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[1].

المؤمنون إخوة، وهم مثل الجسد الواحد، ومن عظمة الرسول وحكمته ﷺ أنه لم يترك هذه الأخوّة، وقفاً على آراء الناس وأفكارهم، ولم يدعهم لآرائهم وتوجيهاتهم.. ولم يجعلها أخوّة بعيدة عن أمور الحياة وعن الأحداث اليومية، ذلك لأن الأخوّة حتى بين الأشقاء إذا لم تُنَمَّ بالأعمال الخيّرة، فسيضعف ريحها، وتذبل أزهارها، ومن أجل هذا حرص النبي ﷺ على أن تتعدد أواصر المودة بين المسلمين، وذلك لتنمية العلاقات الاجتماعية، والمجاملة المباحة، وبعض هذه العلاقات قد تصل إلى درجة الواجب في كثير من الأمور، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في هذا الحديث.

الحق الأول: رد السلام:

ومن أعظم هذه الحقوق وآكدها رد السلام، إذا سلم عليك أن ترد عليه، ويندب أن تكون تحيتك أحسن من تحيته. قال تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ (النساء: ٨٦) ولقد جعل الإسلام السلام التحية التي يكرم المسلمون بها بعضهم بعضاً، والأحاديث

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب الأمر باتباع الجنائز رقم الباب ٢.

التي وردت في أمر السلام كثيرة، وكلها تبين أن إفشاء السلام مما يتحاب به الناس، ومما يتم لهم به رضوان الله سبحانه.

ومما يدلنا على ما لهذه التحية، وهي إفشاء السلام، مما يدلنا على ما لها من منزلة أن النبي ﷺ، جعلها سبباً من أسباب التحاب والتواد بين المسلمين، هذا أولاً.

أما ثانياً فإن النبي ﷺ جعل إفشاء السلام مقترناً مع إطعام الطعام، والصلاة في جوف الليل والناس نيام، قال «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1]... تلكم هي التحية التي يجب على المسلم أن يراعيها، حتى لو دخل بيتاً ليس فيه أحد، فحري به أن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» قال سبحانه: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ (النور: ٦١) يقول النبي ﷺ «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

وسأله رجل أي الإسلام خير؟ فقال: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف[3]

وكلما زاد المسلم لأخيه في التحية كان أكثر أجراً، وهنا مسألتان من

(١) رواه الترمذي في كتاب الأطعمة باب ما جاء في فضل إطعام الطعام ١٨٥٥/٤٥ وقال حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ٩٣/٢٢ ج ١ ص ٧٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاستئذان باب السلام للمعرفة وغير المعرفة (فتح الباري ٢٥٧/١٣).

المفيد أن نذكرهما، لأنهما تستحقان البحث جديرتان بالمعرفة:

المسألة الأولى: ما جرى بين كثير من الناس اليوم من تحية غير تحية السلام.

المسألة الثانية: تحية غير المسلمين والرد عليهم.

ولقد وجدنا كثيراً من الناس يسأل عن هاتين المسألتين فنبينهما هنا حتى يكون المسلم على بصيرة في أموره كلها، فنقول وبالله التوفيق وله الحمد والمنة.

المسألة الأولى:

لا شك أن تحية السلام هي شعار المسلمين وهي التحية التي أمرهم الله بها سبحانه ﴿فسلموا على أنفسكم﴾، وبينها رسول الله ﷺ وليس هناك أحلى نغماً ولا أكثر خيراً ولا أزكى قولاً من السلام، ولهذا كان السلام من أجزاء صلاة المسلم في تشهده الأول والأخير، فهو يسلم على النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين.

ولقد ذم القرآن أولئك الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وكان مما استحقوا به الذم والعقوبة أنهم حيوه التحية بغير ما حياه الله به، فقال سبحانه: ﴿**وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾ (المجادلة: ٨) ويقول ﴿**ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾ (المجادلة: ٨).. وقد أخذ الناس من هذه الآية الكريمة أن أيّ تحية سوى تحية السلام تحرم ولا تجوز، ولقد شنّعوا على المسلمين الذين اعتادوا في مجالسهم على بعض الكلمات التي يحيي بها بعضهم بعضاً، كتحيّتي الصباح والمساء، ولا أجد في الآية

دليـلاً لما ذهب إليـه هؤلاء. . . فلقد ذكـر العلماء في أسبـاب نـزول الآيـة الكـريمـة أن جمـاعـة من اليهـود أتـوا النبي ﷺ فقـالـوا السام عليـك، ويقصدون به الموت، فاستحقـوا الذم من أجـل هذا، فليس في الآيـة إذن دليل يحرم على المسلم مثل هذه الكلمات، . . صحيح أن هـذه الكلمات لا ينبغي أن تكون بديـلاً للسلام ولكنهـا في كثير من الأحيـان قد تكـون تحية جانبية، فبعـد أن يسلم القادم عـلى من في المجلس، ويستقر بـه المجلس، يبادلونه التحية وهذه التحية قد تختلف باختلاف الأمكنة. . فعنـدنا كـانت الكلمة المستعملة بين النـاس في هذه المجـالس كلمة (مـرحباً) وهي كلمـة تدل على الترحيب والتأهيل، وهي تحية معروفة، وقد قالها الملائكـة ترحيبـاً بـالنبي ﷺ ليلة المعراج «مرحباً بـه فنعم المجيء جـاء» و«مـرحبـاً بـالنبي الصالح والأخ الصالح»[1].

وبعض الناس جرت على ألسنتهم كلمة صبـاح الخير ومسـاء الخير، ويرى بعض الناس أن هـذه الكلمات ليس من الخير أن تقـال، لأنها كلمات مقتبسة من غير المسلمين، ويرى بعضهم أنه لا بأس أن يقـال صبحك الله بـالخير ومسّـاك الله، ولكن لا يظهر لي صحـة ذلك كله. . . فصبـاح الخـير ليست كلمات مقتبسة من غير المسلمين وإنما هي كلمات عرفها العـرب حتى في جاهليتهم، فمن أشعار بعض المتحنفين

الحـمـد لله ممـسـانـا ومـصـبـحـنـا
بـالخـير صـبـحـنـا ربي ومـسّـانـا

وعلى هذا فلا أرى بأسـاً بهذه الكلمات مـرحباً وصبـاح الخير ومسـاء

(١) انـظر صحيح مسلم في كتـاب الإيمـان بـاب الإسراء بـرسـول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات باب رقم ٧٤ ج ١ ص ٢٤٥.

الخير، أو أي كلمة فيها دعاء وإيناس ما دامت هذه كلمة ليست بديلة للسلام. . . نعم هناك أمران محظوران لا بد أن نتجنبهما:

الأول: أن تكون هذه الكلمات بديلاً للسلام بحيث تهجر تحية السلام لتحل هٰذه الكلمات محلها، هذا أمر لا يستقيم في البيئة المسلمة، ولا ينبغي أن يعتاده المسلمون، فيبدلوا كلام الله وكلام نبيه عليه وآله الصلاة والسلام. . ومما هو قريب من هذا يؤلم النفس أن نجد بعضَ الناس يحيي أخاه بتحية السلام (السلام عليكم) فيقول (أهلاً) أو (مساء الخير) أو يشير برأسه وهذه كلها صور لا تجوز لأنها مخالفةٌ صريحة لقول الله تبارك وتعالى ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾.

الثاني: أن بعض الناس جرت على ألسنتهم كلمات غير عربية يحيي بها بعضهم بعضاً، أو يودع بعضهم بعضاً، أو كلمات مما يستعمله غير المسلمين، وهذه قضية سيئة لا بد أن يتجنبها كل مسلم يستبرىء لدينه وعرضه، ويخشى الله في قوله وعمله. . هناك كلمات جعلها بعض الناس عادات لأولادهم الصغار، وقد تكون بالإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما، كل ذلك مما لا يجوز أن ينتشر في مجتمع المسلمين، وإن دل على شيء فإنما يدل على استهتارهم من جهة، وضعف شخصيتهم من جهة ثانية.

المسألة الثانية: تحية غير المسلمين.

واعلموا ـ أرشدكم الله ـ أن الجماعة المسلمة ينبغي أن تكون جماعة متميزة بكل ما فيه خير، وبكل ما هو فخار، ولكن هذا التميز، لا يقطع صلتهم بغيرهم، وليس فيه انتقاص أو إهانة أو إيذاء شعوري ونفسي، أو إيذاء خارجيّ كذٰلك، لغير المسلمين ولكن المسلمين كأي جماعة لها مظهرها الخاص لذلك كان السلام شعاراً لهم، فهل يمكن أن نحيي بهذه

التحيـة غير المسلمـين؟ وهل يمكن أن نـردّ عليهم إذا حيونـا بها كـذلـك؟ وبعبـارة أخرى هـل نبدأهم بـالسلام، وهـل إذا بدأونـا هم بالسـلام نـرد عليهم؟

لقـد بحث العلماء هـذه القضيـة بحثـاً واسعــاً مستفيضـاً، ولكــل اجتهاده، ولكل مجتهد نصيب، فمنهم من ذهب إلى أن هذه التحية خاصة بالمسلمين لا نبتدىء بها غيرهم، ولا نرد عليهم إذا ابتـدأونا، وقـد استدل هؤلاء بظاهر بعض الأحـاديث. وذهب آخرون إلى أننـا لا نبدؤهم بتحيـة الإسلام، لكن إذا بدأوناهم نقول: «وعليكم». . . وذهب فريق ثالث إلى أنهم إن لم يكونوا محـاربين لا مـانع من أن نبـدأهم ونرد عليهم إذا بـدأونا كذلك. ولقـد استدل هذا الفريق الثالث بمثل قوله سبحانه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليهم﴾ (الممتحنة: ٨) وبمثـل قولـه: ﴿فـاصفـح عنهم وقـل سـلام﴾ (الزخرف: ٨٩) وبقولـه ﷺ في الحديث السـابق «سلم على من عرفت وعلى من لم تعرف».

وسأنقل هنا ما قاله الإمـام النووي، والحـافظ ابن حجر رحمهـما الله تعالى ورضي عنهما.

«قال النووي: السنة إذا مر بمجلس فيـه مسلم وكافـر أن يسلم بلفظ التعميم ويقصـد به المسلم. قـال ابن العربي: ومثله إذا مـر بمجلس يجمع أهـل السنة والبـدعـة، وبمجلس فيـه عـدول وظلمـة، وبمجلس فيـه محب ومبغض.

واستدل النووي على ذلك بحديث الباب، وهومفرع على منع ابتـداء الكافر بالسلام، وقد ورد النهي عنه صريحاً فيما أخرجه مسلم والبخاري في

الأدب المفرد من طريق سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام واضطروهم إلى أضيق الطريق» وللبخاري في الأدب المفرد والنسائي من حديث أبي بصرة وهو بفتح الموحدة وسكون المهملة الغفارى أن النبي ﷺ قال: «إني راكب غداً إلى اليهود فلا تبدءوهم بالسلام» وقالت طائفة: يجوز ابتداؤهم بالسلام، فأخرج الطبري من طريق ابن عيينة قال: يجوز ابتداء الكافر بالسلام لقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ وقول إبراهيم لأبيه ـ سلام عليك ـ وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عون بن عبدالله عن محمد بن كعب أنه سأل عمر بن عبد العزيز عن آبتداء أهل الذمة بالسلام فقال نردّ عليهم ولا نبدؤهم. قال عون: فقلت له فكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأساً أن نبدأهم. قلت: لم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ وقال البيهقي بعد أن ساق حديث أبي أمامة إنه كان يسلم على كل من لقيه فسئل عن ذلك فقال إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا، هذا رأي أبي أمامة وحديث أبي هريرة في النهي عن ابتدائهم أولى.

وأجاب عياض عن الآية وكذا عن قول إبراهيم عليه السلام لأبيه بأن القصد بذلك المتاركة والمباعدة وليس القصد فيهما التحية. وقد صرح بعض السلف بأن قوله تعالى «وقل سلام فسوف يعلمون» نسخت بآية القتال. وقال الطبري: لا مخالفة بين حديث أسامة في سلام النبي ﷺ على الكفار حيث كانوا مع المسلمين وبين حديث أبي هريرة في النهي عن السلام على الكفار، لأن حديث أبي هريرة عام وحديث أسامة خاص. فيخص من حديث أبي هريرة ما إذا كان الابتداء لغير سبب ولا حاجة من حق صحبة أو مجاورة أو مكافأة أو نحو ذلك، والمراد منع ابتدائهم بالسلام

المشروع. فأما لو سلم عليهم بلفظ يقتضي خروجهم عنه كأن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهو جائز كما كتب النبي ﷺ إلى هرقل وغيره «سلام على من اتبع الهدى».

وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: «السلام على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم: السلام على من اتبع الهدى» وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن سيرين مثله، ومن طريق أبي مالك، إذا سلمت على المشركين فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فيحسبون أنك سلمت عليهم وقد صرفت السلام عنهم.

قال القرطبي في قوله: (وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه) معناه: لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق إكراماً لهم واحتراماً وعلى هذا فتكون هذه الجملة مناسبة للجملة الأولى في المعنى، وليس المعنى إذا لقيتموهم في طريق واسع فألجئوهم إلى حرفه حتى يضيق عليهم لأن ذلك أذى لهم، وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب»[1].

هذا ما قاله الحافظ في الفتح. وإذا كان لا بد من كلمة أخيرة أنهي بها الحديث في هذه المسألة، فأقول وبالله التوفيق - الذي يظهر لي من كل ما تقدم مع ما يترجح عندي - أوجزه فيما يلي:

أولاً: من حيث الرد: إذا سلم عليك أحد من هٰؤلاء وتأكدت مما قاله لك وعرفت أنه قد بدأك بالسلام، فلا أرى بأساً أن ترد عليه بمثل تحيته أو أحسن فتقول مثلاً وعليك السلام وأهلاً وسهلاً، أو وعليك السلام والتحية والإكرام.

ثانياً: من حيث البدء: الذين تبدؤهم بالسلام إن كان المسلمون

(١) فتح الباري ١٣/٢٧٧.

وغيرهم في مجلس واحد، فمن الخير أن تبدأهم جميعاً بقولك السلام عليكم، أما إذا كانوا من غير المسلمين كما نجد في مجتمعنا اليوم فإن هذا الذي تبدأه بالتحية، إما أن يكون قد تعود تحية الإسلام بحكم وجوده بين المسلمين، وإما أن يكون قد تعود تحية أخرى خاصة به وبقومه... فإن كان من هذا الصنف الثاني فلا أرى ضرورة أنْ تجيبه بتحية الإسلام ويمكن أن تحييه بتحية عامة مثل صباح الخير ومساء الخير، لأنه لا يبالي بشيء من هذا، وأما إن كان من الصنف الأول فهوَ إن لقيك لا يحييك إلا بتحية الاسلام، وهكذا إن لقي أبناء قومه فلا أرى بأساً أن تحييه كذلك أنت بهذه التحية.

هذا الذي يظهر ويترجح في هذه المسألة والله أعلم... وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحق الثاني: عيادة المريض:

سواء كان المريض جاراً قريباً أم بعيداً، وسواء كان هذا المريض صديقاً أم لم يكن، وقد تتأكد عيادة المريض إذا كان من أولي الفضل وأصحاب التقوى، أو إذا كان ممن لا يأبه الناس لهم، ولا يعنون بشأنهم؛ ذلك أنَّ كثيراً من الناس يعودون ذوي المناصب وذوي الجاه في المجتمع.

ولقد أكد النبي عليه وآله الصلاة والسلام على عيادة المريض، وبيَّن جزاءها في كثير من أحاديثه الشريفة، قال ﷺ «إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة»[1] وفيه قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: جناها»[2] وأخرج البخاري قوله ﷺ: «من عاد مريضاً خاض في

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب فضل عيادة المريض ١٣/٤١.
(٢) مسلم كتاب البر باب فضل عيادة المريض حديث ٤٢.

الرحمة حتى إذا قعد استقر فيها»[1]. وخرفة الجنة ثمرها وجناها، ومعنى هذا أن الذي يعود المريض يحصل على كثير من الثواب والأجر، ويحوزه كما يحوز الذي جنى الثمر. فعائد المريض يجني ثماراً كثيرة بعيادته، وقيل خرفة الجنة طريقها فالذي يعود المريض إنما يسير في طريق توصله إلى الجنّة.

ولعيادة المريض فوائد كثيرة فهي دليل على ما بين المسلمين من مودة، تقوّي أواصرهم، وتحكم الصلات والروابط بينهم، وتزيل كثيراً من أنواع البغضاء والحقد والكراهية من قلوبهم. . .، وفي عيادة المريض كذلك تأنيس للمريض وإدخال السرور على قلبه، فإنّ من طبيعة المرض أن يضجر صاحبه، وربما يصير الضجر أقرب إلى القنوط واليأس، ففي عيادته وزيارته تأنيس له، وتبديد لأشباح اليأس، وفيها كذلك رفع من معنوياته وإصلاح لحالته النفسية والشعورية، وفيها أمر آخر لا يقل عن ذلك كله، وهو دعاء إخوته الذين زاروه وعادوه، فقد تكون هناك دعوة مستجابة، وفيها كذلك إدخال السرور على أهل المريض وذويه. . .

هذه أغراض شريفة وأهداف طيبة، وفوائد جليلة لعيادة المريض، ولكن هناك فوائد أخرى، وهذه الفوائد ترجع إلى المريض وأهله، وهناك فوائد أخرى ترجع إلى الزائرين والعائدين.

فلقد عرفنا ما لعائد المريض من أجر بسبب عيادته، وهناك أمر آخر يحصل عليه العائد، هذا الأمر تهذيب لنفسه وردٌّ له عن كثير من معاصيه، ذلك أن عيادته للمريض، يكون لها أثر طيّب، لأنها تذكره بضعفه البشريّ، فمهما قوي الإنسان فإنه ضعيف، فعيادته للمريض تنعكس عليه

---

(١) البخاري في الأدب المفرد باب الحديث للمريض والعائد رقم الحديث ٥٢٢، وأخرجه البزار والحاكم وابن حبان وصححاه.

موعظة ورحمة وتواضعاً، وتزيل عنفوان نفسه، وتخلصه من شعور التعالي والكبر، وتبعث فيه آثار الشفقة، وحب الصدقة، وهكذا تكون لعيادة المريض هذه الفوائد المتعددة، فمنها ما يرجع إلى المريض وأهله، ومنها ما يرجع إلى العائد، ومنها فوائد في الدنيا، ومنها ثمرات في الآخرة.

وينبغي أنْ تكون هذه العيادة خالصة فيها النيّة لله، حتى تكون لها هذه الفوائد والمنافع، أما إذا كانت رياءً لا يقصد بها وجه الله تبارك وتعالى، فإنها لا ترهف حساً ولا تهذّب نفساً، ولا تعطي درساً.

وينبغي أن لا يثقل العائد على المريض في عيادته، أي نوع من الإثقال، قد يكون هذا الإثقال بطول الزيارة، والمريض بحاجة إلى الراحة والهدوء، لذلك كان ينبغي أن تكون هذه الزيارة قصيرة، وقد يكون هذا الإثقال برفع الصوت، وقد يكون هذا الإثقال بكلام يخوّف المريض، كأن يقول له إن فلاناً مرض مثل مرضك ولاقى كثيراً من العنت والمشقة، أو أن يقول له هذا المرض لا شفاء له ولا بُرء منه، وإنَّما الذي يُسَنّ للعائد أن يصبر المريض وأن يهوّن عليه، وأن يتمنى له الشفاء، وأن يبعث فيه الأمل والرجاء، . . . وقد يكون الإثقال بتناول الطعام والشراب.

خلاصة القول أن عيادة المريض ينبغي أن تكون ضمن الآداب الشرعية، كي تؤتي ثمارها وخرفتها للمريض وللعائد كليهما.

الحق الثالث: اتباع الجنائز:

من سمو هذا الإسلام وعظمته في آدابه وتشريعه، أنّه لم يبن العلاقات بين الناس على ما تحقق من مصالح ماديّة، وإنما كانت العلاقات بينهم تتجاوز هذه المصالح المادية الفانية الزائلة الضيقة، ومن عظمته

وسموه كذلك هذا التكريم الذي خص به الإنسان بعامة والمسلم بخاصة؛ لذلك كان من حقوق المسلم على المسلم اتباع الجنائز.

فوائد اتباع الجنائز:

وما أكثر الفوائد وما أعظم الأجر وما أكبر الثواب الذي يحققه المسلمون من هذا الحق الذي يقومون به، حينما يتبع بعضهم جنازة بعض،

ففي ذلك تكريم للميت ولا سيما في الصلاة عليه والدعاء له، وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أن شهادة المسلمين للميت وصلاتهم عليه ودعاءهم له، فيها خير كثير له، ولنا في رسول الله أسوة حسنة. . . فلقد كان الرسول ﷺ في فعله وقوله يدعو للموتى في الجنائز وفي زيارة القبور، وعلمنا تلك السنة الطيبة، بل أمرنا بها كذلك، فاتباع الجنائز فيه خير كثير للميّت، ولكنه فيه خير للحيّ كذلك، وهذا الخير في الدنيا والآخرة، فلقد ثبت أن الذي يصلي على الميّت له قيراط من الأجر، أمّا الذي يصلي ويتبع الجنازة فله قيراطان، وهذا القيراط مثل جبل أُحد قال رسول الله ﷺ «من شهد الجنازة حتى يصلي فله قيراط، ومن شهد حتى تدفن كان له قيراطان» وقيل وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين»[1] إنه فضل عظيم من الله تبارك وتعالى وأجر كبير.

ثم إن في اتباع الجنازة كذلك صلاحاً للنفس وتطهيراً للقلب، لأن فيه موعظة بالغةً حيّةً متحركةً، فكفى بالموت واعظاً، وهل تصلح حياة الإنسان إلا بهذه الأرواح الثلاثة: روح الطبيعة في جمالها وروح المسجد في طهارته، وروح القبر في موعظته.

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب من انتظر حتى تدفن ١٢٦١/٥٧

اتباع الجنائز يُذهب قسوة القلب، ويجلب رضوان الرب، وينشر بين الناس عبق الحبّ.

اتبـاع الجنائـز يذكّـر الإنْسان مصـيره، ويعلمه قـوله سبحـانـه «بـل الإنسان على نفسِهِ بصيره»

اتباع الجنائز يذكِّر الإنسان بظلمة القبر، وصعوبة الأمر.

اتباع الجنائز يزيل الحقد من الصدر، ويبصر المسلم بقوله سبحـانه: **﴿والعصر إنَّ الإنسانَ لفي خُسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحـات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** (سورة العصر).

إتباع الجنائـز يذكـر المسلم بمن محى التراب آثـار محاسن وجـوههم، وأكلت حشرات الأرض أعالي جباههم، فيرجع عن غيّه وتقصيره، ويعيده إلى رشده وضميره.

وهذا الاتباع ينبغي أن يخضع لما بينته السنة الشريفـة، فلا ينبغي أن يكون فيه رفع صوت، فتحرم النياحـة كما لا يجـوز التهليل وقـراءة القرآن مع الجنازة، لأن ذلك كله يشغل الناس عن التفكير في شأن الميّت والموت؛ لذلك نهت السنة المطهرة عن ذلك كله.

ونعجب من بعض الناس الذين يأبون إلا أنْ يتحـدوا السنة ويفعلوا ذلك، فتجدهم يفتحون المسجلات بـأصوات مـرتفعة، وكـأن القرآن إنّمـا أُنزل من أجل الموتى، حري بالمسلم أنْ يشغله التفكير وهـو يتبع الجنـازة، ثم إنَّ البـاعث على اتبـاع الجنازة ينبغي أن يكـون إرضاء الله والاستجـابة لأمـر رسول الله ﷺ. أمـا من يتبع الجنـازة لجاه الميت الـذي كان لـه في دنيـاه، أو من أجل جـاه أهله وذوي قـربـاه، فـذلـك عمـل ليس لله فيـه نصيب.

أمور يفعلها الناس ولا أصل لها:

وهناك أمور تتعلق باتباع الجنائز، أمور آعتادها كثير من النـاس حتى إنها لو كانت شرعاً ما حافظوا عليها بهذه الصفة:

١ ـ عدم الصلاة على الميت القريب:

كثـير من النـاس يحضرون ميتهم فيـدخلونـه المسجـد، ويبقـون خارجه، هكذا بهذه الوقاحـة، وبهذا الجحـود، هٰؤلاء نعوذ بـالله، قست قلوبهم، وغلظت أكبـادهـم، وحجبـوا عن الحـق، وأظلمـت جـوانب نفوسهم، وتبدلت جميـع مشاعـرهم وأحاسيسهم، وهم مـع ذلك يـدّعون حبّ الميّت، والأسف على فراقه، ويعلم الله أنهم غير صادقين، فلو كـانوا يحبونه لشاركوا في الدعاء له والصلاة عليه،

٢ ـ صلاتهم على من ينكر شرع الله:

إن علمت من حـال هذا الميت أنـه كان ينكـر شيئـاً من شرع الله، كأن ينكر الحدود وبعض قضايـا الشرع، وإن علمت منه كـذلك أنـه كان يستبيح بعض المحرمات، وإن علمت منه كذلك أنه لم يصلِّ لله ركعـة في حياته، وإن علمت منه أنه يجحد صوم رمضـان، وإن علمت منه أنـه كان يحارب الله ورسوله والمؤمنين، إن علمت عنه شيئاً من هذاكله فلا يجوز أن تصلي عليه.

أما إذا خلط عملاً صالحاً وآخـر سيئاً فهـذا يختلف عن صاحبـه فلا بـأس من الصلاة عليـه حينذاك، فـلا تغرنـك الدنيـا، ويعجبني مـا يفعله بعض النـاس في بعض البلاد الإسـلامية التي اغتصبهـا أعداء الله، فكثـير منهم لا يصـلي على من يتـواطأ مـع العدو ويسـير معـه في إيـذاء المسلمـين

وحربهم والتجسس عليهم، فلنتنبه لهذه الأمور، قبل أن نزور القبور، والله عليم بذات الصدور.

٣ ـ إحضار المشايخ إلى المآتم:

كثير من الناس يحضرون من يقرأ في المآتم، وهناك أناس اشتهروا بهذه الأعمال ويسميهم الناس بالمشايخ، يقرأ هؤلاء القرآن لقاء أجر معلوم أو مُقدَّر وفي أثناء القراءة يكون حديث الناس، وهذا ـ نعوذ بالله من غضب الله ـ إهانة لكتاب الله تبارك وتعالى، واستهزاء به، ومخالفة لأمر الله وأمر الرسول ﷺ. . . تلكم أمور سيئة محرمة لا بد أنْ يتجنبها الناس، أما إذا أراد أحد الناس أن يقرأ هو لذويه من الموتى فلا شيء في ذلك ولا بأس، فلنحذر هذه الأمور السيئة المنكرة، ولنعظم القرآن، ولنحترم القرآن حتى لا تلحق بنا إهانة، وحتى لا نعرض أنفسنا، لغضب الله سبحانه.

٤ ـ صنع أهل الميت للناس طعاماً:

اعتاد بعض الناس أموراً بعيدة عن شرع الله ووصايا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، ففي بعض المجتمعات يصنع أهل الميت طعاماً للناس، فلا يكفيهم ما هم فيه، وإنما يتكفلون بإطعام الناس كذلك، وهذه مخالفة صريحة للسنة الصحيحة، فينبغي أن يصنع الناس لأهل الميت طعاماً، لا أن يصنع أهل الميت طعاماً لغيرهم، واعتاد بعض الناس أن يذبحوا ذبيحة على القبر أو في أي موضع آخر، وهذه كذلك مخالفة ينبغي أن يقلع الناس عنها، وينفروا منها. . . واعتاد بعض الناس الإسراف في المآتم مما يؤثر على وضع الأيتام أو وضع أهل الميت، واعتاد بعض الناس كذلك عمل أكل في اليوم الثالث، أو إقامة ما يسمونه بالأسبوع أو

الأربعين وهذه كلها بعيدة عن شرع الله، ينبغي أنْ نحاربها وأنْ لا نجيب الدعوة إليها فالميّت إنْ كُنّا حريصين على نفعه، فلندع الله له، ولنتصدق عنه، في حدود الإمكان والاستطاعة، فإذا أراد الولد أن يبر أبويه بعد موتهما فبما قلناه من الدعاء والصدقة وأن يَودّ ويحب من كانا يحبانه ويودّانه، فلقد ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما، كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروّح عليه، إذا مل ركوب الراحلة، وعمامة يشدّ بها رأسه. فبينا هو يوماً على ذلك الحمار، إذ مرّ به أعرابي فقال: ألست ابن فلان بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار وقال اركب هذا. والعمامة، قال اشدد بها رأسك. فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروّح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه، بعد أن يولي، وإن أباه كان صديقاً لعمر[1]»

ولقد ثبت أن النبي ﷺ كان يأنس ويبش وحاله كله كذلك، وكان يكرم من كان له صلة بالسيدة خديجة رضي الله عنها، فإذا جاءت امرأة قال: لقد كانت تأتينا هذه أيام خديجة[2]،

فلنتبع شرع الله في أمورنا كلها أتراحاً وأفراحاً، ففي اتباع الشرع سلامة ونجاة في الدنيا والآخرة.

٥ ـ صيغة التعزية:

بقيت قضية لا بد من التنبيه عليها والتنصيص عليها، وهي ما يقوله

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة ٢٥٥١/٣، ج ٤ ص ١٩٧٩.

(٢) روى الحاكم في المستدرك في كتاب البر والصلة عن أنس كان ﷺ إذا أتى بشيء يقول اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى فلانة فإنها تحب خديجة وقال الذهبي صحيح ٧٥/٤.

الناس في تعزيتهم، فإن الشرع لم يترك لنا أمراً إلا وبينه، وهناك عبارات تقال مع مخالفتها لما بينهُ الشرع فبعض الناس يقول في تغزيته، «البقية في حياتكم» وبعض الناس يقول: «خاتمة الأحزان» وبعض الناس يقول «يسلم رأسك» وبعضهم يقول «ما نقص من عمره يكون زيادة في عمرك» وهذه عبارات ينبغي أن نعلم الناس اجتنابها والابتعاد عنها. قال النووي

«وأما لفظ التعزية، فلا حَجْر فيه، فبأيِّ لفظ عزَّاه حصلت. واستحب أصحابنا أن يقول في تعزية المسلم للمسلم: أَعظَمَ الله أَجْرَكَ، وأَحْسَنَ عَزَاءَكَ، وغفر لِمَيِّتِكَ، وفي تعزية المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك. وفي تعزية الكافر بالمسلم: أحسن الله عزاءك، وغفر لميتك. وفي تعزية الكافر بالكافر: أخلف الله عليك[1].

وأحسن ما يعزَّى به، ما روينا في «صحيحي البخاري[2] ومسلم» عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «أرسلت إحدى بناتِ النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبرُه أنَّ صبياً لها أوِ آبناً في الموت، فقال الرَسول: ارْجِعْ إلَيها فأخبرها أن لله تعالى ما أَخَذَ، ولَهُ ما أعطى، وكُلُّ شيْءٍ عِنْدَهُ بأَجَلٍ مُسَمَّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبر ولتحتسب[3]. . .» وذكر تمام الحديث.

قلت: فهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام، المشتملة على مهمات كثيرة من أصول الدين وفروعه والآداب والصبر على النوازل كلّها،

---

(١) قال ابن علان في «شرح الأذكار» قال الحافظ: أخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر، وابن الزبير أنهما كانا يقولان في التعزية: أعقبك منه عقبى صالحة، كما أعقب عباده الصالحين، وسنده حسن.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب ما يرخص من البكاء في غير نوح ١٢٢٤/٣٢ ج ١ ص ٤٣٢.

(٣) أي: لتدخر ثواب فقده والصبر عليه عند الله تعالى.

والهموم والأسقام وغير ذلك من الأعراض، ومعنى: «إن لله تعالى ما أخذ» أن العالم كلّه مِلْكٌ لله تعالى، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم في معنى العاريّة، ومعنى «وله ما أعطى» أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه بل هو له سبحانه يفعل فيه ما يشاء، وكل شيء عنده بأجل مسمًّى» فلا تجزعوا، فإنَّ من قبضه قد انقضى أجله المسمَّى فمحال تأخُّره أو تقدّمه عنه، فإذا علمتم هذا كله، فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم، والله أعلم.

وروينا في كتاب النسائي بإسناد حسن، عن معاوية بن قُرَّة بن إياس، عن أبيه رضي الله عنه، «أنَّ النبيَّ ﷺ فَقَدَ بعض أصحابه، فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله! بُنَيُّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بُنَيِّهِ، فأخبره أنه هلكَ فعزَّاه عليه ثم قال: «يا فُلانُ! أيُّما كانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ أَوْ لا تأتي غَداً باباً مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إلاَّ وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ؟» قال: يا نَبيَّ الله، بل يسبقني إلى الجنة فيفتحُها لي أحبُّ إليَّ، قال: «فَذٰلِك لك»[1].

وروى البيهقي بإسناده في «مناقب الشافعي» رحمهما الله، أن الشافعي بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله مات له ابنٌ فجزع عليه عبدُ الرحمن جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي رحمه الله: يا أخي عزِّ نفسك بما تعزِّي به غيرك، واستقبح من فِعْلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أنَّ أمضَّ المصائب فَقْدُ سرورٍ، وحرمان أَجْرٍ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وِزْرٍ؟ فتناول حظَّك يا أخي إذا قَرُبَ منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً، وكتب إليه:

---

(١) وهو حديث صحيح. رواته متفق على التخريج لهم في الصحيحين، قال الحافظ: وعجب من اختصار الشيخ على تحسين سنده.

إنِّي مُعـزِّيـكَ لا أني عـلى ثِـقَـةٍ
مِـنَ الخُـلُودِ وَلَـكِـنْ سُـنَّـةُ الـدِّيـنِ

فـما المُـعـزَّى بـبـاقٍ بَـعْـدَ مَـيِّـتِـهِ
وَلا المُـعَـزِّي وَلَـوْ عـاشـا إلى حـينِ

وكتب رجل إلى بعض إخوانه يعزِّيه بابنه: أما بعد: فإن الولد على والده ما عاش حُزْن وفِتنةٌ، فإذا قدَّمه فصلاةٌ ورحمةٌ، فلا تجزع على ما فاتك من حُزْنه وفِتنته، ولا تُضَيِّعْ ما عوَّضك الله من صلاته ورحمته.

وقال موسى بن المهدي لإبراهيم بن سالم وعزَّاه بابنه: أسَرَّكَ وهو بليَّةٌ وفتنةٌ، وأحزنك وهو صلواتٌ ورحمة؟!

وعزَّى رجل رجلاً فقال: عليك بتقوى الله والصبر، فبه يأخذ المحتسب، وإليه[1] يرجع الجازع. وعزَّى رجل رجلاً فقال: إنَّ من كان لك في الآخرة أجراً، خير ممن كان لك في الدنيا سروراً.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أنه دفن آبناً له وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردتُ أن أُرْغِمَ أنفَ الشيطان[2]. وعن ابن جريج رحمه الله قال: من لم يتعزَّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب، سلا كما تسلو البهائم.

وعن حميد الأعرج قال: رأيت سعيد بن جبير رحمه الله يقول في ابنه ونظر إليه: إني لأعلم خير خَلَّة فيك، قيل: ما هي؟ قال: يموت فأحتسبه.

---

(١) أي إلى الصبر يرجع الجازع لطول المدة، فيسلو كما تسلو البهائم، ويذهب سروره، وتنعدم على تلك المصيبة لجزعه أجوره.

(٢) يقال أرغم الله انفه أي ألصقه بالتراب فهو كناية عن التحقير والاستقذار.

وعن الحسن البصري رحمه الله، أن رجلاً جزع على ولده، وشكا ذلك إليه، فقال الحسن: كان ابنك يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غيبتُه أكثر من حضوره، قال: فاتركه غائباً، فإنه لم يغب عنك، غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه، فقال: يا أبا سعيد! هوَّنت عني وجْدي على ابني.

وعن ميمون بن مهران، قال: عزَّى رجل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على ابنه عبد الملك رضي الله عنه، فقال عمر: الأمر الذي نزل بعبد الملك أمر كنا نعرفه، فلما وقع لم ننكره.

وعن بشر بن عبدالله قال: قام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رحمك الله يا بني فقد كنت سارّاً مولوداً، وبارّاً ناشئاً، وما أُحِب أني دعوتك فأجبتني.[1] .

٦ ـ قراءة الفاتحة:

كذلك ما يقوله الناس عند زيارتهم للقبور، فأكثر الناس يقرؤون الفاتحة، بل نسمع كثيراً من الإذاعات أن فلاناً قام بزيارة قبر فلان وقرأ الفاتحة، لقد كادت الفاتحة تصبح شيئاً يخص القبور، ويعلم الله أن الله أنزل الفاتحة لتكون بينه وبين عباده فضلاً عميماً وخيراً عظيماً، ولقد ثبت عن رسول الله ﷺ عند زيارته للقبور أنه لم يكن يقرأ الفاتحة. ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)[2]

---

(١) الاذكار / للنووي ص ١٢٧ - ١٢٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز ـ باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ١٠٣/٣٥ ج ٢ ص ٦٦٩.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أيضاً أنها قالت: كيف أقول يا رسول الله؟ - تعني في زيارة القبور - قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منكم ومنا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)[1].

إن كثيراً من العادات السيئة البعيدة عن الشرع انتشرت بين المسلمين في باديتهم وحواضرهم، فإذا كان الميت لا يصلي أخرجوا عنه ما يزعمون أنه إسقاط صلاة، وهذا أمر لا يجوز أبداً، نعم إذا كان على الميت حج يمكن أن يحج أهله عنه، وإذا كان عليه صيام يمكن أن يخرجوا عنه الفدية،

ويرى بعض الأئمة أنه يمكنهم أن يقضوا ما عليه من صوم، وإن كان عليه زكاة أو دين أدوه عنه، وإذا كانت وصية أخرجوها بما لا يتجاوز ثلث تركته إن كان ذا مال. نسأل الله أن يلهمنا الصواب والسداد في جميع أقوالنا وأفعالنا وأن يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

الحق الرابع: إجابة الدعوة:

هكذا أرسى الإسلام أواصر المودة بين المسلمين، فهناك أمور تسن فيها الولائم كالوليمة التي تكون في الأعراس والرسول ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف (أولم ولو بشاة)[2] والعقيقة التي تكون للمولود، وحينما يأتي الإنسان من سفر، وعلى المدعو أن يلبي الدعوة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز - باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ١٠٣/٣٥ ج ٢ ص ٦٧١.

(٢) رواه مسلم في كتاب النكاح - حديث ٧٩.

إجابة الدعوة: إما واجبة أو محرمة:

وقد تكون دعوة الوليمة واجبة إلا لعذر، نعم إذا كان في هذه الدعوة مخالفات للشرع كاختلاط الرجال والنساء، أو منكر من القول، أو تبذير وإسراف، فلا يجيب المدعو، بل قد تكون الإجابة محرمة.

قال الصنعاني رحمه الله: «قال ابن دقيق العيد في شرح الإلمام، وقد يسوّغ ترك الإجابة لأعذار منها:

أن يكون في الطعام شبهة أو يخص بها الأغنياء أو يكون هناك من يتأذى بحضوره معه أو لا يليق لمجالسته أو يدعوه لخوف شره أو لطمع في جاهه أو ليعاونه على باطل أو يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فراش حرير أو ستر لجدار البيت أو صورة في البيت أو يعتذر إلى الداعي فيتركه أو كانت في الثالث[1] كما يأتي فهذه الأعذار ونحوها في تركها على القول بالوجوب وعلى القول بالندب أولى وهذا مأخوذ مما علم من الشريعة ومن قضايا وقعت للصحابة كما في البخاري أن أبا أيوب دعاه ابن عمر فرأى في البيت ستراً على الجدار فقال ابن عمر غلبنا عليه النساء فقال من كنت أخشى عليه فلم أكن أخشى عليك، والله لا أطعم لك طعاماً فرجع» أخرجه البخاري تعليقاً ووصله أحمد ومسدد في مسنده وأخرج الطبراني عن سالم بن عبدالله بن عمر قال عرست في عهد أبي فأذنا الناس فكان أبو أيوب فيمن أذنا وقد ستروا بيتي ببجاد أخضر فأقبل أبو أيوب فاطلع فرآه فقال: يا عبدالله أتسترون الجدر فقال أبي واستحى غلبنا عليه النساء يا أبا أيوب فقال من خشيت أن تغلبه النساء فذكروه. وفي رواية فأقبل أصحاب النبي ﷺ يدخلون الأول فالأول حتى أقبل أبو أيوب وفيه فقال عبدالله أقسمت عليك لترجعن فقال: وأنا أعزم على نفسي أن لا أدخل يومي هذا

(١) بعض الناس لا يكتفون بالوليمة في يوم بل يصنعونها عدة أيام وهذا لا يجوز.

ثم انصرف وأخرج أحمد في كتاب الزهد أن رجلاً دعا ابن عمر إلى عرس فإذا بيته قد ستر بالكرور فقال ابن عمر يا فلان متى تحولت الكعبة في بيتك ثم قال لنفر معه من أصحاب محمد ﷺ ليهتك كل رجل ما يليه. والحديث وما قبله دليل على تحريم ستر الجدران.

وقد أخرج أبو داود وغيره من حديث ابن عباس مرفوعاً (لا تستروا الجدر بالثياب)، وفيه ضعف، وله شاهد. وأخرج البيهقي وغيره من حديث سلمان موقوفاً أنه أنكر ستر البيت فقال: محموم بيتكم أو تحولت الكعبة ثم قال: لا أدخله حتى يهتك. والمسألة فيها خلاف جزم جماعة بالتحريم لستر الجدار. وجمهور الشافعية على أنه مكروه. وقد أخرج مسلم أنه ﷺ قال: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين» وجذب الستر حتى هتكه في قصة معروفة وقد كنا كتبنا في هذا رسالة جواب سؤال في مدة قديمة. وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث عمران بن حصين نهى رسول الله ﷺ عن إجابة طعام الفاسقين. وأخرج النسائي من حديث جابر مرفوعاً (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر) وإسناده جيد. وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن جابر وفيه ضعف، وأخرجه أحمد من حديث عمر.

وبالجملة الدعوة مقتضية للإجابة وحصول المنكر مانع عنها فتعارض المانع والمقتضى والحكم للمانع»[1].

الحق الخامس: تشميت العاطس:

عن أنس رضي الله عنه قال: عطس رجلان عند النبي ﷺ فشمّت

---

(١) سبل السلام ٣/١٨٥، ١٨٦.

أو قال: فسمّت ـ أحدهما وترك الآخر، فقيل: هما رجلان عطسا، فشمّت ـ أو قال: فسمّت ـ أحدهما وتركت الآخر؟ فقال: إن هذا حمد الله عز وجل، وإن هذا لم يحمد الله)[1].

وكلمة (التشميت) ـ بالشين المعجمة ـ معناها: أبعدك الله عن الشماتة، والتسميت ـ بالسين المهملة ـ تفعيل من السمت الذي يراد به حسن الهيئة والوقار، فالمسمت يدعو للعاطس أن يعيده الله إلى سمته قبل العطاس من السكون والوقار وطمأنينة الأعضاء، لأن في العطاس انزعاجاً واضطراباً للأعضاء يخرج العاطس عن سمته.

ويستحب للعاطس أن يقول: الحمد لله. أما التشميت فيكون بعدة ألفاظ: يرحمكم الله، يهديكم الله ويصلح بالكم، أو هذه مع يدخلكم الجنة عرفها لكم، أو يغفر الله لنا ولكم «كما نقل عن الأئمة. فقد روى البخاري: (إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه يرحمك الله، فإذا قال له يرحمك الله فليقل يهديكم الله ويصلح بالكم)[2].

وقد ذكر شارح ثلاثيات مسند الإمام أحمد[3] عند شرح حديث أنس فروعاً. من الخير أن ننقلها هنا:

الأول: تشميت عاطس مسلم حمد، وإجابته فرض. ومن جمع كفاية[4]. وقيل: فرض عين مطلقا، وقال به ابن مزين من المالكية،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب الحمد للعاطس: ٥٨٦٧/١٢٣ ـ ٢٢٩٧/٥

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب إذا عطس كيف يشمت ٥٨٧٠/١٢٦ ـ ٢٢٩٨/٥.

(٣) ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

(٤) يعني تشميت العاطس واجب على الشخص إذا حمد العاطس، وهو فرض كفاية إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين وهذا أحد الأقوال في المسألة. وقيل إنه فرض عين على كل واحد. وسيأتي تفصيل المسألة.

وجمهور أهل الظاهر، وقال ابن أبي حمزة: قال جماعة من علمائنا: إنه فرض عين، وقواه الإمام ابن القيم في «حواشي السنن»[1] فقال: جاء بلفظ الوجوب الصريح، وبلفظ الحق الدال عليه، وبلفظ على الظاهرة فيه، وبصيغة الأمر التي هي حقيقة فيه، وبقول الصحابي: أمرنا رسول الله ﷺ قال: ولا ريب أن الفقهاء أثبتوا وجوب أشياء كثيرة بدون مجموع هذه الأشياء، وذهب عبد الوهاب من المالكية إلى أنه مستحب، ويجزى الواحد عن الجماعة، وهو قول الشافعية، والراجح أنه فرض كفاية، وهو مذهب معظم الحنابلة والحنفية والمالكية. والله أعلم.

ومن آداب العاطس: أنه إذا عطس خمر وجهه، وغض صوته، ولا يلتفت يميناً وشمالاً، وحمد الله جهراً، بحيث يسمع جليسه ليشمته.

الثاني: إذا نسي العاطس الحمد لم يذكره جليسه، لكن يعلم الصغير أن يحمد الله، وكذا حديث عهد بإسلام ونحوه. ذكره علماؤنا وهو ظاهر قوله ﷺ (وإذا لم يحمد فلا تشمتوه) وقال النووي من الشافعية: يستحب لمن حضر من عطس فلم يحمد أن يذكره الحمد، ليحمد فيشمته، وقد ثبت ذلك عن إبراهيم النخعي، وهو من باب النصيحة، والأمر بالمعروف. وزعم ابن العربي أنه جهل من فاعله، وخطأه النووي واستصوب الاستحباب. قالوا ولو جمع بينهما فقال: الحمد لله، يرحمك الله، جمع جهالتين: إلزامه نفسه ما لا يلزمها، وإيقاعه التشميت قبل وجود الحمد من العاطس.

وحكي أن رجلاً عطس عند الأوزاعي فلم يحمد، فقال له: كيف يقول من عطس؟ فقال: الحمد لله، فقال يرحمك الله. ويروى عن النبي

---

(١) أي سنن أبي داود.

ﷺ أنه قال: «من سبق العاطس بالحمد، أمن من الشوص واللوص والعلوص» وهذه أوجاع اختلف في بعضها، ذكره ابن الأثير في «النهاية» وغيره، قال في «التمييز» وغيره. والحديث ضعيف. وقد نظمه بعضهم في قوله:

من يستبق عاطساً بالحمد يأمن من
شوص ولوص وعلوص كذا وردا
عنيت بالشوص ذا الرأس ثم بما
يليه ذا البطن والضرس اتَّبع رشدا

وفي بعض الكتب: وهو أولى
فالداء في الضرس شوص، ثم في أذن
لوص وفي البطن علوص كذا وجدا

قال في «القاموس»: الشوص: وجع الضرس والبطن، وقال في العلوص كسنَّور التخمة ووجع في البطن، وقال في اللوص: وجع الأذن أو البخر، ومثل ذلك في «النهاية».

الثالث: لا يجب تشميت جماعة، منهم الذمي، فلا يجب ولا يستحب، فإن قيل له: يهديكم الله جاز. فقد أخرج أبو داود وصححه الحاكم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كانت اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول: يرحمكم الله، فكان يقول يهديكم الله ويصلح بالكم».

ومنهم: الصبي إذا عطس؛ فإنه يدعى له بأن يقال: بورك فيك وجبرك الله.

ومنهم: الشابة فلا تشمت الأجنبي ولا يشمتها.

ومنهم المزكوم فـإنه يشمته ثلاث مـرات، وفي «الأدب المفـرد للبخـاري» عن أبي هريـرة رضي الله عنه، قـال: «شمته واحـدة، وثنتين، وثلاثاً، فما كان بعد ذلك فهو زكام» هكذا أخرجه موقـوفاً، وأخـرجه أبـو داود كذلك، ولفظه: «شمت أخاك» ورفعـه غير واحـد، والأحاديث بذلك متضافرة، ويدعو له بعد الرابعة بالعافية.

فائدتان:

الأولى: قال ابن هبيرة، قال الرازي من الأطباء: العطاس لا يكون أول مرض أبداً، إلا أن يكون زكمة، قـال: فإذا عـطس الإنسان استـدل بذلك من نفسه على صحة بدنه، وجودة هضمه، واستقـامة قـوته، فينبغي له أن يحمد الله، ولذلك أمره رسول الله ﷺ أن يحمد الله تعالى.

الثـانية: ذكـر الحافظ ابن حجـر في «الفتح»: أن ابن عبـد البر قـد أخـرج بسند جيـد عن أبي داود، وهو سليـمان ابن الأشعث السجستـاني، الإمام الحافظ من أصحاب الإمام أحمـد، وأحد نقلة مـذهبه وهـو صاحب «السنن» أنه كان في سفينة، فسمع عاطساً على الشط حمد، فـاكترى قـارباً بدرهم، حتى جاء إلى العـاطس فشمته ثم رجـع فسئل عن ذلـك، فقال: لعله يكون مجاب الدعوة فلما رقدوا سمعوا قائلاً يقول في أهل السفينة: إن أبا داود اشترى الجنة من الله بدرهم، رحمه الله ورضي عنه آمين.

الخماسية السابعة والعشرون

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[1]: (خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة:

لا تتكلم فميا لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر.

ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً كأنّه رُبَّ متكلم في أمر بعينه قد وضعه في غير موضعه فعيبَ.

ولا تمار حليماً أو سفيهاً، فإن الحليم يقليك وإن السفيه يؤذيك.

واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه.

واعمل عمل رجل يرى أنه مجازىً بالإحسان مأخوذ بالإجرام)

إنها بحق كما وصفها حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما خير من الدهم الموقفة، الخيل العربية الأصيلة الكريمة،

---

(١) عبدالله بن العباس بن عد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، ولد قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس سنين وقد دعا له النبي ﷺ قائلاً: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وقد كان يسمى حبر الأمة وقد قال عنه عمر رضي الله عنه حينما سأله المهاجرون ألا تدعو إلى مجلسك أبناءنا كما تدعو ابن عباس قال: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، وعن عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم خشية إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من وادٍ واسع وقد مات ابن عباس بالطائف سنة ثمان وستين للهجرة.

الخصلة الأولى: لا تتكلم فيما لا يعنيك

«فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر» والفضل هو الزيادة، والوزر هو الإثم والذنب والعقوبة. وهذه نصيحة ثمينة غالية. إن التكلم فيما لا يعني الإنسان زيادة ليس فيها خير، وقد تسبب له أوزاراً.

عناية القرآن والسنة بتجنب المسلمين اللغو:

ووصية ابن عباس رضي الله عنهما، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلقد كانت عناية القرآن العظيم، والنبي الكريم بتجنب المسلمين اللغو، وابتعادهم عنه، عناية عظيمة، ولا أدل على ذلك من هذه الآيات المباركة، يقول الله سبحانه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غيرُ ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هو الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾ (المؤمنون: ١ - ١٠).

ولقد قال النبي عليه وآله الصلاة والسلام في شأن هذه الآيات «أنزلت عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة[1]، وقرأ هذه الآيات.. وكان بين هذه الآيات والصفات الإعراض عن اللغو، ليس هذا وحده، ولكن هناك شيئاً ذا بال، ذلكم أن ربنا تبارك وتعالى لا يفصل بين ذكر الصلاة والزكاة، إنما يذكرهما مجتمعين، ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة،**

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير /من سورة المؤمنون حديث رقم ٣١٧٢ ج ٨ ص ٣١٧.

وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ (البقرة: ١١٠) وما أكثر الآيات التي ذكرت فيها الصلاة والزكاة، مجتمعتين.

ولكننا نجد في هذه الآيات الكريمة أن ربنا تبارك وتعالى جعل بين آيتي الصلاة والزكاة آية أخرى هي قوله: **﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾** (المؤمنون: ٣) وهذا يدل على أن الإعراض عن اللغو في حياة المسلم، جدير به أن يلقى عناية من المسلمين، كعنايته بهذين الركنين العظيمين، وهو إشارة بعد ذلك إلى أن المسلم الذي يؤدي الصلاة، ينبغي أن تكون أول نتيجة من نتائج هذه الصلاة، وأول ثمرة من ثمارها، الإعراض عن اللغو.

معنى اللغو:

واللغو كل ما لا فائدة فيه ولا طائل تحته، ومن هذه الآيات الكريمة ندرك أن الذي لا تنهاه صلاته عن الإعراض عن اللغو، لم يهذب نفسه، ولم يستوعب درسه، والصلاة جديرة بأن تجنب المسلم هذا اللغو، الذي يوقع في المهالك.

ومن الحكمة القرآنية البالغة، ومن حكمة الله في هذا القرآن، أنه لم يذكر الإعراض عن اللغو بعد الصلاة، والزكاة لكنها جاءت بينهما، تبصرة للمسلم وتذكرة، فالإعراض عن اللغو من الصفات التي تؤهل صاحبها للجنة، وأنعم بها من جزاء، وأكرِم بها من نتيجة طيبة.

وفي آية أخرى يبيّن الرحمن سبحانه الصفات التي يستحق أصحابها شرف العبوديّة. نقرأ ذلك في قوله سبحانه **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سُجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن**

عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ (الفرقان ٦٣ ـ ٦٦) ثم يقول سبحانه بعد ذلك: **﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾** (الفرقان: ٧٢) فانظروا ـ أرشدكم الله ـ كيف كان الإعراض عن اللغو من الصفات التي تؤهلك لتشرف بعبودية الرحمن، وهو شرف لو تعلمون عظيم.

ولقد رغب القرآن المسلمين بالإعراض عن اللغو، فبين لهم أن الجنة التي يورثها الرحمن من كان تقياً، خالية من اللغو، **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾** وفي آية أخرى **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً جزاء من ربك عطاء حساباً﴾** (النبأ: ٣٥ - ٣٦).

ويثني الله تبارك وتعالى على أهل الكتاب الذين آمنوا بالقرآن بقوله: **﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾** (القصص: ٥٥) ذلك لأن هذا اللغو لا خير فيه. يقول سبحانه **﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾** (النساء: ١١٤).

والرسول عليه وآله الصلاة والسلام كان أكثر ما يحرص عليه أن يتجنب المسلمون اللغو، يقول عليه وآله الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[1]. ولقد جعل اللغو من الأسباب التي تحول

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء فيمن تكلم فيما لا يعنيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة ٢٣١٨/١١ وقال حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وأخرجه من طريق آخر وفيه: أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ثم قال وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة، وعلي بن حسين لم يدرك علي بن أبي طالب.

بين المسلم وبين الجنة، فقد جاء في الحديث أنه بينما كان النبي ﷺ والمسلمون في تشييع جنازة قال أحدهم في شأن المتوفى، أبشر بالجنة فقال رسول الله ﷺ «أولا تدري فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه»[1]. . . والآثار كثيرة في ذلك، والمسلم يكتفي بالقليل دون الكثير.

إن كل كلام ليس فيه خير، ما هو إلا لغو. . وإن كل نظر ليس فيه عبرة ما هو إلا لهو، وإن كل صمت ليس فيه فكر ليس إلا سهو، وحري بالمسلم أن يتجنب اللغو واللهو والسهو. . . فإذا كانت عقيدة المسلم تعلمه وتربيه على أنه مسؤول عن كل كلمة، وعلى أن الكلمة أمانة وكان يتدبر قوله سبحانه: ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ (ق: ١٨). . فكيف يطلق للسانه العنان، ليخوض فيما هو محاسب عنه، فحريٌ بالمسلم أنْ يمسك لسانه إلا من خير، وحينما سأل معاذ رضي الله عنه النبي ﷺ عما يقربه من الجنة ويبعده من النار، قال له فيما قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: كفَّ عليك هذا» فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به» فقال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم - مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»[2] فالمسلم يزن كلمته قبل أن ينطق بها، وما أحسن ما قيل:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه
وليس يموت المرء من عثرة الرجل

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء فيمن تكلم فيما لا يعنيه ٢٣١٧/١١ وقال هذا حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة رقم الباب ٨ رقم الحديث ٢٦١٨، وقال: حسن صحيح.

الخصلة الثانية: ولا تتكلم فيما يعنيك

حتى تجد له موضعاً، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعيب».

حقاً إنها كلمات حكيمة بديعة، لا ينطق بها إلا من أوتي حكمة، ولا عجب في ذلك فهي من مشكاة النبوة، إن قائلها هو الذي دعا له النبي ﷺ، فماذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما؟

بيّن لنا في الخصلة الأولى أنْ لا نتكلم فيما لا يعنينا لأنه زيادة، نحمل بها أوزاراً، وها هو يعلمنا غاية الأدب، ونهاية الذوق، يعلمنا أن لكل مقام مقالاً، فإذا أردنا أن نتكلم في أمور تعنينا، فينبغي أن نتخير الوقت الذي نتكلم فيه، فقد يتكلم أحدنا في قضية له بها صلة، ولكنه لا يتخير الوقت المناسب، والظرف الملائم، فيكون ذلك عيباً في حقه.

قد أريد حاجة من إنسان، ولكنني أجده في حالة خاصة، قد تكون حالة غضب أو ألم، وقد يكون في ظرف لا يسمح له أن يستوعب شيئاً آخر، قد يكون فيما يشغل عليه تفكيره ويملك عليه جوارحه، فمن العيب والرعونة أن أعرض له حاجتي، وأكلمه في قضيتي... وقد يكون هذا الكلام في كثير من الأحيان منافياً للحياء، وهذه آداب لا بد أن يراعيها المسلم.

تحدثنا بعض الروايات أن أحدهم ذهب إلى بعض أئمة الحديث ليسمع منه، ووجده في قضاء حاجة خاصة، فلم يمهله حتى يقضي حاجته، وأبى إلا أن يسمع منه، فما كان من ذلكم الإمام إلا أن قال له: أكتب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

ولقد عنّف القرآن الكريم قوماً جانبتهم الحكمة والصواب، فقد جاءوا إلى الرسول ﷺ في وقت الهاجرة، وبدأوا ينادونه بأصوات مرتفعة، فأنزل الله في شأنه كتاباً يتلى. قال سبحانه ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم، والله غفور رحيم﴾ (الحجرات: ٥) فانظروا كيف وصفهم القرآن بأن أكثرهم لا يعقلون وما ذلك إلا لأنهم لم يختاروا الوقت الذي يتحدثون فيه والطريق التي يتكلمون بها.

إن الحكمة في غير موضعها عيب وعيّ... وقد تكون له مضاعفات سلبيّة سيئة، ولذا فإن كثيراً من الناس يسيؤون من حيث يظنون أنهم يحسنون. يقول ابن الجوزي:

يستدل على عقل العاقل: بسكونه وسكوته، ومراقبته للحوادث، فلا تستفزه شهوة عقباها ضرر عاجل، وتراه ينظر في الآفاق، فيتخير الأعلى والأحسن عاقبة، من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل، ويتجنب ما يخاف ضرره، ويستعد لما يجوز وقوعه»

ولقد قالوا إن البلاغة لكل مقام مقال، فليكن قولك في موضعه، وكلامك في موقعه، ولتأخذ عبرةً من نفسك، فأحوالك ليست سواءً، ولتختر لكلماتك الحالة المناسبة، والوضع الملائم، لكي تؤتي كلمتك نتائجها وثمارها، ولذلك قرر الفقهاء أن هناك حالات يجب على القاضي أن يتجنب فيها القضاء، فما أعظمها من وصية، وما أجدرنا بالوقوف عندها.. إنها والله عين الحكمة،

الخصلة الثالثة: ولا تمار حليماً أو سفيهاً.

فإن الحليم يقليك وإن السفيه يؤذيك.

المراء هو الجدل، والجدل مذموم في حالاته كلها، اللهم إلا إذا كان مناظرة يقصد بها التوصل إلى الحق... وما أصدق هذه الكلمة، ذلك أن الذي تماريه وتجادله إن كان حليماً فإنه يقليك ويبغضك ويمل مجلسك، ويعاف حديثك، وتكون ثقيلاً في نظره، والثقيل تقذى به العين، وتمله الأسماع كما قال الشاعر:

موحش كالثقيل تقذى به العين وتأبى حديثه الأسماع

أما إذا كان الذي تماريه سفيهاً، فإنه سيؤذيك ويردعك، ولقد ذم الرسول ﷺ المراء في كل أحواله.

وإذا نظرنا إلى مجالسنا في أيامنا هذه، وما يسودها من مراء وجدل عقيم، وفتشنا عن سبب ذلك، فإننا سنجد أن الفراغ، وعدم الاكتراث بما يجابه الناس، هو أعظم أسباب هذا الجدل،.. إن الأمة المستغرقة في العمل الجاد أبعد ما تكون عن الجدل العقيم، فالعمل والجدال لا يجتمعان، وما أحسن قول الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل، وسد عنهم باب العلم والعمل»[1] قال تعالى: ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ (هود: ١١٧).

إن أنواع الجدل في أمتنا سواء كان ذلك الذي يملأ المجالس، أم على صفحات الصحف، بعيد عن واقع الحياة، وعن الأمور الحياتية، حتى

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١٧/١٠

ذلك الجدل الذي يكون في المساجد هو من هذا النوع. . . ترى أهناك من يوجه هذا الجدل في مسار معين حتى يشغل الناس عن كثير من واجباتهم، وحتى يحال بينهم وبين مايوقظ مشاعرهم، ويرهف إحساسهم، ويذكرهم بما يجب عليهم؟؟. . وتكاد تكون كلمة الجدل البيزنطي[1] خاصة بنا ووقفاً علينا دون غيرنا!!.

هناك نقاش حاد نستمع إليه من عدونا الملاصق، المتاخم، الجاثم، المغتصب، ولكنه نقاش يتصل بواقعهم، السياسي والصحي والعقدي، . . . وانظر إلى نقاشنا نحن لترى الفروق الشاسعة بين نقاش يتصل بالواقع، وبين نقاش ينشأ عن عدم الوازع!!

إن هذا الجدال في حقيقته، إنما هو امتصاص لرحيق القوة، وتجفيف لمنابع النشاط والجد، وقتل للروح الشابة الوثابة في الأمة، لذلك قال فيه سيدنا رسول الله ﷺ (إنه لا يأتي بخير)[2]، وبين لأصحابه رضوان الله عليهم ومن بعدهم خطورة هذا الجدل والمراء على الأمة. . ومع ذلك فلقد أصبحت بعض قضايا هذا المراء الهازل والهزيل على السواء تكتب فيها المقالات، وتؤلف فيها الكتب، وتسجل فيها الأشرطة[3] بل أصبحت

(١) ذلك الجدل الذي كان معروفاً في بيزنطة حول قضايا ليس من ورائها طائل كمسألة البيضة والدجاجة أيها أسبق.

(٢) في صحيح مسلم - كتاب النذر - باب النهي عن النذر ٢/ ٤ عن النبي ﷺ (أنه نهى عن النذر وقال: إنه لا يأتي بخير) والنذر من الجدل المنهي عنه.

(٣) وهذا الجدل شغل أفراد الأمة جميعاً شيوخاً وشباباً، أما جدل الشباب ففي شأن الكرة وغيرها مما أريد لهم أن يشغلوا به، أما جدل غيرهم ففي أمور كثيرة موسمية وغير موسمية، فالموسمية اختلافهم حول الاحتفال بالإسراء والمولد والهجرة، أتجوز أم لا؟ وغير الموسمية كثيرة تشمل قضايا في العبادة والعقيدة والأخلاق، ويعلم الله أن ذلك كله لا يرضي الله ورسوله ﷺ.

موضوع خطب منبرية من خطب الجمعة.. يا لضيعة الأمة التي ترضى مثل هذه التفاهات وتلقي سمعها لقبولها، فكيف إذا شجعتها وعملت على إذكاء نارها الحارقة.. إن أمة ترضى مثل هذا لهي أمة حمقاء خرقاء، وإليكم بعض الأحاديث الشريفة التي تبين خطورة المراء والجدل نختم بها الحديث عن هذه الوصية، التي نسأل الله أن نعيها لا وعياً نظرياً فحسب، بل وعياً عملياً كذلك.

١ ـ قال ﷺ «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه»(١)

٢ ـ وقال: ما ضل قوم بعد هدى كانوا إليه إلا أوتوا الجدال»(٢).

٣ ـ وقال ﷺ «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٣)

٤ ـ وقال مهلاً يا أمة محمد: إنما أهلك من كان قبلكم هذا، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فإني زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في ربضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء، فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم على

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر ما جاء في المراء ١٩٩٦/٥٨ وقال هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه ابن ماجة في المقدمة رقم الحديث ٤٨ ج ١ ص ١٩.

(٣) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في المراء ١٩٩٤/٥٨ وقال هذا حديث حسن.

الضلالة إلا السواد الأعظم، قالوا: يا رسول الله: من السواد الأعظم؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي، لم يمارِ في دين الله، ومن لم يكفِّر أحداً من أهل التوحيد بذنب غفر له، إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء قالوا يا رسول الله: ومن الغرباء؟ قال الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون في دين الله ولا يكفّرون أحداً من أهل التوحيد بذنب»[1]

٥ ـ لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً، ويدع كثيراً من الحديث مخافة الكذب»[2]

٦ ـ وقال «كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً»[3]

٧ ـ وعن السائب قال: «أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون عليَّ ويذكروني فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم ـ يعني به ـ قلت: صدقت بأبي وأمي كنت شريكي فنعم الشريك كنت لا تداري ولا تماري»[4]

الخصلة الرابعة: ذكرك أخاك بما تحب أن يذكرك به.

«واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه.

---

(١) قال في مجمع الزوائد ج ٧ ص ٢٥٩ رواه الطبراني وفيه كثير بن مروان وهو ضعيف جداً.

(٢) ذكر في كنز العمال ج ٣ ص ٦٤٦ أن ابن أبي الدنيا رواه عن أبي هريرة في ذم الغيبة.

(٣) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في المراء ١٩٩٥/٥٨ وقال هذا حديث غريب.

(٤) رواه أبو داود في كتاب الأدب باب كراهية المراء ٤٨١٥/٢٠ ج ١٣ ص ١٨١ وقد ذكر بعض العلماء ان في هذا الحديث اضطراباً.

هـذه الوصيـة الرابعـة من كلام ابن عبـاس، فإذا كـانت الوصـايـا السابقة تتعلق باللسان، فالأولى أن لا يتكلم فيما لا يعنيـه، والثانيـة أن لا نتكلم فيما يعنينا إلا إذا وجدنا لـه موضعـاً وظرفـاً مناسبـاً، وكانت الثـالثة النهي عن المراء والجدال، فإن هذه الـوصية الـرابعة، تقـوم على المـراقبة، مراقبة النفس واللسان، إن هذه الوصية الرابعة تقـوم على إصـلاح الضمير وبنـاء الشخصية بنـاء صحيحاً، لأنـه بنـاء يبـدأ من البـاطن، ليصلح بـه الظاهر. . .

إن مشكلتنـا تكمن في أن كل واحـد منا يعيب الآخـرين، ولكنه لا ينظر إلى نفسه:

لــو نــظر النــاس إلى عيبهــم
مــا عــاب إنســان عــلى الــنــاس

إن المرء مناً يتـالـم لوجـود الخلل في هذا المجـتـمع، ولكنه ينظر إلى هـذا الخلل، ويتجنب أن ينـظر إلى الخلل في نفســه. . . مشكلتنـا أننـا لا نسمح للآخرين بما نسمح به لأنفسنا، فلا بـأس أن أجرّحـك، وأنتقدك، وأنال منك وأقسو عليك، وأظن بك سوءاً، وأتهمك في كثير من أخـلاقك وأعمالك وأفكارك، لا بأس من ذلك كله». . . ولكن الويل كل الـويل إن قلت أنت أو فعلت شيئاً من ذلك. . لماذا يا ترى؟ أنا وأنت سـواء، فلماذا أسمح لنفسي أن أتخطى حدودك وأغضب حين تفعل أنت شيئاً من هذا.

قوله ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وما فيه من قضايا:

لقد كان توجيه سيدنا رسول الله ﷺ توجيهـاً حكيماً حينـما قال: «لا

يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] وقد أهملنا قضيتين كبريين رئيستين في هذا الحديث الشريف:.

الأولى: إنــك تجـد القلة النـادرة هي التي سرى في روحهـا هــذا الحديث النبوي العظيم فأحب أحدهم لأخيه ما أحب لنفسه. أمـا القضية الثانية التي أهملناها في هذا الحديث وغفلنا عنها، فهي ما نأخذه من مفهوم الحـديث الشريف، فـإذا كـان أحـدنـا لا يؤمن حتى يحب لأخيـه مـا يحب لنفسه، فمن البدهي أنه لا يؤمن حتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه. . . فإذا كنت تكـره لنفسك الأذى والسـوء، وكـل رديء من الأخـلاق والصفـات والأقوال والأفعال، فيجب أن تكـره ذلك لأخيـك إذا كنت مؤمناً. . ذلـك هـو مفهوم حـديث النبي عليه وآلـه الصـلاة والسـلام، وكـما يقـول علماء الأصول، الكلام له منطوق ومفهوم، فمنطوق الحديث أنه لا يؤمن أحـدنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومفهوم الحـديث أنه لا يؤمن أحـدنا حتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه.

ولقد جاءت كلمة سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما تبـين هذا المعنى وتشرحه «واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفـه مما تحب أن يعفيك منه.

شر الناس ذو الوجهين:

إن شر النـاس عند الله ذو الـوجهين، يبش ويعبس، وذو اللسـانين كـذلك، يثني ويمـدح ويذم، يمـدح إلى درجة التملق والكـذب، ويذم إلى درجـة المغالاة والكـذب كذلـك. . . وربما لا يكـون بين المـدح والـذم إلا لحـظات، . . . تشعر جليسـك وأخاك بـأنّه الـطيب قولاً وعمـلاً، صاحب

(١) سبق تخريجه.

الصفات الحميدة، والأخلاق الرائدة الطيّبة، وهو صاحب الحق ذو المنطق، ويفترق عنك وتفترق عنه، وإذ بالصورة تنقلب وتتغير، وإذ به يصير شخصاً آخر، وإذ به يتجرد من هذه الصفات جميعها. . فإذا سمحت لنفسك أخي أن تكون كذلك، فهل تظن أن أخاك يعجز أن يكون معك كذلك كما كنت معه،

فما أجدرنا ـ أرشدكم الله ـ أن يكون ظاهرنا وباطننا سواء، وقولنا وعملنا سواء. . . فليذكر كل واحد منا أخاه، بما يحب أن يذكره به أخوه، وليعامل كل منا غيره بما يحب أن يعامل به. . . وليعف كل منا أخاه كما يحب أن يعفيه أخوه، إذا كنت أخي تحب أن لا تُحمّل فوق طاقتك. . . فلماذا تحمّل الناس فوق طاقتهم كذلك. . . وإذا أردنا أن نفسر أعمالنا وأقوالنا على وجه حسن مشرق، فينبغي أن نفسر أعمال الناس كذلك، . . وبهذا المسلك وحده يمكن أن ننهي ذلك الصراع النفسي وتلك الفوضى، وهذه الخيانة الخلقية والنفسية، أقول بهذا المسلك وحده ننهي ذلك من مجتمعنا، ونقطع دابره. . . والحمد لله رب العالمين.

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى
وحظك موفور وعرض صيّن
لسانك لا تذكر به عورة أمرىء
فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً
فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من أعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن

هكذا ينبغي أن نكون أخي المسلم، ولا زلت أذكر هذا البيت من

أيام طفولتي:

لا تستغيب فتُسْتغاب فربما
من قال شيئاً قيل فيه بمثله

وهذا يسير مع المسلم، لأن المسلم يوقن أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... يسمع ويرى، ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ (يونس: ٦١) ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ (المجادلة: ٧)

لذا فإن من تفاعلت نفسه مع الإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه، ما أبعده عن كل ما يغضب الله، ويغضب رسوله عليه وآله الصلاة والسلام.

الوصية الخامسة:

واعمل عمل رجل يرى أنه مجازًى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

هذه الوصية الخامسة، وإذا كانت الوصايا السابقة توجهك لاختيار كلماتك، وتنمي فيك حسن معاملة الآخرين، وحسن الظن بهم، فإن هذه الوصية توجهك إلى المراقبة، مراقبة حركات نفسك كلها، وتذكرك بآخرتك... تذكرك بأن النتائج تابعة لمقدماتها... تذكرك بذلك اليوم الذي يضع فيه الله الموازين القسط ليوم القيامة، فلا ظلم ولا محاباة.

لقد تحدثنا من قبل عن هذا المعنى، والحديث عنه يصقل النفس ويهذبها، فمن عرف أن أعماله محصية عليه، وأقواله مسجلة عليه كذلك، وأن الله لا يقبل منها إلا ما كان طيباً وصالحاً ﴿إليه يصعد الكلم الطيب

والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر: ١٠)... من عرف ذلك كله فلا شك سيكون حذراً في كل شيء.

تصوروا ـ أرشدكم الله ـ أن أحدنا إذا كان في مجلس ما، وعرف أن هناك آلة تسجيل قد وضعت خصيصاً وأخبره بها بعض أصدقائه خفية، قولوا بربكم كيف يكون حذره، من كل كلمة يقولها،... تصوروا كيف يراقب العامل صاحب العمل، لأنه يشعر أنه يراقبه،... تصوروا كيف لا يقدم أحد على عمل، حينما يدرك أنه سيجلب له الأذى والضرر والتنغيص... هذه كلها من واقع الحياة، أفيكون ذلك كله أعظم من هيمنة الله علينا... فراقب قولك وعملك، وفكرك وظنّك؛ لأنك مجزيٌّ بذلك كله، أنت مسؤول والله عن حبك إذا كان في غير محله... مسؤول عن حبك إذا بالغت فيه... مسؤول عن حبك إذا كان نابعاً من منبع غير شرعي... مسؤول عن حبك إذا كان الباعث له وعليه مصلحة خاصة لا تتفق مع ما يحبه الله ورسوله.

وإذا كنت مسؤولاً عن حبك، فأنت بالطبع مسؤول عن بغضك وكراهيتك... مسؤول عن هواك.. مسؤول عن ظنك... مسؤول عن فكرك لم وجهته، وفيم شغلته، وما أجمل وصية لقمان الذي أعطاه الله الحكمة، وهو يعظ ابنه كما حدثنا القرآن ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ (لقمان: ١٦) فراقب الله في سرك وعلنك، وفراغك وشغلك... راقب الله في حالة القبض وحالة البسط... في حال السرور والحزن... والله يتولانا ويهدينا سواء السبيل،

تلكم وصية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حرية أنْ تحفظها الألسنة وتعيها القلوب، وتنفذها الجوارح.

الخماسية الثامنة والعشرون

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرّم وجهه: خمس آحفظوهن لو ركبتم الإبل لأنضيتموها، قبل أن تدركوهن: لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحيي جاهل أن يسأل، ولا يستحيي عالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإنسان بموضع الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس ييبس ما في الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له»[1]

منزلة هذه الخماسية

لقد كفانا سيدنا علي عليه السلام الحديث عما لهذه الخماسية من منزلة وما يجب لها من رعاية، وما تستحقه من عناية... أقول لقد كفانا ذلك كله حيث قدم هذه المقدمة «احفظوهن لو ركبتم الإبل لأنضيتموها قبل أن تدركوهن، ومعنى هذا أنهم إن ركبوا الإبل وأضنوها أي أضعفوها وشقوا عليها في السير، وأجهدوها من التعب، ما أدركوا هذه الوصايا إدراكاً تاماً، فلا بد إذن من أن نعد لها نفوسنا يا إخوة الخير والإيمان.

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن وأول الناس إسلاماً، ولد قبل البعثة بعشر سنين وربي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك فقال له بسبب تأخيره بالمدينة «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» وزوجه ابنته ﷺ فاطمة وكان اللواء في يده في أكثر المشاهد. قال ﷺ يوم خيبر لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وأعطاها لعلي. وقتل علي كرم الله وجهه ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة.

وكـل وصية من هـذه الوصـايا الخمس رسـالة مشرقـة، وعلم جمّ، ومـذهب اجتماعي في الإصـلاح، ولا غرابـة في ذلك ولا عجب، فهي من كلام باب مدينة العلم، أبي الحسن، وهو الذي كـانت تخرج الحكمـة من نواحيه ، وجـوانبه، وهكذا كل كـلام يراد أن يكـون ذا أثر في النفس، لا بـد أن يكون تـرجمة صادقة لنهج قائله.

ومما يزيـد في شأن هـذه الوصـايا وقـدرها، أنها لم تقتصر عـلى جهة واحـدة من جهات النفس، ولا عـلى منحى واحد من منـاحي الحياة، بـل هي شاملة لكثير من أمور الحياة الأسـاسية الـرئيسة: نفسيّهـا واجتماعيّهـا، وإليكم بيان ذلك:

الوصية الأولى: لا يخاف العبد إلا ذنبه:

توجيه الإسلام لغريزة الخوف لدى الإنسان:

الشعـور بالخـوف طبيعة في هـذا الإنسان، بـل في المخلوقات الحيّـة كلها كذلك، ذلك أن الخوف هو توقع مكروه لسببٍ ما، وقد يكون ذلـك أمـراً دنيويـاً أو أخرويـاً، ونحن نعلم أن الإسلام هـو دين الفـطرة، ولـذا نجده لا يحارب هذه النظرة في الإنسان، بل هـو ينميها ويـوجهها الـوجهة الصالحة. . . ولما كان الخوف من الأمور الطبعية، رأينـا أنّ الإسلام يـوجّه الإنسان في شأنه الوجهة المفيدة، فنبه الإنسان إلى أن هذا الخوف لا ينبغي أن يطغى على الإنسـان في شأن رزقـه أو أجله أو هيمنة عـدوه، فإن هـذه الدوائر جميعهـا كفلها الله للمسلم الصـادق. . . ولكن هناك مجـالات وجّه الإسـلام فيها الإنسـان توجيهـاً صحيحاً في شـأن الخـوف، فهـو ينبغي أن يخـاف الله تبـارك وتعـالى، ويخـاف أن لا يقبـل عمله، ويخـاف أن يضـل

سعيه... يقول سبحانه: ﴿إنما ذٰلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران: ١٧٥) ويقول سبحانه: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ (الأعراف: ٥٥) ويصف عباده بقوله ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ (الإسراء: ٥٧) ويصف ملائكته بقوله ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ (النحل: ٥٠)

هناك إذن دائرتان للخوف، وإن شئت قلت وجهتين: إحداهما نمّي فيها الخوف، والأخرى على العكس من ذلك؛ ولعل مما يعينك على هذا الفهم ويثبته في نفسك أن تقرأ بعض الآيات من كتاب الله سبحانه يذكر منته على عباده الذين آمنوا به، أو على الذين أرادهم أن يؤمنوا، فيقول سبحانه عن الذين وعدهم بأن يستخلفهم في الأرض ﴿وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ (النور: ٥٥) ويمتن على قريش بأنه ﴿وآمنهم من خوف﴾ (قريش: ٤) ويذكر عقوبته التي استحقوها بكفرهم وإعراضهم ﴿فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل: ١١٢) فالله تبارك وتعالى كفل لنا ما يخاف الناس من أجله، وهو شؤون الحياة المادية إذا نحن خفنا من خلقنا من أجله، ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦) فحينما ذكر الله ظلل النار التي يستحقها الأشرار، أراد أن يكون ذلك حصناً لعباده قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوف الله به عباده، يا عباد فاتقون﴾ (الزمر: ١٦)

وقد بيّن الله تبارك وتعالى أن المؤمنين يخافون ألا تقبل أعمالهم حيث قال: ﴿إنّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات

ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يُؤتُون مــاآتـوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعـون أولئك يسـارعون في الخـيرات وهم لهـا سـابقـون﴾ (المؤمنون : ٥٧-٦١) هؤلاء هم الذين يفـعلون الطاعات والقربات، ويخافون أن لا تقبل قرباتهم، كما ورد ذلك عن النبي ﷺ حينما سألته السيدة عائشة وقد ذكرناه من قبل.

المقصود من خوف الله:

وخوف المسلم من ربه ليس معناه ذلك الـرعب الذي يجـده الإنسان في نفسـه، حينما يتعـرض لخطر حيـوان مفترس أو عـدو فتّـاك أو شبـح في ظلمـة، ليس هذا هـو خوف الله، أن يجـد الإنسان في نفسـه رعباً، ولكن خوف الله تبارك وتعـالى أن يكف عن المعاصي التي نهى عنهـا الله، ويفعل الطاعات التي أمر بها ولـذلك قيـل: «لا يُعدّ خـائفاً من لم يكن للذنـوب تاركاً»

مقصد سيدنا علي من هذه الوصية:

إذا عرفنا هذا ندرك المرمى البعيد والمغزى العظيم، والغـاية الـرفيعة التي قصـدها سيـدنا عـلي في وصيته هـذه «لا يخـاف العبـد إلا ذنبـه». . . الذنب وحده هو الذي يعـرض الإنسان لخـزي الدنيـا، وعذاب الآخـرة، قال تعالى ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ (الأنعام: ٦) فالـذنب هو الـذي يميت القلب ويغضب الربّ، ويسبب الحرب، ولكنها حرب من الله،

كان حرياً بالإنسان أن لا يخاف إلا ذنبه ـ إذن ـ لأن الذنب أسـاس المصائب، ومبعث النوائب، وأخطر المصائـد، «فلا تخف إلا ذنبـك» ذلكم هـو الخوف الـذي يصقل النفـوس، ويطهـرها ويـزكيها. . . ذلـك الخوف الذي يمكن أن نعدّه فضيلة من الفضائل، أما غيره من أنـواع الخوف فقـد

يكون رذيلة في كثير من الأحيان والأحوال.

إن خوف الذنب يحول بيننا وبين أن نصرّ عليه، فمن خاف ذنبه هجره وتركه، وما أعظم الفرق بين إثنين، أحدهما خاف ذنبه ففر منه وابتعد عنه، والآخر جهر به وفاخر فيه.

الوصية الثانية: ولا يرجو إلا ربه:

أنواع الرجاء:

إنَّ الخوف والرجاء متقابلان، فإذا كان الخوف توقع مكروه، فإن الرجاء توقع محبوب... الخوف توقع ما تكرهه النفس، والرجاء توقع ما تحبه النفس... وإذا كان للخوف صور متعددة بعضها مقبول وبعضها مردود، بعضها فضيلة وبعضها رذيلة، فإن الرجاء كذلك... هناك رجاء محمود مطلوب، مدعو إليه، مأمور به، مرغب فيه، وهناك رجاء مذموم، منهي عنه، منفر منه... فالرجاء المذموم هو الرجاء الذي لا يقوم على أساس، وهو الرجاء الذي تعتمد فيه على الناس:

إن الذي أنت ترجوه وتأمله
من البريّة مسكين بن مسكين

أما الرجاء المطلوب فهو ذلك الذي يصدق فيه المسلم حينما يتوجه بقلبه وقالبه وكليته إلى خالقه، فالمسلم تنبثق تصرفاته كلها من عقيدته، وهذه العقيدة تقوم على أسس ثلاثة كما قلنا من قبل، الحب والرجاء والخوف، ولماذا يرجو الناس والناس لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فكيف ترجو من يعجز أن يدبر لنفسه.

تلازم الخوف والرجاء:

وهاتان الصفتان «لا يخاف العبد إلا ذنبه» ولا يرجو إلا ربه» علامة صدق على الإيمان الذي يشرق في قلب صاحبه، ويضيء له جوانب نفسه.. فليكن افتقارك وفقرك وسيلتك في رجاء ربك.

وهاتان الصفتان متلازمتان لا تنفصل إحداهما عن صاحبتها، فالذي لا يخاف إلا ذنبه لا يرجو إلا ربه... ولذلك جمع الله تبارك وتعالى بينهما في محكم كتابه، فقال سبحانه: **﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً﴾** (الإسراء: ٥٧).

ولا بد من كلمة أخيرة قبل أن نتحدث عن الصفة الثالثة... وهي أن هذا الخوف يجب أن لا نخطىء في فهمه وتصوره وأن نخرج به عن حقيقته، لأن الخروج به عن حقيقته يصل بالإنسان إلى اليأس، واليأس كفر والعياذ بالله... وهذا الرجاء كذلك لا يجوز أن يخرج عن حقيقته كذلك، حتى لا يصير أمناً من مكر الله **﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾** (الأعراف: ٩٩).

الوصيّتان الثالثة والرابعة:

«ولا يستحي جاهل أن يسأل، ولا يستحي عالم إن لم يعلم أن يقول: الله أعلم»

الحث على التعلم:

أوجب الإسلام على المسلم أن يتعلم، ورفع شأن العلم والعلماء، ولكن كثيراً من الناس يحول الكبر والحياء بينهم وبين العلم، فيظل أحدهم

مـرتكسـاً في ظلمات الجهـل، وهـذا الصنف من النـاس ضعفت في نفسـه نوازع الخير، واستحب الضلالة على الهدى، ذلـك أن الذي يـرضى لنفسه الجهل لا بد أن يضـل في كثير من تصرفـاته وأفكـاره. . . ولقد أوجب الله السؤال ﴿فـاسألـوا أهـل الـذكـر إن كنتم لا تعلمـون﴾ (الأنبيـاء: ٧) والسؤال نصف العلم ولقـد كـان أصحـاب الـرسـول عليـه وآلـه الصـلاة والسلام ورضي عنهم لا يدعون شيئاً يتصل بدينهم وحيـاتهم إلا ويسألـون عنه، حتى لقد كانت تأتي المرأة في ذلكم المجتمع المحافظ تسأل عن قضـايا حسـاسـة تتعلق بشؤون النسـاء، وتعجب بعض نسـاء النبي من ذلــك، فيقول النبي الكريم «نعم النساء نساء الأنصـار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[1] وقال مجـاهد: لا يتعلم العلم مستحيٍ ولا مستكـبر»[2]. . . صحيـح أن الحياء خـير كله، ولكن لا ينبغي أن يحـول بين الإنسـان وبـين الخير . . هذا عن وجوب السؤال لمن لا يعلم وهو مـا تحدثت عنـه الصفة الثالثة.

أن لا يستحيي العالم من قول لا أعلم:

أمـا الصفة الـرابعة فلقـد أرشدت العلماء أن لا يتعجلوا في الإجابة وأن لا يمنعهم الحياء أن يعتذروا عما لا يعرفون، ولقد كان هذا شأن أئمتنا رحمهم الله وجزاهم خيراً، فمع أنهم كانوا أساطـين علم وأئمة هـدى. . . ولكن التاريخ سجّل لنا كثيراً من أجوبتهم، تلك التي لم يـزد أحدهم فيهـا على قوله لا أعلم، ولقد قالوا: من قـال لا أدري فقد أفتى، ولقـد حدثـوا أن مالكاً رضي الله عنه سئل عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع وقـال فيما بقي لا أدري. . . ذلك أن العلم لا يحيط به أحد من الناس.

(١، ٢) البخاري في كتاب العلم ـ ترجمة باب الحياء في العلم ٥٠ ـ ج ١ ص ٦٠.

وإذا كان الجاهل يأثم في ترك سؤال ما لا يجهل، فإن العالم أكثر إثماً إذا أجاب عما لا يعلم، فإن جهل الجاهل إنما يقتصر على نفسه، ولكن خطأ العالم يضل كثيراً من الناس، وهذا ما حذر منه سيدنا رسول الله ﷺ حينما اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً يفتون بغير علم فيضلون ويضلون قال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم[1] وكتب عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ إلى أبي بكر بن حزم، انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعلَّم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»[2] وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ تفقهوا قبل أن تسوّدوا»[3]

وقال العجلوني عند (لا أدري نصف العلم): رواه الدارمي والبيهقي في المدخل عن الشعبي من قوله وروى الهروي في ذم الكلام عن الشعبي قال قال ابن مسعود وإذا سئل أحدكم عما لا يدري فليقل لا أدري، فإنه ثلُث العلم، وهو في سنن سعيد بن منصور لكن بانقطاع بين الشعبي وابن مسعود، وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود مَن عَلِمَ فليقل، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال في المقاصد وفي ثبوتِ لا أدري من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة عن الصحابة والتابعين فمَن بعدهم الكثير، ولما سأل النبيُ ﷺ جبريلَ عن خير بقاع الأرض وشرها، قال لا أدري كما تقدم في:

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم باب كيف يقبض العلم ٣٤/١٠٠ ج ١ ص ٥٠.

(٢) البخاري في ترجمة باب كيف يقبض العلم /باب ٣٤ ج ١ ص ٤٩.

(٣) البخاري في ترجمة باب الاغتباط في العلم والحكمة باب رقم ١٥ ج ١ ص ٣٩.

أحب البقاع، وعند البيهقي في مناقب الشافعي عن مالك سمعت محمد ابن عَجلان يقول إذا أغفل العالِمُ لا أدري أصيبت مقاتِلُه، وقال ابن مسعود يا أيها الناس مَن علم منكم عِلْماً فليقُلْ به، ومَن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإنَّ مِن العلم أن يقول العالم لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر، وما أنا من المتكلفين**﴾ وقد كثر إغفال لا أدري وتركُ الحوالة على مَن يدري، فعم الضرر بذلك، وقال القاري قلتُ وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لا أدري غرس نبي أم لا، وفي التنزيل (وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم) انتهى، وما أحسن قول بعضهم:

مَن قال ما أدري لما لا أدري[1]
فقد اقتدى في الفقه بالنعمان
في الدهر، والخنثى كذاك جوابه
ومحل أطفال، ووقت ختان[2]

وفي هاتين الصفتين حث للمسلمين أن يتزودوا من العلم فيعلم الجاهل، ويزداد العالم علماً، ولا خير في يوم طلعت شمسه لم نزدد فيه علماً. والعلم هو العلم النافع، الذي تزكو به النفس، ويصح به العمل، ويسلك بصاحبه طريقاً آمناً في الدنيا والآخرة.

إن مما تألم له النفس ما نجده في مجتمعاتنا من انحراف في كثير من الأمور التشريعية في العبادات والمعاملات، وهذا الإنحراف ينشأ أكثره عن خطأ في الفتوى، وقد يكون هذا الخطأ ناشئاً عن الجهل، وقد يكون ناشئاً

(١) لعل الصواب: لما لا يدري (الكشف).
(٢) كشف الخفاء ٢/٤٨٢.

عن الهوى، لأغراض متعددة، فليتق الله العالم فيما يجيب حتى لا تكون فتنة، وأي فتنة أعظم من التلاعب في دين الله، والانحراف عن منهج الله، نسأل الله أن يعصمنا من السوء وأن يعلمنا بما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، ويزيدنا علماً.

الوصية الخامسة: الصبر:

«والصبر من الإنسان بموضع الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس ييبس ما في الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له»

لقد كان الصبر آخر هذه الصفات، لأنها جميعها مبنية عليه، وهي في أمس الحاجة إليه، ولقد تحدثنا عن الصبر من قبل، ولكن الحديث عن الصبر لا يستجمع أحد القول فيه، فهو فضيلة متعددة الجوانب، متشعبة الأطراف.

وإذا أنعمنا النظر في كتاب الله وجدنا ربنا تبارك وتعالى يذكر الصبر في آيات كثيرة، بأنه هو الجزاء الأوفى الذي يستحق عليه الصابرون أعظم الدرجات، ويكفي أن نذكر بعض الآيات الكريمات... فأهل الجنة تحييهم الملائكة ويسلمون عليهم ويبينون لهم أنهم استحقوا هذا الجزاء بصبرهم، وكأن الصبر وحده هو الذي استحقوا من أجله أن يبوأوا هذه المنازل يقول سبحانه ﴿**جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ (الرعد: ٢٤). ويقول سبحانه: ﴿**ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (النحل: ٩٦) وفي آية أخرى: ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً**﴾ (الفرقان: ٧٥) ويقول سبحانه عن عباده المؤمنين الذين

كان يسخر منهم أعداؤهم في الدنيا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ (المؤمنون: ١١١) ويقول عز من قائل: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ (الإنسان: ١٢) وهذا كله في الآخرة.

أما في الدنيا فإن للصبر جزاء عظيماً كذلك إذ هو يؤهل أصحابه لوراثة الأرض واستخلافها يقول سبحانه ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ (الأعراف: ١٣٧) ويقول: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السجدة: ٢٤) ويقول: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ (آل عمران: ١٢٠) ويقول سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه ﴿إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف: ٩٠) وقال ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ (القصص ٨٠) ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ (فصلت: ٣٥).

والآيات كثيرة كثيرة، فهناك قوله سبحانه ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ (سبأ: ٣٧) وهذا في الأخرة. ويقول ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (الشورى: ٤٣) وهذا في الدنيا.

درجات الصبر:

ولقد ذكر العلماء ان للصبر مراتب ثلاثاً ١) الصبر على الطاعة ٢) والصبر على المعصية ٣) والصبر على المصيبة وغير هذا لا يسمى صبراً.

فالصبر على الطاعة أن نلزم أنفسنا بها، فالنفس كثيراً ما تتفلت من فعل الواجبات، ومن الالتزام بالمأمورات، لذلك وجدنا ربنا تبارك وتعالى في كثير من آياته المحكمة يأمرنا بالصبر بعد أمره لنا بالطاعات المعينة.

الصبر على الطاعة أن نقبل عليها وإن شق ذلك على نفوسنا. نقرأ ذلك في قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٤٥ - ٤٦) إلى غير ذلك من آيات كثيرة محكمة.

أما الصبر عن المعصية، فلأن النفس أمارة بالسوء، ولأن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فلا يفتأ عن الغواية، كان تجنب المعصية ـ إذن ـ أمراً يحتاج إلى الصبر، ومن يتصبر يصبره الله، ولهذا كان جزاء أولئك الصابرين عن المعصية جزاء عظيماً، هؤلاء الذين تركوا الشهوة لأجل الله، إن لهم أجراً في ترك الشهوة المباحة، فكيف بهم إذا تركوا الشهوة المحرمة.

الصبر على المصيبة، ذلك لأن الإنسان خلق ضعيفاً يجزع ويهلع، وقد تؤثر المصيبة في كيانه كله، لذلك قال سبحانه ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

هذه أنواع الصبر التي وردت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في فضلها، إنه الصبر على ما يرضي الله سبحانه، إنه الصبر ابتغاء مرضاة الله.. لقد حدثنا القرآن الكريم عن الرسل عليهم الصلاة والسلام حينما آذاهم أقوامهم لم يزيدوا على أن يقولوا لهم ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ (إبراهيم: ١٢).

هذه هي مراتب الصبر وأنواعه وغير هذه لا يسمى صبراً. . ومن عجيب أمر المسلمين في هذه الأيام أن قلبوا الموازين وأرادوا أن يبدلوا معنى الصبر ومفهومه، فإذا جبنوا عن قول الحق سموا ذلك الجبن صبراً، وإذا تملقوا ظالماً عدّوا ذلك التملق صبراً، وإذا أصابهم الجزع في شؤون حياتهم عدوه صبراً وإذا رضوا الذلة قالوا إنهم صابرون، ويعلم الله أن ذلك بعيد عن الصبر كل البعد، فالصبر عبادة بل هو من أعظم العبادات وأرقاها، أما الذل والجبن والهوان فهي ذنوب ومعاص سيحاسب الله عليها حساباً عسيراً. فلا يجوز أن تقلب حقائق الأشياء وتغير وتبدل ﴿**يا أيها الذين آمنوا آصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

ولقد ذكرنا آيات كريمة من قبل بينت أن استحقاق المؤمنين رضوان الله إنما هو بالصبر على ما كلفهم به وأمرهم النبي ﷺ وعلى ما نهاهم الله ونهاهم رسوله عنه، فحذار أن نخلط بين الصبر الذي هو طاعة وبين غيره من أنواع المعاصي والذنوب ﴿**وما يلقاها إلى الذين صبروا ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ (فصلت: ٣٥).

لذلك كله كان الصبر من أعظم القواعد والأسس التي يبنى عليها الدين كله، وهذا يفسر لنا كلمة سيدنا علي كرم الله وجهه «الصبر من الإنسان بموضع الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس يبس الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له والرأس هو موضع الإحساس والحواس ذات الشأن الخطير في حياة الإنسان، ففيه السمع والبصر واللسان والوعي، فالإيمان بدون صبر، كالجسد بدون رأس، فنعم أجر الصابرين، ونعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. . . فاللهم امنحنا الصبر وجنبنا العجز،

واجعل صبرنـا بك ومنـك، واجعلنا من عبـادك الذين قلت فيهم **﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾** (الشورى: ٣٣).

والكلام عن هذه الوصية يـزكو وتتشعب خصـال الخير فيـه، وتتعدد جوانبه، ولكن نرجو أن يكون ما ذكرناه فيه الغنية والكفاية، ولله الحمد في الأولى والآخرة، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الخماسية التاسعة والعشرون

قال محمد بن واسع[1]: خمس خصال تميت القلب: الذنب على الذنب، ومجالسة الموتى، قيل له: ومن الموتى؟ قال: كل غني مترف، وسلطان جائر، وكثرة مشاقة النساء وحديثهن، ومخالطة أهله[2].

تحدثنا في خماسية سابقة عند قوله عليه وآله الصلاة والسلام (فإن

(١) محمد بن واسع بن جابر الأزدي أبو بكر: فقيه ورع، من الزهاد من أهل البصرة، عرض عليه قضاؤها فأبى وهو من ثقات أهل الحديث توفي سنة ١٢٣ هـ - ٧٤١م، من أقوال محمد بن واسع: ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قومني، وصلاة في جماعة يحمل عني سهوها وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة، ولا لله عليه تبعة. وقال مالك بن دينار: إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافاً فيقنع به، فقال محمد بن واسع: أغبط منه والله عندي من يصبح جائعاً وهو عن الله راض. وقال: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إليّ» ولما ثقل عليه المرض كثر عليه الناس في العيادة. قال بعض أصحابه فدخلت عليه فإذا قوم قعود وقوم قيام، فقال ما يغني هؤلاء عني إذا أخذ بناصيتي وقدمي غداً وألقيت في النار؟ وقد بعث بعض الخلفاء مالاً مستكثراً إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه فلم يقبل، ولم يلتمس منه شيئاً، وأما مالك بن دينار فإنه قبل ما أمر له به؛ واشترى به أرقاء وأعتقهم ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان، فقال له: يا مالك قبلت جوائز السلطان؟ فقال له مالك: يا أبا عبدالله: سل أصحابي ماذا فعلت به، فقالوا له: أشتري به أرقاء وأعتقهم، فقال له: سألتك بالله أقلبك الآن لهم مثل ما كان من قبل أن يصلوك. فقام مالك وحثى على رأسه التراب وقال: إنما يعرف الله محمد بن واسع، إنما مالك حمار إنما مالك حمار». الأعلام ١٣٣/٧، البداية والنهاية ٣٣٩/٩».

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٩/٩.

كثرة الضحك تميت القلب) عما يميت القلب وما يحييه، ولما كان موت القلب شقاء ما بعده شقاء، آثرنا أن نذكر هذه الخماسية لذلكم العالم الصالح الورع، فهؤلاء أكرمهم الله بالحكمة النظرية والعملية معاً، فكانت حياتهم وكلماتهم تكون الصورة الحقيقية لهم، والكلام إذا خرج من القلب دخل القلب، أما إذا خرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان... فليحرص كل منّا على أن يحيي قلبه بما يرضي الله سبحانه.

الخصلة الأولى: الذنب على الذنب:

وأول خصلة من هذه الخصال الخمس التي ذكرها محمد بن الواسع رحمه الله ورضي عنه: الذنب على الذنب، ذلك أن تراكم الذنوب يصدأ به القلب، فيجف ويظلم، ومصداق هذا في قول النبي ﷺ (إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)[1].

وقال ﷺ (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تكون على قلبين على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا من أشرب هواه)[2]

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير سورة ويل للمطففين حديث رقم ٣٣١ وقال حديث حسن صحيح ج ٩ ص ٦٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ـ باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ٢٣١/٦٥ ج ١ ص ١٢٨.

(فأي قلب أشربها) أي دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب، (نكت

ولقد تقدم لنا قول عبدالله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها

فلنحذر من الذنب، فإن الذنب أعظم عقوبة يصاب بها المسلم.

الخصلة الثانية: مجالسة الموتى:

إذا كانت كثرة الذنوب تميت القلب، ولا بد أن يحذرها المسلم، فإن مما يميت القلب كذلك مجالسة الموتى، وحينما سئل عن الموتى رحمه الله تعالى ورضي عنه ذكر صنفين منهم:

الصنف الأول: كل غني مترف:

ولقد تقدّم لنا أن الترف يحمل صاحبه على البطر، وتقدم لنا كذلك من قبل أن الترف ملازم للظلم والإجرام، قال تعالى **﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾** (هود: ١١٦) وهو ملازم للفسق كذلك، قال سبحانه: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا**

= فيه) أي نقط نقطة (أنكرها) ردها (مثل الصفا) قال القاضي عياض رحمه الله: ليس تشبيهه بالصفا بياناً لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان، وسلامته من الخلل وإن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء (مربادا) شبه البياض في سواد (مجخيا) مائلاً ومنكوساً، قال القاضي عياض قال لي ابن السراج: ليس قوله كالكوز مجخيا تشبيهاً لما تقدم من سواده بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قلب ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة. ومثله بالكوزالمجخي، وبينه بقوله: لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

فيها﴾ (الإسراء ١٦) ولقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن أصحاب الشمال ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ (الواقعة ٤٥) فإذا كان الترف والفسق والظلم والإجرام أموراً لا ينفصل بعضها عن بعض، فأي مؤمن يمكن أن يجد راحة أو طمأنينة في جلوسه مع أولئك.

إن هؤلاء المترفين غارقون في لذاتهم، مستغرقون في شهواتهم، مستتر عنهم نور الحق، بعيدون عن تذوق طعم الإيمان وحلاوة الصدق، فأي ثمرة تجنى من مجالستهم... إنها بحق تميت القلب، لأنها تغضب الرب.. ولقد نهانا رسول الله ﷺ عن مجالسة أولئك... ذلكم هو الصنف الأول للموتى. وسيأتي مزيد بيان لذلك فيما بعد إن شاء الله.. ولا يمكن أن يستريح حي أحيا الله قلبه بالإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، لا يمكن أن يستريح لمجالسة من مات قلبه، وتكدرت نفسه، فلا يستوي الخبيث والطيب، والمؤمن والمسيء، وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج.

الصنف الثاني: كل سلطان جائر:

والسلطان الجائر يجمع الصفات المتقدمة، ولكنه يزيد البطش والقسوة والشدة، فيكون قلبه أكثر إظلاماً، وبئس العلماء على أبواب الأمراء، وإن السلطان من ابتعد عن السلطان.

ولقد كان السلف الصالح بل الخلق المتأخر كذلك من الصالحين كانوا يجدون في القرب من السلطان ما يعكّر عليهم أُنسهم، ويكدّر عليهم صفاء أنفسهم وقلوبهم، ولقد تقدم لنا عند الحديث عن الاستقامة طرف من هذا، فارجعوا إليه إن شئتم، وحبذا الرجوع إليه.

إن الـذين أعجبتهم مجـالسـة السلطان لا يشعـرون بـأن مـا أفـادوه لدنياهم لا يساوي معشار ما ضيعوه من آخرتهم، وهم مهما حاولوا التعليل وانتحال الأعذار، والتذرع بالحجج، فإن ذلك كله لا يزيد على أنـه لجج، وليس معنى ما نقول أن يكـون المسلم سلبياً منعـزلاً، بعيداً منفصـلاً، إنما الذي نعنيه أن يكون المسلم وبخاصة العالم الـذي أخذ الله عليـه أن يقول الحق، أن يكون حذراً متيقـظاً لا يدنّس لسـانه بثنـاء سيكون جـزاؤه عليه وبالاً، ويجعل آخرته بواراً، وأن لا يُذل نفسه، بل يجب أن يكـون سلطان ربه في نفسه هو الأقوى، ومرضاة ربه هي غاية الغايات.

إن مجالسة السلطان الجائر، والدوران معه حيث يدور وتزيـين عمله له، والإشادة به بغير حق، وحبه للحظوة عنده، والمدافعـة عن باطله... إن ذلـك كله يميت القلب دون أدنى ريب، فـإذا كـان لا بـد فلتكن كمن يسير في طريق مليء بالشوك، لا يخطو حتى يعـرف أين تكون خـطوته... وليكن لسلطان الله في نفوسنا المنزلة العظمى فما أمر الدنيا بمستتب، وليس من ركن إليه برشيد.

وما أكثر ما أعطى علماؤنـا من الأمثلة على الـرفعة والجـرأة في الحق، ولو كلفهم ذلك أنفسهم، لأنهم يعلمون أن ما عنـد الله خير وأبقى، وقـد تقدم لنا بعض هذه الأمثلة من قبل، ونـذكر هنـا ما حـدث به الأوزاعي - رحمه الله - الإمام الصالح:

قال ابن كثير: «ولما دخل عبدالله بن علي - عم السفّـاح الذي أجـلى بني أميّـة عن الشام، وأزال الله سبحـانه دولتهم عـلى يده - دمشق فـطلب الأوزاعي فتغيب عنـه ثلاثـة أيـام ثم حضر بـين يـديـه. قـال الأوزاعي: دخلت عليه وهو على سرير وفي يـده خيزرانـة والمسوّدة عن يمينـه وشمالـه، معهم السيـوف مصلتة - والعمـد الحديـد - فسلمت عليـه فلم يـرد ونكت

بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهاداً ورباطاً هو؟ قال: فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال فنكت بالخيزرانة أشد ما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم آمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». فنكت بها أشد من ذلك ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي. فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، وإني أحب أن يتم ما ابتدؤوني به من الإحسان. فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي. قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف. فلما خرجت إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الأمير: آستنفق قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً. قال: وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده[1].

---

(١) البداية والنهاية ١١٨/١٠.

وروي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟

قال: نعم، سل عما بدا لك، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن،

قال: فما تقول فيَّ؟

قال: أقول، إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول: إنه أعظم جرماً منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب.

فانتهى له العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة، حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئاً. فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق، فقال: أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر، وهو الراوي: فأتيته أنا وصاحب له، فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟ قال: شربة ماء، فأتوه بشربة، ثم مات، وكان ابن ثماني عشرة سنة رحمة الله عليه .

وروي أن أبا جعفر المنصور استدعى ابن طاوس أحد علماء عصره، ومعه مالك بن أنس، فلما دخلا عليه، أطرق ساعة، ثم التفت إلى ابن طاوس فقال له: حدثني عن أبيك طاوس (ابن كيسان التابعي). فقال: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله)، فأمسك ساعة. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر

فقال: عظني يا ابن طاوس. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر: ٦ - ١٤) قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، فأمسك عنه ثم قال: ناولني الدواة، فأمسك ساعة حتى آسود بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ فقال: أخشى أن تكتب بها معصية لله، فأكون شريكك فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله.

الخصلة الثالثة والرابعة: كثرة مشاقة النساء وحديثهن:

وهاتان متعلقتان بشأن النساء، وقد عرفنا من قبل السر في قوله سبحانه ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء﴾ (آل عمران: ١٤) وتحدثنا عن الفتنة التي من شأنها أن تصيب من افتتن بهن، وإنما يصعب على الإنسان مقاومة غرائزه واستعداداته التي فطر عليها، وعواطفه المشبوهة، لأن كل ذلك يحتاج إلى مقاومة ومصابرة، وهذا درس في كتاب الله تبارك وتعالى نتعلمه وهو من يوسف عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين﴾ (يوسف: ٣٣) وهذا بعد قوله ﴿رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ (يوسف: ٣٣)... فمع قدرته على المقاومة إلا أنه لن يستطيع أن يثبت عليها إلا بعصمة الله سبحانه، ولقد عصمه ربه.

إن مشاقة النساء وحديثهن قد يعبّد الطريق ويمهد الأرض فتهتز وتهتز معها العواطف والغرائز، قد يعبّد الطريق فيسهل سلوكها على الشيطان ليصل إلى ما يبتغيه، وهو لا يريد بالإنسان إلا سوءاً وشراً. . . ولذلك حرم الاسلام الإختلاط والمصافحة باليد لغير ذوات المحارم، ولذلك ما كانت هناك فتنة أشد على الرجال من فتنة النساء، ولذلك كانت فتنة بني إسرائيل أول ما كانت بالنساء.

وإنما كانت مشاقة النساء وحديثهن يميتان القلب، لأنه ينمّي سلطان الشهوة، ويثير أسبابها، فتنشب في القلب أنيابها، كما ينشب السبع أنيابه في فريسته، فيموت القلب، من أجل ذلك رأينا الفقهاء والعلماء وأصحاب الورع والزهد، وذوي المروءة من الناس يشددون في أمر النساء ما لا يشددون في أمر آخر. . . ولقد جاء في الحديث. . . «إن الدنيا حلوةٌ خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت النساء»[1].

الخصلة الخامسة: كثرة مخالطة أهله:

وإنما كانت هذه الكثرة تميت القلب لما تحدثه من إلهاء عن ذكر الله، ومشغلة عن الخير، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ (المنافقون: ٩). ولذلك فقد بين سيدنا رسول الله ﷺ (إن الولد مبخلة مجبنة)[2] وكم من عابد أدخله أهله مداخل ضيقة فأفسدوا عليه عبادته.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء - ٢٦/٢٧٤١ - ٤/٢٠٩٨.

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الأدب - باب بر الوالد والإحسان إلى البنات - ٣/٣٦٦٥ وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

ولا يعني بكثرة مخالطة الأهل هنا، إن المسلم يجوز له أن يترك أهله وشأنهم وأن يتفرغ للعبادة والذكر، فإن ذلك إنما ينشأ عن الجهل، فمن العبادة أن يحثهم على الخير وأن يوجههم نحو مراقي السمو والفلاح.

تلكم هي الخصال التي ذكرها محمد بن الواسع وحذر منها لأنها تميت القلب... وموت القلب عدم تحركه إلى الصعود في رتب السعادة وعروجه في معارج القدس والطهارة، قال إبن القيم رحمه الله:

«والقلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حباً وخوفاً ورجاء ورضا وسخطاً وتعظيماً وذلاً. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. ينادي إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عَدوٌّ لِمَنْ عَادَتْ، وَسَلْمٌ لِأَهلِها
وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَقَرَّبا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك[1].

(١) إغاثة اللهفان ١/١٥.

الخماسية الثلاثون

قال السيد الجليل، ذو المواهب والمعارف، إبراهيم الخواص[1] رضي الله عنه:

دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين[2].

للقلوب أرباب كما لها أطباء:

تحدثنا عن القلب وأمراضه من قبل - في الخماسية السابعة - ونتكلم في هذه الخماسية عن دوائه وعلاجه وشفائه. ويظهر أن الحديث عن القلب وما يتصل به من مرض ودواء لا تملّه النفوس، لأنه يصف لها جوهرها وحقيقتها، ويدلها على سعادتها، ويذكرها مبدأها وغايتها. ولهذا كثرت الكتب والمؤلفات في الحديث عن هذه القضية العظيمة الشأن، قضية

---

(١) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص. (ت ٢٩١ هـ - ٩٠٤م) أحد شيوخ الصوفية. من أقواله: (من لم يصبر لم يظفر، وإن لإبليس وثاقين، ما أوثق بني آدم بأوثق منهما. خوف الفقر والطمع). وقال: (على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين). وقال (عقوبة القلب أشد العقوبات، ومقامها أعلى المقامات، وكرامتها أفضل الكرامات، وذكرها أشرف الأذكار، وبذكرها تستجلب الأنوار عليها، ومع الخطاب، وهي المخصوصة بالتنبيه والعتب). وقال: (من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة له) [الحلية ١٠/٣٢٥].

(٢) الحلية: ١٠/٣٢٧، التبيان في آداب حملة القرآن - (المجموع للنووي ١٠/٣٥٥).

القلب. وهناك قوم سموا بأرباب القلوب، ولا عجب في ذلك، فإذا كنا نرى اليوم أطباء كانت لهم عدة تخصصات في القلب وحده، فلا عجب أن يكون هناك من العلماء من يسمون أرباب القلوب. وإذا كان الأطباء يعالجون صورة اللحم والدم في هذا القلب، يفتحون ما سُدَّ من شرايين، ويسدّون فيه بعض الفتحات، ويقومون على علاجه من أجل أن يؤدي رسالته أداءً خيّراً، فإن أرباب القلوب عالجوه من زاوية أخرى، يعلم الله أن أثرها لا يقل عن هذه الزاوية الأولى. بل إن من الإنصاف أن نقرر أن هذا الأثر أعظم. ذلك أن المرض المادي للقلب مرض الدم واللحم خاص بصاحب هذا القلب، لا يتجاوزه إلى غيره، لكن المرض الآخر يمتد أثره ليصيب الكثيرين، فتنتشر في المجتمع آثاره السيئة.

وأرباب القلوب هؤلاء كانوا يعالجون بأكثر من طريق، فهناك الطريقة النظرية، وهناك الطريقة العملية، ونجد اليوم أطباء القلب، منهم الجراحون، ومنهم غير ذلك، أرباب القلوب الحاجة إليهم ماسة، أولئك الذين يعالجون الأمراض والأعراض والأدران... وهذه النصيحة الغالية التي نقلها الإمام النووي[1] رحمه الله في كتابه التبيان، والتي تُحدثنا عن

---

(١) هو محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي الدمشقي. ولد في نوى - قاعدة الجولان من أرض حوران - من أعمال دمشق، في (١٠) محرم ٦٣١هـ، رآه بعض أهل الفضل في بلده وهو صغير، فتفرس فيه النجابة، واجتمع بأبيه شرف، ووصاه به، وحرضه على حفظ القرآن والعلم. ولما بلغ تسع عشرة سنة قدم به والده إلى دمشق لطلب العلم، وهناك حفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وقرأ المهذب للشيرازي، وقد كان يقرأ في كل يوم إثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً، درسين في الوسيط للغزالي، ودرساً في المهذب للشيرازي، ودرساً في الجمع بين الصحيحين للحميدي، ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جني، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكيت، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين.

دواء القلب، سنقف عندها بإيجاز.

الأولى: تلاوة القرآن بتدبر:

وكتاب التبيان الذي كتبه الإمام النووي كتاب فيه خير كثير وعلم جم، وهو بعد لا يرهق الإنسان بطوله، فهو مختصر، وكلام الإمام النووي لا يملّ منه مهما كان الكلام طويلاً مفصلاً، فما بالنا إذا كان موجزاً.

إن الخصلة الأولى في هذه الخماسية تدبر القرآن. وتدبر القرآن الوقوف عند آياته وكلماته، لندرك مقاصدها وفوائدها. ولقد ذم الله تبارك وتعالى الذين لا يتدبرون القرآن في أكثر من آية في كتابه الكريم. هؤلاء الذين يسمعونه أو يقرؤونه، ولكنه لا يجاوز تراقيهم، ولا يحدث في نفوسهم أثراً، ولا يكادون يفقهون حديثاً. هؤلاء لا يجدون في القرآن شفاءً ولا دواء، بل لا يزيدهم إلا خسارة ووبالاً. وصدق الله: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ (الإسراء: ٨٢). ولكنه هدى وشفاء للذين آمنوا به وتدبروه، ووقفوا يسترشدون بآياته. يقرؤونه غضاً طرياً كما أُنزل، فيستشعرون فيه مناجاتهم لله، ومناجاة الله لهم، ويجدون فيه عظمة المنزّل سبحانه، وأمانة روح القدس الذي نزل به، وصِدْقَ المُنَزَّلِ عليه ﷺ. يجدون فيه رغبتهم

وكان لا يضيع وقتاً من أوقاته إلا في الاشتغال بطلب العلم. أما صفاته فكان على جانب كبير من العلم والعمل والورع والزهد والصبر مع خشونة العيش، والمصابرة على أنواع الخير. كثير السهر في العبادة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر. وكان يواجه الملوك بالنصيحة والأمر بالمعروف، والإنكار عليهم في مخالفاتهم، لا تأخذه في الله لومة لائم.

من مصنفاته: شرح صحيح مسلم، التبيان في آداب حملة القرآن، منهاج الطالبين، شرح المهذب، الأذكار، رياض الصالحين، الإرشاد والتقريب في علوم الحديث، بستان العارفين.

توفي في نوى ليلة الأربعاء، في الرابع والعشربن من رجب عام ٦٧٦هـ.

ورهبتهم، يفرحون بوعوده، ويرتعدون لوعيده. ترتع قلوبهم في روضات الجنات من آياته، وتهتز نفوسهم، وتقشعر قلوبهم من نفحات جهنم، في زواجره وعقوباته، تنهل الدموع، وتهتز الضلوع لعظيم وعظه، وإحكام معناه ولفظه.

كان أسلافنا يقرؤونه على أنه رسائل من ربهم، يتدبرونها حق التدبر، فيا هناء من تدبر، ويا تعس وخسارة من هجر.

وإذا كان تدبر القرآن مراتب فليس المتدبرون سواء، فكلٌّ يأخذ بقدر إخلاصه وصدق قلبه ونيته، ويقبل عليه القرآن بقدر إقباله عليه؛ فإنّ هجر القرآن كذلك دركات بعضها أسفل من بعض، فهناك من هجر القرآن هجراً تاماً، هجر لفظه ومعناه وحكمه وأدبه، ومنهم من قرأ لفظه ولكنه هجر معناه وكلمه وآدابه، ومنهم من هجر لفظه. وعلى هذا يحمل قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(١).

فمن تدبر كتاب الله آنسه الله بكتابه في دنياه وآخرته، وأضاء عليه من أنوار الفهم، ونجاه من أدران الوهم، وأذاقه حلاوة المناجاة، وفتح له من أبواب الفضل والرحمة، ومنحه من أسرار الحكمة، ذٰلكم لأن القرآن كتاب الله فمن تدبره عظم الله تبارك وتعالى **﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾** [الحج: ٣٢].

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام ١٩١٧/٤.

تـأتيك رسـالة من أحـد الناس فتخصص وقتـاً لقـراءتهـا، وربمـا لا تنشغل بسواها، وهذا القـرآن رسائـل من ربك فـأعد لـه نفسك، وأنـزله المنـزلة العليـا منها، فـإن فعلت ذٰلك جـوزيت بمثل مـا فعلت وأنزلـك الله منزلاً مباركاً والله خير المنزلين.

العلاج الثاني: خلاء البطن:

الناس ليسوا سواء في تحملهم، فنحن نرى أنّ هناك أجساماً تتحمل الـبرد القاسي، وهنـاك أجسام أخـرى يؤلمها القليـل من البرد، وهنـاك من يتحمـل السـاخن وهنـاك من لا يقـدر عـلى تحمله. . . هنـاك من يتحمـل الجوع. . . وهكذا تختلف الأجسام كل بما أعد له وهيىء له.

ومن فضل الله أنه عدد أنواع العبـادات، فمنهم من يستطيـع الصوم ولا يقدر على طول القيام، ومنهم من هـو على العكس من صـاحبه يـطيل القيام ويضعف عن الصوم، ولكن تبقى هنـاك حدود مشـتركة، فـإذا كان الناس يختلفون من حيث القدرة على الجوع، إلا أن هناك أمراً مجمعاً عليه، وهو أن آمتلاء البطن له مضـاعفات كثـيرة على مسلكـه الروحي، بـل على طبيعتـه الجسمية كـذلك قـال ﷺ «وما مـلأ آدمي وعـاءً شـراً من بطنه، وبحسب آبن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[1]. . . . ولا نعجب إذن أن يكون خواء البـطن دواء للقلب. . . وهذا صحيح كـذلك من الـزاوية المـادية، فقـد يكون امتـلاء الجسم سبباً في إجهاد القلب، ومن أكل كثيراً نام كثيراً.

---

(١) رواه الترمذي في كتـاب الزهـد باب مـا جاء في كـراهية كـثرة الأكل ١٣٨١/٤٧ وقـال حديث حسن صحيح.

وبالجملة فإن في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ خير ما يوجهنا التوجيه الصحيح في هذا الأمر.

العلاج الثالث: قيام الليل:

وقيام الليل شعار الصالحين، ومن كثر قيامه في الليل أشرق وجهه في النهار، ويقول الأوزاعي رحمه الله «من طوّل قيام الليل، هوّن الله عليه القيام يوم القيامة» ويستدل بقوله سبحانه **﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾** (الإنسان: ٢٦).

وأفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل، وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بقيام الليل في آيات كثيرة. **﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾** المزمل: ١ - ٤).

ولفضل قيام الليل لم يقل الله سبحانه «أو زد عليه قليلاً» كما قال: «أو أنقص منه قليلاً» ويقول سبحانه: **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾** (المزمل: ٢٠) ويقول سبحانه **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** (الإسراء: ٧٩).

فانظروا - أرشدكم الله - كيف ذكر الله لنبيه التهجد في الليل ثم أطمعه بالمقام المحمود، فقد ذكر المقام المحمود بعد التهجد في الليل، وهذا يدلنا - أرشدكم الله - على ما لقيام الليل من فضل منزلة، وعظيم تربية، وكثير فائدة.

ولقد أثنى الله تبارك وتعالى على المتقين الذين يستحقون جنات وعيون، فقال سبحانه ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ (الذاريات:١٥ - ١٨) وفي حديث معاذ حينما سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني عن النار فيقول النبي ﷺ لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال «ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ يعملون»[1].

وقيام الليل فيه إرضاء لله سبحانه، وتطهير للنفس، ومطردة للشيطان، ومغفرة للذنب. . . وقد ورد في قيام الليل أحاديث وآثار كثيرة، نذكر لكم منها إن شاء الله ما تقربه العيون، وتزكو به النفوس.

١ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[2].

وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في حرية الصلاة باب ٨/ حديث ٢٦١٩ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١٤/١٠٩٤ ج ١ ص ٣٨٤.

ويقوم ثلثه، وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً»[1] .

٣ ـ وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم، ومَكْفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم» [2]

٤ ـ وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[3]

٥ ـ عن عمرو بن عبسة قال: قال رسول الله ﷺ «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[4]

العلاج الرابع: التضرع عند السحر:

قال سبحانه: ﴿**وبالأسحار هم يستغفرون**﴾ (الذاريات: ١٨) لقد تحدثنا من قبل عن السحر وفضيلة وقته وطلب الاستغفار فيه، عند قوله ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾.

إن للسحر روعة ومهابة فهذا السكون المخيم على الكون، والذي

---

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الصيام باب ما جاء في صيام داود عليه السلام ١٧١٢/٣١ ورواه البخاري في كتاب التهجد.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٢٧٢/٢ معلقاً ووصله الحاكم وصححه على شرط البخاري وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣٢١/١ سنده حسن.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وإسناده حسن وصححه الحاكم أيضاً والذهبي.

(٤) رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب.

يلف الكون ببرده وثوبه، والذي قد يسبب وحشة عند كثير من الناس يبعث في نفس المسلم الهيبة والجلال، يذكّره بذلك المصير الذي لا بد منه، يوم أن يوضع في قبره فينقطع عن الحياة، والأحياء لا يرجو إلا ربه.

لقد حبب وقت السحر للمسلم إذ فيه تتجلى عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته، فهذا الوجود الذي يعوج ويموج بالحركة وهذا الزمان والمكان وما فيهما من ضجيج وجلبة وأصوات يختلط بعضها ببعض، وحركة متنوعة مختلفة، كل ذلك يتلاشى في هذا الوقت من الليل وقت السحر، فربما لا تسمع همساً، وربما يجد الكثيرون وحشة ولا يجدون أُنساً، وبعض الناس قد يكون مستغرقاً في شهوته ولذته، ملبياً داعي رغبته ونزوته، لكن المسلم تحف به أنوار الأُنس وتصعد أفكاره ومشاعره إلى حضرة القدس، يناجي ربه بما يحيي قلبه، فيزكو نفساً، ويرهف حساً فيطرد أشباح اليأس، وآلام البؤس، ويصير على عدوه شديد البأس يكبح جماح النفس، ويذكُره وقته وسحره بلحظة الرمس.

التضرع إلى الله في السحر تضرع لا رياء فيه، فالعين إن بكت فالله وحده شاهد على بكائها، فما أجملها من ساعة يناجي الله عباده فيها بما تختلج فيه نفوسهم، وينقض ظهورهم، لحظات السحر لحظات الإشراق، حقاً إنها تداوي أمراض القلب فيصبح قلباً أجرد خالصاً لله عمله وفكره، إنها منحة ربانية نسأل الله أن يكرمنا بها، ونفحة إلٰهية نسأل الله أن لا يحرمنا نورها وطعمها ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون. . .﴾.

فانظروا أرشدكم الله إلى كلمة هم في الآية ما أجملها في موقعها، وما أروعها في موضعها «وبالأسحار هم يستغفرون» هم، ما أجمل هذا التأكيد

هم، لا غيرهم، لأن لذة السحر لا يذوق طعمها إلا أولئك المتقون.

لــولا الــذيــن لهــم ورد يــقــومــونــا
وآخــرون لهــم سرد يــصــومــونــا

لــدكــدكــت أرضــكــم مــن تحــتــكــم ســحــراً
لأنــكــم قــوم ســوء لا تــطــيــعــونــا

العلاج الخامس: مجالسة الصالحين:

سأل أحدهم شيخه عن خير صفة يمكن أن يتصف بها المرء، فقال ذلكم الشيخ: عليك يا بني بمجالسة الصالحين، قال السائل: ولم؟ قال: إنما كانت خير صفة لأنها تجنبك الزلل، إن الجليس الصالح يا بني خير لك من نفسك، إن نفسك قد تأمرك بالسوء، ولكن الجليس الصالح لا يأمرك إلا بالخير... لذلك كان الحرص على الجليس الصالح مغنماً لا ينبغي للمسلم أن يضيعه ولقد قال الشاعر:

مــا عــاتــب الحــر الــكــريــم نــفــســه
والمــرء يــصــلحــه الجــلــيس الــصــالــح

وقد تقدم لنا من قبل أن مجالسة غير الصالحين تميت القلب، ولقد بين القرآن الكريم في أكثر من موضع الأثر السيء لجليس السوء. قال سبحانه: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** (الفرقان: ٢٧ - ٢٩) وقال سبحانه: **﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون﴾** الصافات: ٢٢) ويظهر أن الأزواج هنا ليسوا النساء وإنما

قرناء السوء، ويقول الله سبحانه: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (الزخرف: ٦٧).

أما سيدنا رسول الله ﷺ فلقد حرص كل الحرص على أن يبيّن لأمته النتائج الخيرة من مجالسة الصالحين، والعواقب السيئة لمجالسة أهل السوء. ويقول الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[1]

ولو أنّا توخينا الجليس الصالح لتغيرت صورة المجتمع الذي نحن فيه، فغلب صلاحه على مفاسده وشروره، ولأدرك جلساء السوء أنهم منبوذون لسوئهم فأصلحوا أنفسهم، ولكن مخالطتهم ومجالستهم من شأنها أن تزين لهم ما هم فيه من باطل، وتجعلهم ينفثون سمومهم، وتنتقل أمراضهم إلى غيرهم من الأصحاء.

إن مجالسة الصالحين حياة للقلوب، فلتنظر من تجالس... لا تصاحب إلا صالحاً، ولا يأكل طعامك إلا تقي. فمن لم يكن من الصالحين فليبحث عنهم وليتقرب منهم، وليكن لسان حاله قول ذلك القائل:

أحب الصالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي
وإن كنا سوياً في البضاعة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الذبائح والصيد باب المسك ٥٢١٣/٣١ ج ٥ ص ٢١٠٤.

وقد مر معنا قول محمد بن واسع: ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا آعوججت قومني، وصلاة في جماعة يحمل عني سهوها وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منه ولا لله عليه تبعة وعن محمد بن الحسن الخشاب قال سمعت بعض أصحاب الشبلي يقول: رأيت الشبلي في المنام فقلت له: يا أبا بكر من أسعد أصحابك بصحبتك؟ فقال: أعظمهم لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله، وأعرفهم بنقصانه، وأكثرهم تعظيماً لما عظم الله من حرمة عباده[1].

اللهم من علينا بمن يذكر بالحق منطقه، وبالآخرة عمله، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الحلية ١٠/٣٧٥.

الخماسية الحادية والثلاثون

قال شاه الكرماني[1] ـ رحمه الله ـ «من غض بصره عن المحارم، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السّنة، وعوّد نفسه أكل الحلال، وكف نفسه عن الشهوات، لم تخطىء له فراسة، وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق، صار زكياً تقياً مستوجباً للجنة»[2]

هذه الخماسية جمة الفائدة، كثيرة الخير، ولذا فهي عظيمة النتائج كذلك، ذلك أن الفراسة نور يقذفه الله في قلب المؤمن، ولقد جاء عن النبي ﷺ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله[3]» وقرأ ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ (الحجر: ٧٥) وهذه الفراسة تختلف عن الشطحات وما أشبهها مما يتنافى مع الشرع كادعاء علم الغيب، والفراسة صدق الحدس، وصدق الإحساس.

والحق أن هذه الخصال الخمس تزين المؤمن ظاهراً وباطناً، وتطهره من كل ما يدنسه، وتصفيه من كل كدر، وترتفع به فوق كل دنية، وتبتعد

---

(١) شاه بن شجاع الكرماني (أبو الفوارس) توفي بعد (٢٧٠هـ ـ ٨٨٣م) من مشايخ كرمان وأبناء الملوك له مصنفات منها مرآة الحكماء. كان ظريفاً في الفتوة عريفاً في المروءة. من أقواله: من عرف ربه طمع في عفوه ورجا فضله، وقال «الفتوة من طباع الأحرار واللؤم من شيم الأنذال. وقال: علامة الركون إلى الباطل التقرب إلى المبطلين.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٢٣٧/١٠.

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير /سورة الحجر حديث ٣١٢٥ ج ٨ ص ٢٨٢ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

به عن كل شبهة، وتحول بينه وبين أن يكون للشيطان سلطان عليه، ولقد قال الله سبحانه: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون**﴾ (النحل: ٩٩)

الخصلة الأولى: غض البصر.

وأول هذه الخصال: «أن تغض بصرك عن المحارم» ذلك أنَّ البصر هو أعظم وسيلة خارجية يمكن أن تجلب لك السوء، وأن توقعك في منزلقات السوء والشر، لأنك لا تسير وأنت تغمض عينيك، وربما يقع بصرك على شيء يحرك الهوى في نفسك، فيثير فيها كوامن الشر؛ لذلك كان غض البصر من الأمور التي أكدها الله تبارك وتعالى في كتابه وركز عليها النبي عليه وآله الصلاة والسلام في أحاديثه ووصاياه.

ولقد أفرد الله كلاً من المؤمنين والمؤمنات بآية خاصة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما لغض البصر من حماية ووقاية، وعلى ما للنظر من مهالك ومساوىء فقال سبحانه: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن**﴾ (النور: ٣٠).

وقال ﷺ وهو ينهى عن الجلوس في الطرقات: «إذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقها، ويذكر من حق الطريق ﷺ غض البصر، وقد تقدم قوله عليه وآله الصلاة والسلام «اضمنوا لي ستاً أضمن لك الجنة» اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا

فروجكم، وغضو أبصاركم، وكفوا أيديكم»[1]

ولقد حذر النبي ﷺ من النظرة الحرام. فقد قال ﷺ «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، فمن تركه مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[2] وقال ﷺ «زنا العين النظر»[3] وعن جرير بن عبدالله البجلي قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري»[4] وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ «النظرة الأولى خطأ والثانية عمد، والثالثة تدبر، نظر المؤمن إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركه خشية الله ورجاء ما عنده أثابه الله تعالى بذلك عبادة تبلغه لذتها»[5] وعن عائشة «ما من عبد يكف بصره عن محاسن آمرأة ولو شاء أن ينظر إليها لنظر إلا أدخل الله قلبه عبادة يجد حلاوتها»[6].

فوائد غض البصر:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود. قال في الزوائد ٨/٦٣ فيه عبدالله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاستئذان باب زنا الجوارح دون الفرج باب ١٢ /حديث ٥٨٨٩ - ج ٥ ص ٢٣٠٤.

(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب الأدب باب نظر الفجأة ١٠/٤٥ ج ٣ ص ١٦٩٩.

(٥) أبو نعيم في الحلية ٦/١٠١.

(٦) قال في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٣ رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر: إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك آشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً
لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذي لاَ كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ
عَلَيْهِ، وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تقوى فتصير صبابة. ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقاً. وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفاً. وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تَتَيُّماً. والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب إذا عبّده. وتيم الله عبدالله. فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له. وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً. يتظلم من الطرْف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني. وهذا إنما

تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره. قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ (يوسف: ٢٤).

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصاً لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شاباً عَزَبا غريبا مملوكاً.

(الفائدة الثانية) في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة. قال أبو شجاع الكرماني: من عمر ظاهره باتباع السنة. وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ (الحجر: ٥٧).

وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم. ﴿الله نور السموات والأرض﴾ (النور: ٣٥).

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت المرآة من الصدأ آنطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع

فيها صور المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر. «إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله».

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه. قال تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون: ٨) وقال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران: ١٣٩) وقال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ (فاطر: ١٠٠).

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله» وقال الحسن «وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت. «إنه لا يذل من والَيت ولا يعزُّ من عَادَيت»[1].

الخصلة الثانية: أن يعمر باطنه بمراقبة الله

ذلك أن من امتلأ قلبه بمراقبة ربه، فإنه يطرد من قلبه كل هوى، اللهم إلا هوى واحداً وهو الذي يقول فيه الرسول عليه وآله الصلاة

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٥٩ ـ ٦٣.

والسلام «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1]

ومن عمر باطنه بمراقبة الله أزال من قلبه الأمراض جميعها، وما أكثر أمراض القلب، والله تبارك وتعالى أمرنا أن ندع الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقال: ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ (الأنعام: ١٢٠)

ومن أمراض القلب الغرور والعجب والكبر، والغلّ والحقد والحسد، والرياء. . . وهذه الأمراض وغيرها لا تقف عند حدّ القلب، بل تنتقل إلى الجوارح، ولكن هذه الأمراض كلها يمكن أن يتقيها المرء بالمراقبة الصادقة، . . . ألا ترى أن كثيراً من الأمراض الظاهرة يمكن أن يتقيها الإنسان بمراقبة أسبابها، في مراقبة ما يأكل من طعام وما يشرب من ماء، أو ما يلبس من ثياب، ومراقبة الجو الذي يلائمه. . .

كذلك أمراض القلب يبرأ صاحبها بدوام مراقبته لخالقه، ولقد قالوا: «من راقب الناس مات هماً» أما الذي يراقب الله تعالى فإنه يزول همّه، ويزيد علمه، وتزكو نفسه.

وحين يعمر الباطن بمراقبة الله، تضيء جوانبه، وتطهر طرقه ومساربه، . . .

وعلامة المراقبة أن تستشعر في كل حركاتك وسكناتك وخطرات قلبك وخلجات نفسك اطلاع الله عليك، ونظره إليك ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء:١) يظهر له قلبك ظهوراً أشد من ظهور وجهك للناس، والباطن الذي ليس فيه مراقبة خرب موحش مظلم مقفر، لذلك كان

---

(١) ذكره النووي في الأربعين النووية الحديث الحادي والأربعين وقال حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

المؤمن دائماً عامر الباطن ظاهر الباطن. . . ثم أن طهارة الباطن أعظم أثـراً من طهارة الظاهر، فإذا طهر الباطن بمـراقبة الله كـان الظاهـر طاهـراً. . . ولكن كثيرين من الناس يتظاهرون بطهارة ظاهرهم وبـاطنهم ليس كذلـك وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1]

الخصلة الثالثة: أنْ تعمر ظاهرك باتباع السنة

إذا كـان الباطن يعمـر ويشرق ويضيء بمـراقبـة الله سبحـانـه، فـإن الظاهر لا بد أن نعمره باتباع سنة الـرسول عليـه وآله الصلاة والسلام. . . ولا تظنوا أن المقصـود بالـظاهر هـو الشكل الخـارجي لهذا الإنسـان، وإنما المقصود بالظاهر جميع التصرفات التي تحدث من الإنسان في حياته، وهـذه التصرفـات جميعاً لا بـد أن تكون خـاضعة للسنـة النبويـة الشريفـة، . . . فظاهرك للناس ليس هو رؤية طولك وعرضك، وشكلك وحجمك، وإنمـا ظاهرك للناس معاملتك لهم، فتعمير الظاهر باتباع السنـة هو الـتزام الهدى النبوي في كل ما بينك وبين الناس، أو ما يراه النـاس منك، حتى لـو كان خاصاً بنفسك أنت، فمن تعمير الـظاهر بـاتباع السنـة أن تلتزم الآداب في مـأكلك ومشربـك ومنـامـك. . . وأن تلتزم الآداب في مشيتـك وملبسـك وكلامك. . . وأن تلتزم أحكام السنة وآدابها في بيعك وشرائك وتقاضيـك وقضائك وأنْ تلتزم الأذكار الواردة في ليلك ونهارك.

وبالجملة أن تكون أحوالك كلها صورة صادقة للسنة النبوية الطاهرة سواء كانت خاصة بنفسك، أم بأسرتك وأهلك، أم بجيرانك وأصدقـائك أم بغيرهم. . . بل تشمل ما هو أكثر من ذلك تشمل معاملتك لغـير الناس

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ٥٢/٣٧.

من حيوان أو طير، وفي السنّة ـ ولله الحمد ـ وجزى الله سيدنـا محمداً عنّـا خير الجزاء وآله وصحبه ـ أقول في السنة بيان كاف شاف، كامل واف لكل هذا الذي ذكرته لـك، فيها آداب مشيـك وأكلك وشربك، وفيهـا آداب حـديثك ومعـاملاتـك وبيعك وشرائـك... بـل وكيفيـة نـومـك وفـطرك وصومك، وصَلاتك، وصِلاتِك، .... كل هذا مبيّن في كتب الأذكـار والشـمائل... وكتـاب الأذكار لـلإمام النـووي من خـير الكتب وأنفعهـا، وهناك كتب الشمائل ومنه شمائل الترمذي ويعني بها شمائل النبي عليه وآلـه الصلاة والسلام، .... فما أسعد من عمّر باطنه وظاهره، فصار نقياً تقياً، يذكرك بالله منطقه وحديثه، وبالآخرة عمله وفعله.

أما الذين يختالون في مشيتهم، ويبطرون في مظهرهم، وترى عـلامة الكبر في ملبسهم، والتشدق في حـديثهم، والسخريـة في أقوالهم، والغلظة في أفعـالهم فليسوا من هـذا الصنف الخيِّر، ولـو أنهم بـأمـر الله ورسـولـه ائتمروا لأحسنوا وعمروا، فليقبل أولئك على الله يسألونـه الهدايـة، ونسأل الله أن يكلأنا الرعاية والعناية..

الخصلة الرابعة: وعود نفسه أكل الحلال:

وأكل الحلال نعمة ومنّة، فمن منن الله ونعمـه أن تتجنب الحرام في مأكلك، فالأكل يكون به قوام الجسم وسريان الدم، وجريان النَفَس، فإذا كـان الأكل حـراماً أو قـريبـاً من الحـرام، تلوثت خـلايـا الجسم جميعهـا، وصبغهـا الحرام بصبغتـه السيئة، ولـونه البـاهت، وريحه السيّء، وتصـور جسماً من الأجسام أثرت فيه الميكروبات فلوثته كله، كيف يكون حال هذا الجسم...

إن كثيراً من المرضى نسأل الله أن يعافينا، يبذلـون الطائـل من المال

من أجل تنقية دمائهم وأجسامهم مما خالطها فأضرّ بها، فالمسلم أحرص على تنقية خلاياه ودمه وأعصابه وأجهزة جسمه، مما يلحق بها من حرام، ذلك أنَّ التلوث الذي يصيب الجسم تنحصر مضاعفاته في هذه الدنيا، لكن التلوث بالحرام يظل أثره بعد هذه الدنيا. . . . وما مرحلة الدنيا إلا مرحلة قصيرة. . . فالسعيد حقاً من لم يلوث جسمه ودمه ونطفته بحرام، ولم يسمح للشيطان أن يشاركه في ماله وولده.

إنَّ الجسم الذي ينبت على الحرام والسحت، النار أولى بِهِ. . . ثُمَّ إن هناك فوئد عاجلة لتخير الحلال من المطعم ومن هذه الفوائد العاجلة إجابة الدعوة ففي حديث النبي عليه وآله الصلاة والسلام لسعد رضي الله عنه «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به»[1] كما أن أكل الحرام له عقوبات عاجلة غير تلك التي تكون في الآخرة، هذه العقوبات نقرؤها في قول النبي ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم**﴾ (المؤمنون: ٥١) وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ (البقرة: ١٧٢) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يقول يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[2]

---

(١) رواه الطبراني في الصغير عن ابن عباس. قال في الزوائد وفيه من لم أعرفهم ج ١ ص ٢٩١.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ١٩/١٠١٥ ج ٢ ص ٧٠٣.

لـذا فـإن أكـل الحـلال كـما قلت من قبـل نعمـة من نعم الله، لهـا فوائدها في العاجلة وفي العقبى، في الدنيا وفي الآخرة.

قـال أبو حفص عمـر بن صالـح الطرسـوسي ذهبت إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فسألته وكان إلى جنبه بـوران وزهير وهـارون الجمال، فقلت رحمك الله. يا أبـا عبدالله: بم تلين القلوب؟ فـأبصر إلى أصحابـه فغمزهم بعينه ثم أطرق ساعة ثم رفع رأسه فقـال: يا بني بـأكل الحـلال. فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقلت: يا أبـا نصر: بم تلين القلوب؟ قال ألا بذكـر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئت من عند أبي عبـدالله فقـال: هيه إيش قـال لك أبـو عبدالله؟ قلت بـأكل الحـلال فقـال: جـاء بالأصل. فمررت إلى عبد الـوهاب بن أبي الحسن فقلت: يـا أبا الحسن: بم تلين القلوب؟ قال: (ألا بذكـر الله تطمئن القلوب) قلت: فـإني جئت من عند أبي عبدالله، فـاحمرت وجنتـاه من الفرح وقـال لي: إيش قال أبـو عبدالله؟ قلت: قال بأكل الحلال. فقال: جـاء بالجـوهر جـاءك بالجـوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال.[1]

الخصلة الخامسة: كف نفسه عن آتباع الشهوات.

والشهوات المقصودة هنـا هي تلك الشهوات المحـرمة، التي لا تزيد صاحبها إلا نقصاً، ولا تزيد فاعلها إلا ارتكاساً وانتكاساً، وقد تحدثنا عنها عند قوله سبحانه: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ (آل عمران: ١٤).

هـذه الخصال الخمس إن أكـرمت بها صـدقت فـراستـك، وقـويت حراستك، وعظمت من الحق مؤانستك...

---

(١) الحلية لأبي نعيم ١/١٨٢.

ويختم هـذا الإمام وصيتـه بقولـه: «وإذا صلح علم الرجـل فعـرف الحق وعمله واتبع الحق صار زكياً تقياً مستوجباً للجنة»...

وهذا كلام جيد جدير بالتدبر والحفظ والتذكر، ذلكم أن الأسـاس الذي لا بد منه هو العلم، فليكـون العمل مقبـولاً وصحيحاً لا بـد له من العلم، فـإذا صح العلم فعـرف صاحبـه الحق وعمل بـه واتبعـه، استحق الخير في دنياه وآخرته فهو زكي تقي إذن يستوجب الجنة.

رأى بعضهم الأوزاعي رحمـه الله في المنام فقـال له: دلني عـلى عمل يقـربني إلى الله، فقال: ما رأيت في الجنة درجة أعلى من درجة العلماء العاقلين ثم المحزونين»[1]

هـذه وصية أحـد الصالحـين أبي شجاع الكـرمـاني، ولفضلهـا وعلو شـأنها تناقلهـا الأئمة، ولقـد رأينا كيف تنـاقلهـا إمـامـان جليـلان شمس الإسلام ابن تيمية وتلميـذه ابن القيم.. نسأل الله أنْ يـوفقنا للعمـل بهٰذه الـوصية حتى تهـذب نفـوسنـا، وتشرح صـدورنـا، فمن شرح الله صـدره لـلإيمان، كـان عـلى نـور من ربـه، وذهب حـرجـه وضيقُـه، ويُسّر سـيره وطريقه.

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٢٠.

الخماسية الثانية والثلاثون

قال الجنيد رحمه الله[1]: آتفق أهل العلم على أن أصولهم خمس خلال: صيام النهار، وقيام الليل، وإخلاص العمل، والإشراف على الأعمال بطول الرعاية، والتوكل على الله في كل حال»[2]

هذه الأصول الخمسة التي ذكرها الجنيد ـ رحمه الله ورضي عنه ـ جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، من أجل ذلك كانت زينة لصاحبها في دنياه وآخرته، يجد فيها المسلم رضى القلب وراحة النفس، وبرد اليقين، وصدق الطمأنينة، وهي مستغرقة لجميع الأوقات، مهيمنة على جميع الأقوال والأفعال؛ أما شمولها لجميع الأوقات فيظهر من الخصلتين الأولين صيام النهار وقيام الليل؛ وأما استغراقها لجميع الأقوال والأفعال، فيظهر في الخصال الثلاث الأخيرة، الإخلاص والتوكل وطول الرعاية.

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم (ت ٢٩٧ هـ ـ ٩١٠م) صوفي، من علماء الدين، ولد ونشأ وتوفي في بغداد. قال عنه أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. قال ابن الأثير عنه: إمام الدنيا في زمانه، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة. ومن كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به (الأعلام ٢/١٤١).

ومن كلامه: ما من شيء أسقط للعلماء من عين الله من مساكنة الطمع مع العلم في قلوبهم، وقال فتح كل باب وكل علم نفيس بذل المجهود. وسئل ما القناعة قال: ألا تتجاوز إرادتك ما هو لك في وقتك (الحلية ١٠/٢٦٣).

(٢) اللمع لأبي نصر الطوسي ص ٢٨٨.

الأصل الأول: صيام النهار

والصوم لا مثيل له[1] كما مر معنا من حديث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ويكفي فيه ما جاء عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنّه لي وأنا أجزى به»[2]... ولقد تحدثنا عن الصوم من قبل وذكرنا خصائصه وجوانب الخير فيه، وليس هناك شيء يقهر الشيطان، ويقهر النفس الأمّارة مثل الصيام، وليس هناك شيء تظهر آثاره الخيّرة بينك وبين الناس مثل الصوم، وخير شاهد على ذلك قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام «فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»[3] وقوله: « وأوصاني بالصوم، » ومثل ذلك كمثل أحدكم إذا كان في عصابة ومعه ريح مسك فإنهم يشمون ريحها الطيب»[4]... لذلك كان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[5]

الأصل الثاني: قيام الليل:

وقد تحدثنا عنه قريباً... إن قيام الليل جعل من خصائص هذه الأمة، وقد أثنى الله تعالى على القائمين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وبالصيام والقيام تزكو النفس وتتطهر الجوارح، ويكون الصائم والقائم في أول زمرة المحسنين، فيشرف بمعية الله ورعايته ﴿إن الله مع

(١، ٢) سبق تخريجها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ـ باب فضل الصوم ١٧٩٥/٢ ج ٢ ص ٦٧٠.

(٤) سبق تخريجه من حديث الترمذي في خماسية سابقة (إن الله أمر يحيى بخمس كلمات...)

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ـ باب فضل الصوم ١٧٩٥/٢ ج ٢ ص ٦٧٠.

الـذين آتقوا والـذين هم محسنون﴾ (النحـل: ١٢٨)، وينال رحمـة الله سبحانه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ (الأعراف: ٥٦)

ويكفي أن نعلم أن الذين حفظوا لنا هذا الـدين، وخلفوا لنـا هذه الكنـوز العلمية، وفتحـوا الأمصار والبـلاد، وجاهـدوا في الله حق الجهـاد استنصروا الله فنصرهم، ودعوه فأجابهم، وخشوه وعظموه فجعل خشيتهم في قلوب الناس. . . خافـوا مقامـه فأخـاف منهم أعداءهم، وأحبـوا لقاءه فحبب فيهم خلقه.

يكفي أن نعلم أن هؤلاء كانوا صوامين قوامين، فآنسهم الله في ليلهم، وبارك لهم في أعمالهم وجهادهم في نهارهم، استغرقت أنفسهم في عبادته، واغرورقت الأرض من دموعهم، فحفتهم عنايته، وأحاطت بهم رحمته، وما ذلك إلا لأن صيامهم وقيامهم كان إيماناً واحتساباً، فأكرمهم بنفحاته في دنياهم. . . وأجارهم من لفحات عذابه في أخراهم.

الأصل الثالث: إخلاص العمل

ولقد كافـأ الله المخلصين من عبـاده فحماهم ووقـاهم من أن يكون للشيـطان عليهم سبيـل وسلطان ﴿إن عبـادي ليس لـك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾ (الإسراء: ٦٥) ولقد آعترف الشيطان بهـذه الحقيقة ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص: ٨٢)

ولقد كثرت عبارات القوم في الإخـلاص وذكر الإمـام النووي رحمـه الله في مقدمة كتـابه العـظيم المجموع طـائفة من هـذه الأقوال يسعـدنا أن نـذكرهـا لك راجـين أن نكون وإيـاك من المخلصين: فبعـد أن ذكر قـوله سبحانه ﴿ومـا أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين لـه الدين﴾ (البينـة: ٥) وقوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» قال رحمه الله ورضي عنـه: «وهذه أحـرف

من كلام العارفين في الإخلاص والصدق. قال أبو العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما إنما يعطى الرجل على قدر نيته.

وقال أبو محمد سهل بن عبدالله التستري رحمه الله نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركاته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا. وقال السري رحمه الله لا تعمل للناس شيئاً ولا تترك لهم شيئاً ولا تعط لهم ولا تكشف لهم شيئاً.

وروينا عن حبيب بن أبي ثابت التابعي رحمه الله إنه قيل له حدثنا فقال حتى تجيء النية.

وعن أبي عبدالله سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله قال ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي أنها تتقلب علي،

وروينا عن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله في رسالته المشهورة قال الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو آكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى. قال ويصح أن يقال الإخلاص تصفية العقل عن ملاحظة الخلق والصدق والتنقى عن مطالعة النفس.

فالمخلص لا رياء له والصادق لا إعجاب له، وعن أبي يعقوب السوسي رحمه الله قال متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص، وعن ذي النون رحمه الله قال ثلاثة من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال واقتضاء ثواب العمل في الآخرة وعن أبي عثمان رحمه الله قال الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، وعن حذيفة المرعشي رحمه الله

قال الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وعن أبي علي الفضيل ابن عياض رحمه الله قال ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما: وعن رويم رحمه الله قال الإخلاص أن لا يريد على عمله عوضاً من الدارين ولا حظاً من الملكين: وعن يوسف بن الحسين رحمه الله قال أعز شيء في الدنيا الإخلاص: وعن أبي عثمان قال إخلاص العوام ما لا يكون للنفس فيه حظ وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد[1].

الأصل الرابع: الإشراف على الأعمال بطول الرعاية

ومعنى هذا أن العبد يراقب عمله، بطول الرعاية حتى لا يتسرب الشيطان لجزء منه ليفسده، وحتى لا يتدخل هوى النفس، في أثناء عمل من هذه الأعمال، لتبطله وتغيّره فلربما يبدأ العامل عمله مخلصاً مستوفي شروط القبول، مستجمعاً أركان الصحة، ولكنه في أثناء هذا العمل تعرض له شهوة، فينحرف عن جادته السويّة، كالذي يصير في طريق آمن ثم يعنّ له بعد ذلك وهو في منتصف الطريق أن يسلك في بعض الشعاب فتختلف به السبل، فيخرج إلى طريق موحش... فقد يقصد العامل وجه الله في عمله، ولكنه وهو في أثناء هذا العمل تعرض له بعض العوارض المؤذية، فيغير نيته، فقد يصيبه الغرور أو العُجب، أو الرياء، فيفسد عمله... وقد قال الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ (محمد: ٣٣)... لذلك كله كان لا بد من الإشراف على العمل بطول الرعاية، حتى تتم عملك وهو زكيّ فتحفظه

---

(١) المجموع شرح المهذب ١/ ٢٩ - ٣٠.

من الإحباط، فالرعاية هي أن تراقب عملك من أوله إلى آخره حتى لا تهمله ولا تبطله.

الرعاية أن تستغرق أوقاتك كلها في مراقبة عملك وأن تكون حذراً في كل لحظة من لحظات حياتك.

تصور نفسك أنك تعمل عملاً دقيقاً، إذا أهملته لحظة فسد وتغير، تصور نفسك كيف تستغرق في المحافظة عليه، . . . ولتتصور آمرأة نفسها وهي تضع طعاماً على النار فإذا أهملته لحظة ما أفسدته النار، إنها تديم المراقبة حتى لا تفسد طعامها الذي تعده لضيوفها وأهل بيتها، فإذا كانت هذه مراقبتنا لبعض أعمالنا الخاصة بدنيانا، فإن مراقبتنا لأعمالنا التي نقوم بها من أجل الله، ينبغي أن تكون أكثر مراقبة، وأكثر استعداداً. . .

هذه هي الرعاية، فإذا آنتفت الرعاية كان العمل بدون إتقان، فإتقان العمل لا بد له من طول الرعاية «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1].

الأصل الخامس: التوكل على الله:

﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ الطلاق: ٣) ﴿**ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**﴾ (الأنفال: ٤٩) ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً**﴾ (الفرقان: ٥٨). . . فمن توكل على الله كفاه الله قال هود عليه السلام: ﴿**إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم**﴾ (هود: ٥٦) وقال شعيب عليه السلام: ﴿**على**

(١) سبق تخريجه.

الله توكلنا ربنا آفتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ (الأعراف: ٨٩) وقال ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود: ٨٨) وقال موسى عليه السلام: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ (يونس ٨٥-٨٦) وقال يعقوب عليه السلام: ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ (يوسف: ٦٧).

وقالت الرسل لأقوامهم ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ (التوبة: ٥١ - ٥٢) وقال الله لنبيه ﷺ ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾ النمل: ٣٩) وقال له كذلك: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين، إنه هو السميع العليم﴾ (الشعراء: ٢١٧-٢٢٠).

فهؤلاء الرسل هم خيرة الله من خلقه، وصفوتهم من عباده، كان سلاحهم التوكل على الله، فإذا كان هذا شأن الرسل عليهم السلام، فإنه في حق غيرهم أحق وأولى وأكثر تأكيداً، وأشد وجوباً. . .

ولقد تحدثنا عن التوكل، وبيّنا آدابه ومعناه في خماسية سابقة، عند قوله سبحانه ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ (الأنفال: ٢).

هذه هي الأصول الخمسة التي ذكرها الجنيد رحمه الله ورضي عنه، وهي تبين لنا كيف كان الصوفية في بادىء أمرهم يصدرون عن شرع الله، ويتحرون الإصابة في القول والعمل، ويتأدبون بآداب الكتاب والسنّة،

فصفت نفوسهم وزكت أعمالهم، ونصحوا لله ورسوله، وأماتوا نفوسهم، حتى لا تستعبدهم شهواتهم، وأماتوا أجسادهم في سبيل الله فاستحقوا الشهادة حقاً وصدقاً، فأين أولئك ممّن طغت عليهم الشهرة، وأصبح تصوفهم أوراقاً لا أذواقاً، واستحبوا الجهل على العلم، والخمول على العمل، وانحرف بعضهم عن الجادّة... فلا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم ثبتنا على الحق، وأذقنا حلاوة الصدق، وأكرمنا بنعمة الرفق، فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه. وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الخماسية الثالثة والثلاثون

وهي الخماسية الأخيرة في هٰذا الكتاب. وآثرنا أن تكون دعاءً مأثوراً نختم به هٰذه الأقوال الحكيمة راجين أن يمنّ الله علينا بالإجابة والقبول، فله الفضل والمنة على ما أولى، ومنه العون وعليه التكلان. وهذا الدعاء جامع لخير الدنيا والآخرة، وللمحاسن والمحامد، ولما يصلح الظاهر والباطن.

عن علي رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ قال لي أعطيك خمسة آلاف شاة أو أعلمك خمس كلمات فيهن صلاح دينك ودنياك فقلت: يا رسول الله خمسة آلاف شاة كثير، ولكن علمني فقال: قل اللهم آغفر لي ذنبي، ووسع لي في خلقي، وطيب لي كسبي، وقنعني بما رزقتني ولا تذهب قلبي إلى شيء صرفته عني»[1] إنه دعاء موجز جامع.

الكلمة الأولى: اللهم اغفر لي ذنبي:

وقد أمرنا بالاستغفار في محكم الآيات الكريمة، وفي السنة المطهرة الصحيحة... والمتدبر لآيات القرآن، والمتأمل في السنة المطهرة يدرك شأن الاستغفار ورفعة منزلة المستغفرين. قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشرٌ

---

(١) قال في كنز العمال ٢/٨٦٢ رواه ابن النجار. وقد روى الحديث عن علي مهران الجزري أبو أيوب الرقّى الفقيه، نشأ بالكوفة ثم نزل الرقة وهو في الطبقة الأولى من التابعين قال عبدالله بن أحمد ثقة. (التهذيب ١٠/٣٩٠)

مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ (فصلت: ٦) ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً﴾ (هود: ٢).

وقد جاء الأمر بالاستغفار على لسان الأنبياء عليهم السلام. حدثنا القرآن عما قاله نوح لقومه: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (نوح: ١٠ - ١٢) ويقول هود لقومه ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ (هود: ٥٢) ويقول صالح لقومه: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ (هود: ٦٠ - ٦١).

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالاستغفار في آيات كثيرة، منها المكي ومنها المدنيّ، ففي آخر سورة المزمل: (واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم﴾ (المزمل: ٢٠) وقال سبحانه: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (محمد: ١٩) وهنا آيات كريمة وأحاديث شريفة بينت لنا بعض الأعمال التي تكون سبباً للمغفرة.

حدثنا القرآن عن النفر من الجن الذي استمعوا القرآن، وبعد أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ (الأحقاف: ٣١) ويقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم﴾ (نوح:

٣ - ٤) ويقول الله سبحانه خطاباً للمؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إنْ كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ (الصف: ١٠ - ١٢)

وجاء في ثواب الصلاة على النبي ﷺ فيما ذكره الحاكم في المستدرك عن أُبي أن النبي ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه، قال أبي: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قال: قلت الربع قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: النصف قال ما شئت: فإن زدت فهو خير لك، قال: قلت فالثلثين، قال ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك»[١].

وهذه الآيات والأحاديث تبيّن لنا أن مغفرة الذنوب إنما تكون بعمل، فمن أراد أن يكرمه الله بالمغفرة، فلا بد من أن يتقرب إلى الله بالعمل الصالح والكلمة الطيبة، وهناك آيات جاء فيها طلب المغفرة على لسان الأنبياء والمؤمنين، قال تعالى يبين لنا ما قاله إبراهيم لابيه: **﴿لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا**

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب رقم ٢٤ /حديث ٢٤٥٩ وقال حسن صحيح.

ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (الممتحنة: ٥) وقال سبحانه حديثاً عن المؤمنين الذين ذكروا بعد المهاجرين والأنصار في سورة الحشر ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ (الحشر: ١٠) وحدثنا ربنا تبارك وتعالى معلماً وله الفضل والحمد عن المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ومن دعائهم ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ (آل عمران: ١٩٣) وفي آية أخرى يحدثنا عن أولئك المجاهدين الذين ما وهنوا لما أصابهم وما ضعفوا وما استكانوا وكانوا من الصابرين فأحبهم الله والله يحب الصابرين ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨).

أما في السنة المطهرة فيكفي أن سيد الخلق عليه وآله الصلاة والسلام كان يكثر من الاستغفار ويأمر أمته به، قال ﷺ إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة وفي رواية «توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى مائة مرة في اليوم»[1] وقال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»[2]

وهكذا نجد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ذكرت الاستغفار

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر استحباب الاستغفار والاستكثار حديث ٢٧٠٢.
(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

من جوانب متعددة، فقد يكون حديثا من الأنبياء لأقوامهم، وقد يكون أمراً من الله تبارك وتعالى لعباده، وقد يكون حكاية عن المؤمنين في دعائهم، وقد تذكر الأعمال التي من شأنها أن تجعل فاعلها أصلاً لأن يغفر له.

ومن هنا يستحب الاستغفار بعد الصلاة، مخافة أن يكون فرط من الإنسان في صلاته شيء، ولكن هذا الاستغفار مصدره القلب، فلا ينبغي أن يكون من اللسان وحده، فالاستغفار الذي باللسان وحده بحاجة إلى استغفار لأنه ذنب، . . . الاستغفار ينبغي أن نهيء له قلباً سليماً، ولساناً صادقاً.

وفي أحاديث النبي عليه وآله الصلاة والسلام صور بديعة تعلمنا كيف نقول في آستغفارنا، منها ما كان عليه الصلاة والسلام يقوله في سجوده، (اللهم آغفر لي ذنبي دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره)[1]، ومنها ما كان يقول في آخر تشهده: (اللهم آغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير)[2] ومنها ما كان يقوله بعد الصلاة (اللهم اغفر لي وارحمني وأجبرني وآهدني وارزقني)[3]، (اللهم آغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم آغفر لي هزلي وجدي وخطاياي

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ـ باب ما يقال في الركوع والسجود ٢١٥/٤٢، ج ١ ص ٣٥٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٦٠٣٥/٦٠.

(٣) رواه الترمذي في أبواب الصلاة باب ما يقول بين السجدتين ٢٨٤/٩٥ وقال هذا حديث غريب.

وعمدي، وكل ذلك عندي)[1]، ومنه ما علمه زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها (اللهم رب النبي اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني)[2]. . . والأحاديث في ذلك كثيرة، ونرشدك إلى كتاب الأذكار للعالم الورع المتقن الإمام النووي رحمه الله. . . فهنيئاً لمن أطاع ربه، فغفر ذنبه، وستر عيبه، اللهم اغفر ذنوبنا واستر عيوبنا، وفرج كروبنا، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

استغفار الملائكة للمؤمنين:

ونختم هذا المقام بما تبتهج له نفوس المؤمنين، وتطمئن به قلوبهم، وتقر عيونهم، وهو خير لهم من الذهب والورق ومن الدنيا وما فيها، ونعني به استغفار الملائكة، وقد ثبت ذلك في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿**تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم**﴾ (الشورى: ٥).

أما حملة العرش من الملائكة، فقد خصوا المؤمنين بدعائهم، فما أعظمه من دعاء، وما أجمعه لأبواب الخير كلها، ولو أن المؤمنين أرادوا أن يستغفروا لأنفسهم ما كانوا ليزيدوا على هذا الدعاء المشرف المزهر، الشامل الكامل، الوافي الكافي، ولنستمع بقلوبنا إلى هذا الدعاء كما ذكره ربنا لنسارع إلى الخيرات، ونبتعد عن الزلات، فلنعدّ أنفسنا لاستماع الآيات الكريمة، قال الله تعالى: ﴿**الذين يحملون**

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٦٠/٦٠٣٦.

(٢) قال في مجمع الزوائد ٦/٣٢٥ رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق.

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وَقِهِم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، إنك أنت العزيز الحكيم. وَقِهِم السيئات، ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم﴾ (غافر: ٧ - ٩).

فانظروا - أرشدني الله وإياكم، وغفر لي ولكم، ولوالدينا ووالديكم، ولذرياتنا وذرياتكم وذوينا وذويكم - انظروا إلى هذا الدعاء الذي نتعلم به من الملائكة حسن الأدب وحسن القول، أنظروا إليهم كيف بدأوا أول ما بدأوا بالثناء على الله تبارك وتعالى قبل أن يدعوه، فسبحوا بحمد الله، وقالوا في ثنائهم على ربنا: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً). فما أعظم هذا الثناء من الملائكة، فهو ثناء وتضرع يستجلبون به الإجابة، وبعد هذا الثناء (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) بدأوا استغفارهم. وهذا وايم الحق نهاية الأدب، وفيه كمال الرعاية واللياقة، قالوا بعد هذا الثناء: (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم).. ثم بدأوا دعاءهم بعد ذلك بمناجاة ربهم (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) هكذا بهذا التضرع والتقرب والنداء (ربنا)، فما أعظم أن نتعلم ونحن ندعو الله

أن نبدأ بهذه الكلمة (ربنا)، (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً، ربنا وادخلهم جنات عدن. . .). ولم يقف دعاؤهم عند هذا، بل كان شاملاً لمن صلح من الآباء والأزواج والذريات. . ثم رجوا ربهم بعد ذلك أن يقيهم السيئات، بعد أن وصفوه بالعزة والحكمة: (إنك أنت العزيز الحكيم)، ومن وقاه الله السيئات فقد رحمه، هكذا تقول الملائكة: (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) وهو فوز ما بعده فوز.

ذلكم هو دعاء حملة العرش من الملائكة، والملائكة الذين استغفروا للمؤمنين في الدنيا، هم الذين يسلمون عليهم يوم القيامة في الجنة (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)، (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار).

ذلك هو آستغفار المؤمنين في كتاب الله. أما السنة المطهرة، ففيها من ذلك الكثير الذي تقرّ به العين، ويطمئن به القلب، وتبتهج به النفس كذلك، . . . من ذلك ما جاء في فضل العلم، إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع.

ومنه ما جاء في استغفارهم للصائمين فيما روي عن النبي ﷺ: (أعطيت أمتي في رمضان خمس خصال لم تعطها أمة قبلهم، خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الحيتان حتى يفطروا، ويزين الله عز وجل كل يوم جنته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة ويصيروا إليك، وتصفد فيه مردة الشياطين، فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويغفر لهم في آخر ليلة، قيل: يا رسول الله، أهي ليلة القدر؟ قال: لا، ولكن العامل إنما يوفىٰ أجره إذا قضى عمله)[1].

ذلكم لأن مغفرة الذنوب سعادة ما بعدها سعادة، وبهجة تفوق كل بهجة، ونعمة هي من أمهات النعم، وفضل ليس بعده فضل، فيه للمؤمنين صفاء وسناء.

الكلمة الثانية: ووسع لي في خلقي

ما أعطي المسلم شيئاً أفضل من خلق حسن، وحسن الخلق دليل على رسوخ الإيمان، وسوء الخلق دليل على ضعفه، ولقد بعث النبي عليه وآله الصلاة والسلام متمماً لمكارم الأخلاق، وأحب الناس إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام: أحسن الناس أخلاقاً إن أحبكم إلي أحاسنكم

(١) قال في مجمع الزوائد ٣/١٤٠، رواه أحمد والبزار، وفيه هشام بن زياد أبو المقدام، وهو ضعيف.

أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»[1]. . . وقد وردت أحاديث في فضل حسن الخلق. فقد قال ﷺ «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»[2] وقال ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[3] وعن عبدالله بن عمر قال: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وإنه كان يقول إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»[4].

حسن الخلق:

ولكن ما هو حسن الخلق؟ يظن كثير من الناس أن حسن الخلق أن لا يكون الإنسان عصبياً، وأن لا يغضب لأتفه الأسباب، وإن سوء الخلق هو أن يكون الإنسان أحمقَ أو عصبياً كما يقولون، يغضب لأدنى سبب، وهذا فهم خاطىء فليس حسن الخلق يقف عند هذه القضية، عند سرعة الغضب أو بطئه، ولكن الخلق في الحقيقة كلمة عامة تشمل جميع الصفات التي تحتاج إليها في معاملة الناس، أو معاملتك لربك، أو معاملتك لنفسك كذلك. . . هذا هو الخلق، ومَن حَسُنَ خُلُقه فلا بد أن تصفو نفسه وتحسن معاملته لربه وللناس ولنفسه، فالصدق خلق والأمانة خلق، والوفاء بالعهد خلق، وهذه من علامات الإيمان، وتركها من علامات النفاق.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف (المجمع ٨/٢٠).

(٢، ٣) أخرجهما الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق ٦٢/٢٠٠٣، ٢٠٠٤ وقال عن الأول حسن صحيح والثاني حديث غريب.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأدب باب حسن الخلق والسخاء ٣٩/٥٦٨٨ ـ ج ٥ ص ٢٢٤٥.

والصبر خلق، والحلم خلق، والسماحة خلق، والسخاء خلق، والرحمة خلق، واللين خُلُق، والعزّة خُلُق، والقوة خلق.

للإنسان دائرتان ظاهر وباطن:

ومجمل القول إن الأخلاق هي الصفات النفسيّة التي تمنحك رضا الله وحب الناس، والراحة النفسيّة، إن الإنسان له شعبتان اثنتان، أو قل دائرتين اثنتين:

الأولى: شعبة ظاهرة وهو هذا الكيان البشري للإنسان، ولهذا الكيان الظاهري صفات كثيرة يصعب إحصاؤها، من طول وقصر، وبياض وسواد، وضخامة ونحالة، وسعة في الوجه، وغلظ في اليدين... إلى غير ذلك من الصفات الكثيرة.

أما الثانية: فهي الدائرة الباطنة ولها صفات كثيرة كذلك، فالحلم والأناة والصفح والتحمل، والكياسة والفطنة، والصبر ورباطة الجأش، والشجاعة وحسن الظن، وكما نحب أن يكون خلقنا الظاهر حسناً، فمن البدهي أن تكون أخلاقنا حسنة كذلك.

عدم تحكم الإنسان بظاهره

وهنا لا بد أن نتنبه لقضية دقيقة لطيفة بديعة، وأعني بهذه القضية - أرشدكم الله - أننا لا نملك من صفاتنا الظاهرة شيئاً، فأنت لا تتحكم بطولك وقصرك، أو لون بشرتك، أو سعة عينيك وصغر أذنيك، وبالتالي أنت لا تتحكم في شيء من هذه الصفات الظاهرة، ولكن شاء الله تبارك وتعالى أن تُمْتَحَن في صفاتك الباطنة، وتلك حكمة ربانية بالغة؛ ذلك أن الصفات الظاهرة ليس لها صلة بحسن المعاملة أو سوئها، ولا تترتب عليها فضيلة، ولا يتعلق بها قانون، فالإنسان لا يحاكم على طوله، ولا

بغرّم للون بشرته، اللهم إلا ما نراه عند من يدّعون الحضارة، عند أولئك الذين أبوا إلا أن يميزوا بين الناس تمييزاً يرجع إلى اللون والمناخ، ما نراه في جنوب أفريقيا، وفي الموقف المؤيد لهذا التمييز من حكّام بريطانيا وأمريكا وغيرهما، وما نراه من تمييز يرجع إلى الهوية والمولد والمنشأ، عند بعض الدول وبعض الأفراد، . . . على كل حال هذا من تعاسة الإنسانية، التي ابتعدت عن دين الله، الإسلام الذي يقرر بصراحة لا مساومة فيها، يقرر كتابه الخالد ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (الإسراء: ٧٠) ويقرر نبيه عليه وآله الصلاة واالسلام بكل وضوح وحزم، لا تقرير السياسيين الذين يأبون إلا أن يكون لهم وجهان ولسانان وقلمان، وتصريحان أو أكثر من ذلك. . . ولكن سيدنا رسول الله ﷺ يقرر تقريراً ثابتاً ثبات الحق، راسياً رسوّ الجبال. . . يقرر المساواة بين الناس فـ «الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[1] ويقسو على أبي ذرّ وقد عيّر رجلاً بأمه ويعنفه النبي ﷺ قائلاً: «أعيّرته بأمِّهِ إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[2]. . . يا لتعاسة الإنسانية وبؤسها!، ويا لحماقتها وخيبة أملها، إذا لم تقم شرعة الله في الأرض!، وإذا لم تشيد أسوار القرآن مرتفعة، إذا أرادت أن تقي نفسها السقوط والارتكاس والغرق في حمأة الشر وأوحال الرذائل، والنهاية المؤلمة المروّعة. . . ولنرجع إلى حديثنا بعد هذه الزفرة من زفرات القلب.

---

(١) قال في مجمع الزوائد ١٩١/٨ رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن إبن مسعود وفيه عمير وهو أبو هارون القرشي متروك.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية ٢٠/٣٠

تحكم الإنسان في صفاته الباطنة:

قلنا إن الصفات الظاهرة لا يتحكم فيها أحد، وإلا كان كل واحد سيختار لجسمه بعض ما ليس فيه، ولكن الصفات الخلقية الباطنة هي التي وكلها الله لنا، لإنها هي المحك الذي يميز بين القوي والضعيف... فإذا لم نستطع أن نتحكم بصفاتنا الباطنة، فأنت تستطيع أن تكظم غيظك وأن تطفىء غضبك، وتحارب جشعك، وتوسع صدرك، وترسخ صبرك، وتلك هي الصفات التي تستحق أن تبوأ بها منزلة عالية سامقة، لذلك بيَّن سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام أننا لن نسع الناس بأموالنا، وإنما نسعهم بأخلاقنا، ومن الأمثال الموحية الهادفة «البشاشة خير من القرى» وهو ما يعبر عنه الناس بقولهم «لاقيني ولا تغديني»... والأمثال الشعبية كثيرة في هذا المضمار.

وإذا كان أحدنا يحب أن يكون خلقه الظاهر حسناً، وكان لا يملك هذا كما قلنا فليحاول أن يحسّن خلقه الذي يملكه ومن الدعاء المأثور «اللهم أحسنت خَلْقي فأحسن خلقي»[1].

وحينما نتحدث عن الأخلاق فلا بد أن ندرك أنه لا فصل بين أخلاق الفرد وأخلاق الجماعة.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالصدق والوفاء والنظافة ، وإخلاص العمل، والدفاع عن الحق، والجرأة فيه، والاقتصاد في المعيشة وعدم التبذير، والشعور بالواجب، وأداء الحق، لا يكفي أن يتصف بها بعض الأفراد، بل لا بد أن تكون

(١) رواه أحمد ١/٤٠٣ ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/٢٠).

صفات أصيلة جوهرية بالأمة، وإلا فكيف سترد بأس عدوها، وتقاوم شأوة الطغيان من داخلها، وتملك زمام أمورها، وتقوِّم أولياء أمورها، لن تستطيع ذلك إذا لم تشع فيها أنوار هذه الأخلاق، وتشيع في جنبات حياتها رائحة هذه الأخلاق الزكية، ومن قصيدة لخالي الشيخ يوسف عبد الرزاق المشهدي رحمه الله تعالى يقول في مطلعها:

إلى العلياء تستبق الشعوب
تجيب إذا أهاب بها مهيب

ثم يقول:

هي الأخلاق حلية كل شعبٍ
وتاج فخاره خلق رحيب
هي الأخلاق ليس لنا حياة
إذا ذهبت ولا عيش يطيب
فيا لهفي على هذه المخازي
وليس لها نطاسيٌّ طبيب

ومما شاع بين الناس هذا القول «روى الحسن - ويعنون به الحسن ابن علي عليه السلام عن أبي الحسن عن جد الحسن: إن أحسن الحسن الخلق الحسن»[1].

الكلمة الثالثة: وطيِّب لي كسبي

لقد تحدثنا عن لقمة الحلال في خماسيات سابقة، وعرفنا أن من نتائج طيب المطعم إجابة الدعوة، ومن نتائج طيبِ المطعم كذلك وتَعَوُّدِ الحلال فراسة يكرم الله بها عبده «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الورع والتقوى ٢٤/٤٢١٧ وقال في الزوائد: هذا إسناد حسن.

وعرفنا أنَّ اللقمة الحرام تحول بين صاحبها وبين أن تجاب دعوته، ذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فطيب الكسب وتحرّي الحلال من خير ما يوفق له العبد ذٰلكم أن الجسم الذي نبت من سحت، النار أولى بـه، «والحلال بيّن والحرام بيّن».

وفي القرآن الكريم والسنّة المطهرة آيات متعددة وأحاديث كثيرة تنهى المسلمين عن أكل المال بالباطل، سـواء كان صـاحب هذا المـال صغيراً أم كبيراً، عالماً أم جاهلاً، يتيماً أم قـادراً على التصرف، **﴿إن الـذين يأكلون أمـوال اليتامى ظلماً إنمـا يأكلون في بـطونهم ناراً وسيصلون سعيـراً﴾** (النساء: ١١٠) **﴿ولا تأكلوا أمـوالكم بينكم بالبـاطل وتـدلوا بهـا إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾** (البقرة: ١٨٨) **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تـأكلوا أموالكم بينكم بـالباطـل إلا أن تكـون تجـارة عن تـراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كـان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليـه ناراً، وكـان ذلك على الله يسيراً﴾** (النسـاء: ٢٥١)... وقد تقـدم لنا كثيـر من الأحاديث الشريفـة التي تأمـر المسلم بتحري الحـلال، وذكـرنـا من قبـل أن الكسب الحرام وبال على الإنسان في جميع أحوالـه، فإن أنفقـه على نفسـه وأهله لا يبارك فيه، وإن تصدق به لا يقبل منه، وإن تركه خلفه ـ بعد موته ـ كـان زاده إلى النار، وقد ذكرناه في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه وأخرجه الإمام أحمد رحمه الله.

الكلمة الرابعة: وقنعني بما رزقتني:

القناعة هي الاجتزاء باليسير، والاكتفاء بما قسم الله لك، يقـال قنِع ـ بكسر النون ـ إذا اكتفى بما رزقه الله وكف نفسه عن سؤال الناس، وقنَع

ـ بفتح النون ـ إذا سأل الناس. قال تعالى: **﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم الله عليها صوافٌ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾** (الحج: ٣٦)[1] فالقانع هو السائل، وهذا من لطائف العربية وخصائصها، وروعتها... حركه في كلمة واحدة تدل على معنى آخر... قنِع اكتفى بما رزقه الله وكف نفسه عن السؤال، وقنَع إذا سأل ولم يكتف ولقد قالوا «العبد حرّ إن قنِع، والحرّ عبد إن قنَع»، فالعبد يكون حراً إذا اقتنع بما عنده، والحر يكون عبداً إذا لم يكتفِ وسأل الناس.

والحقيقة أن القناعة من خير الصفات التي تريح النفس وتروّح عنها، وتذيب الهمّ وتذهبه، ذلك أن الذي اقتنع بما أعطاه الله قد حصّن نفسه بحصن العزة، ورفع لنفسه أسواراً من الشكر والصبر، لا يمكن أن تخترق وفي الحديث «كن قنعاً تكن أشكر الناس»[2] وفي الأثر «ما ذل من قنع، وما عز من طمع» وهذا صحيح لأن الذي يذل المرء سؤال الناس والحاجة إليهم، والوقوف على أعتابهم، وتمريغ الوجه أمامهم، والنيل مما في أيديهم ومن قنع فقد كفى نفسه مؤونة ذلك كله فهو لا يذل أبداً، لقد رضي بما قسم له ربه، فأغنى الله قلبه ومن أغنى الله قلبه لا يذل أبداً، وعلى العكس من هذا من طمع ولم يقنع، فإنه لا يمكن أن يعز أو أن يذوق طعم العزة، قال في القصيدة الزينبية التي مطلعها:

صرمت حبالَكَ بعد وصلك زينب
والدهر فيه تصرم وتقلب

---

(١) المعتر: المعترض للسؤال يقال عرّه يَعُرّه واعتررت بك حاجتي والعَرّ والعُرّ الجرب الذي يعر البدن أي يعترضه (مفردات /٣٢٨).

(٢) قال في كشف الخفاء ٢٦١/١ رواه المستغفري في المسلسلات، وابن عساكر عن الحسن ابن علي.

وإذا طمعت كُسيت ثوب مذلة
فلقد كُسي ثوب المذلة أشعبُ

إن صاحب الطمع يشعر دائماً بفراغ اليد وفراغ العين، وفراغ القلب، فهو دائماً يشعر بالنقص والحاجة،

ولقد روي في الحديث «عليكم بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد»[1] وتفسير هذا أن صاحب الكنز مهما أنفق فإنه يرجع لكنزه ليأخذ منه، لأن الكنز هو المال الكثير. فصاحب الكنز لا يشعر بالحاجة إلى الناس، كذلك الذي أكرمه الله بالقناعة، يكتفي بما عنده ولا يشعر بالحاجة إلى الناس، من هنا كانت القناعة كنزاً لا ينفد ولا ينتهي، فإذا كان الكنز يعف صاحبه عن سؤال الناس، فإن القناعة كذلك يترفع صاحبها ومن أكرمه الله بها عن أن يمد يده إلى أحد، . . هذه القناعة هي التي تجلب العزة. كما جاء في الأثر «ما ذل من قنع وما عز من طمع» فالعزة وهي من أرفع الصفات وأعزها، إنما يذوق طعمها الزكي ويتنسم عرفها الشذي، ويتسربل بسربالها الواقي، من أكرمه الله بالقناعة، فليست العزة بفاخر الثياب، ولا بكثرة المال، ورضي الله عن الإمام الشافعي حيث يقول:

علي ثياب لو تباع وتشترى
بفَلس لكان الفَلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها
نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

فاغننا اللهم عمن أغنيتهم عنا، وارحمنا اللهم يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، وقنعنا اللهم بما رزقتنا.

عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية فلما رأت آمرأته قامت إلى الرحا فوضعتهاوإلى التنور

(١) قال الهيثمي: أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه خالد بن إسماعيل المخزومي وهو متروك (المجمع ١٠/٢٥٦).

فسجرته ثم قالت اللهم ارزقنا فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً قال: فرجع الزوج فقال أصبتم بعدي شيئاً قالت آمرأته نعم من ربنا، قام إلى الرحا فرفعها فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة. وفي رواية قال: فقالت آمرأته اللهم آرزقنا ما نطحن وما نعجن ونخبز فإذا الجفنة ملأى خبزاً والرحا تطحن والتنور ملأى جنوب شواء فجاء زوجها فقال عندكم شيء قالت رزق الله أو قد رزق الله فرفع الرحا فكنس حولها فقال رسول الله ﷺ لو تركها لطحنت إلى يوم القيامة»[١].

وعن أبي العلاء بن الشخير قال حدثني أحد بني سليم ولا أحسبه إلا قد رأى النبي ﷺ أن الله عز وجلّ يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله له، بارك الله فيه ووسعه ومن لم يرضَ لم يبارك له[٢]،

ولقد كثرت الأقوال في القناعة والحث عليها ومدحها ومدح أصحابها قال العجلوني في كشف الخفاء:[٣]

وفي القناعة أحاديث كثيرة: منها ما رواه ابن عمر مرفوعاً قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه، وعن علي في قوله تعالى: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل: ٩٧) قال القناعة، وعن سعيد بن جبير قال: لا نحوجه إلى أحد، وقال بشر بن الحارث لو لم يكن في القنوع إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه، وقال بعض الحكماء انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص، وكان من دعائه ﷺ: اللهم

(١) قال في مجمع الزوائد ٢٥٦/١٠ رواه أحمد والبزار ورواه الطبراني في الأوسط بنحوه ورجالهم رجال الصحيح غير شيخ البزار وشيخ الطبراني وهما ثقتان.
(٢) قال في المجمع ٢٥٧/١٠ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٣) ج ٢ ص ١٥١.

قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه، وللشافعي رضي الله عنه:

عـزيـزُ الـنـفسِ مَـن لـزِمَ الـقَـنـاعـة
ولـم يـكْـشِـف لمـخـلوقٍ قِـنَـاعـه
أفـادتـني الـقـنـاعـةُ كُـلَّ عـزٍ
وأي غـنىً أعـزُّ من الـقـنـاعـة
فَـصَـيِّرْهـا لـنـفـسِـك رأسَ مـال
وَصَـيِّرْهـا مـع الـتـقـوى بِـضـاعـة

وله أيضاً:

أمـتُّ مـطامـعـي فـأرحْـتُ نـفسي
فـإن الـنـفسَ مـا طـمـعـتْ تَهـونُ
وأحـيـيْـتُ الـقُـنـوع وكـان مَـيْـتـاً
فـفـي إحـيـائـه عِـرْضي مـصـونُ
إذا طَـمَـعٌ يَحِـلُّ بـقـلبِ عـبـدٍ
عـلتْـه مـهـانَـةٌ وعَـلاه هُـون

وقال الشاعر:

مـا ذاق طـعـم الـغـنى مـن لا قـنُـوع لـه
ولـن تـرى قـانـعـاً مـا عـاش مـفـتـقـراً
والعُرْف من يأته يَحْمَدْ مغبته
ما ضاع عُرْفٌ وإن أوليتَه حجرا

ولغيره: تسربلتُ أخلاقي قنُوعاً وعِـفـة
فـعـنـدي بـأخـلاقـي كـنـوز مـن الـذهـبْ
فلم أرَ حِصْناً كالقنُوع لأهله
وأن يُجمِل الإنسانُ ما عاش في الطلب

الكلمـة الخامسة: ولا تذهب قلبي إلى شيء صرفته عني:

ما أبلغ هذه الكلمة، وما أعظم أثرها، وما أشد احتياجنا إليها وهي ـ ويعلم الله ـ من أفضـل أدوية النفس، ومن خـير ما يعـالـج بـه القلب، وكثيرون أولئك الـذين تتشعب رغباتهم، وتـطمح نفـوسهم لنيل كثـير من الرغائب والمشتهيات، ويتعبون نفوسهم، ويشغلون قلوبهم، ويلزمهم الهم ليـل نهار، وربمـا طغى حب الشيء عـلى أحـدهم فـأقعـده عن كثـير من واجباته، وحال بينه وبين أداء ما عليـه من حقوق، وأنسـاه ما لا يجـوز أن يُنسى، وأعماه وأصمه، ولكن مـا علم هذا المسكـين أن هذا الشيء الـذي يطمع فيه، وأن هذه الحاجة التي يطمع فيها لن ينالها أبداً، لأن الله تبـارك وتعالى لم يقدرها له.

هذا هو واقعنـا في حياتنـا، فكثيراً مـا تنزعـج نفوسنـا لتحقيق رغبة فيهـا، ونبـذل في تحقيقهـا كـل رجـاء، ولكن تغلق دون تحقيقهـا جميـع الأرجـاء، وتسد علينـا كل نـواحي الفضاء، ومـا ذلك إلا لأنـه لم يجـريها قضاء، وصدق الـرسول ﷺ حـين قال: اللهم مـا حلفت من حلف، وما نذرت من نذر، أو قلت من قول، فمشيئتك بين يدي ذلك كله، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. . .»[1]

وإذا كان هذا واقعاً لا ينكر، وإذا كنا نقر بـه جميعاً لا ينكـره أحد، فإننا ندرك قيمة هـذه الكلمة وعـظمتها «ولا تـذهب قلبي إلى شيء صرفته عني» إنها والله لرحمة عـظيمة من الله، ونعمـة من النعم الباطنـة التي يكرم بها عبده حينـما يصرف قلبه فيحـول بينه وبـين أن ينشغل في شيء لم يُقـدّر له. . . ما أعظمها من راحة أن لا تنشغل فيما لا تقدر عـلى تحصيله وأن يكون

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٨٧.

شغلك فيما قدر لك وقدرت عليه. . . أخي إن الذي لم يقـدر لك لم تقـدر عليه ولن تقدر عليه كذلك، مهما طال عمرك، ومهما كانت قـوتك، ومهـما عظم أمرك.

إن من حفته عناية الله صرف قلبه عن كـل ما لم يقـدر له لأنـه لن يقدر عليه. . . ولكن الإنسان لا يعلم الغيب، ولا يستطيع أن يميز بـين ما قدر له وما لم يقدر وماكتب ومـا لم يكتب، وقد يعتمـد على تـدبيره وحنكتـه ورأيـه فيشتغل بمـا لم يقدره الله لـه، ويتهاون فيـها قُدّر، ولـما كنـا لا نعلم الغيب، فمن الخير أن نتوجه إلى الله تعالى أن يصرف قلوبنـا عن كل شيء لم يقدّر لنا تحقيقه.

هذه الكلمات بحق فيها صلاح الدنيا والآخرة، فالكلمة الأولى وهي مغفـرة الـذنب هي منتهى السعـادة ولن تكـون مغفـرة الـرب إلا إذا كـان رضوان الرب سبحانه وفي الكلمة الثانية وهي سعة الخلق، إرضـاء الناس ورضاهم - وإن كان ذلك غاية لا تدرك دائماً. . . في الكلمة الأولى صلاح الآخرة، وفي الكلمة الثانية صلاح الدنيا.

وفي الكلمـة الثالثـة وهي طيب الكسب طهـارة الأعضـاء بتجنيبهـا الحرام. . . وفي الكلمة الرابعة القناعة والشعور بطعم الغنى، وفي الكلمـة الخامسة الراحة من كل ما لا طائل تحته ولا خير فيـه ولا فائـدة وراءه، فما أعظمها من كلمات وأعظم بها من وصايا. . .

فنضرع لك اللهم ربنا متوجهين متوسلين أن تمنحنا الخير وأن تجيب دعواتنا، وما أجدرنا أن يضرع إلى الله كل منا بهذا الـدعاء الـذي شاء الله أن نختم به هذه الخماسيات، وإنه لفأل خير إن شاء الله، ونرجو أن تكـون علامة توفيق كذلك ليتوجـه كل منـا إلى الله بهذا الـدعاء «اللهم اغفـر لي

ذنبي، ووسع لي في خلقي، وطيب لي كسبي، وقنعني بما رزقتني ولا تذهب قلبي إلى شيء صرفته عني».

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،

قبل هذا الدعاء وبعده وأكرمنا اللهم باتباع سنته، واحشرنا اللهم في زمرته، واجعلنا اللهم ممن يردون عليه الحوض، فيشربون من حوضه وينعمون بروضه، ولك الحمد ربنا في الأولى والآخرة ولك الفضل في كل شيء، وأنت اللهم ربنا ذو الفضل العظيم. . . والحمد لله ربّ العالمين.

العاشر من رجب الفرد عام سبعة وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام. الموافق العاشر من آذار سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد.

الفهارس

١ - فهرس الأحاديث النبوية

٢ - المراجع .

٣ - فهرس الموضوعات .

حرف الألف:

حرف الحاء:

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطه

حرف الظه

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

المراجع

١ الأذكار النووية ـ حلية الأبـرار وشعار الأخيـار في تلخيص الدعـوات والأذكـار المستحبة في الليـل والنهار ـ لـلإمام محيي الـدين أبي زكريـا يحيى بن شرف النـووي ـ تحقيق عبد القـادر الأرنـاؤوط ـ منشـورات دار الملاح للطباعة والنشر سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.

٢ الإصـابة في تمييـز الصحابـة ـ الإمام أحمـد بن علي بن محمـد بن علي الكناني (ابن حجر العسقلاني) ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.

٣ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ لأبي عبـدالله بن أبي بكر الشهـير بابن قيم الجوزية ـ تحقيق محمد سيـد الكيلاني شركـة مكتبة ومـطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

٤ إيقـاظ الهمم في شرح الحكم العطائيـة ـ للعارف أحمـد بن محمـد بن عجيبة الحسني ـ الطبعة الأولى ـ ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي.

٥ بدائع الفوائد ـ للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المشتهر بـابن قيم الجوزية ـ إدارة الطباعة المنبرية.

٦ البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ إبن كثير ـ مكتبة المعـارف بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦.

٧ التبيان في آداب حملة القرآن للإمام يحيى بن شرف النووي ـ مضمن في الجزء العاشر من المجموع شرح المهذب ـ مطبعة الإمام بمصر.

٨ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ـ مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة سنة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

٩ رسائل الرافعي جمع وترتيب محمود أبو رية ط. عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٦٩هـ.

١٠ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ـ إدارة الطباعة المنيرية.

١١ سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ـ شرح العلامة الصغاني على متن بلوغ المرام للحافظ إبن حجر العسقلاني. مطبعة الإستقامة بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ.

١٢ سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي ـ مطابع الفجر الحديثة ط ١ سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م تعليق الدعاس.

١٣ سنن النسائي ـ بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٤ السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٥٥م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

١٥ شرح صحيح مسلم ـ للنووي ـ سنة ١٣٤٩هـ.

١٦ صحيح البخاري ـ للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق د. مصطفى ذيب البغا ـ دار القلم الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٧ صحيح مسلم ـ للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي در إحياء التراث العربي.

١٨ صفة الصفوة ـ جمال الدين أبي الفرج إبن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ـ دار الوعي بحلب ط سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١٩ عون المعبود شرح سنن أبي داود ـ للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط ٢ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٠ غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ـ لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي ـ تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن شريف، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٢١ فتح الباري بشرح البخاري ـ الحافظ شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني إبن حجر ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م.

٢٢ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ـ مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني أحمد بن عبد الرحمن البنا. ط ١ سنة ١٣٥٥هـ.

٢٣ فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر. ط ١ سنة ١٣٥٦هـ ـ سنة ١٩٣٨م.

٢٤ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر على ألسنة الناس ـ الشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني ـ تعليق أحمد القلاش ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب.

٢٥ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ للزمخشري الطبعة الأولى مطبعة الإستقامة بالقاهرة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

٢٦ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - علاء الدين المتقي بن حسام الهندي البرهان - مكتبة التراث الإسلامي - حلب الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٢٧ لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم إبن منظور. دار الفكر بيروت.

٢٨ اللمع - لأبي نصر السرّاج الطوسي - تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٢٩ الله - القصد المجرد - لابن عطاء الله السكندري.

٣٠ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - مكتبة القدسي سنة ١٣٥٣هـ.

٣١ مدارج السالكين.

٣٢ المستدرك على الصحيحين - للحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري - مكتب المطبوعات الإسلامية.

٣٣ مسند الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٣٤ المفردات في غريب القرآن - لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٣٥ موطأ مالك - بشرح أبي عبدالله محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني - تحقيق إبراهيم عطوة عوض شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٣٦ نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند أحمد -

الشيخ محمد السفاريني الحنبلي ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠هـ ـ المكتب الإسلامي دمشق.
النهاية في غريب الحديث والأثر ـ الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري إبن الأثير تحقيق محمود محمد الطناحي ـ دار إحياء التراث.

فهرس الموضوعات

من السنة الشريفة: